

٨٢

الدخائر

سيرة صلاح الدين

أو

أنوار السلطنة والحجاسن النبوية

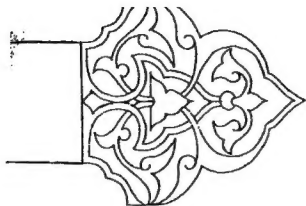
بهاء الدين بن شداد

تحقيق

الدكتور محمد الدين الشيباني



إهداء ٢٠٠٧
الدكتور / عاطف رمضان دياب
جمهورية مصر العربية



نَسَائِرُ صَلَاحِ الدِّينِ

أو

النَّوَادِرُ لِسُلْطَانِيَّةِ وَلِمَاجِسْتَرِ الْيُوسُفِيَّةِ

بِهَاءِ الدِّينِ بْنِ شَدَادٍ

تَحْقِيقُ

الدُّرُوحُ بْنُ الدِّينِ الشَّيْخِ



الضخائر

رئيس مجلس الإدارة

أنيس المقتضى

أمين عام النشر

محمد السيد عيد

الإشراف العام

فكرى النقاش

رئيس التحرير

أ.د. محمود فهمى حجازى

نائب رئيس التحرير

أ.د. عبد الحكيم راضى

مدير التحرير

د. محمود فؤاد

سكرتير التحرير

رأفت زريق الشرقاوى

مستشارو التحرير

أ.د. إبراهيم عبد الرحمن

أ.د. السباعى محمد السباعى

أ.د. حسنين محمد ربيع

أ.د. حسين نصار

أ.د. عبد الله التطاوى

أ.د. عبده على الراجحى

أ.د. محمد حمدى إبراهيم

أ.د. محمد عونى عبد الرؤوف

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى
١٦ اش امين سامى قصر العبنى - القاهرة
رقم بريدى ١٢٥٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

عزيزى القارئ!.. من المسلم به أن الجدل سيظل قائماً بين الحاضر والماضى، كما سيستمر في المستقبل بين الحاضر الحالى - الذي سيصبح ماضياً، أو تراثاً - والمستقبل الذى سيتحول إلى حاضر (ينتهى إلى أن يكون ماضياً، وهكذا) نعم، إن كل عصر يجادل تراثه، أى ماضيه الذى وُجد قبله.. قد يرفضه كاملاً، وقد يقبله كاملاً، أو يأخذ منه ويدع، بمعنى : ينتقى ويختار، ويستبعد وينفى، والتراث هو هو، ثابت لا يتلطح، ولكننا نحن الذين نتغير قيمهم، أو تبقى ثابتة على ما كانت، أو تتعدل، ليصبح ما كان مقبولاً في الماضى مرفوضاً، أو يبقى مقبولا كما هو، أو يوضع على مائدة الحوار والجدل.

وهكذا ترتفع أسهم التراث، أو أسهم أجزاء منه، فى بعض الفترات، وتخفض أسهم أجزاء أخرى، على تفاوت فى النظر، فما يعجب جماعة فى عصر من العصور، قد ترفضه جماعة أخرى، وما ترفضه جماعة قد يعجب غيرها.. وهكذا.

على أن من عناصر التراث، أو المواقف الواردة فيه، ما قد يصعب الخلاف حوله، وإن لم يكن مستحيلاً، وهى مواقف كثيرة ومتنوعة، منها مواقف التمسك بالقيم والمثل العليا، ومنها مواقف الفعل الإيجابى والحسم العملى. من النوع الأول : سخاء حاتم، إمانة السُّمَويل ووفاءه حين ضحى بولده راقضاً التفريط فى أمانته، عفو الرسول صلى الله عليه وسلم عن كفار مكة بعد أن فعلوا به ما فعلوا، عدالة عمر بن الخطاب، حين انتصف للشاب المصرى المسيحى واقتص له من ابن واليها عمرو بن العاص، ثم حين أصر على إقامة حد الخمر على ولده فى العلن، بعد رفضه المجاملة بإقامة

هذا الحد في الخفاء، زهدُ عمر بن عبد العزيز، ثبات أحمد بن حنبل على رأيه ومعتقده في وجه ما تعرض له من ترغيب وتهريب وصل إلى حد التعذيب والضرب.

أما النوع الثاني، أعني مواقف الفعل الإيجابي والحسم العملي، فممنها : موقف أبي بكر - رضي الله عنه - وشنته أمام حركة الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. غضب الرشيد وشدة حميته إزاء تطاول (تقفور) امبراطور الروم في رسالته إلى الرشيد، إذ كان رد الخليفة على الإمبراطور المغرور : (إن الجواب ما تراه لا ما تسمعه) وكان ما رآه جيشاً كاسحاً يقوده الخليفة بنفسه لتأديب ذلك الذي نسى نفسه وغرته مظاهر قوته. شجاعة المعتصم وسرعة نجدته حين أقسم - كما تقول الروايات - أن لا يكمل ارتشاف كأس كانت في يده إلا بعد أن يستنقذ المرأة العربية التي سبها الروم، لقد بلغه أنها صاحت : وامعتصماه، فرمى بالكأس مجيئاً : لبيك، لبيك! وقد خوّفه المنجّمون عواقب الخروج للحرب وقتها، فكانت إجابته ما صاغه أبو تمام بعد الانتصار :

* السيف أصدق أنباء من الكتب *

نعم، كان السيف أصدق من كتب المنجمين، لأن المعتصم خرج بجيشه فاستردّ مدينة (بِطْرَة) التي كان قد استولى عليها الروم حيث أسروا المرأة العربية التي هتفت باسمه، ثم زاد على ذلك تخريب مدينة (عمورية) وإحراقها، انتقاماً لتخريب المدينة العربية وترويع أهلها.

ومن تلك المواقف استماتة سيف الدولة الحمداني وهو يقاوم بإمكاناته المحدودة جحافل الروم ويحمي حدود الدولة الإسلامية بامتداد ولايته في حلب.

ومنها استبسال السلطان المظفر سيف الدين قطز والملك الظاهر ركن الدين بيبرس في مجابهة المغول، وهزيمتهم لأول مرة، دفاعاً عن مصر وانتقاماً لما ألحقوه بالعالم الإسلامي.

عزيزي القارئ.. لقد قلت إن في تراثنا، أو لأعلام تراثنا من المواقف العظيمة ما لا

يمكن الخلاف حوله، ولا شك أن السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي هو واحد من أولئك الأعلام الذين سجلوا من المواقف على اختلاف أنواعها - التمسك بالمبدأ والمثل الأعلى، الحزم والشجاعة، الحكمة العملية والسياسة، الرحمة والإنسانية - ما لا يمكن الخلاف حوله، خاصة وقد سطر بسيفه وحكمته الفصول الأخيرة من ملحمة الانتصار على الصليبيين وبحرهم على الأرض العربية المسلمة.

وعلى نحو ما كانت انتصارات الرشيد والمعتصم وسيف الدولة ملهمة لشعرائهم وهم يسجلون انتصاراتهم، كذلك كانت انتصارات صلاح الدين على الصليبيين، واسترداده بلاد العروبة والإسلام وحصونها بلداً، وحصناً حصناً ملهمة للشعراء، والأدباء عموماً، في مديحهم له، وتسجيل انتصاراته .

فالعماد الأصفهاني يمدحه ويهنئه بافتتاح حمص وبعلبك ومنبج وحصن عزان، كما يبعث إليه أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني بقصيدة يهنئه فيها بانتصاره في موقعة مرج عيون، كما يهنئه ابن الساعاتي بفتح طبرية، وهو الفتح الذي سبق فتح القدس مباشرة.

أما هذا الفتح الأخير فقد كان على إثر انتصار صلاح الدين في معركة حطين. وكما كانت تلك المعركة هي قمة انتصاراته، فقد بلغ الشعر في وصفها وتهنئة السلطان بالفتح، ووصف الفرحة التي غمرت المسلمين ذروته .

ومن الطريف أن يتبأ أحد الشعراء بفتح القدس، وأن يعين لذلك تاريخاً، ذلك ما فعله الشاعر الشيخ محيي الدين بن زكي الدين قاضي دمشق في قصيدة له يهنئ فيها السلطان باستيلائه على حلب، فقال :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

ويشاء الله أن تصدق نبوءة الشاعر ويتحقق فتح القدس في الشهر المذكور. قد يكون الأمر نبوءة، وقد يكون مجرد اتفاق أتت إليه ضرورة القافية البائية التي أحكمت قبضتها على شاعر العصر الأيوبي بفعل هيمنة بائية أبي تمام في تهنئة

المعتصم بفتح (عَمُورِيَّة)، ولكن المؤكد أن تتابع انتصارات صلاح الدين كان وراء ثقة الشاعر باقتراب فتح القدس، لينقلب الأمر إلى نبوءة صائقة كما سبق القول، إذ فتحت القدس فعلاً، وتوافد الشعراء على السلطان بالتهنئة .

من هؤلاء المهنتين الشريف محمد بن أسعد بن علي بن معمر الطبى المعروف بالجوانى المصرى، ومطلع قصيدته :

أترى مناماً ما يعينى أبصرُ القدسُ يفتحُ والفرنجُ تكسرُ
قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذى وعدَ الرسولُ فسبحوا واستغفروا
ومنهم القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك، ومطلع قصيدته :

أست أدري بئى فتح تهنأ يا منيل الإسلام ما قد تعنى
ومنهم شاعر مصر والشام فى زمانه أبو الحسن علي بن محمد الساعاتى الذى بدأ بقوله :

أعياء؟ وقد عاييتُم الآية العظمى لاية حال تنخر النثر والنظما؟
وقال الرشيد بن بدر النابلسى :

هذا الذى كانت الآمال تنتظر فليوف لله أقوام إذا نذروا
بمثل ذا الفتح لا، والله، ما حكيت فى سالف الدهر أخبار ولا سير
ويبدو أنه لروعة هذا الفتح وما بدا من غرابته، كان ماذهب إليه أبو علي الحسن ابن علي الجوينى من قوله فى مطلع قصيدته :

جند السماء لهذا الملك أموان من شك فيه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما تحكيه فى زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمان
وركز العماد الأصفهاني على ما فعل جنود صلاح الدين بالصليبيين، فقال :

حطمت على حطين قسراً ملوكهم ولم تثق من أجناس كفرهم جنسا
بطون نذاب الأرض صارت قبورهم ولم ترض أرض أن تكون لهم رما

بسيطة تقرضها طبيعة لغة الألب، ودواعى التشابه؛ فالتساؤل الذى جاء فى مطلع قصيدة الجَوَانِي المِصرى : (أترى مناما ما بعينى أبصر؟) وزعمه بأن فتح القدس هو المقصود فى سورة الفتح، والحيرة التى يعلن عنها ابن سناء الملك فى مطلعهِ : (لست أدرى بأى فتح تُهَنَّا)، وزعم الجوينى بأن لصالح الدين أعوانا من جنود السبهاء، أى من الملائكة.. كلها حيل مألوفة فى لغة الألب ومسالك الشعراء للولوج إلى أغراضهم، باستثناء ذلك كانت معارك لصالح الدين ومواقفه فى واقعها نماذج ومثالا عليها لا تحتاج إلى إضافة أو تجميل .

ولهذا تحولت تلك الانتصارات والمواقف إلى نماذج يُقاس إليها غيرها من انتصارات الأبطال والقواد اللاحقين فى حسن سيرتهم وتمسكهم بأخلاق الفروسية النبيلة، وعندما قال شوقي مخاطبا الزعيم التركى مصطفى كمال، مهنتاً له ببعض انتصاراته التى أسفرت عن صلح مشرف دون مساس بمقدسات الطرف الآخر :

الله أكبر، كم فى الفتح من عجب يا خالداً الترك جند خالدا العرب
صلح عزيز على حرب مظفرةٍ فالسيف فى غمده والحق فى الثعصب
حنوت حرب الصلاحيين فى زمنٍ فيه القتال بلا شرع ولا أدب
لم ياح سيفك فحشاء ولا هتك قتاك من حرمة الرهبان والصليب

فإنه فى قوله هذا كان يستلهم نوعين من تراث أمته :

أحدهما تراثها الألبى، إذ كان فى ذاكرته باثنية أبى تمام المشهورة فى مدح المعتصم وتهنئته بفتح عمورية :

السيف أصبق إنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

كما كان فى ذاكرته أيضا باثنية الشيخ محيى الدين قاضى لىمشق فى مدح لصالح

الدين والتنبؤ بفتح القدس - والتي منها :

وفتحكم حلباً بالسيف فى صفر قضى لكم بافتتاح القدس فى رجب

الرحمن البنا، وهناك مسرحية تحمل اسم : الناصر صلاح الدين، وإن تكن نسبتها غير واضحة (انظر معجم المسرحيات العربية والمغربية ١٨٤٨ - ١٩٧٥ يوسف أسعد داغر) هذا إلى مسرحية النسر الأحمر لعبد الرحمن الشرقاوي ، والتي هي في الحقيقة مسرحيتان معاً.

عزيزي القارئ . الكتاب الذي نقيم لك في هذه الحلقة من النخائر - وهو كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)، أو (سيرة صلاح الدين) لابن شداد - يتناول فترة من التاريخ العربي الإسلامي عزيزة علينا جميعاً، هي فترة حكم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، إذ تمثلت فيها حلقة من حلقات الكفاح المشرف الكُلَّ بالناصر، ضد إحدى موجات المد الاستعماري الذي دأبت أوربا على توجيهها إلى العالم الإسلامي، وكانت في تلك المرة موجّهة باسم الدين والدين منها براء. من هذا السبب - أعني الفترة التاريخية التي يغطيها الكتاب - تتبع أهميته، كما تتبع من سببين آخرين، أحدهما مكمل للسبب الأول، وهو انحصار الكتاب غالباً في سيرة صلاح الدين نفسه، أما السبب الآخر فيرجع إلي عصر مؤلفه وعلاقته بموضوع الكتاب وهو سيرة صلاح الدين، إذ كان المؤلف معاصراً لصلاح الدين، ليس هذا فحسب وإنما كان من رجاله الملازمين له في حُلّه وتُرحاله، ومعاركه، وهذه أمور لها وزنها في حساب علماء التاريخ، لما لها من دور في ترجيح صدق الخبر والثقة بصحته.

لم أحديثك - عزيزي القارئ - عن الكتاب كمؤرخ، ليس فقط لأنني لا أملك أدوات هذا الحثيث، ولا لأن أساذاً مؤرخاً كبيراً سيتولى تقييمه، ولكن لأنني أحببت تنبيهك إلى دوران الكتاب حول شخصية فريدة، سواء في تصرفاتها البسيطة أو تعاملاتها الرسمية في الحرب والسياسة، شخصية مجاهد مسلم حقيقي، رائع في كل ما يصدر عنه، فكان طبيعياً أن يكون له دوره البارز في صُنْع التاريخ، وهو الدور الذي أفضى - على نحو طبيعي - إلى إسهامه في صُنْع الأدب وتوجيهه، فكان لزاماً أن يقف أمامه كل من التاريخ والأدب، كما كان واجباً، وقد أصدرت (للنخائر) سيرته

كما حقق اثني عشر كتاباً منها :

- إغاثة الأمة بكشف الغمة.

- اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء، والكتابان للمقرئ

ومن محققاته الكتاب الذي تقدمه اليوم لقراء سلسلة النخائر، وهو كتاب :

- النواير السلطانية والمحاسن اليوسفية - أو سيرة صلاح الدين - لابن شداد

هذا إلى جانب العديد من المقالات والبحوث بالعربية والانجليزية نشرت في عدد من المجلات المختصة.

أما مقدم هذه الحلقة فهو الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب القاهرة.

حصل سيادته على الدكتوراه في تاريخ العصور الوسطى من جامعة لندن سنة ١٩٦٩، وشغل العديد من المراكز الجامعية القيادية، منها : عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة، نائب رئيس جامعة القاهرة.

يشغل حالياً عدداً غير قليل من المناصب العلمية الرفيعة، منها : رئيس لجنة قطاع الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات، مدير فرع الجامعة العربية المفتوحة بمصر. هذا إلى جانب عضويته في الكثير من اللجان والمؤتمرات العلمية في مصر وخارجها.

حصل سيادته على جائزة جامعة القاهرة التقديرية في مجال العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٩. كما حصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠١.

للأستاذ الدكتور حسنين ربيع أعمال كثيرة بالعربية والانجليزية يصعب إيراد أسمائها جميعاً في هذه العجالة، منها ما ألقى في مؤتمرات علمية، ومنها ما نشر بالدراسات المختصة وبوائر المعارف والموسوعات في مصر والخارج. ومنها الكتب تأليفاً وتحقيقاً.

مقدمة

كتاب التواثر السلطانية والمحاسن اليوسفية

يقلم أ.د. حسنين محمد ربيع

استاذ تاريخ المصور والوسطى

نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق

مؤلف الكتاب

هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد . ولد في الموصل سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م ، وتوفي في حلب سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٩ م ، وعاش ثلاثاً وتسعين سنة . وتحديثاً كتب الترجم أنه أخذ العلم عن شيوخ وعلماء الموصل والبصرة وغيرهما ، ثم رحل إلى بغداد ونزل معيذا بالمدرسة النظامية لمدة أربع سنوات ، ثم أصبح مدرسا بمدرسة القاضى كمال الدين بن الشهرزوى في الموصل عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م واشتهر ابن شداد بالحكمة والاتزان والرأى السديد ، فاختاره أمراء الموصل سفيرا لهم لدى بلاط الخليفة العباسى في بغداد وإلى أمراء المسلمين .

ودخل القاضى بهاء الدين بن شداد في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ، عندما ولاه قضاء السكر والحكم بالنقض الشريف . ومن هذا التاريخ لم يفارق ابن شداد صلاح الدين ساعة من ليل أو نهار حتى حضر وفاته سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م .

وقسم بهاء الدين كتابه إلى قسمين :

الأول : فى ذكر مواد صلاح الدين ومنشئه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه الشخصية
وشمائله للراحة .

الثانى : فى بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفترحاته فى تواريخها إلى آخر حياته.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن شداد اعتمد عند تأريخه للحوادث قبل اتصاله
بخدمة السلطان صلاح الدين على كتابات وأخبار كتبها ورواها من يتق به. أما
الحوادث اللاحقة لشهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ فاعتمد على مشاهدته الشخصية
وملازمته للسلطان ، فهو شاهد عيان لهذه الحقبة التاريخية الهامة فى عصر الحروب
الصليبية . وذلك يعتبر كتاب ابن شداد أوثق المصادر التاريخية لحياة السلطان صلاح
الدين وجهاده ضد الصليبيين ، واعتمد عليه كل المؤرخين اللاحقين من عرب وأوربيين
عند الكتابة عن حياة السلطان المجاهد صلاح الدين وخاصة الفترة الأخيرة من حياته (
السنوات ٥٨٤ - ٥٨٩ هـ) وهى فترة حافلة بالجهاد ضد الصليبيين .

يضاف إلى ذلك أن كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لابن شداد
يحتوى على معلومات تفصيلية دقيقة للحوادث التاريخية المعاصرة، وللمعارك الحربية
والأحداث القتال والحرب فى البر والبحر التى استعملها المسلمون والصليبيون مما لا
نجد فى أى مصدر تاريخى آخر . وألقى كتاب ابن شداد الأضواء على كثير من
المصطلحات الحربية والأوضاع الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لدى
المسلمين والصليبيين. كما يحتوى الكتاب على مجموعة نادرة من الوثائق التاريخية
والمكتسبات المتبدلة بين السلطان صلاح الدين وإمبراطور الدولة البيزنطية .
أندرونيقوس الأول وخليفته إسحاق الثانى تجلوس . فقد كان التحالف مع صلاح الدين
ركن الزاوية فى سياسة بيزنطة الخارجية فيما بين سنتى ١١٨٥ م ، ١١٩٢ م . وفيهم
من المراسلات والمكتاتبات التى لوردها ابن شداد فى كتابه أن الدولة البيزنطية اعتمدت

على قوة صلاح الدين الوقوف في وجه أخطار النورمان والبيازنة والجنوية وإمبراطور ألمانيا والبابا . كما ذكر ابن شداد أن الخطبة الإسلامية والدعوة الإسلامية العباسية أقيمتا في القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية ، وأن رسول صلاح الدين استقبل في البلاط البيزنطي باحترام عظيم وإكرام زائد . ولحقى كتاب ابن شداد أيضا على عدد من الرسائل المتبادلة بين السلطان صلاح الدين وبعض أمراء الصليبيين .

ويحتل كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية مكانة هامة بين مصادر تاريخ الحروب الصليبية ويخلصه الحوادث التاريخية الواقعة بين سنتي ٥٨٣ هـ - ٥٨٩ هـ / ١١٨٧ - ١١٩٣ م .

فقد أعلن صلاح الدين للجهاد الإسلامي عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وجامته العساكر الإسلامية من كل مكان في دولته الكبيرة ، من مصر والشام والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها . واجتمعت العساكر الإسلامية بقيادة صلاح الدين عند رأس الماء - إلى الشمال الغربي من حوران - وأغار على طبرية . وقرب (صفورية) دارت معركة رهبة مع الصليبيين وهلك عدد كبير منهم . وفي صباح يوم السبت الموافق ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م التقى صلاح الدين بجيوش الصليبيين مجمعة عند (حرون حطين) واشتد الضرب والطعن ، وثبت المسلمون واستماتوا في القتال ، وشددوا هجماتهم على الأعداء ، وكانت هزيمة ساحقة للصليبيين ذكرها ابن شداد في كتبه تحت عنوان (وقعة حطين المباركة على المؤمنين) وأسر المسلمون جاي لوزجان ملك بيت المقدس ، وأرسل صاحب حصن الكرك وغيرهما من كبار الصليبيين . وأصبح الصليبيون بعد هزيمتهم في حطين تحت رحمة صلاح الدين الذي أخذ يفتح البلاد والمدن الصليبية الهامة واحدة بعد أخرى فتحا متواصلا . وبدلا من أن يتجه إلى بيت المقدس ليستولى عليه استيلاء أمنا سهلا ، إذ به يتجه صوب عكا أولا ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر عبقرية صلاح الدين الحربية وبعد نظره ، إذ اختار أن يبدأ أولا بالاستيلاء على المدن الصليبية

الساحلية ، ليجرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالغرب الأوربي قبل أن يتجه إلى القدس . فاستولى صلاح الدين على قلعة طبرية وتبنين وبيروت وعسقلان .

ثم توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس ، وعرض على الصليبيين تسليم المدينة بالشروط التي استعملت بها بقية المدن الصليبية ، ولكنهم رفضوا ذلك العرض أول الأمر . وفي الوقت الذي اشتد فيه الهجوم على القدس (رجب ٥٨٣ هـ / سبتمبر ١١٨٧ م) ، كانت رقعة الخلاف تتسع داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك ، حتى إن الأرثوذكس للشرقيين أعلنوا أنهم يفضلون الحكم الإسلامي على سيطرة الكاثوليك الغربيين .

وأخيرا أدرك الصليبيون استحالة المقاومة ، فعرضوا تسليم القدس لصلاح الدين . وكانت شروطه كريمة للغاية ؛ فقد فرض على الصليبيين أن يدفعوا فدية عن أنفسهم في مدى أربعين يوما: عشرة دنائير للرجل ، وخمسة للمرأة ، ودينارا واحدا للطفل .

وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧ م ، وهي ذكرى الإسراء والمعراج ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وأظهر تسامحا كبيرا تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية . وأضاف للقاضي ابن شداد في كتابه أن السلطان صلاح الدين أقام يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء حتى لم يبق له من ذلك المال شيء . وأمر بانتشار عساكره في المدينة المقصدة لمنع أي اعتداء قد يقع على مسيحيي القدس أو الصليبيين المستسلمين . وهكذا استرد صلاح الدين بيت المقدس الذي ذكره الله تعالى في كتابه ، ونص عليه في خطابه ، فقال تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى " .

ولم يبق في حوزة الصليبيين بعد استرداد بيت المقدس سوى صور وطرابلس وأنطاكية ، فتوجه صلاح الدين لحصار صور ، غير أنها امتنعت عليه بسبب تقاطر الصليبيين عليها من سائر المدن التي فتحها صلاح الدين ، فضلا عن المعاهدات والإمدادات التي جلبتها الأساطيل الإيطالية إلى المدينة. وتوجه صلاح الدين إلى الشمال ، فاستولى على أنطربوس وجبله واللائقية ، ووقع هدنة مع أمير طرابلس مقابل إطلاق سراح المسلمين الذين في أسره. واستولت جيوش صلاح الدين على الكرك والشوبك وصفد وكوكب . وأورد ابن شداد في كتابه معلومات كثيرة عن انتصارات صلاح الدين في تلك الفترة لا نجدما في أى مصدر تاريخي آخر .

وفى أوروبا ، اعتبر الصليبيون أن انتصارات صلاح الدين كارثة شديدة الخطورة ، وتعلقت أرمستقراطيتهم بالأمل في استرداد ما كان لهم من سلطان في الشرق . ولترك ملوك وأمرام أوروبا خطورة انتصارات صلاح الدين فغرضوا ضريبة للاستعانة بها في سد نفقات الحرب ضد المسلمين ، عرفت باسم (عشور صلاح الدين) للإعداد لحملة صليبية ثالثة . وقاد هذه الحملة الصليبية الثالثة من أندر ملوك أوروبا وقتذاك ؛ وهم فردريك بربروسا ملك الألمان كما سماه ابن شداد ، وقلب أوغسطس ملك الفرنسيين (فرنسا) الذي وصفه ابن شداد في كتابه بأنه " كان عظيما عندهم ، مقما محترما من كبار ملوكهم ، ينفذ إليه الموجودون في العسكر بأسرهم ، بحيث إذا حضر حكم على الجميع " ، وريتشارد قلب الأسد ملك الانكثار (إنجلترا) . وأسهب القاضي ابن شداد - وهو شاهد عيان - عند حديثه عن وقلع وحوادث الحملة الصليبية الثالثة ، وأورد معلومات وتفصيل لا نجدما في أى مصدر آخر من المصادر التاريخية المعاصرة.

وكانت بداية النهاية لهذه الحملة للصليبية هي موت المجارب الصليبي القديم فردريك بربروسا ملك الألمان غرقا في نهر صغير في قبليقيه ، وهو في طريقه من طرسموس صوب أنطاكية . ويعد معارك وحوادث عديدة تحدث عنها ابن شداد

شرح فيلب أوغسطس في العودة إلى فرنسا متعللاً بسوء صحته ، تاركاً ريتشارد ومن معه من الصليبيين يوجهون للقوات الإسلامية للمجاهدة بقيادة صلاح الدين .

وعندما أصيب ريتشارد بمرض الحمى في يافا ، أبت شهامة صلاح الدين إلا أن يمدّه بما يحتاج إليه من تلج ودواء وفلكهة . وتدهورت صحة ريتشارد تدهوراً ملحوظاً . وتحت تأثير الرغبة الملحة في العودة إلى بلاده بعد أن علم بثورة أخيه حنّا ضده ، أرسل إلى صلاح الدين في طلب الصلح . ونكر القاضي ابن شداد في كتابه معلومات كثيرة عن المفاوضات التي جرت بين صلاح الدين وريتشارد بواسطة رجالهما . وكان صلاح الدين ، الذي لم يلتق أبداً بملك إنجلترا ريتشارد ، يفوض من مركز القوة نظراً للإمدادات العسكرية الكبيرة التي وصلته في تلك الفترة من أنحاء دولته الكبيرة .

واضطر ريتشارد - أمام صلابة القائد الملهم صلاح الدين - إلى قبول الصلح ، وتنازل عن بعض شروطه . فتم عقد صلح الرملة في ٢٢ شعبان ٥٨٨ هـ / ٢ سبتمبر ١١٩٢ م . ونص الصلح على أن تكون مدته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، وأن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف . أما الأماكن المقدسة فقد نصت الاتفاقية على أن يكون للصليبيين فقط حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبهم بأية ضريبة مقابل ذلك .

وهكذا فضلت الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق الهدف الذي قامت من أجله وهو استرداد بيت المقدس من المسلمين .

والحقيقة أن السلطان صلاح الدين لم يقدم على مصالحة الصليبيين مختاراً ، وإنما اضطرنه الظروف إلى ذلك اضطراراً . ولو سارت الأمور على ما يشتهي لاستمر في الجهاد حتى تتحقق غايته الكبرى ، وهي تطهير بلاد الشام من الصليبيين . ويتقسم القاضي بهاء الدين ابن شداد - وهو رفيق صلاح الدين وجليسه - على أن

صلاح الدين لم يرغب في الصلح ، ولكنه رأى المصلحة في الصلح لئلا يمس حياة المسلمين ، ومظاهرهم بالمخالفة ، وكان مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه انتقلت وفاته بعيد الصلح ، فلو كان تفق ذلك (أى وفاة صلاح الدين) في أثناء الوقعة لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقاً ومساعدة له .

وفى فجر يوم الأربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ / أولئل مارس ١١٩٣ م توفى السلطان صلاح الدين في دمشق بعد مرض قصير . ويرى القاضي ابن شداد في كتابه مدى حزن المسلمين لوفاة صلاح الدين . فقد توفى - رحمه الله - في يوم " لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يطعمها إلا الله تعالى " .

رحم الله تعالى السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولزله منازل الصديقين والشهداء والصالحين ، فقد كان حبه للجهاد في صورة لا تعرف المال . فقال عنه أيضاً القاضي ابن شداد : " ولقد كان الجهاد وجهه ولشغفه به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آتاه ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ماله ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح بمنة ويسرة " .

أما مكثفة السلطان صلاح الدين في تاريخ الجهاد الإسلامي ، استظل - بإذن الله - عظمة خالدة أبد الدهر حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها .

ولا شك أن كتاب (الخوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) للقاضي بهاء الدين بن شداد يعتبر لوثقاً للمصادر التاريخية لحياة صلاح الدين وجهاده ضد الصليبيين .

أ.د حسين محمد ربيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

مؤلف الكتاب هو بهاء الدين أبو الحسن يوسف بن زافع بن تميم شهر بابن شداد ، لأن شداد جده لأمه ، وقد توفى أبوه وهو طفل صغير ، فربى في كنف أخواله بنى شداد ، ولهذا نسب إليهم .

ولد في الواصل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) وتوفى بجلب سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٩ م) ، فهو قد عثر وعاش ثلاثاً وتسعين سنة أى قرابة قرن من الزمان .

تلقى علومه الأولى في الواصل ، حفظ القرآن وقرأ على شيوخ الواصل كتباً في علوم الحديث والتفسير والفقه والقراءات والأدب ، وكانت للدراسة النظامية في بغداد تجذب إليها وتفتك طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، فارتحل إليها مؤرخنا ابن شداد ، وترتب فيها ميذاً بعد وصوله إليها بقليل ، وكان ذلك في سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) أى وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وظل يشغل هذا القصب نحو أربع سنوات حيث عاد إلى بلده للوصل ، وعين هناك مدرساً بالمدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري ، ولازم - كما يقول ابن خلكان - « الاشتغال واعتنع به جماعة » ، وعلت مكانته وارتفع ذكره لما اشتهر به من الحكمة ورجاحة النقل والاتزان في التفكير ، ولهذا نجد أنابك للوصل يمد إليه بالسفارة إلى الخليفة العباسي في بغداد ، وإلى صلاح الدين^(١) وكثير من الحكام المجاورين في أمور خطيرة من أمور الدولة .

وفي سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٨ م) سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج وزار قبر الرسول عليه السلام ، وكان يزعم في عودته أن يزور بيت المقدس - وكان قد استردها البطل صلاح الدين - ، ولكنه نزل أولاً بمدينة دمشق ، وكان صلاح الدين يحاصر قلعة كوكب ، وعلم بوصول ابن شداد إلى دمشق ، وكان يعرفه معرفة أكيدة منذ اتصل به في سفارته السابقة ، فاستدعاه إليه ، « فلما دخل عليه قابله بالأكرام التام ، وما زاد على السؤال عن الطريق ، ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل ، وسأله عن جزء من الحديث ليسمه عليه ، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكر البخاري ، وقرأه عليه بنفسه » .

وقد شرح ابن شداد في كتابه هذا « النوادر السلطانية » كيف اتصل بجمعة صلاح الدين ، قال :
« ولما ودعته ذاهباً إلى القدس خرج لي بعض خواصه - عماد الدين الكاتب الأصمغاني - ، وأبلغني تنذره إلى بأن أعود أمثل في خدمته عند العمود من القدس ، فظننت أنه يوصيني بهم إلى الواصل » .

وأتم ابن شداد زيارته للقدس وعاد إلى دمشق ، وفي عزمه أن يستأنس من صلاح الدين في العودة إلى بلده للوصل حيث يترك دنيا الوظائف ويستكشف للدراسة والعبادة ، وكان ابن شداد قد ألف أثناء مقامه في دمشق هذه المرة كتاباً في الجهاد وأحكامه وآدابه ، قدمه لصلاح الدين « فأعجبه ، وكان يلزم مطالعته ^(١) » .

ويستطرد ابن شداد فيروي كيف منحه صلاح الدين من العودة إلى اللوصل ، وألحقه بمخيمته فيقول : « وما زلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يلغني عن ذلك ، ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويلغني على ألسنة الجاهلين ثناءه عليّ وذكره إياي بالجميل . . . ثم سِرَّ إلى مع الفقه عيسى ، وكشف إلى أنه ليس في عزمه أن يتمكن من العودة إلى بلاده ، وكان الله قد أوقع في قلبه محبته منذ رأته وجهه الجهاد ، فأحبته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وعثمانين » .

وقد عين صلاح الدين بهاء الدين بن شداد قاضياً لسكره والقدس الشريف ، وظل بهاء الدين في خدمته وملازمًا له لا يخرقه قليلاً أو نهاريًا إلى أن أدرسته الوفاة ، وكان مقبلاً هو والقاضي القاضل إلى جوار صلاح الدين أثناء مرضه الأخير ، ووصف اللحظات الأخيرة التي انتهت بوفاته هذا البطل العظيم وصفاً مؤثراً .

وبعد وفاة صلاح الدين أعجبه ابن شداد إلى حلب ولعب دوراً كبيراً في التصريب بين الأخوة أولاد صلاح الدين وكانوا جميعاً يرجعون إلى رأيهم ويستمعون إلى نصحه ، وقد عينه لذلك الظاهر صاحب حلب في سنة ٥٩١ هـ قاضياً لمدينة حلب ومشرفاً على أوقافها ، يقول ابن خلكان « وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة للدارس ، وليس بها من العلماء إلا فر يسير ، فاعتنى أبو الحسن المذكور بترتيب أمورهما ، وجمع الفقهاء بها ، وحرث في ألبه للدارس الكثيرة » .

وكان لذلك الظاهر قد قرر لابن شداد إقطاعاً جيداً يدر عليه مبلغاً كبيراً من المال ، ولم يكن ابن شداد قد تزوج ولم تكن له أسرة أو ولد ، فوفرت له ثروة لها قيمة ، فمهر بها مدرسة نخبة لتدريس للذهب الشافعي بالقرب من باب العراق في مدينة حلب ، قبلة مدرسة نور الدين محمود زكي ، وبني إلى جانبها داراً للحدِيث ، وأتت بين المدرستين تربة ليدفن بها بدوولته .

ومنذ بنيت هذه المدرسة ومبذرت ابن شداد دروسه بها أصبحت الحلب منزلة عليية مرموقة تجذب إليها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، يقرر هذه الحقيقة للزورخ ابن خلكان - وقد كان واحداً ممن سافروا إلى حلب خصيصاً للتعلم على القاضي ابن شداد في مدرسته - فيقول :

« ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدوا الفقهاء من البلاد ، وحصل الاشتغال والاستفادة ، وكثر الجمع بها » .

وقد لعب ابن شداد دوراً كبيراً في التوفيق بين أفراد البيت الأيوبي في مصر والشام كما نشب نزاع بين بعضهم والبعض الآخر ، ولهذا كان دائم التنقل بين حلب والقاهرة لتحقيق هذا الهدف ، وتذكر للراجع أنه وفد على القاهرة في هذه المهام وأنشأها في السنوات ٥٩٣ و ٦٠٨ و ٦١٣ و ٦٢٩ هـ .
وطلت لابن شداد الكلمة النافذة والرأي الطالع في عهد الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب ، ولما خطب العزيز ابنه الملك الكامل عمده صاحب مصر كان ابن شداد على رأس الوفد الذي سافر إلى القاهرة في سنة ٦٢٩ هـ لإحضار العروس ومرافقتها إلى القاهرة .

غير أن السنين كانت قد نالت منه وأصابته الأمراض ووهن الشيخوخة ، فلم يكن مكاناً دافئاً يقيم فيه متذكراً ، لا يقوم إلا لأداء فريضة الصلاة ، ويبقى فيه بعض الهروس على وفود أصدقائه وزواره وتلاميذه الذين يرددون عليه ، وقد سببه ولازمه في أيامه الأخيرة للورخ ابن خلكان ، وقدم لنا في الترجمة التي أرخ فيها حياة ابن شداد في كتاب : « وفيات الأعيان » صورة رائعة للعالم الشيخ الذي أضغه للرض وأكفته الشيخوخة ، قال :
« وكنا نسمع عليه الحديث ، وتردد إليه في داره ، وقد كانت له قبة يختص به ، وهي شتوية ، لا يجلس في الصيف أو الشتاء إلا فيها ، لأن الحرم كان قد أثر عليه حتى صار كفرنخ الطائر من الضعف ، لا يقدر على الحركة لصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة ، وكانت للزلات تمر به في دماغه ، فلا يفرق تلك القبة ، وفي الشتاء يكون عنده مقعد كبير فيه من التميم والثار شيء كثير ، ومع هذا كله لا يزال مركزاً وعليه الترجمة البرطاس والنياب السكتيرة ، ونحوه الطراحة الوثيرة فوق البسط نوات المحائل التيمية ، بحيث إنا كنا نجد عنده الحر والكرب ، وهو لا يشعر به لكثرة إستيلاء البرودة عليه من الضعف ، وكان لا يخرج لصلوة الجمعة إلا في شدة القنيط ، وإذا قام إلى الصلاة بعد الجهد يكاد يسقط .

وقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا وقف لصلوة كأنهما هودان دقيقان لا لحم عليهما ، وكان عتيب صلاة الجمعة يسمع للصلون عنده الحديث عليه وكان يسببه ذلك ، وكان حسن الخفاضة ، جميل الذاكرة ، والأدب غالب عليه - إلخ » .

وقد تقلد على ابن شداد - عدا ابن خلكان - عدد آخر من كبار المؤرخين للمصريين ، منهم أبو شامة صاحب كتابي « الروضتين » و « القليل على الروضتين » ، وقد ترجم له في الكتاب الأخير في وفيات سنة ٦٣٢ هـ ، قال :

« وفيها توفي القاضي بهاء الدين بن شداد بحلب ، واسمه يوسف بن رافع بن تميم ، وكان من رؤسائها ، وكان للناس به فزع ، وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق وأجأ لي جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر وعند قبة الإمام الشافعي - رحمه الله - سنة ثمان وعشرين وستائة .

ومنهم جمال الدين بن واصل مؤرخ الدولة الإيوية وصاحب اللسوعة الكبيرة : « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » ، ففي سنة ٦٢٧ كان ابن واصل قد سافر إلى حلب ، وليت بها نحو علمين تردد في خلالها على ملها من ملارس ومكتبات ، واصل بن فيها من علماء بارزين وخاصة القاضي للوزج بهاء الدين بن شداد ، والشيخ نجم الدين بن الخلياز ، والشيخ موفق الدين بن قيس ، ويبدو أنه أقام من هؤلاء الشيوخ فوائد جمة ، فقد كان يمتاز بهذه الزيادة فيما يبد ، ولهذا ذكرها في كتابه « مفرج الكروب » أكثر من مرة .

قال أولا في حواشي سنة ٦٢٨ : « وكنت في حلب في هذه السنة ، قد توجهت للاشتغال بالعلم على الشيخ نجم الدين بن الخلياز ، وكان إماما في الذهب والأصول ، وعلى الشيخ موفق الدين بن قيس في علم النحو واللغة وتصميم البركة والقاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - وكان سقرى إلى حلب في أواخر سنة ٦٢٧ فأقت بها إلى شعبان سنة ٦٢٨ ، ثم ترددت إلى خدمة القاضي بهاء الدين بن شداد مرارا ، وكان تزول بمدرسته التي أنشأها بالقرب من داره . وأشار إلى هذه الزيادة مرة أخرى عند ترجمته لابن شداد بمناسبة وفاته : قال : « بقصدت خدمته بحلب سنة ٦٢٧ وحضرت محله واستفدت منه ، وأقت بمدرسته التي أنشأها إلى جانب داره - رحمه الله - نحو سنة وكسر » .

وأشار إليها مرة ثالثة بقوله : « وكان القاضي بهاء الدين يذكر بنفسه الدرس في مدرسته ، ثم لما أسن وضع يني للبيدون في كل يوم يقرأ عليهم العلم ، ولا يذكر أحد درساً في المدرسة إلى أن توفي ، وكنت بحلب سنة ٦٢٧ وسنة ٦٢٨ وكان الأمر جارياً على ذلك ، وكانت الرتبة تحضر في كل يوم يقرأ منها ما تيسر ثم يطعن القاضي له »

وحدث أثناء إقامة ابن واصل في حلب أن احتبس النيث فخرج الناس للاستقاء ، وفي مقدمتهم شيخ البهجة بهاء الدين بن شداد ، وقد حضر ابن واصل هذا الحادث وأرخ له بقوله : « واحتبس النيث في هذه السنة احتباساً كثيراً بحلب ، وارقت الأسفار ، فخرج الناس إلى جبل باخوسا واستسقوا ، وحضر الاستقاء بهاء الدين بن شداد ، فجاء مطر يسير بعد ذلك وانقطعت الأسفار قليلا » .

وفي سنة ٦٢٣ كان الكتاب قد بلغ أجله ، وارقت روح بن شداد إلى بارئها بعد أن عثر قراءة قرن من الزمان أو ثلاثاً وتسعين سنة على وجه التجديد فضاها في الدراسة والتدريس والتأليف والعمل الصالح يودفن في ترجه التي بناها لنفسه بموار مدرسته في حلب .

ومؤلفات ابن شداد ليست كثيرة ، وسنقدم فيما يلي بياناً بالعرف منها الذي أشارت إليه للراجع ، غير أننا نحب قبل إثبات هذا البيان أن نشير إلى أن مؤرخنا ابن شداد لم يكن الوحيد بين للوزخين العرب الذي جعل هذا الاسم ، فهناك ابن شداد آخر يشترك مع مؤرخنا في أشياء كثيرة ، فكل منهما كان يسمى ابن شداد ،

وبهذا الاسم عرفا وأشهر إليهما في الراجح المختلفة ، غير أن مؤرخنا صاحب سيرة صلاح الدين كان يكتفي
 بهما الدين واسمه بالكامل بهاء الدين أبو الحسن يوسف بن رافع بن نجم بن شداد ، وسميه كان يكتفي بهما الدين
 واسمه الكامل عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد .
 ومؤرخنا بهاء الدين ولد ونشأ في الموصل ، غير أنه قضى معظم حياته وتوفي في حلب في سنة ٦٣٢ هـ ،
 أما عز الدين بن شداد فقد ولد ونشأ في حلب ، ولكنه قضى معظم حياته في القاهرة وبها توفي ودفن في
 سنة ٦٨٤ هـ أي بعد وفاة سميه بالتنتين وخمسين سنة ، وبهاء الدين كان قتيلا ومعدنا ومؤرخا ، وعز الدين كان
 مؤرخا وجغرافيا .

ومع هذا قد خلط للزورخون وكتاب السير والبلوغرافيون بين الرجلين عند إحصاء مؤلفات كل منهما ،
 ودفنهم إلى هذا الخلط تشابه اسمي كل منهما ونسبتها إلى حلب واشتغالهما بالتاريخ وتأليفها فيه ، وكونها
 توفيا في قرن واحد وهو القرن السابع الهجري (١٣ م) .

وقد سبق للزورخون والباحثون بإلقاء الأضواء أولا على حياة بهاء الدين بن شداد ، ولهذا كان ولا زال
 أكثر شهرة من سميه عز الدين ، ولعل هذا يرجع إلى أن بهاء الدين كتب سيرة صلاح الدين . فكانت
 عناية الزورخين بدراسة هذه السيرة السبب الأكبر في شهرة بهاء الدين ، ولهذا نجد الباحثين ينسبون إليه
 عددا من مؤلفات عز الدين بن شداد .

وكان أول من وقع في هذا الخطأ حاجي خليفة صاحب كتاب « كشف الظنون » قد ذكر كتاب
 « الأعلام » في ذكر أمراء الشام والجزيرة ^(١) ونسبه إلى بهاء الدين بن شداد لا إلى مؤلفه الأصلي
 عز الدين بن شداد ، وقد وقع في نفس الخطأ مؤرخون آخرون لأنهم قلوا عن حاجي خليفة ، فوجد نفس الخطأ
 عند جورجى زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية » ^(٢) ، والنزى في « نهر الذهب » ^(٣) ، والدكتور أحمد أحد
 بلوى في « الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام » ^(٤) .

ولكتاب الثاني الذي نُسب خطأ إلى بهاء الدين بن شداد في حين أنه من تأليف سميه عز الدين هو

(١) كشف الظنون ، الطبعة الأولى ، ج ١ ص ١٢٣

(٢) ج ٣ ص ٦٣

(٣) ج ١ ص ١١

(٤) ص ٣٦٥ حيث قال : « كما وضع ابن شداد الحلي الترتيب سنة ١٣٢ هـ كتابه الأعلام في تاريخ
 الشام والجزيرة » .

كتاب « تاريخ حلب » ، وأول من أخطأ في هذه التسمية بروكلمان في كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فقد ذكره ضمن مؤلفات بهاء الدين وأضاف أنه توجد منه نسخة خطية في مكتبة بطرسبرج تحت رقم M. 203^(١) ووقع في نفس الخطأ الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتاب « الحركة العسكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي »^(٢) ، والدكتور السيد الباز المري في كتابه « مؤرخو الحروب الصليبية »^(٣) .

والكتاب الثالث الذي نسب خطأ إلى بهاء الدين بن شداد في حين أنه من تأليف سميح عز الدين هو كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ، ولقصود هنا هو الملك الظاهر بيبرس البندقداري^(٤) لا الملك الظاهر بن صلاح الدين - صاحب حلب - ، وقع في هذا الخطأ بروكلمان وقال بوجود نسخة خطية من المجلد الثاني من هذا الكتاب في مكتبة سليم رقم ١٥٠٧ وأنه ترجم إلى اللغة التركية تحت عنوان « بيبرس تاريخي جيكنداكي تاريخي ايكينجي جلدی » وطبع في استانبول سنة ١٩٤١ . وتبعه في هذا الخطأ الدكتور السيد الباز المري في كتابه سالف الذكر .

هذه كتب ثلاثة تنسب خطأ لمؤرخنا بهاء الدين ابن شداد وإن كانت في الحقيقة من تأليف سميح عز الدين أما المؤلفات التي قام بتأليفها فعلا ومؤرخنا بها الدين فبقيا على بيئاتها .

١ - دلائل الأحكام^(٥) ، تحدث فيه المؤلف عن الأحاديث النبوية للتبسيط منها الأحكام ، مخطوط بالمكتبة الأهلية في باريس رقم ٧٣٦ .

٢ - ملجأ المحاكم عند التباس الأحكام^(٦) (في الأفضية) ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة في مجلدتين (التمهيد القديم لدار الكتب ج ٣ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨) .

٣ - دروس في الحديث^(٧) (أُلغيت في القاهرة حين سافر إليها في سنة ١٢٢٩ هـ = ١٨٣١ م لإحضار ابنة الملك الكامل ، محمد عروس الملك المرز صاحب حلب) ، مخطوط بالمكتبة البودليانية في أكسفورد .

Brockelmann : G. der Lit. Araber. Suppl. I. P. 549. (١)

(٢) ص ٣٠٩ .

(٣) ص ٢٠٢ .

(٤) انظر المقدمة التمهيدية التي قدم بها الدكتور سامي الدهان لكتاب الأعلام الخطيرة (الجزء الخامس بمدينة دمشق ، ١٩٥٦) .

(٥) ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ، وروكلمان .

(٦) ذكره ابن خلكان وروكلمان .

(٧) راجع ابن خلكان وروكلمان .

- ٤ - كتاب النصارى^(١) (للقصود موسى وفرعون) ، مخطوط بمكتبة باننا Patna .
- ٥ - فضائل الجهاد^(٢) ، أمه خصيصاً لصلاح الدين ، مخطوط بمكتبة كوريل رقم ٧٦٤ .
- ٦ - أسماء الرجال الذين في الذهب لشهر أزي^(٣) :
- مخطوط بمكتبة ولي الدين جارا الله رقم ٢٥٥ ، نسخ في القرن التاسع الهجري ، وكتب بقلم معتاد ومخطو قديم ، ويقع في ٥٧ ورقة بمقاس ١٣ X ١٨ سم ، وتوجد منه نسخة على فيلم صغير رقم ٨٧٢ بمجمع المخطوطات العربية بالقاهرة التابع للجامعة العربية ، وهذا الكتاب لم يشر إليه بروكلمان أو أى مرجع آخر من الراجع التي ترجمت لبهاء الدين بن شداد .
- ٧ - النوادر السلطانية والحسان اليوسفية (للرفوف بيرة صلاح الدين) . وقد قام على نشره أول مرة A. Schultens في ١٧٣٢ - ١٧٥٥ ، ثم أعيد نشره في القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .
- ثم ترجمه C. R. Conder إلى اللغة الانجليزية ، ونشرت الترجمة في سنة ١٩٨٧ ضمن مجموعة جمعية دراسات حجاج فلسطين ، تحت عنوان : The life of Saladin by Beha ad-Din Compared with the Original Arabic and annotated with a Preface by ch. Wilson- London, Palestine Pilgrims Text Society 1897.
- وهذا يقتلنا إلى الحديث عن أم مؤلفات بهاء الدين بن شداد وهو هذا الكتاب الذى قدم له الحسان اليوسفية والنوادر السلطانية « فهو الذى أكسب مؤلفه هذه الشهرة ووضعه في صفوف المؤرخين الكبار .
- وقد قسم بهاء الدين بن شداد كتابه إلى قسمين :
- الأول : في مولد صلاح الدين ومنشئه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه للرؤية وشماله الراجعة في نظر الشرع .
- والثاني : في خليات الأحوال به ووقائمه وقصوه وتواريخ ذلك إلى آخر حياته .
- وقد نص المؤلف في كتابه على أنه بدأ الاتصال بخدمة صلاح الدين في شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ ، وعلى أنه اعتمد عند التاريخ للأحداث السابقة على هذا التاريخ على من سبق به ، أما الأحداث اللاحقة لهذا
-
- (١) راجع بروكلمان .
- (٢) راجع ابن خلكان و . Brockelman Pr. Clt. Supp I, p. 550
- (٣) انظر : فهرس المخطوطات المصرية بمجمع المخطوطات العربية ، الجزء الثاني ، القسم الأول من ١١ ، والقسم الثاني ، ص ٢١٢ .

اليوم قد وصفها كما شاهدها بنفسه ، أو على حد قوله هو : « ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أتى به خيراً بقلوب العين »^(١) .

وفي سنة ١٩٥٩ كانت لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية تنظر في بعض المقترحات المقدمة لإحياء ذكرى البطل صلاح الدين يوسف بن أيوب ومن بينها إعادة نشر كتاب « المحاسن البيوسفية والنوادر السلطانية » لبهاء الدين بن شداد نشرة جديدة علمية محكمة ، وتفضلت اللجنة فهدت إلى القيام بإعداد هذه النشرة ، وعهدت إلى وزارة الثقافة والإرشاد بإخراج هذه الطبعة .

وبدأت أنظر في النسخ المطبوعة والمخطوطة لهذا الكتاب ، وكان من توفيق الله أن وجدت بمعهد المخطوطات العربية فيلماً^(٢) مصوراً لنسخة من هذا الكتاب موجودة أصلاً في مكتبة المسجد الأقصى بالقدس الشريف تحت رقم ٥٩٥ سير تاريخ (وتتكون من ٢٠٠ ورقة ومقاسها ٢٣×١٦ سم) ، وبمضمون هذه النسخة اتضح لي أنها كتبت في الثاني عشر من شهر رجب سنة ٦٣٩ هـ أي في حياة المؤلف وقبل وفاته بست سنوات ، وأنها قرئت عليه ، وبمقارنتها بالنسخة المطبوعة في مصر والتداولة بين القراء تبين لي أن هذه المخطوطة بها زيادات كثيرة عن النسخة المطبوعة لا تقل في جملتها عن ربع الكتاب .

كل هذه الأسباب كانت مرجحات كافية لاختيار مخطوطة القدس واعتادها أصلاً للطبع ، وإذا كانت النسخة المطبوعة في القاهرة هي التداولة والتي يشير إليها الباحثون دائماً عند الرجوع إلى هذا الكتاب فقد اعتدتها نسخة ثانية ورمزت لها بالحرف م ، وقارنت بين نسخة الأصل وبينها لبيان أفضلية الأولى ، وأثبتت المقارنات دائماً في الهوامش لإعطاء القارئ فكرة عن الزيادات الكثيرة التي تتميز بها مخطوطة القدس .
ومما يزيد في قيمة مخطوطة القدس أنها - كما أسلفنا - كتبت في حياة المؤلف وقرئت عليه ، يدليل تاريخ نسخها المثبت في نهاية الكتاب ، ويدليل نص العنوان المثبت على الصفحة الأولى وهو :

كتاب النوادر السلطانية

والمحاسن البيوسفية

تأليف مولانا صاحب قاضي القضاء شيخ مشايخ الإسلام بهاء الدين أبي المحاسن

يوسف بن رافع بن تميم ولي أمير المؤمنين آدام الله أيلمه ، سماع

(١) انظر للثمن هنا في ج ١ ص ٨٧ .

(٢) رقم الفلم ١٢٩٦ ، انظر فهرس المخطوطات للصورة بمعهد المخطوطات العربية ، فهرس التاريخ .

وقد جرت العادة أن يدعو الناسخ المؤلف بالرحمة إذا كان المؤلف قد توفى في تاريخ سابق لتاريخ النسخ ، فيقول : « رحمه الله » ، ولكنه هنا يدعو له بدوام الأليم فيقول « أدام الله أيامه » ، ثم أرفق الدعاء بكلمة سماح وهي تفيد قراءة النسخة على المؤلف .

ومن مميزات مخطوطة القدس كذلك أنها تنفرد في نهايتها بفصل - لم يرد له ذكر في النسخة للطبوعة - أحصى فيه المؤلف أسماء المدن والقلاع التي قصها صلاح الدين في اللغة من ٥٨٣ إلى ٥٨٦ هـ .

وقد أشرنا من قبل إلى أن صلاح الدين كان قد عين بهاء الدين بن شداد قاضيا لسكره في سنة ٥٨٤ هـ ، ولهذا نجد ابن شداد يلازم صلاح الدين طول الحقبة الأخيرة من حياته التي قضاها في الشام أي من ٥٨٤ إلى ٥٨٩ هـ ومخالطه مخالطة تامة ، ولذلك فهو يروي معظم هذه السيرة وأحداثها عن مشاهدة ، وهو يصف في معظم الأحوال على أنه رأى الأحداث التي يؤرخ لها أو سمع الأقوال التي يرويها^(١) ، أما إذا لم يكن قد شاهد حادثة ما بنفسه فإن الأمانة العلمية كانت تقتضيه أن ينص على أنه كان متفنياً ، فهو يصف مثلاً وقعة الرمل في سنة ٥٨٥ هـ ويقول على الوصف بقوله : « وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنت مسافراً ، وما مضى من الفترات شاهدت منها ما يشاهده مثلي ، وعرفت الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور^(٢) » .

لهذا أعتبرت هذه السيرة أوثق للراجع لتأريخ حياة البطل صلاح الدين ، وعليها اعتمد جل المؤرخين اللاحقين من عرب وأوربيين عند الكتابة عن حياة صلاح الدين ، وخاصة الفترة الأخيرة من هذه الحياة (٥٨٤ - ٥٨٩) وهي فترة حافلة بالنضال ضد الصليبيين ، فإن انتصار صلاح الدين في موقعة حطين واستمادته لبيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ أحدثتا ضجة كبرى في أوروبا ، وكان رد الفعل لإرسال الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوروبا وهم ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أوجست ملك فرنسا ، وفردريك بارباروسا ملك لانييا .

واحتدم القتال في أعنف صوره بين جيوش هذه الحملة وجيوش صلاح الدين طوال هذه السنوات الأربع إلى أن انتهى بصلح الرملة في شعبان ٥٨٨ هـ (سبتمبر ١١٩٢) .

(١) الأشقة على ذلك كثيراً ، انظر مثلاً ما يلي هنا : ص ٧٠٨ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٤٠ ، ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٩٠ - الخ :

(٢) انظر ما يلي هنا ص ١١٦ .

وهذه السيرة التي كتبها ابن شداد تقدم وصفاً تفصيلياً دقيقاً للأحداث التاريخية والمعارك الحربية ولأحداث القتال والحرب للتمثلة في الجيشين مما لا نجد في مرجع آخر، وقد تبيننا الألفاظ الاصطلاحية الواردة في الكتاب وخاصة ما اتصل منها بالاعتقال في البر والبحر، وشرحنا كل ما منها شرحاً وإيضاحاً في المواضع مع ذكر الراجع التي أفادنا منها، ومنها على سبيل المثال :

البرك (١٠٠/٦) ^(١) والكوسات (٢٠/٣) والطلب (٢٤/٣) والنجنيق (٢٦/٤) والخرقة (٢٨/٣) والديابة (٤٢/١) والجرج (٤٢/٢) والشيبي (٤٨/٢) والبريدة (٤٨/٣) والبطسة (٤٩/١) والجاليش (٦٢/٤) والقتاب (٦٣/١) والشنعة (٦٣/٦) والنجعة (٧٩/١) والأسطول (٨٤/١) والألمة (٨٨/١) والقرقون (٢١٨/٢) والقرقون (١٢٧/٥) والوفاق (١٢٩/١) والحقة (١٥٣/١) والبركوس (١٢٣/٦) والزبورك (١٤٨/١) والاشورة (١٥٣/٣) الخ...

وفي الكتاب مصطلحات حربية أخرى ألفت إليها الأنظار لأهميتها ولأنها تفي كل المشغلين بالتاريخ الحربي لهذا العصر، ومنها : الحاشية، والستامون، والحلقة السلطانية، والجويع البحرية... الخ وإلى جانب هذه المصطلحات الحربية التي أوردها المؤلف عرضاً عند وصف المعارك ولم يشرحها، والتي شرحتها نحن في المواضع شرحاً مفصلاً، توجد في النص فقرات كثيرة ذات أهمية كبرى وصف فيها المؤلف بعض هذه الآلات وصفاً جديداً مفيداً، ومثل ذلك وصفه الدقيق النادر للديابة والكبش، والسنور - وهو نوع جديد من الأسلحة -، والبرج ذي الخرطوم، ووصفه للديابة ذات الأبراج الأربعة.

وينفرد الكتاب كذلك بوصف كثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية في المجتمعين الصليبي والإسلامي، فهو يشير في ص ١٢ إلى بعض تقاليد الصليبيين في التشاور والتحكيم فيقول : « ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل، وأنهم قد نصوا على عشرة أخس منهم وحكومهم، فأى شيء أشاروا به لا ينفذونه » وفي ص ١٣ نص هام يصف فيه كيف كان مجلس صلاح الدين للنظر في النظام.

وفي ص ٨٩ نص آخر يفيد أن المسلمين القيمين في الأراضي الخاضعة للصليبيين كانوا يرجعون في خصوصياتهم إلى قاضي منهم.

وفي ص ٩٧ نص يدل على أن بعض أمراء الصليبيين في الشام « كان يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحداث ».

وفي ص ١٢٦ وصف طريق لبعض الشرائع والأحكام التي كان يؤخذ بها جنود ملك الألمان، ومنها « أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة ».

(١) الرقم الأول هو رقم الصفحة في هذه الطبعة والرقم الثاني رقم الحاشية.

وفي ص ١٤٩ وصف آخر طرف ونادى لَمَّ الجيوش الصليبية يقول فيه «... وعَلَّمَ العدو مرتفع على
مجة هو مفروس فيها، وهي تسحب بالبنال، وم يذيون عن التَمَّ، وهو عالٍ جداً كالنارة، خِرَقَتَه ياض،
مَلَمَّ بمخزوة على شكل الصلبان ».

وفي الكتاب عدد من الوثائق الهامة التي تلقى أضواء على العلاقات بين صلاح الدين والدول المسيحية
المجاورة، ومن بينها نصوص المطالبات للرسلة من كل من الكاثيكيكوس بمقدم الأرمن، وإمبراطور بيزنطة
إلى صلاح الدين^(١) ومن للسكن أن نضيف إلى هذه الوثائق الوصف الواقى للفصل للسفارة التي أرسلها
صلاح الدين إلى القسطنطينية ولكيفية إقامة الخطبة في المسجد القام في عاصمة الدولة البيزنطية.

وبعد فهذا تعريف موجز بالوثق ولغة سريعة عن الكتاب، وقيته، أما منهجي في نشره وتحقيقه
فهو نفس المنهج الذي اتبنته في الكتب الأخرى التي قمت بصحتها من قبل، وأخص بالذكر منها كتب
القرنزي الصغير وكتاب مفرج الكرب في أخبار بني أيوب لابن واصل، ويأخذ هذا المنهج في التزام
الدقة الشامة في ضبط النص، وفي التعرف بالمصطلحات التاريخية والأعلام والمدن، وفي تقسيم النص إلى
فقرات واستعمال علامات الترقيم الحديثة ليسهل على القارئ تتبعه وفهمه.

وقد كنت محبب المخطوطة متى إلى الغرب حيث كنت أشغل منصب النشر الثقافي بسفارتنا هناك،
ولما أتممت تحقيق الكتاب قدمت إلى وزارة الثقافة والإرشاد في يناير سنة ١٩٦٢.

ثم قدمته الوزارة إلى الطبعة أثناء غيابي في الغرب، وعهد المسؤولون إلى غيري بتصحيح تجارب
الطبع، وللأسف الشديد لم يوفق هذا الغير إلى تصحيح النص تصحيحاً سليماً، فخرجت الطبعة وبها أخطاء
كثيرة، كما أنه لم يلزم تقسيم الفقرات الذي اتبنته بل ضم بعضها إلى البعض الآخر حتى قد خرجت بعض
الفقرات وهي تشتمل صفحتين أو ثلاث صفحات، وهذا أمر مقبول في المخطوطات القديمة، ولكنه غير مقبول
في النشرات العلمية الحديثة، وعلاجاً للأمر الواقع ألحقت بالكتاب في نهايته فائمة بأهم الأخطاء وتركت
الباقى لقطنة القارئ.

وأنا لأحاول أن أوجه الانتباه أو اللوم إلى أحد، ولكنني أقدم الاعتذار إلى القارئ الكريم عن
وعن الجميع، فالتبعية الطيبة والقصد الحسن كانا رائدتي الجميع، وأقدم الوعد أن أتلاف هذه الأخطاء كلها في
الطبعة الثانية إن شاء الله، والله أسأل أن يحببنا لخطأ، وأن يهتدنا الصواب، ويكتب لنا التوفيق دائماً.

جمال الدين البياض

الإسكندرية في ١٢ رجب ١٣٨٤
١٦ نوفمبر ١٩٦٤

قائمة بالمراجع

التي رجعت إليها عند كتابة المقدمة^(١)

- ١ - بدوي (الدكتور أحمد أحد) .
= الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
٢ - حاجي خليفة .
= كشف الظنون .
٣ - حمزة (الدكتور عبد الطيف) .
= الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي .
٤ - ابن خلكان .
= وفيات الأعيان .
٥ - الزركلي (خير الدين) .
= الأعلام .
٦ - زيدان (جورجي) .
= تاريخ آداب اللغة العربية .
٧ - أبو شامة .
= كتاب الروضتين في أخبار الدولتين .
= الذيل على الروضتين .
٨ - ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم) .
= الأعلام المخطوطة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، انخلاص بتاريخ مدينة دمشق ، نشر الدكتور سامي الدغاني .
٩ - العرنئي (الدكتور السيد الباز) .
= مؤرخو الحروب الصليبية

(١) أما مراجع التحقيق فقد أثير إليها في المواصلات ، ولم نشأ أن نذكرها هنا لكثرتها .

- ١٠ — أبو القنادا .
= المختصر في أخبار البشر .
١١ — ابن قاضي شبيبة .
= طبقات الشافعية (مخطوط) :
١٢ — للبنزي .
= التسككة لوفيات الصلة (مخطوط) .
١٣ — ابن واصل .
= منبرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ٣ أجزاء ، نشر جمال الدين الشيال .
١٤ — فهرس المخطوطات للصورة بمعهد المخطوطات العربية للتحقيق بجامعة الدول العربية (الجزء الثاني بأقسامه الثلاثة الخاص بعلوم التاريخ) .
15 — Brockelmann (Carl).
= Geschichte der Arabischen Literatur. vol. I. P. 386, Supp. I, 549—550.
16 — Cahen (Claude).
= La Syrie du Nord à L'Époque des Croisades.
17 — Gibb.
= The Arabic Sources for the Life of Saladin (Speculum, 25, 1950).
18 — Lane-Poole (St.)
= Saladin.
19 — Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux,

سيرة صلاح الدين

« السيرة اليوسفية »

بهاء الدين بن شداد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي مَنَّ علينا بالإسلام ، وهديانا للإيمان ، الجارى على أحسن نظام ، وأنعم علينا بشفاعته نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل سير الأولين عِزَّةً لأولى الأفعام ، وتغلبت الأحوال قاضيةً على كل أمور ، حدث بالانصرام ، كيلا يفتقر ذو حایل حسن ، ولا يئأس من لبث بأحواله أكف السقام .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تشقى القلوب من لظى الأولم .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، الذي فتح الهداية أبوابا يلجج للضعفون لها بمفاتيح الاضياد والاستسلام ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة بآية بقاء الألام .

وبمسند :

فإني لما رأيت أيام مولانا السلطان ، للآلئ الناصر جامع كلة الإيمان ، وقامع عبدة الصليان ، رافع علم المثل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والسلمين ، متقد بيت القديس من أيدي للشركين ، خدام الحرمين الشريفين ، أبي الظفر يوسف بن أيوب بن شاذى - سقى الله ضريحه صوب الرضوان ، وأذلقه في مقر رحمة خلاوة نتيجة الإيمان - قد صدقت من أخبار الأولين ما كذبه الاستبعاد ، وشهدت بالصحة لما روي من نوافر الكرام الأجواد ، وحقت وقعت شجلمان مالكها^(١) ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان ، ورأت البيان^(٢) من الصبر على السكاره في ذات الله ما قوى بها الإيمان ، وعظمت مجائبها عن أن يحرمها^(٣) خاطر أو يئنها جنان ، وجئت نوادرها عن^(٤) أن محمد يبين لسان ، أو أن تسطر في طرس بيتان .

وكانت - مع ذلك - من قبيل^(٥) لا يمكن الخبر بها إغفلها ، ولا يسع الطلوع عليها إلا أن

(١) م : « ماليكها »

(٢) م : « ورايت بالمان » .

(٣) م : « يحيط بها » .

(٤) هنا ناقض سابعين (م) .

تروى عنه أخبارها وأنبأها ، وسقى من رقبته ، ونسج محبتها^(١) وواجب خدمتها ، ما بين^(٢) على به إهداء ما تحت^(٣) من خدمتها ، ورواية ما طغت من مجلس محبتها :

رأيت أن أختصر من ذلك على ما أملاه على البيان ، أو الخير الذي يقرب مظهره درجة الإيقان ، وذلك جزء من كل ، وقُلَّ من جل ، يستدل بالقليل على الكثير ، وبالشاع على السليل بد الاستلزام .

وأحسب هذا المختصر من تلميذا :

« التوابع السلطانية والمخاض اليوسفية »

وجله تسين :

أحدها : في مولده - رحمه الله - ومنشئه ، وخصائصه ، وأوصافه ، وأخلاقه للرضية ، وشماله الراجحة في نظر الشرع الرفية . والقسم الثاني : في شلهب الأسرار به ، ورواياته وخرجه ، وتوابع ذلك إلى آخر حياته^(٤) ، قدس الله روحه .

والله الشمان في الصيانة عن خوات اللسان والقلم ، وجريان الخطوط بما فيه مرقة القلم ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

(١) م : « محبتها » .

(٢) م : « يجب » .

(٣) م : « حقت » .

(٤) م : « أتم حياته » .

الْبَيْتُ الْاَوَّلُ

في ذكر

مولده وخصائصه وأوصاله وشماله وخلافه

رحمة الله عليه

ذكر مولده^(١)

رحمة الله عليه

كان مولده - رحمه الله - على ما بلغنا على السنة ثلث تميمه^(٢) حتى بنوا عليه تسير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم - في شهر سنة اثنين وثلاثين وخمسة ، وذلك بقلة تكريت^(٣) .

وكان والده أيوب بن شاذى - رحمه الله تعالى - واليا بها ، وكان كريما أرحميا حلييا حسن الأخلاق ، ومولده بديرين^(٤) ، ثم انتفى له الاتصال من تكريت إلى محروسة للوصول^(٥) ، وانتقل ولده للذكور معه ، وأقام بها إلى أن ترمع ، وكان والده محترما مقدما^(٦) هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي .

وانتفى لوالده الاتصال إلى الشام - رحمه الله تعالى^(٧) وأعطى بملك ، وأقام بها مدة ، فنقل ولده للذكور - رحمه الله تعالى^(٨) - إلى بملك المحروسة ، وأقام بها في خدمة والده يترقى تحت حجره ، ورتض (١٣) ثدى بحسن أخلاقه ، حتى بدت منه أمور السعادة ، ولاست عليه ألوان التقدم والسيادة ، فقدمه لللك الماعل نور الدين محمود بن زنكي - رحمه الله تعالى - وعول عليه ، ونظر إليه ، وقرّبه وخصمه ، ولم يزل كلما تقدم فلما تبدل منه أسباب تقتضى تهديمه إلى ما هو أعلى ، حتى انتفى^(٩) لسه أسد الدين - رحمه الله - الحركة إلى محروسة مصر والنهوض^(١٠) إليها .

وسأى ذكر ذلك مفصلا ميّنا في موضعه^(١١) إن شاء الله تعالى .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « من السنة الثمانين تميمه » .

(٣) هكذا ضبطها بالوت ، والى : « والسنة تقول : تكريت » وذكر أنها بلدة مشهورة بين بغداد والوصل ، وهي إلى بغداد أقرب ، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راية على حجة ، وهي شرق دجلة .

(٤) هكذا ضبطها (بالوت : مجيب البلدان) وعرفها بأنها بلدة من نواحي أمان في آخر حدود أذربيجان بقرب من خليس ، منها ملوك الشام بنو أيوب ، ولكن (ابن خلكان : الوفيات : ج ٣ ، ص ٢٧٠) ضبطها « دوين » ، وعرفها بما لا يختلف كثيرا عن تعريف بالوت ، قال : « هي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أمان وبلاد السرج » .

(٥) م : « للوصول المحروسة » .

(٦) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

(٧) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

(٨) م : « بها » .

(٩) م : « إلى مصر المحروسة وذهاب إليها » .

(١٠) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

ذكر ما شاهدناه من مواعظته على القواعد الدينية

وملاحظته للأمور الشرعية

رحمة الله

ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَأَلْحِقِ إِلَى يَنْتِ اللَّهُ الْحَرَامَ » :

وكان - رحمه الله عليه - حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وتعمق من ذلك ما يحتاج إلى تفهم ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتجمل من ذلك سلامة عقيدته (١) عن كدر التشبيه ، غير مارق منهم النظر فيها إلى التعليل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء .

وكان - رحمه الله - قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري - رحمه الله - عقيدة بجميع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يسلطها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ، ورأيت (٢) وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرؤونها (٣) من حفظهم بين يديه ، رحمه الله .

وأما الصورة :

فإنه - رحمه الله تعالى - كان شديد اللوامة عليها بالجماعة ، حتى إنه ذكر يوماً أن له ستين ما صلى إلا جماعة ، وكان إن مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب .

(١) كان مؤلف هذا الكتاب بهاء الدين بن عداد طاعياً لسكر صلاح الدين ، وقد لازمه خلال الحجة الأخيرة من حياته التي قضاه في الشام ، وخالفه ثلاثة نكبة ، وهو يروي بسط هذه السيرة عن مشايخه ، وهو يرضى في بسط الأحوال على أنه رأى الأحداث التي يؤرخ لها أو سمع الأقوال التي يروونها ، ولهذا اعتبرت سيرته هذه أوثق الرجوع لتاريخ حياة البطل صلاح الدين ، وعليها اعتمد جل المؤرخين الآخرين من عرب وأوروبيين عند الكتابة من حياة صلاح الدين ، وهذا هو أول من يشير فيه ابن عداد إلى أنه كان شامداً لما كان الأحداث التي يؤرخ لها .

(٢) م : « يقرئها » .

وأما الحج :

فإنه لم يزل عازماً عليه ، وتأييداً له ، سيا في العالم الذي توفي فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملت الزواجة ^(١) ، ولم يبق إلا السير ، فاحتق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفرغ ^(٢) اليد عما يليق بأمره ، فأثّرهُ إلى العام المقبل ، قضى الله ما قضى ؛ وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعالم .

وكان - رحمه الله تعالى - يحب سماع القرآن العظيم ، حتى إنه كان يستغبر ^(٣) إلهه ، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم ^(٤) القرآن العظيم ، مضطاً لحظه .

وكان يستترى من يحضره ^(٥) في الليل - وهو في ربه - الجزئين والثلاثة والأربعة ، وهو يسمع .

وكان يستترى - في مجلسه العام - من جرت عادته بذلك الآية (١٥) والعشرين ، والرائد على ذلك . وقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته ، فتربه ، وجعل له خطاً من خاص طامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة .

وكان - رحمه الله تعالى - رقيق القلب ، خاشع الهممة ^(٦) ، إذا سمع القرآن ينشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته .

وكان - رحمه الله - شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك للكان من أولاده وعمايكه المختصين به ؛ وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ؛ وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويجتأق من الحضور في مجالسهم سوى إليه ، وسمع عليه ؛ ترد إلى الحافظ الأصفهاني ^(٧) بالإسكندرية - حرسها الله تعالى - ، وروى عنه أحاديث كثيرة .

(١) م : « وعملت الزواجة . »

(٢) م : « وتفرغ . »

(٣) م : « ويستغبر إلهه . »

(٤) م : « بعلوم . »

(٥) م : « من يحضره . »

(٦) م : « خاشع القلب رقيقه ، فزير الهممة . »

(٧) الحافظ الأصفهاني هو الحافظ السابق أبو الطاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحدث النعمان ، وهو لقب جد له ، نسبة إلى سفة ، وهو لقب فطرس معناه ثلاث خلفه ، لأن إحدى شعبتيه كانت مشغولة فصاروا مثل شعبتين ، وقد نقل حروسة الأول بموته أسبغاه ، ثم سمع وسمع بالمربعين ، وطوف بالبلاد في طلب الحديث ، فزار بغداد ودمشق وسمر ، =

وكان - رحمه الله تعالى - يجب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني^(١) في خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث ، ويقرأها هو ، فلذا مرّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبه ، ودمعت عينه .

وكان - رحمه الله عليه - كثير التنظيم لشئائ الدين ، قال^(٢) : يبيت الأجسام ونشورها^(٣) ، (هـ) ومجلزاته الحسن بالجنة والسيء بالنار ، معدداً بجميع ماوردت به الشرائع ، منشرحاً بذلك صدره ، ميفضاً للفلاسة والمعلقة والدمع^(٤) ، ومن يناد الشريعة ، وقد أمر ولده صاحب حلب للآثار الظاهر - أعزّ الله أنصاره - يقتل شاب نشأ يقال له السهر وردى ، قيل عنه إنه كان معالداً للشرائع مبطلاً ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمره يقتله ، وصلبه^(٥) أليماً ، فقتله .

وكان - قدّس الله روحه - حسن الظن بالله ، كثير الاعتدال عليه ، عظيم الإنابة إليه ، وقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه^(٦) :

وذلك أن التبرج - خذلّم الله - كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف - حرصها الله تعالى - بينما يمض مرحلة ؛ وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام ترك^(٧) على المدوحيط^(٨) به ، وقد سهر إليهم الجواسيس والمخبرين ، فواصلت الأخبار بقوة عزيمتهم على الصعود إلى القدس ومحاصرتها ،

واعتمى به للطلاب في الاسكندرية في سنة ٩١١ هـ ، وظل ملياً بها إلى أن تولى سنة ٥٧٦ هـ ، ودفن كما يقول ابن خلسكان في ولاة ، وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر ، وقد بنى له المادل بن السلال وزير الخليفة الظاهري القائل مدونة بالاسكندرية ، وهي إحدى مدرستين ببيتا في الاسكندرية قبل عصر صلاح الدين (أنظر : جمال الدين الفيلالي : أول أستاذ لأول مدرسة في الاسكندرية الإسلامية ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد ١١ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٦ - ٧٩) ؛ والملاحظ السابق كتاب قيم عنوانه « مشيخ السفر » ترجم فيه لعدد كبير من العلماء الذين اتصلوا به أثناء مقامه بالاسكندرية ، وتوجد منه صورة شمعية بملف الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٢٩٣٢ ، ونسخة مصورة أخرى . مكتبة بلدية الاسكندرية . ولاسيما ترجمة الملاحظ السابق راجع : (ابن خلسكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٨٧ - ٩٠) و (ابن خريز : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٨٧ و ١٢٧) و (السبكي : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٢) و (السيوطي : طبقات الحفاظ ، ج ٢ ، ص ٣٩) و (السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٥) و (ابن العباد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٥) و (العمري : تذكرة الحفاظ ، ج ٤) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٧) والقرنبي : انطاز المنهاة مخطوطة طوب قبو سراي . ص ١٤٣ ب) و (الفيلالي : الاسكندرية ، طوبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، ص ٢١٨ - ٢١٩ و ٢٢٧) .

(١) هنا هو التمس الثالث الذي يسميه فيه المؤلف إلى أنه يروى عن جماعة أو مشاركة .

(٢) م : « يقول » .

(٣) هنا اللفظ غير موجود في (م) .

(٤) م : « ضلّبه أليماً » .

(٥) هنا هو التمس الرابع الذي يسميه فيه المؤلف إلى أنه يروى عن جماعة أو مشاركة .

(٦) - (١) الزركلي : معجم مشاهير علماء العرب ، أنظر : (Dozy : supp. Diet. Arab.)

وتركيب القتال^(١) عليه ، واشتد خوف^(٢) المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء ، وعرفهم ماقد دَعَمَ للمسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ، فأثابوا بمجملتها بغير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، فلما غلظت بالإسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو^(٣) - رحمه الله - بطائفة من المسكر يكون حول العدو كما كان الحال بمكة ، ويكون هو ومن معه يصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم يصدد حفظ البلد والنفق عنه ، وافضل مجلس للشورة على ذلك وهو مصر^٤ على أن يقيم هو بنفسه ، فلما منه أنه إن لم يقيم ما يقيم أحد ، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم ، جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك الماحل أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم ولقنى يأغروني بأمره ، فلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة ، وضاق صدره ، وتشم فكره ، واشتدت فكرته .

وقد جلست في خدمته في تلك الليلة - وكانت ليلة الجمعة - من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء ، وليس مثنا لك إلا الله تعالى ، ونحن هُتَم أقاتنا ، وترتب على كل قسم بمقتضاه ، حتى أخذني الإغفاق عليه وانلوف على مزاجه^(٥) ، فإنه كان ينلب عليه اليأس ، فشفنت إليه حتى يأخذ مضجعه له ليتم ساعة ، فقال - رحمه الله - : « لك جارك النوم » ، ثم نهض .

فما وصلت إلى بيتي ، وأخذت لبعض شأني إلا وأذن للمؤذن ، وطلع الصبح ، وكنت أصل معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه وهو يمر للماء على أطرافه ، فقال :

« ما أخذني النوم أصلاً » .

قلت :

« قد علمت » .

قال :

« من أين ؟ » .

قلت :

« لأنني ما كنت ، وما بقي وقت للنوم » .

(١) م : « القتال » ومن قراءة هيبه .

(٢) : « واشتدت علة » .

(٣) م : « أنهم يخدمونهم ويخرج هو » وهو نفس مفهوم .

ثم شغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ، قلتُ له :

« قد وقع لي واقع ، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى .

قلتُ :

« وما هو ؟ » .

قلتُ له :

« الإخلاق إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والاعتقاد في كشف هذه النعمة عليه » .

قلتُ :

« وكيف نصنع ؟ » .

قلتُ :

« اليوم الجمعة ، ينتقل اللؤلؤ عند الرواح ، ويصل على المادة بالأمس ، موضع مشرى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ويدعو اللؤلؤ التصديق بشئ مخفية على يد من يتق به ، ويصل اللؤلؤ ركبتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح ويقول (١٧) في باطنك : « إلهي ، قد أذهمت أسبابي الأرضية في نصرته دينك ، ولم يبق إلا الإخلاص إليك ، والاحتصام بحبك ، والاعتقاد على فضلك ، أنت حسي ونعم الوكيل » ، فإن الله تعالى أكرم من أن يجيب قصدك .

فقبل ذلك كله ، وصليتُ إلى جانبه على المادة ، وصلى الركبتين بين الأذان والإقامة ، ورأيتُه ساجداً ،

ودموعه تتقاطر على شيعته ، ثم على سجداته ، ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة

من عز الدين جبرٍ ديك - وكان على النيزك - يخبر فيها أن الفرنج محتفظون ، وقد ركب اليوم حكرهم بأمره

إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيلهم .

وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك .

ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختفوا ، فذهبت الفرنسية إلى أنهم لابد لم من محاصرة

القدس ، وذهب الإنسكار^(١) وأتباعه إلى أنه لا يخطر بدين النصرانية ورميهم في هذا الجبل مع غم المياه ،

فإن السلطان كان قد أقصد جمع ما حول القدس من المياه ، وأنهم خرجوا للمشورة ، (٧ ب) ومن عادتهم

أنهم يقتادرون الحرب على ظهور الخيل^(٢) ، وأنهم قد نضوا على عشرة أحسن منهم وحكومتهم ، فأبى شفه

أشاروا به لا يخالفونهم^(٣) .

(١) للتصديق به لذلك ويشارك قلب الأسد ، ملك إنجلترا

(٢) هذه إشارة طريفة إلى تقليد من تقليد المسلمين في حروبهم .

ولما كانت بكرة الاثنين ، جاء البشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة .
فهذا ما شاهدته من آثار استنابته ^(١) وإخلاقه إلى الله تعالى ، رحمه الله .

ذكر عدله

رحمه الله تعالى

روى أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :

« الولي السائل ظلُّ الله في أرضه ، فمن نصحه في نفسه أو في عباد الله تحت مرشده يوم لا ظلَّ إلا ظله ، ومن خانته في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة ، يرفع لوالى السائل في كل يوم عملُ ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه » .

وقد كان - رحمه الله - عادلاً ، رؤوفاً ، رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوي .

وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس ^(٢) عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والملاء ، ويفتح الباب للمحتاجين حتى يصل إليه كل واحد ، من كبير وصغير ، وبجور حرمة ، وشيخ كبير ، (١٨) وكان يفعل ذلك سراً وحضراً ^(٣) .

على أنه كان في جميع أزمائه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص ^(٤) كاشفاً لما ينتهي إليه من الظالم ، وكان يجمع القصص ^(٥) في كل يوم ، ^(٦) ويفتح باب العدل ، ولم يردّ قاصداً للمحادثات والحكمومات ^(٧) ، وكان يجلس مع الكتاب ساعة ، إما في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصة (١) بما يطلق ^(٨) الله على قلبه ، ^(٩) ولم يردّ قاصداً أبداً ولا متعللاً ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة ، رحمة الله عليه .

وقد كان رؤوفاً بالريعية ، ناصراً للدين ، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز ، علماً بما فيه ، عاملاً به ، لا يسلوه أبداً ، رحمه الله عليه ^(١٠) .

-
- (١) م : « استنابته » ولا يستقيم بها المعنى .
(٢) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أضيف من (م) ليستقيم به المعنى .
(٣) هذا نص له في حقه عند التأريخ لنظام القضاء على عصر صلاح الدين .
(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .
(٥) هذه الجملة غير موجودة في الأصل ، وقد أضيفت من (م) .
(٦) م : « بما يجريه الله » .
(٧) هذه الفقرة كلها غير موجودة في الأصل ، وقد أضيفت من (م) .

وما استنثت إليه أحدٌ إلا وقف وسمع قصته ، وكشف غلاته ، وأخذ^(١) بجمته ؛ ولقد رأيت^(٢) وقد استنثت إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابن زهير على تقي الدين - ابن أخيه - ، فأخذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم ، فآخضه إلا أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول أنه وكّر القاضي أبا القسم أمين الدين - فاضى حاد - في المحاماة والنزاعة ، فحضر الشاهدان ، وأكّما الشهادة عندى في مجلسه - رضى الله عنه - بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار النعم ، فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القسم بمساواة النعم ، فسواه - وكان من خواص السلطان - رحمه الله - ، ثم جرت المحاكمة بينهما ، وانجبت اليقين على تقي الدين ، وانقضى المجلس على ذلك ، وقلطنا عن إحضاره دخول الليل^(٣) ، وكان تقي الدين من أعز (٨ ب) الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحياه في الحق .

وأعظم من هذه المحاكمة مما يدل على^(٤) عدله - رحمه الله - قضية جرت له مع إنسان تاجر يدهى عمر الخلالى ، وذلك أنى كنت^(٥) يوماً في مجلس الحكم بالقُدس الشريف إذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف يسمى « عمر الخلالى » ، معه كُتُب حكى يسأل فتّحه ، فسأته :

« تَنْ خِصُّكَ ؟ » .

قَالَ :

« خصى السلطان ، وهذا باطلُ الشرع^(٦) ، وقد سمنا أنك لا تحايى . »

قُلْتُ :

« ولى أى قضية هو خصُّك ؟ » .

قَالَ :

« إن سُقِرَ الخلالى كان مملوكى ، لم يزل على ملكى إلى أن مات ، وكان فى يده أموالٌ عظيمة كلها لى ، ومات عنها ، واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالب بها . »

قُلْتُ لَهُ :

« يا شيخ ، وما أقصدك إلى هذه النهاية ؟ » .

قَالَ :

« الحق لا تبطل بالتأخر ، وهذا الكتاب الحكى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى إلى أن مات . »

(١) م : واعتن .

(٢) هنا هو النص الخامس الذى يشير فيه المؤلف إلى أنه يروى من جماعة أو مشاركة .

(٣) هذه الفترة كلها سابقة لـ (م) وهذا دليل واضح قوى على أصلية نسخة الأصل .

(٤) هذه الكلمات الثلاث سابقة لـ (م) .

(٥) هنا هو النص الخامس الذى يشير فيه المؤلف إلى أنه يروى عن جماعة أو مشاركة .

(٦) م : « العدل »

فأخذت الكتاب منه ، وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن حيلةً ستقرُ الخلل ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأربعين ، اليوم التلاني ، من شهر كذا ، من سنة كذا ؛ وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذَّ عن يده في سنة كذا ، وما عرف (١٩) شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما ، وتمَّ الشرط إلى آخره .

فصيحبتُ من هذه القضية ، وقلتُ للرجل :

— « لا يسمى سماعُ الدعوى مع وجود الطعم » ، وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده « في ذلك » .

فرضي الرجلُ بذلك ، واندفع ، فلما اتفق للثول بين يديه في جية ذلك اليوم عرفته القضية ، فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً ، وقال :

— « كنتُ نظرتُ في الكتاب ؟ »

قلتُ :

— « نظرتُ فيه ، ورأيتُه متصلُ الرود والقبول إلى دمشق ، وقد كُتب عليه : كتابُ سكي من دمشق ، وشهد به علي يد قاضي دمشق شهوداً معروفون » .

فقال :

— « مبارك ، نحضر الرجل ونحاكه ، ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع » .

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خفية ، فقلتُ له :

— « هذا الطعم يتردد ، ولا بد أن نسمع دعواه » .

فقال :

— « أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهودَ شهداتهم ، وآخرُ فنجع الكتاب إلى حين حضور الرجل هاهنا » .

فقلتُ ذلك ، ثم أحضر الرجل ، واستدناؤه حتى جلس بين يديه ، وكفْتُ إلى جانبه ، ثم تزل من طراسته حتى ساواه وقال :

(١) م : « لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الجسم » .

(٢) هذان القنطان ساقطان من (م) .

« إن كان لك دعوى فذكرها » .

غزّر الرجل الدعوى على منى ما شرح أولاً ، فأجابهُ السلطان :

« إن سُنقر (ب) هذا كان مملوكى ، ولم يزل على ملكى حتى أعتقته ، وتوفى وخلف ما خلف لورثته » .

قال الرجل :

« لى يَبْتَنُ تشهد بما أديعته »

ثم سأل فتح كتابه ، فتحتهُ ، فوجدته كما شرهه ، فلما سمع السلطان التاريخ ، قال :

« عندى^(١) من يشهد أن سُنقرُ هذا فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدى بمصر ، وأنى اشتريته مع ثمانية أفس فى تاريخ مقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل فى يدى وملكى إلى أن أعتقته » .

ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وذكر القصة كما ذكرها ، والتاريخ كما ادعاه ، فأبلس الرجل ، فقلت له :

« يا مولاي ، هذا الرجل ما قبل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدى المولى ، ولا يحسن أن يرجع خائباً لاتصد » ، فقال :

« هذا باب آخر » .

وتقدم له بحلّة وثقة بالنة ، قد شدّ على مقدارها .

فانظر إلى مافى طي هذه القضية من الممانى الغريبة المحيية ، والتواضع ، والافتقار إلى الحق ، وإرغام النفس ، والكرم فى موضع المزاخذة ، مع القدرة التامة ، رحمه الله رحمة واسعة .

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أنشيف من (م) .

ذكر طرف من كرمه

رحمه الله

(١١٠) قال - صلى الله عليه وسلم - :

« إنا عثرنا لكرم فلان الله أخذ يده » .

وفي الكرم أحاديث .

وكرمه - قدس الله روحه - كان أظهر من أن يسطر ، وأشهر من أن يذكر ، لكن نفيته^(١) عليه جلة ، وذلك أنه ملك ما ملك ومات ، ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن ذهب لإجرم واحد صوري^(٢) ، ما علت وزنه .

وكان - رحمه الله - يهب الأقاليم - وفتح آمد ، وطلبها منه ابن قره أرسلان ، فأعطاه إياه .

ورأيت^(٣) قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يعطى الوفود ، فلم أزل أخطبه في مقام حتى باع قرية^(٤) من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد .

وكان - رحمه الله - يعطى في وقت الضيق كما يعطى في حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخشون عنه شيئا من المال ، حذرا أن يفتاجهم منهم^(٥) ، لهم به بأنه متى علم به أخرجه .

(١) م : « ثبت عليه » .

(٢) من البرم انظر ما فات هنا (ص ٨ ، حاش ٥) . ومن الدينار الصوري انظر : (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشبال ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، حاش ٧) ، ويضاف إلى ما هناك أن الأب لويس شيخو ذكر في (ملاح ابن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٤٩ ، حاش ٢) أن الدينار السوري ضرب في مدينة صور أيام الدولة الفاطمية ، وكان الذهب يساوي نحو خمسة عشر فرنكا ذهبيا من النقود الحالية ، وقد كان الدينار السوري أقل قيمة من الدينار المصري ، ومن دار الضرب في صور ومن الدينار السوري ، ومن أنواع الفناير للتداولة في مصر والشام في العصر الأيوبي راسم : (منصور بن بركة القهي الكامل : كشف الأسرار العلمية بدار السرب المصرية ، مطبوعة فريدة بدار الكتب المصرية بالقاهرة) و

(Ehrenkreutz : Extracts from the technical manual on the Ayyubid mint in Cairo, B. S. O. A. S 1953, xv 3, P. 424-447)

(Ehrenkreutz : The Standard of Fineness of gold Coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades journal of the american Oriental Society, vol. 74, No. 3 July Sept. 1954, P. 162-166)

(٣) هذا هو النص السابق الذي يشير فيه المؤلف إلى أنه يروي من مشاهدة أو معاينة .

(٤) م : « أخيه » .

وسمته يقول في معرض حديث جرى :

« يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى اللال كما (١٠) ينظر إلى التراب » .

فكانه أراد بذلك نفسه ، رحمه الله تعالى .

وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب ، فاسمته قط يقول : « أعطينا لفلان » وكان يعطى الكثير ، ويبسط وجهه للمعطي^(١١) بسطه لمن لم يسطه شيئا .

وكان - رحمه الله - يعطى ، ويكرم أكثر مما يعطى ، وكان قد عرفه الناس ، فكانوا يستزيدونه في كل وقت ، واسمته قط يقول : « قد زدت مراراً ، فكم أزيد ؟ » .

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لسانه ويدي^(١٢) ، وكنت أنجبل من كثرة ما يطلبون ، ولا أنجبل منه من كثرة ما أطلبه لهم ، لعلى بدم مؤاخذته في ذلك ، وما خلمه قط أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره .

وأما تعداد عطايه وتعداد صنوفها فلا تطعم فيها حقيقة أصلاً ، وقد سمعت^(١٣) من صاحب ديوانه يقول لى :

« قد تجارنا عطايه ، فخرنا عدد ما وهب من الخليل بمرج عكا لاغير فكان عشرة آلاف فرس » .

ومن شاهد عطايه^(١٤) يستقل هذا القدر .

اللهم إنك ألهمته الكرم ، وأنت أكرم منه ، فحكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

(١) م : « لسلام » .

(٢) هنا مراتى الثمن الذى جبر فيه للوفد إلى أة بروى عن مشاركة أو مشاهدة .

(٣) هنا مراتى الطبع الذى يصير فيه للوفد إلى أنه بروى عن مشاركة أو مشاهدة أو سماع .

(٤) م : « مولعبه » .

(١٢) ذكر شجاعته

قدس الله روحه

روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ عَلَى قَتْلِ حَيَّةٍ » .

ولقد كان - رحمه الله تعالى - من عطاء الشجاعة ، قوى النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، ولا يهوله أمر ، ولقد رآه^(١) - رحمه الله - مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ، ويُحَدِّثُهم تتواصل ، وهما كرم تتوار ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلته واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا ، وأما أعداءه من بدو صلالة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس ، ولقد كان - رحمه الله - يعطى دستوراً في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرفة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة .

وقد سألتُ باليان بن يارزان^(٢) ، وهو من كبار ملوك الساحل - وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح - عن عدتهم ، فقال للترجمان عنه ، إنه يقول :

« كُنْتُ أَنَا وَصَاحِبُ صَيْدَا - وَكَانَ أَيْضاً مِنْ مُلُوكِهِمْ وَعُقَلَانِهِمْ - قَاصِدِينَ عَسْكَرَنَا مِنْ صُورَ ، فَلَمَّا أَشْرَفْنَا عَلَيْهِ تَخَارَّزَاهُ ، فَخَزَمَ هُوَ بِمِجْسَانَةِ أَلْفٍ ، وَحِزْرَتُهُمْ أَنَا بِسِتَانَةِ أَلْفٍ أَوْ قَالْ عَكْسَ (١٢ ب) ذَلِكَ ، قُلْتُ : فَكَمْ مَلَكَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : أَمَا بِالْقَتْلِ قَرِيبَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ ، وَأَمَا بِالْمَوْتِ وَالْفِرَاقِ فَلَا نَعْلَمُ ، وَمَا رَجِعَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَّا الْأَكْلُ » .

وكان لا بد له من أن يطوف حول المدوفى كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم .

وكان - رحمه الله تعالى - إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنين ، وينتزع الساكن من المينة إلى الليرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالانضمام والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويحاوره ، رحمه الله .

(١) كان من المفروض أن يصف هذا النزال بصفحة (١١ أ) ولكن أوراق المخطوطة مفقودة بطريقة التزييب فإني في تلك الصفحة هناك لا يتفق مع ما قبله في صفحة (١٠ ب) ، وإنما يتفق مع هذا العنوان في صفحة (١٢ أ) .

(٢) هذا هو التمس المباشر الذي يشير فيه المؤلف إلى أنه يروي من مشاركة أو مشاهدة .

(٣) هو بيلان الثاني الابليي (Belian II of Ibelin) صاحب الرية ، والاسم عند ابن الأثير : (باليان بن يارزان) ، راجع أيضاً (ابن واسل : مفرج الكروبي ، نصر النبال ، ج ٧ ، ص ٢١١ وما بعدها) .

وقد قرئ عليه جزء^(١) من الحديث بين الصفيين ، وذلك أنى قلت له :

« قد سُمع الحديث في جميع اللوامن الشريفة ، ولم يُنقل أنه سُمع بين الصفيين ، فإن رأى الولي أن يؤثّر عنه ذلك كان حسناً » .

فأذن في ذلك ، فأحضر جزءاً ، وهناك^(٢) أحضر من له به سماع ، قرئ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفيين ، نمتى تارة ، وقف أخرى .

وما رأيت استكثر للدوا أصلاً ، ولا استنظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير ، تذكر بين يديه الأقسام كلها ، ويؤتّب على كل قسم بمقتضاه من غير جدّة ولا غضب يعترفه رحمه الله .

وقد انهزم المسلمون في يوم المصافح^(٣) (١٣) الأكبر بمرج عكا حتى القتب ورجله ، ووقع الكؤوس^(٤) والعلم وهو - رضى الله عنه - ثابت القدم في ثرى سير ، قد^(٥) انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردم ، ويحجّله حتى يرجعوا^(٦) ، ولم يزل كذلك حتى نُصر^(٧) عسكر المسلمين على الدوفى ذلك اليوم ، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل - رحمه الله - مصابراً لهم ، وم في المدة الواقعة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين ، فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فإن الضعف والملاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، ونحن لا نتوقعها ، وكانت للصلحة في الصلح . وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما كان في مكنونها .

وكان - رحمه الله - يمرض ويصح ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابٍ مرابط ، وتترامى النيران ، ونسمع منهم صوت الناقوس ، ويسمون منا صوت الأذان ، إلى أن انقضت الرقعة على أحسن حال وأيسره ، قدّس الله روحه ، وتؤثر خبره .

(١) م : « جزءان » .

(٢) م : « جزءه وأخضر من له به سماع » .

(٣) الكؤوس - ويقال أيضاً الكؤوسات - عرفنا (القلعة) : صبح الأمل ، ج : « م ، ٩ ، ٤٣ » بأنها متوجات من نحاس شبه الفرس الصغير ، يقع بأحدها على الأكثر يافع خمسون ، ومن يتولى ذلك يسمى الكؤوس ؛ ويشبه أن يكون للصوص بها موسيقى الجيش أو (القلعة) كما كانت تسمى في معطاح التصوير الوسطى - « ول (ابن الجوزي : للتنظيم ، ج ٩ ، ص ٦) جملة توضح هذا الذي تؤكده ، قال : (وعقد الوزير غر الدولة على ديار بكر ، وخلع عليه الخلع ، وأعلى الكؤوس ، وأذن له في خبرها أوامير السلوات الحس بديار بكر ، والسلوات الثلاث : القبر والقراب والشفاء في العسكر السلطاني » .

(٤) م : « حتى » .

(٥) الأصل : « يرجعون » وهو خطأ واضح .

(٦) هذا القلظ ساقط من الأصل ، وقد أخيف عن (م) لينظم به للي .

ذكر

اهتمامه بأمر الجهاد

(١٣ ب) قال الله سبحانه وتعالى :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

ونصوص الجهاد فيها كثيرة^(١) .

ولقد كان رحمه الله شديد المواناة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما أتقى بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرقاد ، لصدق ويرى في يمينه .

ولقد كان الجهاد وجهه^(٢) والشئف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آتته ، ولا كان له اهتمام إلا بجهله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملأه^(٣) وقطع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح مئة ويسرة^(٤) ، ولقد وقفت عليه الخيمة في ليلة رجمة^(٥) على مرج عكا ، فلم يكن في البرج وإلا قتلته^(٦) ، ولا يزيد ذلك إلا رغبة ومصاهرة واهتماماً .

وكان للرجل إذا أراد أن يقترب إليه يحته على الجهاد أو^(٧) يذكر شيئاً من أخبار الجهاد ، ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد^(٨) ، وأنا ممن جمع (١١٤) له فيه كتاباً^(٩) ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى في فضله ، وشرحت غريبها ؛ وكان - رحمه الله - كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل ، عز نصره .

(١) م : « كثيرة » .

(٢) م : « كان وجه الجهاد » .

(٣) م : « بلاده » .

(٤) م : « مينة وميسرة » .

(٥) كذا في الأصل ، ول (م) : « رجمة » .

(٦) م : « قتلته » .

(٧) هذه الجملة سابقة من (م) .

(٨) هذه إشارة إلى كتاب أكثر المؤلف ابن حنبل .

ولأحسين عنه ما سمعته منه :

وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسة^(١) ، وأعطى الماسكر دستوراً ، وأخذ عسكر مصر في المؤد إلى مصر ، وكان مقدمه أخاه لللك المائل عز نصره - فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف - حرسه الله تعالى - وسرنا في خدمته ؛ ولما صلى العيد في القدس وقع له أنه مضى معهم^(٢) إلى عسقلان ، ووردتهم بسسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه أن لا يفعل ، فإن الماسكر إذا فارقتها نبق في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصورة وهذه غطارة عظيمة ، فلم يلتفت - رحمه الله - وودع أخاه والمسكر بسسقلان .

ثم سرنا في خدمته على^(٣) الساحل طالين عكا ، وكان الزمان شتاء عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً شديداً^(٤) ، وموجة كالجبال كما قال (١٤ -) الله تعالى ، وكنت حديث عهد^(٥) برواية البحر لعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أني لو قال لي قادر^(٦) إن جزرت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا ، لما كنت أفضل ، واستسختف^(٧) رأي من ركب البحر رجاء لكسب^(٨) دينار أو درهم ، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر . هذا كله خطر لي لعظم المول الذي شاهدته من حركة البحر وتوجهه^(٩) ، فيينا أنا في ذلك إذ التفّت إلى رحمه الله وقال :

— «أما أحكي لك شيئاً ؟ قلت : بلى ، قال^(١٠) : في نفسي ، أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسّمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرم^(١١) ، أتنبهم^(١٢) فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » .
فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطري ، وقلت له :

(١) هذا اللفظ غير موجود في الأصل ، وقد أخيف عن (م) للايضاح .

(٢) م : « أن يعنى لي » .

(٣) م : « لي » .

(٤) م : « وكان الزمان شتاء ، والبحر هائجاً هيجاناً شديداً » .

(٥) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أخيف عن (م) ليستقيم المعنى .

(٦) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٧) م : « واستسختف » .

(٨) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٩) هذه الكلمات الثلاث ساقطة من (م) .

(١٠) م : « جزائره » .

(١١) م : « وأنبهم » .

« ليس في الأرض أشجع قساً من الملوك ، ولا أقوى منه ثبة في نصرته دين الله تعالى » .

قال : فكيف ؟

قلت : أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهو له ، وأما نصرته دين الله فهو أن الملوك ما يقتنع بجمع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم .

واستأذنت في أن أحكي له ما كان خطري ، فأذن ، فكشيت له ثم قلت : ما هذه إلا ثبة جميلة ، ولكن

الملوك يُسيّر في البحر الساكر ، وهو سور الإسلام ومنتهى ، فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه .

قال : أنا استفتيك : ما أشرف الليالي ؟

قلت : للوقت في حبيب الله .

قال : غاية ما في الباب أن أموت أشرف الليالي .

فأنظر إلى هذه العلوية ما أطهرها ، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها^(١) ، رحمة الله عليه .

اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرته دينك ، وجاهد رجاء رحمتك فارحه .

(١) م : « لليتين » .

(٢) م : « وأجرهما » .

ذكر

طرف من صبره واحتسابه

رحمة الله عليه

ال الله سبحانه وتعالى :

« ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعد ما انفور رحيم » .

ولقد رأيت - رحمه الله - يخرج عكا ، وهو على غاية من مرض اعتره بسبب كثرة دمليل ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون متكئا^(١) على جانبه إن كان بالنيمة ، وامتنع من مد الطعام بين يديه ليجزه (١٥ ب) عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تسمية القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر^(٢) يطوف على الأملاب^(٣) ، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر^(٤) على شدة الألم وقوة ضربان الدمليل ، وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : إذا ركب يزل عن ألهما حتى أتزل ، وهذه عناية ربانية .

ولقد مرض - رحمه الله - ونحن على الخروبة^(٥) ، وكان قد تأخر عن تل الجبل بسبب مرضه ، فبلغ الإفرنج ذلك ، فخرجوا لعلما في أن ينالوا شيئا من المسلمين ، وهي نوبة التهر ، فخرجوا في مرحلة إلى^(٦) الأبار التي تحت التل ، فأمر - رحمه الله - بالنقل حتى تجهز فرحيل ، والتأخر إلى^(٧) جهة الناصرة ؛ وكان عماد الدين - صاحب مستجار -

(١) م : « وإنما كان متكبا » .

(٢) هذا في الأصل ، وفي (م) : « للرب » .

(٣) جمع طلب ، وقد عرفنا الدكتور زيادة في حواشيه على (السلوك ، ج ١ ، ص ٧٤٨ ، حاش ٢) بوجه : « وهو لفظ كرسى مناه الأمير الذي يتقدمه فارس في ميدان قتال ، وطلاني كذلك على قائد المائة أو السنين ، وكان أول ما استعمل هنا لفظ بمصر والغمام ألبم سلاح الدين ، ثم بعد مداره فأصبح يطلق على الكتيبة (Bataillon) من الجيش ، أنظر أيضا : (Dozy : Supp. Dict. Arab)

و (ابن واسل : مفرج الكروب ، نفس القتال ، ج ٢ ، ص ٥٩ ، حاش ٢) .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) م : « الخروبة » .

(٦) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٧) م : « عن » .

متمرحاً أيضاً ، فأذن له أن يتأخر مع النخل ، وأقام هو ، ثم رحل المدوفى اليوم الثانى بطلانيا ، فركب على مضض ، ورتب المسكر لقاء القوم تسمية الحرب ، وجعل طرف (١٦) المينة الملك العادل ، وطرف الليرة تقى الدين ، وجعل واديته الملك الظاهر والملك الأفضل - عز نصرهما - القلب ، ونزل هو وراء القوم بطلبهم ، وأول ما نزل من النخل أحضر بين يديه إفرنجى قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه فحضر عنقه بين يديه ، بعد عرض الإسلام عليه وإيأته عنه ، وكلا سار المدوفى يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ، ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى المدوفى ضعفاً .

ولم يزل كذلك حتى نزل المدوفى برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطلّ عليهم إلى أن دخل الليل ، ثم أمر المسكر للنصورة أن عادت إلى عجل^(١) للمصاراة ، وأن يبيتوا تحت ، وتأخر هو ، ونحن فى خدمته ، إلى قة الجبل ، ففُرت له خيمة لطيفة ، وبنت تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نحره ونشأغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق ، وركب هو ، وركبت المسكر ، وأحدثت بالمدوفى (١٦ ب) ، ورحل المدوفى إلى خيامهم من الجانب الغربى من النهر ، وضايقتهم المسلمون فى ذلك اليوم مضايقة شديدة .

وفى ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتساباً^(٢) الملك الظاهر والملك الأفضل والملك الظاهر^(٣) ، وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبيت من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب ؛ وعارض الجيش ، والفنان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير ، فيظن الرائي لها عن بُدّان تحتها خافاً عظيماً ،^(٤) وليس تحتها إلا واحد يمدُّ بخلق عظيم ، ولم يزل المدوفى سائراً والقتل يعمل فيهم ، وكما قُتل منهم شخص دفنوه ، وكما جرح منهم رجل جلّوه ، حتى لا يبق بدم من يملّ قله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهد ، حتى اشتد بهم الأمر ، وتزوا عند الجسر ؛ وكان الإفرنج متى نزلوا إلى الأرض أيس للسفون من بلوغ غرض منهم ؛ لأنهم يحتمون فى حالة النزول بحماية عظيمة^(٥) .

وبقى - رحمه الله - فى موضعه ، والمساکر على ظهور الخيل قبلة المدوفى إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا

(١) م : « عجل » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) ، وراجع أيضاً : (ابن واصل : مخرج الكروب ، لىر السبال ، ج ٢ ، ص ٤٣٤) .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) ، وراجع أيضاً : (الروستين ، ج ٢ ، ص ٧٢٢) ، و (ابن واصل : مخرج ، ج ٢ ، ص ٢٣٥) .

(٤) م : « يحتمون فى حالة النزول جماعة عظيمة » .

على مثل ما باتوا عليه بأرحمتهم ، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية ،^(١) فبقينا على ما بقينا عليه (١٧) إلى الصباح من مضايقة العدو^(٢) ، ورسل العدو ، وسار على ما مضى من القتل والقتال ، حتى دنا إلى خيلامه ، وخرج إليه منها من أعجده حتى وصلنا إلى خيلامهم .

فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أى غاية بلغ هذا الرجل ، اللهم إنك أهدت الصبر والاحتساب ، ووقفت له ، فلا تحرمه ثوابه بأرسم الراحمين .

وقد رأيته - رحمه الله تعالى - وقد جله خبر واحد له بالغ أو مرافق^(٣) يسمى إسماعيل^(٤) ، فوقف على الكتاب ولم يعرف ، أحدا ولم تعرف حتى سمعته من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب جمعته حينه .

وقد رأيته ليلة على ممد وهو يحاصرها ، وقد قال : « لا نلتم الليلة حتى تُنصب لنا خمس مناجيق^(٥) » ، ورُتب لكل منجنيق قوماً يحولون نصبه ، وكنا طول الليل في خدمته - قدس الله روحه - في أخذ مفأكة وأرغد عيش ، والرسل تواصل تخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلاني كذا ، ومن المنجنيق الفلاني كذا حتى أتى

(١) م : « وعاد السكر في الصباح إلى ما كان عليه بالأس من مضايقة العدو » .

(٢) حذان المظنان ساهلان (م) .

(٣) ذكر (ابن واسل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥) أسماء أولاد صلاح الدين وليس من بينهم من اسمه إسماعيل .

(٤) المنجنيق - ينتج اللب وكسرها - أو المنجنف ، أو المنجنيق ، (والجمع : مناجيق ومنجنيقات) لفظ أعجمي عرب ، فهو في اللاتينية (mangonelius) ، وفي الفرنسية (mangonneon) ، وفي الإنجليزية (mangonel) وهو آلة من آلات الحصار في الصور الوسطى يقوم مقام للدفع الخلال ، وإن كانت تختلف من الحجارة . وقد وصفه صاحب مبيع الأعلى (ج ٢ ، ص ١٤١) بأنه « آلة من خشب له حضانان ، بينهما سهم طويل ، رأسه ثقل ، وذنبه خفيف ، يحمل كفة المنجنيق التي يحمل فيها الحجر فيذب حتى ينفذ أسنانه الأمر أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلا أضلكه ؛ وقد ذكر (مرضى بن علي بن مرضى الطرطوسي) في محملونه (بصرة أرباب الألباب ... الخ) التي ألقاها خصيصاً لصلاح الدين أن المنجنيقات على منبذ كانت ثلاثة أنواع : « فيها الرزم وهو أيمن مصنوعات ، وأوفاً معمولاتها ، ومنها الفرن وهو ألقاها كلفة وأحصرها مؤونة ، ومنها القرميخ » ، ثم وصف هذه الأنواع جيداً وصفاً دقيقاً مشفوعاً بالرسوم ؛ وقد نشر مختلفات من هذه المخطوطة مع ترجمة فرنسية وعليلات قيمة للأستاذ كلود كاهن . انظر :

(Claudio Cahen : un Fraited, Armurerie Compose, Pour Saladin . Extrait du Bulletin d' Etudes Orientales, Damas, Tome XII, 1947-1948)

هذا ويوجد كذلك في (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩١ - ١٩٢) وصف مبيع المنجنيق وطرق استعماله ، انظر أيضاً : (الجواليقي : للرب ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧) و (لبنان ثابت : الهندية في الفوة الباسية ، ص ١٩٥ - ١٩٣) و (القزويني : المصنف الحقا ، نشر الديال ، ص ١١٩ ، حاشي ٣) .

الصباح وقد فرغ منها، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطرًا.
(١٧ ب) ورأيتُه وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر - ابن أخيه - ونحن في مقابلة الأفرنج جريدة على الرملة^(١)، وفي كل ليلة تقع المصيبة فتقطع الأنبياء والناس تنف على ظهر إلى الصباح ونحن بالرملة^(٢) وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير، فأحضر الملك المذلّ، وعلم الدين سليمان، بن جندر^(٣) وسابق الدين بن الداية^(٤)، وعز الدين بن المقدم؛ وأمر بالناس فطردوا من قِرب الخيمة، بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة شهم، ثم أظهر الكتاب، ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكنا من غير أن نعلم السبب، ثم قال - رحمه الله - والتميزة تحفّه: توفي تقي الدين.

فاشد بكاءه وبكاء الجماعة، ثم عدتُ إلى نفسي قلتُ: استغفروا الله تعالى من هذه الحادثة، وانظروا أين أنتم، وفيكم أنتم، وأعرضوا عما سواه.

قال - رحمه الله - : نعم، استغفر الله. وأخذ يكررها، ثم قال: لا يعلم بهذا أحد.

واستدعى بشيء من الملوود فبسل عينيه، ثم استحضر^(٥) الطعام، وحضر الناس، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد المدو إلى يافا، وعدنا نحن إلى النطرون، وهو مقر قلنا.

وكان - رحمه الله - (١١٨) شديد الشف والشقة بأولاده الصغار، وهو صابرٌ على مفارقتهم، راضٍ بيسمهم عنه، وكان صابراً على مرّ العيش وخشوعته، مع القدوة التامة على غير ذلك، احتساباً لله تعالى.
الأهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك، فارضَ عنه وارحمه.

(١) هذه الجملة ساقطة من (م).

(٢) منزلان القنطان سلطان من (م)، وراجع كذلك: (الروشنين، ج ٧، ص ٢٢٢) و (ابن واصل: مخرج الكروب، لغير التيسار، ج ٢، ص ٤٣٥).

(٣) م: «أخض».

ذَكَرْتُ بِذِكْرِ حِلْمِهِ وَعَفْوِهِ

رَحِمَهُ اللَّهُ

قال الله سبحانه وتعالى :

« وَالصَّافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . ولقد كان حليماً^(١) متجاوزاً قليل الغضب .

ولقد كنتُ في خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج إلى عكا - يسّر الله فتحها - . وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب . ثم ينزل ، فيمد الطعام ، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه . ويصلي . ويجلس خلوة وأنا في خدمته . قرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه ؛ ولقد قرأ على كتاباً مختصراً لسليمان^(٢) الرازي يشتمل على الأربع الأربعة في الفقه .

ونزل يوماً على عادته ، ومثد الطعام بين يديه ، ثم عزم على التهوؤ ، فقبل له : إن وقت الصلاة قد قرب ، فناد (١٨ ب) إلى الجالس . وقال : نصلي وننام . ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أدخل المكان إلا بمن زعم ، فقدم إليه علوكة كبير يحترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له : أنا الآن ضجران ، أخرها ساعة .

فلما فعل ، وقدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده ، وضجها بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه ، فقال : رجل مستحق . فقال : يوقع المولى له . فقال : ليست الدواة حاضرة الآن .

• وكان - رحمه الله - جالساً في باب الخركاة^(٣) بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها ، والدواة في صدرها ، وانظركاة كثيرة ، فقال له الخطاب . هذه الدواة في صدر الخركاة .

وليس لهذا معنى إلا أمره إليه بإحضار الدواة لا غير ؛ فالتفت - رحمه الله - فرأى الدواة ، فقال : والله لقد صدق .

(١) هنا التقط سائق من (م) .

(٢) كذا في الأصل ، و (م) : « تصنيف الرازي » . و (مفرج الكرب » ج ٢ ، ص ٤٣٦) : « لسليمان الرازي » .

(٣) الخركاة - والمخرج خركوات - فتلطرس ، شرحه (Dozy : Snpp. Diet. Arab) بأنه نوع من الحية يتكون من قطع من الخشب مغمود بينها على شكل قبة ، وتطليها قطع من الجلد .

• Cette espèce de tente, qui se compose de morceaux de bois, réunis en forme de conopse, et sur lesquels on étend des pièces de feutre

ثم امتد على يده اليسرى ، ومدّ يده اليمنى فأحضرها ، ووقع له ، قلتُ : « قال الله تعالى في حق نبيه - صلى الله عليه وسلم - : «وَمَا آتَاكَ لَمْ يَخْلُقْ عَظِيمٌ» ، وما أرى للولى إلا قد شاركه في هذا الخلق ، فقال : ما ضرنا شيء ، قضينا حاجته ، وحصل الثواب .

ولو وقعت هذه الواقعة لأحد (١١٩) الناس وأفرادهم لقام وقد ، ومن الذى يقدر أن يخاطب أحداً هو نحت حكمه بمثل ذلك ، وهذا غاية الإحسان والحلم ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ولقد كانت طراحته تداس عند التزامه عليه لمرض القصص وهو لا يتأثر بذلك .
ولقد فرت يوماً ينفق من الجلال وأنا راكب في خدمته ، فزحمت وركه حتى أكلته وهو يتهم - رحمه الله - .
ولقد دخلت بين يديه في يوم ربح مطير إلى القدس الشريف وهو كثير الوحل ، فضحت البقعة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يتهم ، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك ، فارتكنى .

ولقد كان يسمع من المستئين والمظالمين أعظم ما يمكن أن يسمع ، ويلقى ذلك بالبشر والقبول ، وهذه حكاية يندر أن يُسطر مثلاً :

وذلك أنه كان قد أتبه أخو ملك الافرنج - خذلم الله - إلى يافا ، فإن المسكر كان قد رحل عنهم ، وبعد وترجع إلى التطرون ، وهو مكان بين يافا للمسكر مرحلتان للمجد ثلاث أمثلة ، وجمع - رحمه الله - المسكر ، ومضى (١٩ ب) إلى قيسارية يلتقى نجلتهم ، عاه يبلغ منا غرضاً ، وعلم الافرنج الذين كانوا يافا ذلك ، وكان بها الانكسار^(١) ، وممة جماعة ، فجز معظم من كان عنده في الراكب^(٢) إلى قيسارية ، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر ، وبقي الانكسار في فر يسير لهم يبعده - رحمه الله - عنهم ، وبعد المسكر .

ولما وصل - رحمه الله - قيسارية ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتجت به ، وعلم أنه لا ينال منهم غرضه ، سرى من ليته من أول الليل إلى آخره ، حتى أتى يافا صباهاً ، والانكسار في سبعة عشر فارساً وتلاثمائة راجل ، نازلاً خارج البلد في خيمة له ، فصبحه المسكر صياحاً ، فركب اللعن ، وكان شجاعاً بلسا صاحب رأى في الحرب ، وثبت بين يدي المسكر ، ولم يدخل البلد . فلستدار المسكر الإسلامى بهم إلا من

(١) الانكسار ، أو الانكسار - بكذا يسمى في المراجع العربية المعاصرة للعروب العلية وللنصوص هو الملك رشارد قلب الأسد ملك إنجلترا .

(٢) م « الراكب » .

جدة البلد^(١) ، وتعي المسكر تسمية القتال . وأمر السلطان المسكر بالجلية استهزاءً للفرصة . فأجابته بعض الأكراد الأمراء^(٢) بكلام فيه خشونة ، جابله^(٣) تنجب ، لعدم التوفير في إقطاعه . فغضب - رحمه الله - عنان فرسه كالغضب . لعله أنهم لا يملكون في ذلك اليوم (١١) شيئاً^(٤) . وتركهم وانصرف راجعاً . وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن تُلقت . وانفض الناس عن العدو^(٥) متيقنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب وقتل جماعة .

وقد حكى لي والدهُ الملك الظاهر - أعزَّ الله أنصاره - أنه خاف منه في ذلك اليوم حتى أنه لم يجلس أن يقع في عينيه ، مع أنه حل في ذلك اليوم وأوصل حتى منته - رحمه الله - ولم يزل سائراً حتى نزل بيلزور^(٦) ، وهي مرحلة لطيفة ، فضربت له خيمة لطيفة هناك ، ونزل بها ، ونزل المسكر في منازلهم تحت صوانات لطيفة كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت ، وما من الأمراء إلا من يردد خيفة ، ومن يعتقد أنه مأخوذ مستخوط عليه ، قال : ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعاني .

قال : فدخلت عليه وقد وصله من دمشق الحروسة فأكهة كثيرة ، فقال : اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً .

قال : فسرى حتى ما كنت أجد ، وطلبت الأمراء فحضروا وهم خائفون ، فوجدوا من بشره وانبطحه ما أحببت لم الطائفة والأمن والسرور ، وانصرفوا عنه على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلاً .

فانظر (١١ -) إلى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ، ولا يحكى عن تقدم من أمثاله ، رحمه الله عليه .

(١) م : « البحر » .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٣) النص غير متصل بالأصل من (١٩ - ٢٠) ولكن بيته توجد في ص (١١) .

(٤) م : « وانفضوا متيقنين » .

(٥) هذه اللفظة كلها غير موجودة في (م) .

ذكر عاقبته على أسباب الروء

قدس الله روحه

قال النبي - صلى الله عليه وسلم : بُعِثْتُ لِأَتِمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ

وكان - صلى الله عليه وسلم - إذا صاحبه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك .
ولقد كان السلطان كثير الروء ، ندى اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يعلم عنده ، ولا يخاطبه بشيء إلا ويتجزه .

وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً : ولقد وفد عليه البرنس - صاحب أنطاكية - فأسأله به
إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصالح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسة ، عند متصرفه
من القدس إلى دمشق ، عرض له في الطريق ، وطلب منه شيئاً ، فأعطاه المسك ، وهي بلاد كان أخذها منه عام
فتح الساحل ، وهو سنة أربع وثمانين .

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة^(١) ، فاحتقره (١٢٠) وأكرمه^(٢) ، وأكل منه الطعام ،
ومع ذلك عرض عليه الإسلام ، فذكر له طرقاً من محاسنه ، وحثه عليه .

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوى الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا تنقل عن
يحتاز بالغليم من المشايخ المروفين حتى يحضرم عنده ، ويتألم من إحسانه .

ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمسة رجل جمع بين العلم والتصوف ، وكان من ذوى الأقدار ، وأبوه
صاحب توريز - كان - فأعرض هو عن فن أبيه ، واشتغل بالعلم والعمل ، ورجح ، ووصل زائراً لبيت الله للقدس ،
ولما قضى لباته منه ، ورأى آثار السلطان - رحمه الله - فيه ، وقع له زيارته ، فوصل إلينا في العسكر المنصور ،
فأسأله به إلا وقد دخل على في الخيمة ، فلقينته ورحبت به ، وسأله عن سبب وصوله ، فأخبرني بذلك ،
وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحيدة الجيدة^(٣) ، فمرفت السلطان - رحمه الله عليه - تلك

(١) هذا القنط ساقط من الأصل ، وقد أضيف عن (م) .

(٢) بهذا القنط يهود التسي في الأصل إلى الامثال والانساق في ص (١٢٠) .

(٣) هذا القنط أضيف عن (م) .

الليلة^(١) وصول هذا الرجل ، فاستحضره ، وروى عنه حديثاً^(٢) وشكره عن الإسلام ، وسه على الخير^(٣) ، ثم انصرفا ، وبات عندى فى الخيمة ، فلما صلبنا^(٤) الصبح ، أخذ يودعنى ، فقُبِّحتُ (٢٠ ب) له المسير بدون وداع السلطان ، فلم يلتفت ولم يُلَوِّ على ذلك ، وقال : قد قضيتُ حاجتى منه ، ولا غرض لى فى عدا رؤيته وزيارته ، وانصرف من ساعته . ومضى على ذلك ليالٍ ، فسأل السلطانُ عنه ، فأخبرته بعمله ، فغفر عليه آثار الغضب ، كيف لم أخبره برواحه ، وقال : كيف يطرقتا مثل هذا الرجل ، وينصرف عنا من غير إحسان بمئة منا ؟ وشدد التفكير على^(٥) فى ذلك ، فاجلستُ بداً من أن أكتب كتاباً إلى محيى الدين - قاضى دمشق - كلفته فيه السؤال عن حال الرجل . وإيصال رقة كُتِبَتْها إليه على كفاي ، أخبره فيها بانكار السلطان رِوَايَته من غير اجتماعه به ، وحسنتُ له فيها العود ، وكان بينى وبينه صداقة تقتضى مثل ذلك ، فاجلستُ به إلى أن قد عاد إلى^(٦) فكُتِبَتْ رقة وأبلغته بذلك ، فكتب إلى يقول : تحضره معك ، ففعلتُ ذلك^(٧) ، فرحّب به ، وانيسط معه ، واستوحش له ، وأمسكه أياماً ، ثم خلع عليه خلة حسنة ، وأعطاه مركبا لائقاً ، وثياباً كثيرة ، يحملها إلى أهل بيته^(٨) وأتباعه وجيرانه^(٩) وثقة يرتفق بها^(١٠) ، وانصرف (١٧١) عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأجله . ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير أفرنجي وقد هابه^(١١) ، بحيث أنه ظهرت عليه أماراتُ الخوف والجزع ، فقال له الترجمان^(١٢) : من أى شئ تخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أن قال : كنتُ أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فيمد رؤيتي له وحضورى بين يديه ، أيقنتُ أنى ما أرى إلا الخير فرق له ، ومن عليه ، وأطلقه .

ولقد كنتُ راكبا فى خلعتى فى بعض الأيام قبالة الافرنج وقد وصل بعض البرّكيّة^(١٣) ، ومعه امرأة شديدة التحرق^(١٤) ، كثيرة البكاء ، متواترة الدمع على صدرها ، فقال البرّكى : إن هذه خرجت من عند الافرنج ، فسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها . فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها^(١٥) ، فقالت : اللصوص المسلون

(١) م : « اللسان بذلك ليلة وصول » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « صلت » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) م : « بيه » .

(٦) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٧) م : « وقد أسابه كرب » وهذا مثال واضح على سقم نسخة (م) .

(٨) م : « فقال الترجمان » .

(٩) البرّكى لفظ فارسى منته : لطلاع الجيش . انظر : (Doxy : Supp. Dict. Arab) .

(١٠) م : « الخوف » .

(١١) م : « قسيتها » .

دخلوا الباحة إلى خيمتي، وسرقوا ابنتي، وبث الباحة أستغثت إلى بكرة التهار، (قيل لي: للآك هورسم)، ونحن نخرجك إليه تطلين ابنتك منه، فأخرجوني إليك، وما أعرف بنتي إلا منك. فرق لها، ودمعت عينه، وحركته مروءته، وأمر من ذهب إلى سوق السكر، يسأل عن العنيرة: من اشتراها، ويدفع له ثمنها، ويحضرها (٢١ ب) وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فامضت ساعة حتى وصل الفارس والعنيرة على كفتيه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليه، خرت إلى الأرض تغر وجهها في القرب، والناس يبتكون على ما نالها، وهي ترفع طرفها إلى السماء، ولا تلم ما تقول، فسكت ابتها إليها، وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم.

وكان - رحمه الله - لا يرى الإساءة إلى من يحبه وإن أفرط في الخيافة، ولقد قلب^(١) في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الففوس، فاعمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من علمهم، لا غير.

ولقد دخل عليه البرنس أرنأط^(٢) - صاحب الكرك - مع ملك الأفرنج الساحل لا أسرحا في وقته حطين في شهر سنة ثلاث وثمانين وخمائة، والواقعة مشهورة تسمى مشروحة في موضعها - إن شاء الله تعالى - وكان قد أمر بإحضارها، وكان أرنأط - هذا العين - كافراً عظيماً جباراً شديداً، وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر - حرسها الله تعالى - حين كان بين السليين وبينهم هدنة - فندرها وأخذها، ونكل بهم، وهذبهم، وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة وذكروا له حديث المدة، فقال: قولوا لحمدكي يخلصكم.

فلما بلغه - رحمه الله - ذلك عنه، نذر أنه متى أغتره الله به قتله بنفسه؛ فلما أسكنه الله منه في ذلك اليوم، قوى عزمه على قتله - وقاه بنذره - (١٢٢) فأحضره مع الملك، فشكا للآك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه، ثم ناوله أرنأط، فقال السلطان للترجمان:

قل للآك: أنت الذي سقيته، وأما أنا فأستقي من شرابي ولا أطعمه من طمائي.

فقصده - رحمه الله - أن من أكل من طمائي ظلموه تفتي أن لا أؤذيه.

ثم ضرب عنقه بيده وقاه بنذره - وأخذ عكا، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأمر، وكاتوا زهاء

(١) م: «قال لي اللواتي السلطان هو أرحم».

(٢) كذا في الأصل، وفي (م) «أجل».

(٣) حكنا ترجمه للرايح العربية، وهو (Le Prince Arnould Seigneur de Carac).

وكان اسمه قبل مجيئه إلى العلم: Renaud de chatillon).

أربعة آلاف أسير ، وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله .

مكثا يلتقي على السنة جماعة ، لأنى لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن الشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظا لأنساب العرب ووقائهم ، عارفا بسيرم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم ، علما بمجائب الدنيا ونواحيها ، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالا يسمع من غيره .

وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداوانه ومطعمه ومشربه ، وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس ، لا يذكر بين يديه أحد إلا بالخير ، وطاهر^(١) السمع ، فلا يجب أن يسمع (٢٢ ص) عن أحد إلا بالخير ، وطاهر اللسان ، فإدبته ولم يشتم قط^(٢) وطاهر القلب ، فما كتب بقله إنيذا مسلم قط^(٣) .

وكان حسن العهد والوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على خلقه ، وسير قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه^(٤) ؛ وإن كان له من أهله كبير يمتد عليه سلمه إليه ، وإلا أتى له من الخبز ما يكفي حاجته ، وسلمه إلى من يتقى بقرينته ويكتفلها .

وكان لا يرى شيئا إلا ويرى له ويعطيه ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحته وسكان رضوانه

فهذه نبذة من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه ، انحصرت عليها خوف الإطالة والإسأم ، وما سطرت إلا ما شاهدته ، أو أخرجني الثقة به وسقته ؛ وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له ، وهو يسير عما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته ، وقدمت^(١) خدمته ، ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال .

وحيث نجز هذا القسم ، فنشرع الآن في القسم الثاني من الكتاب ، في بيان تقلبات أحواله (١٢٣) ووقائمه وفوضاته في تواربها - قدس الله روحه ، ونور بنور رحته ضريحه .

(١) م : أحد إلا بخير السمع .

(٢) منه الجملة سالقة من (م) .

(٣) م : « وأعطاه وسير مما به » ولا يستقيم بها للنس .

(٤) م : « وخدمته » .

القسم الثالث

في يان

قلبات أحواله ووقائمه وفتوحاته في قواربها

قدّس الله روحه ، ونور ضريحه

فذكر حركته إلى مصر في النوبة الأولى

صحبة معه أسد الدين

وكان سبب ذلك أن شاور^(١) وزير للمرين - كان قد خرج عليه إنسان يقال له الفرغام ، وكان يروم منصبه ومكانه ، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قبل ، وغلب عليه ، وأخرجه من القاهرة ، وقتل ولده ، واستولى على السكان ، وولى الوزلة .

وكانت عادة للمرين أنه إذا غلب شخص صاحب للنصب ، فبجز صاحب للنصب عن دفعه ، وعرفوا مجزؤه ، وقبوا لقاهر منهم ، ورتبوه ومكثوه ، فإن قوتهم إنما كانت بسكر وزيرهم ، وهو مقلبٌ عندهم بالسلطان ، وما كانوا يؤمنون للكاشفة ، وأغراضهم مستتبه^(٢) وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال^(٣) .

(٢٣ ب) فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة ، اشتد في طلب الشام فأخذ خيطة نور الدين بن زنكي ، مستصرحاً به مستصرحاً على أعدائه بسكره ، فقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بالخروج إلى محروسة مصر^(٤) قضاء لحق القوافد للمستصرخ ، وبعث^(٥) لبلاد وتطلعا إلى أسوالها ، وذلك في شهر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، فأتى أسد الدين شيركوه وسار إلى مصر ، فاستصحبه معه - رحمه الله - عن كراهية منه لملكه ، لسكان اختلاره إليه ، وجهه مقدم عسكره ، وصاحب رأيه ، وساروا حتى وصلوا إلى محروسة مصر ، وشاور معهم ، في الثاني من جمادى الآخرة سنة ثمان للذكورة .

وكان لوصولهم إلى مصر موقع عظيم ، وخافه أهل مصر ، ونصر شاور على خصمه ، وأعادته إلى منصبه ومرتبته ، وقرّر قواعده ، واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد خير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيham والحال^(٦) .

(١) اسمه بالكمال : « أبو شجاع شاور بن بجر بن تراز بن عثمان بن شمس السدي » انظر ترجمته في (ابن خلكان : الوفيات) .

(٢) هذا انقلاب ساقط من (م) .

(٣) هذا كلام ابن شداد ، نقل عليه مراعاة لأمانة النشر ، تركيز الرد عليه لمن يعلم شيئاً من تاريخ المرين وعاداتهم .

(٤) م : « مصر المحروسة » .

(٥) م : « وسخطا » .

وكان ابتداء رحيله^(١) عنها (١٢٤) متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة سنة ثمان للذكورة ، وكان لا يفعل أمراً ، ولا يقرّر حالاً إلا بمشورته ورأيه ، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة والفكرة المسيحية ، واقترب النصر بحركاته وسكاته ، فأقام بالشام مدبراً لأمره ، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، عندئذ بنى نفسه ، مقرراً لقواعد ذلك مع الملك المادل نور الدين - رحمه الله - إلى سنة اثنتين وستين وخمسة .

ذكر

عوده إلى مصر في العدة الثانية

وسبب ذلك

وهي معروفة بوقعة البابين^(٢)

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك ، فداخه الخوف على البلاد من الأتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طبع في البلاد . وأنه لابد له من قنصلها ، فكاتب الأفرنج ، وقرّر معهم أنهم يميثون إلى البلاد ويمكنونه فيها^(٣) . تمكينا كلياً ، ويعينونه على استعمال أعدائه ، بحيث يستر قلبه فيها ، ويبلغ ذلك أسد الدين والملك المادل نور الدين (٧٤) ، فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها^(٤) الكفار ، فيستولوا على البلاد كلها ، فتجهز أسد الدين ، وأخذ معه الملك المادل نور الدين الساكر ، وألزم السلطان - رحمه الله - بالسير معه ، على كراهية منه لذلك .

وكان توجههم في أثناء ربيع الأول من شهر^(٥) سنة اثنتين وستين وخمسة ، وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الأفرنج إليها .

(١) م : « رحله » .

(٢) البابين : قرية كانت تحيط بجنوبي مدينة القيا .

(٣) م : « وعسكرتهم » .

(٤) م : « ملكها » .

(٥) م : « في الثاني عشر ربيع الأول سنة الخ » .

واتفق شاور مع الافرنج على أسد الدين ، وللمصريين بأسرهم ، وجرى بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وافضل الافرنج من البطار المصرية ، وافضل أسد الدين .

وكان سبب عود الافرنج أن نور الدين جرد السكاكر إلى بلاد الافرنج ، وأخذ اللنيطرة^(١) ، وعلم الافرنج بذلك تخلفوا على بلادهم وعادوا .

وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب موازنة الافرنج والمصريين وما عاونه من الشدائد وعائنه من الأهوال ؛ وما عاد حتى صالح الافرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر .

وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضم إلى قوة الطبع في البلاد شدة لطوف من الافرنج ، لئله أنهم كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام في الشام على مضى وقلبه مقلقل ، والقضاء بجزءه إلى شيء قد تُدرّ لغيره ، وهو لا يشمر بذلك .

وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة اللنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب ، وشرب قلعة أكاف بالبرية .

وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين - رحمهم الله - بحجة الفزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، تغزّروا هونين في شوال منها .
وفي ذوى القعدة منها كان عود أسد الدين من مصر ، وفيه مات قرا أرسلان بدير بكر .

ذكر

عودهم إلى مصر في القعدة الثالثة وهي التي ملكوها فيها

وجرى ما جرى في شهور سنة أربع وستين وخمسة

وكان سبب ذلك أن الافرنج - خذلهم الله - جمعوا راجلهم وفارسهم ، وخرجوا يريدون البطار المصرية ، ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد ، طمعا في البلاد .
فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلد .
أما (٢٥ ب) نور الدين فهالل والرجال ، ولم يبرّ بنفسه خوفا على البلاد من الفرنج ، ولكنه قد حدث نظره

(١) للنيطرة : حصن بالشام قريب من طرابلس . « يا قوت » ٤ - ٦٧٣ ط ليونج .

إلى جانب للوصول بسبب وفاة زين الدين على بن بكشكين - رحمه الله - ، فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمائة ، وسلم ما كان في يده من الحصون إلى قطب الدين أتابك ماعدا إزبل - فلها كلها كانت له من أتابك زنكي - رحمه الله - . فحدث نور الدين إلى ذلك الجانب طلع بهذا السبب ، فسفر الفسكر .

وأما أسد الدين فبنفسه ^(١) وماله وأهله ورجاله ؛ وقد قال في السلطان - قدس الله روحه - : « كنت أكره الناس للخروج في هذه البغية ^(٢) ، وما خرجت مع جى باختيارى » ؛ وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : « وَصَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وكان شاور لما أحسنُ بخروج الأفرنج إلى مصر حل تلك القاعدة أخذ إلى أسد الدين يستصرخه ويستعجده ، فخرج مصرحاً ؛ وكان وصوله إلى محروسة مصر في أثناء ربيع الأول سنة أربع وستين وخمائة .

وفي هذه السنة سنة أربع وستين وخمائة ملك نور الدين قلعة جبر (٢٦) في الحرم ، ابتاعها من صاحبها ابن مالك بسروج وباب بزاعة ولللوحة بمد قبضه .

وفي هذا الشهر ملت ياروق الذي تنسب اليووقية إليه .

ولما علم الأفرنج وصول أسد الدين إلى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين ، وعلى أعقابهم ناكسين ، وأقام أسد الدين بها ، يتردد إليه شاور في الأحيان ؛ وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة ، فلم يوصل إليهم شيئاً ، وعظمت غاليب أسد الدين في البلاد ، وعلموا أن الأفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن ترددهم إليها في كل وقت لا يفيد ، وأن شاور يلعب بهم تارة ، وبالأفرنج تارة أخرى ، ^(٣) وملاكلها كانوا على البعدة للشهوة منهم ^(٤) ، وعلموا أنه لا يسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، فأجمعوا أمرهم على قبضه إن خرج إليهم ، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج في بعض الأحيان إلى أسد الدين مجتمع ^(٥) .

(١) م : « فيفسه وملكه » .

(٢) م : « البغية » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

وكان [شاور] يركب على قاعدة وزرائهم - بالبلبل والبيقو والعلم - فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة إلا السلطان بنفسه : وذلك أنه لما سار (٣٦ ب) إليهم تلقاه راكباً ، وسار إلى جانبه ، وأخذ بجلايينه ، وأمر المسكر أن خذوا على أصحابه ، قفروا ونهبهم المسكر ، وقبض على شاور ، وأُتزل إلى خيمة مفردة .

وفي الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص : لابد من رأسه . يقول : على عاتقهم في وزرائهم في حرر قاعدة من قوتهم منهم على صاحبه ، فقبِزَت رقبته ، وأُخذ رأسه إليهم .

وأُخذ إلى أسد الدين خلة الوزارة ، قلبها سار ودخل القصر ، ورُتِبَ وزيراً ، وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسة . ودلِمَ أمراً ناعياً ، والسلطان - رحمه الله - مباشرُ الأمور ، مقرراً لما ، وزعماً الأمر والنهي مفوضٌ إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأنيه ^(١) وسياسته إلى الثاني والمشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ذكر وفاة أسد الدين

رحمه الله

ومصير الأمر إلى السلطان

وذلك أن أسد الدين كان كثير الأكل ، شديد المواظبة على تناول اللحوم الناعمة ، وتتوافر عليه التسخيم والخوانيق ^(٢) ، وينجو منها بصد معاناته ^(٣) شدة عطية ، فأخذ مرض شديد واعتراه خافوق عظيم ، فقتله في الثاني والمشرين من جمادى الآخرة في السنة المذكورة . وفُوضَ الأمرُ بيده إلى السلطان ، واستقرت القواعد ، واستتبحت الأحوال على أحسن نظام ؛ وبذل المال وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فلُكِبها ، وشكر نعمة الله عليه ، فتاب عن الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو وقصص بلباس الجلد والاجتهاد ، وما عاد عنه ، ولا ازداد إلا جدّاً ، إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

(١) حكى في الأصل - وفي (م) : « وأبى »

(٢) الخناق أن يبعث ليلعيق شيق ، يقال له خوانيق ، وهو خنوق . (الخوارزمي : مغنيع العلوم ، ١٧) .

(٣) (م) « معلقة »

وقد سمعت منه يقول : « لما يسّر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك في نفسي » . ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الافرنج إلى الكرك والشوبك وبلاعا ، وغشى الناس من محائب الفضل والتم مالم يؤرخ عن غير تلك الأيام .

هذا كله وهو وزير متابع للقوم ، ولكنه (٣٧ ب) مقوّر لمذهب السنة ، غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ، ويغدون عليه من كل جانب ، وهو لا ينجيب قاصداً ، ولا يقدم واقفاً « إلى سنة خمس وستين وخمسة » .

ولما عرف تور الدين استقرار أمر السلطان بصر ، أخذ حصن من نواب أسد الدين ، وفك في رجب من سنة أربع وستين وخمسة .

ذكر قصد الافرنج حياط

حرسها الله تعالى

ولما علم الافرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم ، وما تمّ للسلطان من استعادة الأمر في الديار المصرية علموا أنه «^(١) تلك بلادهم ويترّب ديارهم ، وقلم آثارهم ، لما حدث له من القوة والملك ؛ فاجتمع الافرنج والروم جميعاً ، وحدّثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية ، والاستيلاء عليها ومملكها ، ورأوا قصد حياط ، لتتمكن القاعد لما من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لما حصل لهم تنفرس قدام^(٢) يأوون إليه » فاستمعجروا للتجنيقات

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « خافوا أن »

(٣) حذان الفشتان ساقطة من (م) .

والجبال^(١) ، والجروح^(٢) ، وآلات الحصار ، وغير ذلك :

ولما سمع الأفرنج بالشلم^(٣) بذلك ، اشتد أمرهم ، فسرخوا حصن عكا من المسلمين ، وأمسروا صاحبها . وكان ملوكا لنور الدين يسنى خنطج^(٤) العلم دار ، وذلك في ربيع الآخر منها^(٥) . وفي رجب منها توفي العبادي صاحب نور الدين وأمير حلبه ، وكان صاحب بلبك وتدمر^(٦) .

ولما رأى نور الدين ظهور أمر الأفرنج ، وبلغه نزولهم على دمياط ، قصد شغل قلوبهم ، فنزل على السركك

(١) جاء في (اللسان) : «الغابة» آفة تنفذ من جلود خشب ، يدخل فيها الرجال ويغريونها من الحصن ليقبوه ، ويقيم ما يرمون به من قلوبهم ، سميت بذلك لأنها تنفذ تنفذ ، ومن حديث عمر : « قال : كيف تصنعون بالحصون ؟ قال : تنفذ دبابات يدخل فيها الرجال » .

وقد قرن (مرضى بن علي) بينها وبين الأبراج والساكن ، ووصفها جيئاً ووصف طرق صنعها في كتابه سالف الذكر . انظر (C. bahen op. bit p. 18-19)

كذلك وصفها (المسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢) بقوله : « هي آفة سائرة تنفذ من الخشب الثخين للثأر ، وتنفذ باليد والجلود للنفقة في الخيل فخر النار ، وتركب على جبل مستدير ، وتحرك فتجر ، وربما جعلت برجاً من الخشب ، وغير فيها هذا التغيير ، وقد يدخلها الرجال فتدفع على البكر » ؟ وقد وصف (العباد الأسفاني : الفتح النسي) إحدى دبابات الأفرنج بأنها كانت دبابة عظيمة مائة ، ولها أربع طيول ، وهي خشب وورس وحديد ونحاس ، وسيصف المؤلف ابن شداد فيها على هذا إحدى دبابات الأفرنج وصفاً تفصيلياً شاملاً : انظر كذلك : (فيان ثابت : الجنيد في الدواقيع السياسية) و (Dozy : Supp. Dict. Arab. و ابن واصل : مفرج الكروب ، لفر السيل ، ج ١ ، ص ١٨٠ — ١٨١) .

(٢) البرخ (Jarkh) مأخوذة عن الفارسية (تسرخ Tcharkh) — والجمع جروح — ، وهو نوع من القوس الرأى الذي ترمى منه القناصل أو القنط ، حكماً كقصفه القوس ، ويمكننا وصفه (Dozy : Supp. Dict. Arab. (Uncarbalette avec laquelle on) بأنه

(lançait, Soit des flèches Soit le naphte)

وقد ذكر (مرضى بن علي : تيمرة أرباب الألباب ، ص ٦ — ٨) أربعة أنواع للقوس الرأى الذي يشبه للجنيد ، وهي : قوس الزباد ، والقوس القناد ، والبرخ ، وقوس الرجل ، وقال لؤي بن علي عن تيمرة السهام أو القنط «البرخ» ويقابله بالفرنسية (Arbalétrier) والجمع «البرخية» . انظر أيضاً (P. 152) (C. cahen UnExtrait - d' Armure ric et. P. 152)

هذا وقد عقد (المسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٦٠) فصلاً في حفة القسي والقناصل أخشاب في سلوفاة قسيه من القوس التي تؤثر استعمال البرخ ، ومن الناحية بين البرخ والقوس القناد ، وأين يتصل كل منها ، لأن قوس البرخ يصنع من القرن ، والقناد يصنع من الخشب ، قال : « والناحية والقرن يأتون قسي البرخ ، وهي أكثر قسماً من داخل السور ولها مراكب البحر ، والقسي البروخ القرن تصلح للقلاع ، والقناصل جميعاً خشب ، ما تصلح إلا في البحر ، لأن حمولة البحر يضر بالقرن ويقلد والقناصل الخشب ما تغير فيه ، وقيل أن تخشى سهام البروخ إذا كان الرأى بها عارضة سائفة » .

(٣) م : « المخرج القلم » .

(٤) م : « خنطج »

(٥) هذه الجلة سائلة من (م) .

محاصراً لها في شبان من هذه السنة ، قصدته افرنج الساحل ، فرسل عنها ، وقصد اقادم ، فلم يفتواها ^(١) .

ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسة ^(٢) فاشتغل قلبه ، لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام ، فبلغه خبر الزلزلة بحلب ^(٣) التي أخرجت كثيراً من البلاد ^(٤) وكانت في ثاني عشر شوال من السنة ^(٥) للذكورة وهو بمشتر ^(٦) . فسار يطلب حلب ، فبلغه موت قطب الدين أخيه بالموصل ، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة للذكورة ، وبلغه الخبر وهو يزل بأمر فسار من ليته طالباً بلاد الموصل .

ولما علم السلطان شدة قصد العدو دياط أخذ إلى البلد ، وأودعه من الرجال وأبطال (٢٨ ب) الفرسان واليرة وآلات السلاح ^(٧) ما أمن معه عليه ، وعد للقيمين فيه بإمدادهم بالمساكر والآلات وإزهاج ^(٨) العدو عنهم إلى نزل عليهم ^(٩) . وبالغ في المطالب والمليات ، وكان وزيراً متحكماً لا يرد أمره في شيء ^(١٠) . ثم زل الاقترج عليها في التاريخ للقدم للذكور ، واشتد زحفهم عليها وقتلهم لها ، وهو يشن التارات عليهم من خارج ، والمساكر تقتلهم من داخل ، ونصر ^(١١) الله المسلمين يؤذيهم ، وحسن قصده في نصرة دين الله يسددهم وينجدهم ^(١٢) ، حتى هزمهم ^(١٣) . انخرسان وظهر على السكر الإيمان ، ورواوا أنهم يتبعون برؤوسهم ، ويسلمون بقوسهم ، فرحوا خائبين خاسرين ، فخرقت مناجيهم ونهبت آلامهم ^(١٤) ، وقتل منهم خلق عظيم ^(١٥) ، وسلم البلد ^(١٦) بحمد الله ومنه عن قصدهم ، وظهر جوفيق الله فلهم ، واستقرت قواعد السلطنة .

(١) : م « فلم يفت لهم على أمر »

(٢) : هنا القبط غير موجود في (م) .

(٣) : حدثت هذه الزلزلة في ثاني عشر شوال . أنظر أخبارها بالتفصيل في : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣)

والرويتين : ج ١ ، ص ١٨٤)

(٤) : هذه الجلة ساقطة من م .

(٥) : وعفراً موضع بموران من أعمال دمشق (ياقوت : معجم البلدان) .

(٦) : م : « وآلات السلاح »

(٧) : م : « وإياد »

(٨) : هذه الجلة ساقطة من (م)

(٩) : النص في (م) : « ونصر الله المسلمين وأيدهم ، وحسن قصدهم في نصر دين الله وأسدهم وأنجدهم »

(١٠) : م : « ولا اقترج »

(١١) : هنا القبط ساقط من (م)

(١٢) : م : « وكثير »

(١٣) : أنظر تفاصيل أخبار نزول الاقترج على دياط وحصارها لها في (ابن واسل : مفرج الكروب ، نصر الشهاب ، ج ١

ص ١٧٩ وما بعدها) و (جمال الدين الشيال وعبد سعيد الريان : قصة الكفاح بين العرب والاسلام ، الفصل الأول) .

ذكر^(١)

طلبه والده

ثم أخذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور ، ويجمع القصة مشاكلة ما جرى^(٢) لنبى يوسف - صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين - ، فوصل والده نجم الدين إليه في أثناء جمادى الآخرة من سنة خمس (١٢٩) وستين وخمسة وسلك معه من الأدب ما كان عادته ، وألبسه الأمر كله ، فأبى أن يلبسه ، وقال : « يا ولى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كنفؤ له ، ولا ينبغي أن يُنير موضع السعادة » . لحسكه في الخزان بأسرها^(٣) وكان - رحمه الله - كرمًا يطلق ولا يرد^(٤) ؛ ولم يزل السلطان وزيراً محكماً حتى مات الماحض أبو محمد عبد الله ، وبه ختم أمر للصريين .

وأما نور الدين - رحمه الله - فإنه أخذ الوقت في الحرم ستة ست وستين ، وسار منها إلى نصيبين ، فأخذها في بقية الشهر ، وأخذ يستجار في ربيع الآخر منها .

ثم قصد الموصل ، وقصد أن لا يقاتلها ، فبهر يسكره من مخاضة بكر ، وسار حتى خيم قبالة الموصل على تل يقال له الحصن ، وواصل ابن أخيه سيف^(٥) الدين غازى - صاحب الموصل - ، وعرفه حمة قصده ، فصالحه ، ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى ، وقرّر صاحبها فيها ، وزوّج ابنه ، وأعطى عماد الدين أخاه^(٦) - منجار - وخبرج من الموصل قاصداً نحو الشام ، فدخل حلب في شبان من هذه السنة .

(١) هذا العنوان غير موجود في الأصل ، وقد أنشيف من (م) .

(٢) م : « ونجى القصة مشاكلة لما جرى » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) م : « عز الدين » .

(٥) م : « ابن أخيه » ، والنس على هذا الوجه يقصد به أن عماد الدين هو ابن أختى نور الدين ، أما نس الأصل

فالقصد به ابن عماد الدين هو أخ سيف الدين غازى .

موت العاصد (٢٩٠) ذكر

وكان موته في يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين وخمسة ، واستقر الملك للسلطان ، وكان حطّاب بنى العباس في أول أمر العاصد وهو حي* ، وكانت الخطبة اجتذوها للمستضيء بأمر الله ، واستمرت القواعد على الاستقامة ، وهو كما استولى على خزائن مال^(١) وهبها ، وكما فتح له خزائن ملك^(٢) أنهبها ، ولا يبقى لنفسه شيئا ، وشرع السلطان في التأهب للفرزاة ، وقصد بلاد العدو وتعمية الأمر لذلك ، وتقرر قواعده .

وأما نور الدين فإنه عزم على الفرزاة ، واستدعى صاحب الوصل ابن أخيه ، فوصل بالسافر إلى خدمته ، وكانت غزوة^(٣) حرقا وأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين وخمسة .

ذكر أول غزوة غزاهما من الديار المصرية

(١٣٠) ولم يزل على بسط العدل ونشر الإحسان وإفادته الإنعام^(٤) على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسة ، فمذ ذلك خرج بالسافر يريد بلاد الكرك^(٥) وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق تمنع من قصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يُبهرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتصل البلاد بمقها ببعض ، وتسهيل على السابلة ، فخرج قاصدا لها^(٦) في أثناء سنة ثمان وستين وخمسة^(٧) فحاصرها ، وجرى بينه وبين الأفرنج قتلات ، وعاد عنها ولم ينظر منها بشيء في تلك الحدة^(٨) ، وحصل ثواب القصد .

وأما نور الدين فإنه فتح مَرَعَش في ذي القعدة من هذه السنة ، وأخذ بهسنا^(٩) في ذي الحجة منها .

(١) م : « خزائن من المال » .

(٢) م : « غزاة » .

(٣) م : « ولاية الإحسان » .

(٤) م : « الكرك والقويك » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٦) م : « الرافقة » .

(٧) م : « بها » .

ذكر وفاة والده نجم الدين

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين ، فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته ، وكان سبب وفاته وقوعه عن القرس ، وكان رحمه الله شديد الركن ، ولما بلغ البكرة ، بحيث من رآه يلعب بها يقول : « ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر القرس » . (٣٠ ب) وكانت وفاته « رحمه الله بمصر » في شهر سنة ثمان وستين وخمسةائة^(١) .

ذكر فتح اليمن^(٢)

« ولما كانت سنة تسع وستين » رأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد أخوته وقوة بأسهم ، وكان بلغه أن اليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها ، وهو يحط ب نفسه ، يُسَى بعبد النبي بن مهدي^(٣) ، ويَزعم أن ينتشر ملكه في الأرض كلها ، ويتسبب الأمر له ، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر شمس الدولة للملك للعظم توراشاه ، وكان كريماً أرحمياً حسن الأخلاق ، سمع منه - رحمه الله - الثناء على كرمه ومحاسن^(٤) أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه .

وكان توجهه إليها في أثناء رجب سنة تسع وستين ، فضى إليها ، وفتح الله على يديه ، وقُتل الخارجى الذى كان بها ، واستولى على مظلماً ، وأعطى وأغنى خلقاً كثيراً .

(١) هذه التواريخ سابقة من (م) .

(٢) م : « سنة تسع وستين » وهو خطأ واضح ، وكانت وفاة نجم الدين يوم الاثنين ١٨ ذى الحجة سنة ٥٩٨ هـ .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٤) هذه الجملة سابقة من (م) .

(٥) المهديون أسرة حكمت يزيد بين سنين (٥٥٤ — ٥٦٩ = ١١٥٩ — ١١٧٢) ، وحكم من هذه الأسرة ثلاثة

قطب ثم : على بن مهدي ومهدي بن على ، وعبد شمس بن على . انظر :

(St. Lane - Poole : Mohammadan Dynasties P. 96)

(٦) م : « وحسن » .

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي

رحمه الله

وكانت وفاته بسبب خوافيق اعترضته أيضاً ، عجز الأطباء عن علاجها ، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر^(١) من شوال سنة تسع وستين وخمسة ، وذلك في (١٣١) قلة دمشق ، وقام مقامه ولده الملك الصالح إسماعيل .

ولقد حكى لي السلطان قال : « كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا^(٢) بالبحر للصربية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكشف ويخالف ويشق عصاه ، ويلقي عسكره بمصاف يرد^(٣) إذا تحقق قصد ، وكنت وحدي أخافهم ، وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته » .

ذكر مناقشة الكنز بأسوان

وذلك في شهر سنة سبعين وخمسة^(٤)

والكنز^(٥) إنسان مقدّم من المصريين كان قد اتّبع إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ، ويجمع السودان عليه ، ويخيل لم أنه تلك البلاد ويبيد الدولة المصرية ، وكان في قلوب القوم من مهادنة للمصريين

(١) م : « في الحادي والعشرين من شوال » وهو خطأ واضح ، وما بلغ هو الصحيح ، راجع : (فرج الكروب ، نصر الفيل ، ج ١ ، ص ٢٦٣) .

(٢) م : « أنه قصد » .

(٣) م : « أن تكافئ ويخالف ويثق عصاه ولقى عسكره بمصاف يرد » .

(٤) م : « تسع وستين » وهو خطأ واضح .

(٥) الكنز في الأصل يان من الفيلة البرية (وية) ، استقروا حول مدينة أسوان وفي بلاد النوبة ، ثم اختلطوا مع النوبيين وتزوجوا منهم ، وه كنز الدولة . لقب منحه لأول مرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لحكم النوبة في عهده أبو المكارم مبة الله بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي عند ماظهر بالثار أبي ركة الفجار إلى بلاده وأرسله إلى الحاكم ، وكان آخر من لقب منهم بهذا اللقب هو كنز الدولة هذا الماسر لصلاح الدين ؟ (قال القرطبي : البيان والإعراب ، ص ٥٠) : « ولم يزل الإمارة بهم ، وكلهم يعرفون بكنز الدولة » حتى كان آخرهم كنز الدولة ، قتله الملك الناصر أبو بكر بن أيوب في سفر سنة ٥٧٠ هـ عند ماخلف على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجم لحربه ، وقتل أنا أبي الحبيب السنين ودعا للأمير طوود بن السلند ، وكان قتله على مدينة طوود بعد سروب شديدة ؟ ويؤكد أن الكنز ثم سلافة هؤلاء العرب بعد اختلاطهم مع النوبيين ، وكانت لهم السيطرة التامة على الصعيد في العصر المملوكي ، ولا زالت قبيلة الكنز تعيش حتى اليوم في المنطقة الواقعة بين أسوان وكروسكو . أنظر كذلك : (القرطبي : أحوال الخلفاء) غلطة سري ، ص ٦٠ ب) و (ابن واصل : فرج الكروب ، نصر الفيل ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، ج ٢ ، ص ١٦٦ - ١٧) و (أبو حنيفة : القروضين ، ج ١ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩) .

(Casanova : Les Derniers Fatimides)

(Trimingham : Islam in the Sudan P.68)

ما تستصغر هذه الأنفال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع واقر من السودان^(١) وقصد قوص وأعمالها .

واتبعه خيره إلى السلطان ، فجزده عسكرا عظيما شاكين في السلاح (٣١ ب) من الذين ذاقوا حلالة^(٢) ملك الجبل^(٣) للصربية ، وخلفوا على قوت ذلك منهم ، وقدم عليهم أخاه الملك المادل سيف الدين ، وسار بهم حتى أتوا القوم فقيهم بمصاف فبكرهم ، وقتل منهم خلقا عظيما ، واستأصل شأقتهم ، وأخذ نازيتهم ، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين ؛ واستقرت قواعد الملك ، واستوت أموره ، والله الحمد ولآلته .

ذكر

قصد الافرنج فتح الاسكندرية

حرسها الله تعالى

وذلك أن الافرنج - خزلهم الله تعالى - لما علوا تغيرات الأحوال بالبلاد المصرية ، وتقلب الدول بها داخلهم الطمع في البلاد ، وبركوا عساكرهم في البحر ، وكانوا في سبابة قطعة ما بين شينى^(٤) وطراثة^(٥) .

(١) هذا الظن غير موجود في (م) واصل أيضا (مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧) .

(٢) الدين أو الثاني أو الشبية أو الشونة - والجمع شواني - السفينة المربية الكبيرة ، وهي أهم السفن الكبيرة التي كان يتكون منها الأسطول في الدول الإسلامية ، وقال (الزبيدي : تاج العروس) بأنها من أصل مصري ، وذكر (ابن ماضي : قوانين الموالين ، ص ٢٤٠) أن الشبي كانت تسمى « بمائة وأربعين عددا ، وفيها المائة والجلفان » ، و (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣) في بعد حولة الشبي في المائة مائة وخمسين جنديا .

(٣) البرية - وقال الطراد أو الطراوة أو الطرية - والجمع طرائد ، وقال ابن ماضي : قوانين الموالين ، ص ٢٣٩ عند التصريف بها : « هي سفينة يرسم حل الميل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا » وقال (صاحب تاج العروس) : « الطراد - ككفان - سفينة صغيرة سريعة السير والجرى ، والمادة تقول طرية » ، وقال (Dasy: Supp. Dict. Arab) : « هي نوع من الراكب المربية أكثر حيا بالبر من المائتين من السفينة ، وكانت تستعمل في حل الحيل والفرسان » ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا ، و (مفرج الكروب لابن واصل ، المخطوطة حوادث سنة ٦٦٠ هـ) ما بين أن الطرية كانت تستعمل أحيانا لركوب الناس ، فقد ذكر أن بيرس أرسل في تلك السنة سفارة إلى ملك الصاركة خان من طريق البحر المتوسط والامبراطورية البيزنطية ، وروكهم في الطرايد ، وأصلح زوادة شهر كثيرة ، وقد تستعمل الأوربيون في المنور الوسط هذا النوع من السفن ، واستخرجوا منه من المربية نسوة في الاسبانة « Tarida » وفي الإيطالية « Tartana » وفي الفرنسية « Tartano » ، وفي الإنجليزية « Tartan » أنظر أيضا : Kirderman : Schiffm Arabischen P. 56-29 .

والتيال معجم السفن العربية ، المخطوطة نشرت بعد (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧ - ١٣) .

ويُسلِّطه^(١) وغير ذلك ؛ وكانوا في ثلاثين ألفاً على ما ذكر ، ونزلوا النهر الحروس ، وذلك في أثناء شهر صفر في السابع منه من هذه السنة وهي سنة سبعين ، فأمدَّ السلطان بالساكر للنصرة ، وتحرك ، وأدخل الله في قلوبهم (١٣٢) من الخوف والرعب ما يمكنهم الصبر معه ، وعادوا خائبين خلسرين بعد أن ضايقوا النهر ، وزحفوا عليه ثلاثة أيام ، وقاتله قتالاً شديداً ، وعصمه الله منهم^(٢) .

ولما أحسوا بمحركة السلطان نحوهم ما لبثوا أن خلفوا مناجيتهم وراهم وآلتهم ، فخرج أهل البلد إلى تنهبا وإحراقها ،^(٣) وكان من أعظم النعم من الله تعالى على المسلمين وأماة كل صلوة وبخاء ، والله الحمد والمنة .

وأما^(٤) نور الدين - رحمه الله - فإنه خلف والده لللك الصالح إسماعيل وكان يمشق ؛ وكان بقلة حلب ابن الأديبة شمس الدين علي وشاذ بنت^(٥) ؛ وكان علي قد حدث عنه بأمر ، فسار لللك الصالح من دمشق إلى حلب ، فوصل ظاهرها ثاني المحرم ومعه سابق الدين ، فخرج بدر الدين حسن لقاته ، قبض عليه سابق الدين ؛ ولما دخل لللك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن ، وأودع الثلاثة السجن ؛ وفي ذلك اليوم قُتل ابن انشلاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ، ذكروا أنه قُتل قبل امساك أولاد الأديبة يوم ، لأنهم تولوا ذلك .

(١) البَطْشَة أو البَطْشَة ، ويقال أحيانا بَطْشَة أو بَطْشَة ، وقد تحرف إلى بَطْشَة أو بَطْشَة - والجمع بَطْشَات وبَطْشَات وبَطْشَات . ذكر صاحب (محيط المحيط) أنها مأخوذة من الآرامية ، وسماها البقية الكبيرة ، وذهب من نصوص الرابع العربية في الصور الوسطى أنها كانت تستخدم أصلاً للحرب ، وقد تستخدم لقتل النجارة ، وقال (علي مبارك : الخطأ التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٨٧) : « ومن أسماء الرماة أيضاً البطشة ، وبها يمشي ، يقال : جيز الفرج بطاشاً معصداً ، وجعلوا على سوارى البلس أبراجاً ، وجعلوا بطشة فيها ثلاثمائة من الفرج ، وبطشة كبيرة تقتل على مرة وذخيرة » ، وذهب من هذه النصوص أيضاً أن البطشة كانت تحمل في العادة ما بين ٣٠٠ و ٧٠٠ مثقال ، وقد أشار (ابن واصل : فرج الكروب) عند حديثه عن حصار مكاء في سنة ٨٨٧ هـ إلى بطشة كبيرة ، قال : « وكان السلطان قد أمر ببطشة عظيمة مائة بيوت ، مشحونة بالآلات والأسلحة والرجال ولثامه لتدخل إلى مكاء ، وكانت عدة لقاتها بها ستائة وخمسين رجلاً . . . الخ » . انظر الرابع للشار إليها في الحاشية السابقة ، وراجع أيضاً : (صلاح بن يحيى : تاريخ بيروت ، لفرانسوا هيجو ، ص ٣١ ، حاشية ٣) .

(٢) للإسلام بأخبار هذه الحلة وخماسيها وراجع : (أبو دله : الروشتين ، ج ١ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٥ - ١٥٦) و (ابن واصل : فرج الكروب ، لفرانسوا هيجو ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٦) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٧ ، ص ٢٨٧) و (الفرزدق : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥ - ٥٧) و (الفيل : الأسكندرية ، ليوغرافيا للبلدية وتاريخها ، ص ٧٧١) .

(Lane-Poole : Saladin. (Comb. med. Hist. Volv pp 184-207) (Runçimar : History) P. 427, of the (Crusades. Vol.I, P. 408)

(٣) م : « وكان أسراً عظيماً ومن أعظم النعم على المسلمين ، وأماة كل صلاة » .

(٤) قبل هذا القلعة في نسخة (م) عنوان له : « ذكر خروج السلطان إلى الشام وأخذته دمشق » ، وقد ذكر في غير مكانه ، وسيأتى هذا العنوان هنا في لفتة بعد قليل في موضعه الصحيح . هذا الجمل غير موجودة في الأصل ، وقد أضيفت من (م) .

(٥) وودد في (ابن واصل : فرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٨) أن حاذ بنت كان موطراً لقتل حلب .

ذكر خروج السلطان

رحمة الله عليه إلى الشام ، وأخذة للمشق المحروسة

(٣٢ ب) ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين ، وكان ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ، ولا يستقل بنفسه عدو الله عن البلاد ، تجهز للخروج إلى الشام ، إذ هو أصل بلاد الإسلام ، فتجهز بجمع كثير من العساكر ، وخلف في الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، وتنظم أمورها وسياستها ، ويخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه ، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها ، واختلقت كلمة أصحاب الملك الصالح ، واختلت تدابيرهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك ، وسبباً لتغير قلوب الناس عن الصبي ؛ فاتفقوا^(١) الخال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ، ووصل [السلطان] البلاد مطالباً بالملك الصالح ، ليكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله ، فيقوم له ما هو وجب من أمره ، فوصل محروسة دمشق ، ولم يشق عليه عما ، ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سَلَخ ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة ، وتسلم قلعتها .

وكان أول دخوله إلى دار أبيه (١٣٣) ، واجتمع الناس إليه وفرحوا به^(٢) ، وأفق في ذلك اليوم في الناس ملاً طائلاً ، وأظهر الفرح والسرور بالمشقيين ، وأظهروا الفرح به ، وصعد القلعة ، واستقر قدمه في ملكها ، فلم يلبث أن سار في^(٣) حلب حلب ، منازل حص ، فأخذ مدينتها في جمادى الأولى سنة سبعين ، ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب ، ونازلها في يوم الجمعة سَلَخ الشهر المذكور ، وهي الوقفة الأولى .

ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين إلى لقائه

ولما أحسن سيف الدين - صاحب الموصل - بما جرى ، علم أن الرجل قد استفحل أمره ، وعظم شأنه ، وهلت كلمته ، وخلف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد ، واستقر قدمه في الملك ، وتعدى الأمر إليه ، فجهز عسكراً وانفراً وجيشاً عظيماً ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعوداً ، وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصافحه وردّه عن البلاد .

ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب مستهل رجب من السنة المذكورة عائداً إلى حماة ، وسار إلى (٣٣ ب) حص فاشتغل بأخذ قلعتها ، فأخذها ، ثم وصل عز الدين إلى محروسة حلب ، وانضم إليه من كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم .

(١) م : « هجر » .

(٢) م : « ول جوابه » .

(٣) م : « منان القطن سائقان من (م) » .

ولما عرف هو يسير سار حتى واثم في قرون حماة ، وراسلهم وراسلوه ، واجتهد أن يصلحوه ، فما صلحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الفرض الأكبر ، والمقصود الأوفر ، والقضاء يجر إلى أمور ، وهم بها لا يشعرون . واثم للمصاف بين المسكرين قضى الله أن انكسروا^(١) بين يديه ، وأسر جماعة منهم ، ومن عليهم وأطلقهم وذلك "عند قرون حماة" في تاسع عشر رمضان سنة سبعين وخمسة . ثم سار عقيب انكسارهم ، ونزل على حلب ، وهى الضفة الثانية ، وصلحوه على أن أخذ المرأة وكفر حلب وأخذ دارين ، وذلك في أول سنة سبعين وخمسة .

ذكر مسير سيف الدين بنفسه

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ، ودخله في طاحته ، وكان قد أغلبر أخوه الانتاء إلى السلطان ، واحتصم بذلك ، واشتد (١٣٤) سيف الدين في حصار السكان وضرب به بالنجيق حتى انهزم من سورته ثلث كثيرة . وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوع هذه الواقعة تخلف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره^(٢) ويقوى جأشه^(٣) ، فراسله إلى الصلح فصالحه . ثم سار من وقته إلى نصيبين ، واهتم بجمع الساكنين والإغاث فيها ، وسار حتى أتى الفرات وعبر البيرة ، وتيمم على جانب الفرات الشامي ، وراسل كشيكتين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها إليهم ، ووصل كشيكتين إليه ، وجرت مراجعت كثيرة ، وعزم فيها على المود مراراً حتى استقر اجتهاده بالملك الصالح ، وسمحوا به ، وسار ووصل بحروسة حلب ، وخرج الملك الصالح إلى لقائه بنفسه ، فالتقاء قريب القلعة ، وشبه إليه وبكى ، ثم أمره بالمود إلى القلعة فقاد إليها ، وسار هو حتى نزل بين المباركة ، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم :

وصعد القلعة جريئة ، وأكل فيها خبزاً ونزل ، وسار راحلاً إلى تل السلطان ومعه الدواب بكثرة وجمع كثير ، والسلطان قد أخذ في طلب الساكنين من مصر ، وهو يتربص وصولها (٣٤ ب) ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم ، وهم لا يشعرون أن في التأخير تدبيراً ، حتى وصل عسكر مصر ، فسار - رحمه الله - حتى أتى

(١) م : « قضاء الله فانكسروا » .

(٢) هذه الكلمات الثلاث غير موجودة في (م) .

(٣) هناك التثنية غير موجودين في (م) .

قرون حدة ، فبلغهم أنه قد قارب عسكره ، فأخرجوا اليك ، وجبروا من يكشف الأخبار ، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جبيل^(١) التركان ، وتفرق عسكره يتي ، فأمر الله نصرته قصده في تلك الساعة ، ولكن يقضى الله أمراً كان مقعولا ، فصبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا ، وتمتوا تنمية القتال .

وأصبح القوم على مصاف ، وذلك في بكرة الخميس المأثر من شوال سنة إحدى وسبعين ، فالتقى العسكران وتصادما ، وجرى قتال عظيم ، انكسرت مسيرة السلطان زين الدين مظفر الدين ، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحل السلطان بنفسه فانكسر القوم ، وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمرء ، منهم نغر الدين عبد المسيح فن عليهم وألقاهم .

وعاد سيف الدين إلى حلب المحروسة ، فأخذ منها خزانته ، وسار حتى عبر الفرات ، وعاد إلى بلاده . وأمسك هو - رحمه الله - (١٣٥) عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم ، فزعمهم كانوا قد أجروا النقل على ما كان عليه ، ولطالما قد علت ، ففرق الاصطبلات ، ووهب الخزان وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فر وخشاه ، وسار إلى منبج وتسلمها في بقية الشهر المذكور .

وسار حتى نزل على قلعة أحرار يحاصرها ، وذلك في رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين وخمسة ، وعليها وثب الإسماعيلية^(٢) عليه - رحمه الله - فتجاه الله من كيدهم ، وظفر بهم ، ولم يفل ذلك عزه ، وأقام عليها حتى أخذها ، وذلك في رابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة وسار حتى نزل على حلب المحروسة في سلاس عشر منه ، فأقام مدة ، ثم سار عنها ، فأخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة ، وسألت منه أعراس فوهبها لخالها .

وفي بقية الشهر أيضا وصل شمس الدولة^(٣) أخوه من اليمن إلى محروسة^(٤) بمشق وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الديار المصرية ، وتوفي بإسكندرية يوم الخميس^(٥) مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسة^(٦) .

ثم (٣٥ ب) إن السلطان عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ، ويقرر قواعدها ، وكان مسيره إليها في ربيع الأول من شهر سنة اثنين وسبعين وخمسة^(٧) ، واستخلف أخاه شمس الدولة بمشق ، فأقام - رحمه الله - بها يقرر قواعدها ، ويصد خطها .

وأراح العسكر . ثم تأهب للفتاة ، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة ، وذلك في أوائل جادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسة .

(١) م : « جبيل » .

(٢) للام بهذا الموضوع راجع : (ابن واصل : فرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤) و

B. Lewis: Saladin and the Assassins. B. & O. A. 1953 XV 12 .

(٣) اذكر أخباره بالتفصيل في (ابن واصل : فرج الكروب ، نصر الشهاب ، ج ١ ، ص ٧٠ ، الصفحات المذكورة

في فهرس) .

(٤) هذا القبط غير موجود في (م) .

ذكر كسرة الرملة

وكان مقدّم الافرنج البرنس أرنات ، وكان قد سيج بحلب ، فإنه كان أسيرا بها في زمن نور الدين .
وجرى خلّال في ذلك اليوم على المسلمين ، ولقد حكى السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم ، وذلك أن
المسلمين كانوا قد تمبؤا تمبئة الحرب ^(١) ، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تمير البيعة إلى جهة اللبسة ،
واللبسة إلى جهة القلب ^(٢) ، ليكنوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة ، فبينما اشتغلوا بهذه التعمية
(١٣٦) جميعهم الافرنج ، وقدّر الله كسرتهم ، فانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون
إليه ، فطلبوا جهة البحار المصرية ، وظلوا في الطرق ، وتبددوا ، وأسروا منهم جماعة ، منهم الفقيه عيسى ؛ وكان
وهنا عظيماً جبره الله بوقعة حطين المشهورة ، والله المخذ .

وأما الملك الصالح فإنه تحميط أمره ، وقبض على كُتُيبكين صاحب دولته ، وطلب منه تسليم حارم إليه ،
فلم يفعل ، فقتله .

ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم طمعا فيها ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وقابل عسكر
للك الصالح الماسك الافرنجية .

ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الافرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان
من السنة المذكورة .

ولما علم الافرنج ذلك دخلوا عن حارم طالين بلادم ^(٣) ، وذلك في تاسع عشر شهر رمضان من
السنة المذكورة ^(٤) ، ثم عاد الملك الصالح إلى محروسة حلب .

ولم يزل أصحابه على اختلاف ، يميل بعضهم إلى جانب السلطان حتى بلته عصيان قليج غرس الدين ^(٥)
تبع خلفه (١٣٦ ب) ، فأخرج إليه المسكر ، وذلك في عاشر الحرم سنة ست وسبعين وخمسةائة .

(١) م : « القتال » .

(٢) م : « البيعة » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) م : « عصيان عز الدين قليج » .

ثم بلنه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي - صاحب الموصل - وكانت وفاته في ثالث صفر من هذه السنة ،
وروي مكانه أخوه عز الدين مسعود^(١) . وسبق تاريخ وفاة شمس الدولة رحمه الله^(٢) .

ذكر عود السلطان - رحمه الله - إلى الشام

ولما عاد السلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية ، وأقام بها ريثا لم الناسُ شتمهم ، وعلم بضبط الشام ،
وعزم على العود إليه ، وكان عوده للفرات ، فوصله رسل^(٣) قليج أرسلان يثمنون من السلطان للوافقة ،
ويستفتح إليه من الأرمن ، فاشتغل نحو بلاد ابن لاون^(٤) لنصرة قليج أرسلان عليه ، ونزل بقره حصار ،
وأخذ عسكر حلب في خدمته ، لأنه قد اشترط في الصلح ، فاجتمعوا على النهر الأزرق بين بهسنة^(٥) وحسن
منصور ، وعبرته إلى النهر الأسود^(٦) ، وطرق بلاد ابن لاون ، وأخذ منهم حصنا وآخره ، وبذلوا له أسارى
والتسوا منه الصلح ، وعاد عنهم .

ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين (١٢٧) بأسرم ، واستقر الصلح ، وحلف السلطان في عاشر
جهدى الأولى سنة ست وسبعين ، ودخل في الصلح قليج أرسلان وللواصة والديار بكريه^(٧) ، وكان ذلك على
نهر شعبة ، وهو نهر يري إلى الفرات . وسار السلطان نحو دمشق الحروسة .

(١) يحد هنا الخط في (م) : « في المجلس منه » .

(٢) النس في (م) : « وكانت وفاة شمس الدولة بالإسكندرية » .

(٣) م : « رسول » .

(٤) هوليد الثاني صاحب أرمينية (Leo II Roupenian of Armenia) أنظر :

Runciman, O. P. Cit. vol. 2, P. 430

(٥) م : « بهسنة » .

(٦) عزف (بالوت : سجم البلدان) النهر الأزرق بأنه نهر الفرات بين بهسنة وحسن منصور في طرف بلاد الروم من جهة

حلب ، ثم قال : ونهر الأسود نهر قريب من الذي قبله في طرف بلاد مصرية وطرسبوس .

(٧) م : « وديار بكر » .

ذكر وفاة الملك الصالح^(١)

^(٢) ولما دخل جمادى الآخرة من سنة ستين وسبعين مرض الملك الصالح بالقرص^(٣) ، وكان أول مرضه في تاسع رجب . وفي ثالث وعشرين^(٤) منه غلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعى الأمراء واحدا واحدا ، واستحققوا^(٥) لمر الدين صاحب الموصل .

وفي الخامس والعشرين منه توفى - رحمه الله - ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس .

ذكر وصول عز الدين إلى حلب

ولما توفى سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك ، وإعلامه بما جرى له من الوصية إليه ، وتحليف الناس له ، فسارع سائرا إلى حلب ميلدا ، خوفا من السلطان .

وكان (٣٧٠) أول قادم من أمرائه إلى حلب منقتر الدين بن زين الدين ، وصاحب سرشوج ، ووصل معها من حلف جميع الأمراء له ، وكان وصولهم في ثالث شعبان من السنة المذكورة .

وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب ، وصعد القلعة ، واستولى على خزائنها وذخائرها ، وتزوج أم الملك الصالح خمس شوال من السنة المذكورة .

ذكر مقايضة عز الدين أخاه حماد الدين زنكي

بالبسلا

ثم أقام عز الدين بقلة حلب إلى سادس عشر شوال من السنة المذكورة ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان ، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ، وورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه ، وضاق عطشه ، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قاينليز - وكان ضيق العطن لم يمتد بقتلته

(١) يوجد في م تبة لهذا العنوان نصها « ووصول عز الدين إلى حلب » وقد أقرت هذه الجملة لتكون عنوانا مستقلا في متن الأصل بعد سطور قليلة .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) مرض وسنه (الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص : ٩٨) بأنه اعتلال الطيبة لانهقاد للمي السبي قولون .

(٤) م : ثالث عشر .

(٥) م : « وحققوا » .

أمراء الشام - ، فرحل من قلعة حلب^(١) في سلاص عشر شوال^(٢) طالبا للركة ، وخلف ولده ومظفر الدين ابن زين الدين بها ، وسار حتى أتى الرقة .

وقبیه أخوه عماد الدين عن (١٣٨) قرار بينهما ، واستقر^(٣) مفاوضة حلب بسنجار ، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في الحادى والعشرين من شوال ، وسار من جانب عماد الدين من قلعة حلب ، ومن جانب عز الدين من قلعة سنجان .

وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صمد عماد الدين إلى قلعة حلب .

ذكر عود السلطان من مصر

وأما السلطان فإنه لما وقع الصلح على يد قليج أرسلان صمد إلى الديار المصرية - حرسها الله تعالى - واستغلف ابن أخيه عز الدين فرخشه^(٤) واليا ، ولما بلغه وفاة الملك الصالح عزم على العودة إلى الشام خوفا على البلاد من الأفرنج ، وبلغه أيضا وفاة فروخشه^(٥) في يوم الجمعة مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة^(٦) فاشتد حزنه .

وكان وصوله إلى محروسة دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ، ثم أنشأ التآهب لنزاة بيروت ، فإنه عبر على الأفرنج في عودته من مصر مكابرة من غير صلح ، قصد (٣٨ ب) بيروت ونزلها ، ولم يزل منها غرضا ، وأجتمع الأفرنج فرحطه عنها ، ودخل إلى دمشق ..

وبلغته أن رسل الموصل وصلوا إلى الأفرنج يحثونهم على قتال المسلمين ، فلم أنهم نكثوا البيعة ، وأنشأ العزم على تقديم لمحكمة العساكر الإسلامية على عدو الله ، فأخذ في التآهب لذلك ، فلما بلغ ذلك عماد الدين سار إلى الموصل يشمره بالخير ، ويستحث العساكر .

وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادى والعشرين منه يطلب النزاة^(٧) ، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين ، وكان صاحب حران ،

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « غروشاء » ، وبالحق هو الصحيح ، راجع (ابن واسل : مفرج الكرب ، ج ١ ، ص ١٥١)

(٣) هذه الفترة كلها ساقطة من (م) .

(٤) م : « فنزاة » .

وكان قد استوحش من جانب الموصل ، وخاف من مجاهد الدين ، فالتجأ إلى السلطان ، وعبر إليه إلى قاطع الترات ، وقوى عزمه على البلاد ، وسهل أمرها عنده ، فمهر الترات ، وأخذ^(١) الرها ، والركة ، ونصيبين ، وسروج ، ثم شعن على الخابور وأقلعه .

ذكر نزوله على الموصل

(١٣٩) وكان نزوله عليها في هذه الليلة^(٢) في يوم الخميس سادى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين ، وكنتُ - إذ ذاك - في الموصل ، فسهرت رسولا إلى بندا قبيلى نزوله عليها يألم قلائل^(٣) ، فسرت^(٤) مصرعا في الدجلة ، وأتيتُ بندا في يومين وساعتين من اليوم الثالث ، مستنجداً بهم ، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ ، وكان في سمعته رسولا^(٥) من جانبهم ، يأمرونه بالحديث معه ، ويطلب الحلال معه ، ويسير إلى بهلوان رسولا من الموصل يستجد^(٦) ، فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان المخول تحته أخطر من حرب السلطان .

ثم أقام السلطان على الموصل أياما ، وعلم أنه بلد عظيم لا يحصل منه شيء بالحاصرة على هذا الوجه ، ورأى أن طريق أخذته أخذ قلاعه وما حولها من البلاد ، وإضافته بطول الزمان ، فدخل عنها ، وتزل على سنجار في سانس عشر شعبان سنة ثمان وسبعين وخمسة .

ذكر أخذه سنجار

وأقام يحاصر سنجار ، وكان فيها شرف الدين بن قلب الدين وجماعة ، واشتد عليه الأمر ، حتى كان ثانى شهر رمضان فأخذها هنوة ، وخرج شرف الدين وجماعته (٣٩ ب) عثرتين محفوفين إلى الموصل ، وأعطاهما ابن أخيه تقي الدين ، ورحل عنها إلى نصيبين .

(١) النص ل (م) : « قلعه ، ودخل الرها » .

(٢) م : « الركة » .

(٣) م : « مثلا يألم قلائل » ولا من لها .

(٤) هنا ليس له أهمية عند الترجمة لما وقف ابن خلدون ، فهو يشير إلى أنه مرسولا إلى بندا لم يزل إليها من الموصل

في شهر رجب سنة ٥٧٨ هـ .

(٥) م : « رسول » ، وللنصود أنه كان في سمعته صلاح الدين وقتذاك ، وابع (ابن واسل : مخرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٧) .

(٦) م : « يستجدونه » .

ذكر قصة شاه أرمن

صاحب خلاط

وذلك أن أصحاب اللوصل أخذوا إليه واستنجدوا به ، وطرحوا أنفسهم عليه ، فخرج من خلاط لمصرتهم ، ونزل بمَرْزَم^(١) ، وسير إلى عز الدين صاحب اللوصل أعلاه ، فخرج إليه ، وذلك في خمس عشرين^(٢) شوال سنة ثمان وسبعين وخمسة ، فصار حتى اجتمع به وصاحب ماردين ، ووصل جماعة من عسكر حلب ، كل ذلك لقاء السلطان .

وأرسل شاه أرمن بكثير إلى السلطان يخاطبه في الصلح بتوسط شيخ الشيوخ ، فلم ينظم بينهم حال ، ورحل السلطان إلى عسكر شاه أرمن ، فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولي راجعا إلى بلاده ، وعاد عز الدين إلى بلاده ، وتفرقوا ، وراسر السلطان يطلب آند ، قتل عليها وقتلها وأخذها في ثمانية أيام ، وذلك في أوائل الحرم^(٣) سنة تسع وسبعين ، وأعطاهما نور الدين بن قره أرسلان .

ومن على ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الأموال وغيرها ، ثم صار يطلب الشام قصد حلب .

وفي هذه السنة خرج حماد الدين وغرب قلعة (١٤٠) أعزاز في تسع جمادى الآخرة من سنة ثمان وسبعين ، وغرب حصن كفرلانا ، وأخذها من بكش ، فإنه كان قد صار مع السلطان في ثانی عشر^(٤) جمادى الأولى من السنة المذكورة . وقتل تل باشر ، وكان صاحبها^(٥) - دهرم الباروق - قد صار مع السلطان ، فلم يقدر عليها ، وجرت غارات من الإفرنج في البلاد ، بحكم اختلاف المساكر ، ودفعهم الله تعالى ، وتسلم الكركين ، ثم عاد إلى حلب .

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفنا بأنها بلدة في واد ذات نهر جبار وبساتين بين ماردين وديار بكر من أعمال الجزيرة ، وأكثر أهلها أرمن نصارى .

(٢) م : « الخامس عشر من شوال » .

(٣) م : « أول حرم » .

(٤) م : « ثمان والعشرين من جمادى » .

(٥) هذا الاسم غير موجود في الأصل ، وقد أنشئ من (م) .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد إلى الشام بدأ بزل خالد ، فزحل عليها ، وقتلها ، وأخذها في ثاني عشر المحرم^(١) سنة تسع وسبعين ، ثم سار طالبا حلب ، فزحل عليها في سادس عشر المحرم^(٢) وكان أول نزوله بالميدان الأخضر^(٣) ، وسير للقائفة يقاتلون ، فباسباطون عسكر حلب بياتنوسا وباب الجنان غلوة وعشية ، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك ، رحمه الله^(٤) .

ذكر أخذه حلب

قدس الله روحه

ولما نزل على حلب استدعى الساكر من الجوانب ، واجتمع خلق (٤٠ ب) عظيم ، وقتلها قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له به قيل ، وكان قد خرس من اقتراع الأمراء عليه ، وجبههم فأشار إلى حسام الدين طنان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده ، وتسليم حلب إليه ، واستقرت القاعدة ، ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الأمر ، وانحكت^(٥) القاعدة ، واستفاض ذلك ، واستسلم العسكر منه ذلك ، فأعلمهم ، وأذن لهم في تدمير أنفسهم ، وأخذوا عنهم وعن الرعية عن الدين جرديك النوري ، وزين الدين بكك إلياروق^(٦) ، فقدموا عنده إلى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد ، وذلك في السابع عشر من صفر .

وخرجت الساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقنمو حلب ، وخلع عليهم وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلمة يقضى أشغاله ، وقيل أقشته وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر .

(١) م : « الثاني والعشرين من محرم » .

(٢) م : « السادس والعشرين » .

(٣) هذه البشارة ساطعة من (م) .

(٤) م : « واستحكمت » .

(٥) هناك القتلان ساطعان من (م) .

وفيه توفي أخوه تاج اللوك^(١) من الجرح الذي كان أصابه^(٢) ، وشق^(٣) (١٤١) عليه أمر موته ، وجلس العزاء .
وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته ، وعزاه وسار معه باليدان الأخضر ، وتقررت بينهما قواعد ،
وأقره السلطان عنده في الخيمة ، وقدم له تقدمة سنوية ونيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه .
وسار عماد الدين من يومه إلى قره حصار سائراً إلى سنجان ،^(٤) وأقام السلطان بالخيم بعد سير عماد الدين غير
مكثرت بأمرها ، ولا مستظم لثأنها إلى يوم الاثنين سابع عشر صفر ، ثم في ذلك اليوم^(٥) صد السلطان
قلعة حلب مسروراً منصوراً ، وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنوية ، وكان قد تخلف لأخذ ما تخلف له من
من قتل وغيره .

ذكر أخذه حارم^(٦)

وكان قد أخذ إلى حارم من يستلمها ، ودافعهم للوالى وأخذ الأجناد الذين بها يستحقونه^(٧) فوصل خيرم
يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر^(٨) ، خلف لم ، وسار من وقته إلى حارم فوصلها في التاسع والعشرين من صفر ،
وتسلمها ، وبات بها ليثنين ، وقرّر (٤١ ب) قواعدها ، وولى فيها إبراهيم بن شرويه ، وعاد إلى حلب ، ودخلها
في ثالث ربيع الأول سنة تسع وسبعين .

ثم أهلك الساسر دستورا ، وسار كل منهم إلى بلاده ، وأقام يقرّر قواعد حلب ويدبر أمورها .

(١) كان تاج اللوك يورى أسير أخوة صلاح الدين جيا ، وكان يشتر بمقتل طيب ، فقد كان شجاعاً وشامراً ، وتذكر
للرايح أن له ديوان شعر (ولكنه غير موجود) . أنظر أخباره وترجمته بالتفصيل عند (ابن خلكان : الوفيات) و (المنيل :
علاء الغروب ، ص ١٣ ب - ١٤ ب) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢ و ٤٤) و (ابن واصل : مفرج البكروب ، ج ٢ ،
ص ١٤٣ - ١٤٦) و (جمال الدين الشيال : شاعر من البيت الأيوبي ، مثال مجلة الثقافة ، العدد ١٣ ، ٢٤ يونيو ١٩٤١) ؛
ويورى كلمة تركية معناه الغيب .

(٢) م : « أخوه من جرح كان أصابه » .

(٣) هذه البارة ساقطة من (م) .

(٤) هنا التزويد غير موجود في (م) .

(٥) هذه الجلة ساقطة من (م) .

ذكر

غزاة عين جالوت

ولم يتم في حلب إلا إلى يوم السبت ثاني وعشرين^(١) ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ، وأنشأ عزماً على الفزاة ، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيعة^(٢) مبرزا نحو دمشق ، واستمض الساکر ، فخرجوا يقيمونه^(٣) ، ثم رسل في رابع وعشرين منه إلى حماة فوصلها ، ثم رسل في بقية يومه^(٤) ، ولم يزل يواصل بين للنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى سنة تسع وسبعين ، فأقام بها متأهباً إلى السابع والعشرين منه ، ثم برز في ذلك اليوم ، ونزل على جسر الخشب ، وتبعته الساکر مبرزة ، فأقام بها تسعة أيام ، ثم رسل في ثامن جمادى الآخرة من السنة للذكورة ، وسار حتى أتى القنوار^(٥) ، وتبع في الحرب ، وسار حتى نزل القعيد ، فبات به ، وأصبح (١٤٢) على الخنافس ، وعبر وسار حتى أتى يسان ، فوجد أهلها قد ترحلوا^(٦) عنها ، وتركوا ما كان من قبل الأتشة والفلل والأمتة بها ، فبها الساکر ، وغنموا ، وحرقوا ما لم يمكن أخذه .

وسار حتى أتى الجالوت ، وهي قرية عامرة ، وعندها عين جارية ، خيم بها .

وكان قد قدم عز الدين جُرديك^(٧) وجماعة من للمالک النورية ، وجاهل - بمالک أسد الدين - حتى يكشفوا خبر الاقترنج ، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الکَرَکَة والشوَّك سائرین بجدة للاقترنج ، فوقع أصحابنا عليهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا منهم زهاء مائة نفر ، وعادوا ولم يُنقذ من المسلمين سوى شخص واحد يدعى « بهرام

(١) م : « إلى الثاني والعشرين من ربيع الآخر » .

(٢) هذا القنطار ساهقان من (م) .

(٣) هذه البيرة ساهقة من (م) .

(٤) م : « القنوار » .

(٥) م : « ترحلوا » .

(٦) جُرديك ، ويرسم أحياناً « جرديك » كان من مالک نور الدين ، ولحقا يقب بالثوري . وكان واحداً من القواد الذين رافقوا أسد الدين شيركوه في حمله الأخيرة على مصر ، وكان مشاركاً لصالح المين عند التبرش على شاور ، وابع أخباره في (ابن واسل : مفرج الکروب ، فسر النبال ، ج ٢) .

الشاورش^(١) ، ، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة ، وهو الخميس^(٢) الماشر من جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين^(٣) ، فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر .

ولما كان السبت جلدى عشر وصل الخبر إليه أن الأفرنج قد اجتمعوا في صفورية ، فرحلوا إلى النوبة ، وهي قرية معروفة ، وكان غرضه للمصاف ، فلما سمع بذلك تعيى لقلقه ، ورتب الأطلب^(٤) يمنية ، ويسرة^(٥) (٤٢ ب) وقلبا ، وسار لقاء المدو .

وسار الأفرنج طالين للمسلمين ، ووقعت المعركة في العين ، وأخرج السلطان الجليلي^(٦) خمسمائة رجل معروفة فواقصوا الأفرنج ، وجرى قتال عظيم ، وقُتل من المدو جماعة وجرح جماعة^(٧) ، وهم ينضم بعضهم إلى بعض ، يحمي راجلهم فارسهم ، ولم يخرجوا للمصاف ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ، ونزلوا عليها ، ونزل السلطان حولهم ، والقتل والجرح يمل قيمهم ليخرجوا إلى المصاف ، وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين ، فأنهم كانوا في كفره عظيمة .

ولما رأى أنهم لا يخرجون^(٨) رأى الاتزاج عنهم لهم يرحلون ، فيضرب معهم مصافا ، فرحل نحو الطور ، وذلك في سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين^(٩) ، فنزل تحت الجبل مقربا رحيلهم ، ليأخذ منهم فرصة .

(١) الشاورش أو الشاورش أو الجلاوش أو الجلاوش : لفظ تركي ، وجهه جاوشية ، كان مناه في مصطلح العصر الأيوبي بمعنى مهتة البناء أو استقار الجند . انظر : (المبادئ : القنص الحقن) ، ص ٢٤٢) و (ابن راسل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٥) ، أما في العصر للملك فقد كان النظام يقضى بأن يسير أربعة من جنود الخففة الشجعان أمام السلطان في مواكبه لتقاء وتغلب للاراء ، والجلاوش أو الشاورش بمعنى من رتبة بسيطة أو ساع يكفه غنومه بحمل الرسائل وتبليغها ، ولا زال هذا اللفظ يستعمل بهذا المعنى الأخير حتى اليوم في بلاد الغرب . راجع أيضا (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٣) جمع طلب ، وهو لفظ تركي مناه الأمير الذي يتقدمه فارس في ميدان القتال ، ويطلق أيضا على قائد لالة أو السجين ، وكان أول استعمال هذا اللفظ بمصر والشم أهم صلاح الدين ، ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة (Battalion) من الجيش . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

(٤) الجلايش في الأصل مناه الرأية العظيمة في راسخا من الشعر ، ثم أطلق اللفظ على مقدمة القنص الجيش أو على الطليعة منه . انظر تعليقات الدكتور زيادة في (السلك) ، ج ١ ، ص ٦٢٨ و ٦٩٧ .

(٥) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٦) م : « لم يخرجوا » .

(٧) التيس في (م) : « في السابع عشر من هذا الشهر » .

وأصبح الإفرنج في الثامن عشر راحلين ، راجعين على أعقابهم ، ناكسين وفرجل - رحمه الله - نجوم ، وجري من رضى الثَّأب^(١) . واستهانهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا القوة المتمدن ذكرها راجعين إلى بلادهم .

فما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على (١٤٣) السلطان ، وأشاروا بالموءد لفراغ أزوادهم^(٢) ، وكان قد نال منهم بالقتل والأسر ، وتخريب عقير بَلَا^(٣) وقلمة بيسان ، وزرعين ، وهى من حصونهم المذكورة ، وخربت عليهم قرى عديدة ، فماد منصوراً مفقراً مسروراً ، فسار حتى نزل القواد ، وأعطى الناس دستوراً من أمر السير ، ثم سار هو حتى أتى دمشق ، فدخلها فرساً مسروراً في يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر . فانظر إلى هذه الحيلة التى لم يشغلها عن الفزاة أخذ حلب ولا الظفر بها ، بل كان غرضه الاستماتة بالبلاد على الجهاد ، فأنه يحسن جزاءه في الآخرة ، كما وقته للأعمال للرضية في الدنيا .

ذكر غزاة أنشأها إلى السكرك

ثم إنه أقام بدمشق إلى ثالث رجب سنة تسع وسبعين ، وخرج مبرزاً^(٤) نحو السكرك ، وكان قد سير إلى الملك المادل وهو بمصر يتقدم إليه بالاجتماع به على السكرك ، فبلنه خبر حركته من مصر ، فخرج لقائه ، وسار حتى أتى السكرك (٤٣ ب) ، ووافاه الملك المادل عليها ، وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر ، وذلك في رابع شعبان من هذه السنة .

وكان قد بلغ الإفرنج - خذلهم الله - خبر خروجيه ، فساروا براجلهم وفارسهم نحو السكرك للدفع عنه ، ولما انتهى ذلك إليه سير الملك للظفر تقي الدين إلى مصر ، وذلك في خامس عشر شهر شعبان^(٥) من السنة المذكورة^(٦) .

وفي صبيحة^(٧) السادس عشر منه نزلت الإفرنج على السكرك ، وتزحزح السلطان عنه بد أن كان قائده قتالا عظيماً ، وعليه فعل شرف الدين بُزغش النورى شيداً^(٨) - رحمه الله - في ثامن عشرين رجب^(٩) .

(١) الثَّأب : القتل أو السهام ، واجمعة ثغاية ، والثغاية والثغاية قوم يربون بالتب (السان) ، وقد ذكر (الملسن ابن حيد الله : آثار الأول . ص ١٦٠) أنواع الثَّأب وما يجاز به كل نوع على الآخر ، قال : « وأما الثَّأب فيجب أن يكون صحيحة الاعتدال ، والاستدارة ، والقتل والمخلة ، وطوله وقصره على حسب مقدار الرمي ، وللريش : المربع أو المثلث ، والجناح الأيمن أخف من الأيسر ، ولثقت للريش أسرع ، وللمربع أعلى وأصح ، لكن فيه بلاء ، وريش القتب لاخيه فيه فلان اضطر إليه فليخلط مع غيره . . . إلخ » .

(٢) م : « زاد » .

(٣) م : « وخربت عقير » .

(٤) م : « مبرزاً » .

(٥) هذه الكلمات ساقطة من (م)

ذكر إعطائه أخاه الملك العادل حلباً

ثم رحل السلطان مستصحباً أخاه الملك العادل معه إلى دمشق ، ليأمره^(١) عن الكرك بعد نزول الأفرنج عليها ، فدخل دمشق في الرابع والمشرين من شعبان من سنة تسع وسبعين ، وأعطى أخاه الملك العادل حلباً بعد مقامه بدمشق^(٢) شهر رمضان ، فسار في ذلك اليوم نحو حلب ، فوصلها وصعد (١٤٤) القلعة في يوم الجمعة .
ثاني وعشرين^(٣) من شهر رمضان ، وكان بها ولده الملك الظاهر ، ومعه سيف الدين يركج يدبر أمره ، وابن العميد في البلاد .

وكان للملك الظاهر من أحب أولاده إلى قلبه ، لما قد خصه الله به من الشهامة والفتنة والمقل وحسن السمات والشغف بالملك ، وظهور ذلك عليه^(٤) ؛ وكان أبرّ الناس بوالده ، وأطوعهم له ، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة وآما ، فخرج من حلب لما دخلها الملك العادل هو وياركج سائرين إلى خدمة السلطان ، فدخل^(٥) دمشق يوم الاثنين ثامن عشرين^(٦) شوال سنة تسع وسبعين ، فأقام في خدمة أبيه لا يظهر له إلا الطاعة والاحياء مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده .

وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلاً من جانب الموصل ، وكنا قد توصلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في إناذ شيخ الشيوخ صدر الدين^(٧) رسولا وشقيقاً إلى السلطان ، فسيره معنا^(٨) من بندا ، وكان غزير المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة ، وفي سائر البلاد ، وكانت مكاتبه (٤٤ ب) عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عليه في معظم الأيام .

(١) م : « لإمره » .

(٢) هذه البارة ساقطة من (م) .

(٣) م : « كله » .

(٤) م : « فنفخ » .

(٥) م : « الثامن عشر من شوال » .

(٦) م : « بدر الدين » .

(٧) هذا من له أجميته عند الترجمة حياة للوف ، فهو هنا يشير إلى أنه عاد من سفره إلى الموصل ويعتاد فوصل إلى حلب .

في شوال سنة ٥٧٩ هـ .

ذكر وصولنا إلى خدمته رسلا .

وكان الشيخ قد وصل إلى محروسة الموصل رسولا ، وسار منها بعد أن سار في صحبته ^(١) القلاني يحيى الدين بن كمال الدين ، وكان بينهم صحبة من الصبا ، وكنت مع القوم ، وسرنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ونحن في خدمته ، فلقاه عن بعد .

وكان دخولنا ^(٢) إلى دمشق يوم السبت حادى عشر ذى القعدة من هذه السنة ، ولقينا من السلطان كل جميل فإيا يرجع إلى الإكرام والاحترام ، وأقنا أياما تراجع في فصل حال ، فلم يتفق صلح في تلك الوقعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل ، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصر ، واجتهد في ذلك اليوم أن يتقضى شغل فلم يتفق .

وكان الوقوف من جانب يحيى الدين ، فإن السلطان اشترط أن يكون صاحبا لإبريل والجزيرة على خيرتهما في الإنهاء إليه أو إلى الموصل ، فقال يحيى الدين : « لابد من ذكرهما في النسخة » ، فوقف الحال .

وكان مسيرنا سابع ذى الحجة ، وفي تلك الليلة عرض على السلطان موضع البها المشقى بمصر - على لسان الشيخ - ، فاعتذرت ^(٣) ولم أقبل خوفا من أن يحال بوقف الحال على ، ومن تلك الليلة ثبت في نفسه الشريعة منى أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له .

وأقام السلطان - رحمه الله - بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب ، فوصله رسول سنجار شاه - صاحب الجزيرة - فاستحلته نفسه ، وانصى إليه ^(٤) ، ورسول إربل ، وحالف لم ، وسارا .

ووصل إليه أخوه الملك النادر يوم الاثنين ^(٥) رابع ذى الحجة ، فأقام عنده ، وعيّد ، وتوجه وعاد ^(٦) إلى حلب المحروسة .

(١) م : « وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل ، وسار منها في صحبة القلاني يحيى الدين . . . إلخ » .

(٢) وفي هذا النص يعرف اللوات إلى أنه وصل إلى دمشق في الحادى عشر من ذى القعدة من سنة ٧٢٩ هـ ، ثم عاد منها إلى الموصل .

(٣) لهذا النص أهميته ، فبه يذكر المؤلف التاريخ الذى بدأ فيه صلاح الدين يمرض عليه لأول مرة أن يصل إلى خدمته .

(٤) م : « في الإنهاء إليه » .

(٥) هذان الظلمان ساهقان من (م) .

(٦) هذا القبط ساقط من (م) .

ذكر غزاة أخرى إلى الكرك

"وسير السلطان - قدس الله روحه - إلى الساكر يطلبها^(١) فوصل إليه ابن قره أرسلان نور الدين على حلب في يوم الخميس^(٢) ثامن عشر صفر سنة ثمانين وخمسمائة ، فأكرمه الملك المادل إكراما عظيما ، وأصمده إلى القلعة ، وبأسطه ، ورجل معه طالبا دمشق في السادس (٤٥ ب) والعشرين منه ؛ وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله .

ولما بلغه وصول ابن قره أرسلان خرج إلى لقائه ، وكان السلطان يكاد الناس مكارمة عظيمة ، فالتقاء على غير^(٣) الجسر بالقلع ، وذلك في تاسع ربيع الأول سنة ثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، وخلف نور الدين واصلا مع أخيه الملك المادل ، فتأهب لقتلته ، وخرج مبرزا إلى جسر الخشب في منتصف ربيع الأول . وفي الرابع والعشرين منه وصل الملك المادل ومعه ابن قره أرسلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياما ، ثم رحلا يبحثان بالسلطان^(٤) ولما كان ثاني ربيع الآخر من السنة المذكورة رحل الملك الناصر^(٥) من رأس الماء طالبا الكرك ، فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك للظفر من مصر إلى تاسع عشر ربيع الآخر ، فوصل تقى الدين^(٦) إلى خدمته واجتمع به^(٧) ، ومعه بيت للامدل وخزائنه ، فسيرهم إلى الملك المادل ، وتقدم إليه وإلى بقية الساكر بالوصول (١٤٦) إليه إلى الكرك ، فتناهبت الساكر إلى خدمته حتى أهدقوا بالكرك ، وذلك في رابع عشر^(٨) جمادى الأولى سنة ثمانين ، وركب المتابعين على السكان ، وقد التقت الساكر المصرية والشامية والجزيرة أيضا مع ابن قره أرسلان .

ولما بلغ الاقرب ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذب عن الكرك ، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع الساكر الجلة النفيرة ، فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق ساجدة إلى مصر^(٩) ويسر الله ذلك ، وليلة^(١٠) .

ولما بلغ السلطان^(١١) - قدس الله - روحه خيرا^(١٢) خروج الاقرب تقى لقايمهم^(١٣) ، وأمر الساكر أن خرجت إلى ظاهر الكرك ، وسير التحل نحو البلاد ، وبقي المسكر جريدة ، ثم سار السلطان يقصد الدو .

(١) منه الجلة ساقطة من (م) .

(٢) منه الألفاظ ساقطة من (م) .

(٣) م : « عين » .

(٤) منه الجلة ساقطة من (م) .

(٥) منه الألفاظ ساقطة من (م) .

(٦) م : « راجع جمادى الأول » .

(٧) منه الجلة ساقطة من (م) .

(٨) منه الجلة ساقطة من (م) .

(٩) م : « تبا لقا » .

(١٠) م : « تبا لقا » .

وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله ، وسار حتى نزل باليقلا^(١) على قرية يقال لها جُسيان ، قبلة الافرنج في طريقهم^(٢) ، ورسل منها إلى موضع يقال له : ماء عين ، والافرنج مقيمون بالواله إلى (٤٦ ب) السلاسل والشرين من جمادى الأولى ، ثم رحلوا قاصدين الكرك ، فسار بعض الساکر وراهم ، قتالهم إلى آخر النهار .

ولارأى - قدس الله روحه - تصبى الافرنج على الكرك أمر الساکر أن دخلوا الساحل خلفه عن الساکر ، فهجموا نابلس ونهبوها ، وضموا ما فيها ، ولم يبق فيها إلا حصنها ، وأخذوا جانين ، والتحقوا بالسلطان برأس الماء ، وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا ؛ واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمانين ، ومعه الملك الناصر ونور الدين بن قره أرسلان فرحا مسرورا ، وأكرمه واحترمه وأحسن إليه .

وفي هذا الشهر وصل رسل الخليفة ومهم^(٣) الخلع قلبها السلطان ، وأبلى أخاه الملك الناصر وابن أسد الدين خيلما جاءت لهم .

وفي الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين بن قره أرسلان ، وأعطاه دستورا ، وأعطى الساکر^(٤) دستورا ، وسار ابن قره أرسلان في تاسع عشر جمادى الآخرة طالبا بلاده^(٥) ؟؟

وفي ذلك التاريخ وصلت (١٤٧) رسل ابن زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نژوا على اربل^(٦) مع مجاهد الدين قايماز ، وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نصر عليهم وكسرم .

ذكر خروج السلطان إلى جهة الموصل

الفصل الثاني

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد ، وتقدم إلى الساکر قبضته ، وسار حتى أتى حران على طريق البيرة ، والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في الثاني عشر من محرم سنة إحدى وثمانين .

(١) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

(٢) هناك القنطان سافطان من (م) .

(٣) م : « رسول الخليفة ومعه » .

(٤) هذه العبارة سافطة من (م) .

(٥) هناك القنطان سافطان من (م) .

(٦) م : « في الرقة » .

«وكان قد وصل إلى السلطان عز الدين بن عبد السلام رسولا ، فلقبه بجماعة يمتنر بما جرى ، وأعطاه دستورا يبد أن أكرمه ، وسار من غير غرض^(١) وتقدم السلطان إلى سيف الدين للشطرنج أن يسير في مقدمة الاسكر إلى رأس العين ، ووصل السلطان حرّان ثاى وعشرين من صفر .

ذكر قبض مظفر الدين وإطلاقه^(٢)

وفي سادس وعشرين من صفر سنة إحدى وثمانين . قبض السلطان (٤٧ ب) على مظفر الدين بن زيد الدين لشيء كان قد جرى منه ، وحديث كان بلغه عنه رسوله ، فلم يقف عليه ، وأنكره ، فأخذ منه قلعة حرّان والزها ، ثم أقام في الاحتال تأديبا إلى استهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه ، وأعاد إليه قلعة حرّان وبلاده التي كانت بيده ، وأعادته إلى قاتونه في الإكرام والاحترام ، ولم يختلف له سوى قلعة الزها ، ووعده بها .

ثم رحل السلطان من حرّان ثاى ربيع الأول إلى رأس العين ، ووصله في ذلك رسول فليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمهم على قصد السلطان إن لم يبد عن الموصل وماردين ، وأنهم على عزم ضرب الماصفمه إن أصرّ على ذلك ، فرحل السلطان يطلب دنيسر ، فوصله يوم السبت^(٣) ثامن ربيع الأول حماد الدين بن قره أرسلان ومعه اسكر نور الدين - صاحب ماردين - فالتقام واحتربهم ، ثم رحل من دنيسر يوم (٤٨) الثلاثاء^(٤) حادى عشر نحو الموصل وسار حتى نزل موضعا يعرف الاسماعيلات^(٥) قريب للموصل بحيث يصل من الاسكر كل يوم نوية جديدة تحاصر للموصل ، فبلغ حماد الدين بن قره أرسلان موت أخيه نور الدين ، فطلب من السلطان دستورا ، طمعا في ملك أخيه ، فأعطاه دستورا .

(١) هذه الفترة كلها ساطلة من (م) .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٣) هذا العنوان ساطل من (م) .

(٤) كنا في الأصل ، وفي مند (ابن واسل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٦) : « الاسماعيلات » .

ذكر موت شاه أرمن

صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسة توفى شاه أرمن^(١) صاحب خلاط ، وولى بد غلام له يدعى بكتر^(٢) ، وهو الذى كان وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجار ، فدل ، وأحسن إلى أهل خلاط ، وكان متصونا فى طريقته ، فأطاعه الناس ومالوا إليه .

ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطلح لموت شاه أرمن ، فسار نحوه بهلوان بن الله كز^(٣) ، فلما بلغه ذلك سار إلى خدمة السلطان ثم يقرر معه تسليم خلاط إليه واندرجه (٤٨ ب) فى جلته ، وأعطاه ما يرضيه ، فطع السلطان فى خلاط ، وارتحل عن الموصل متوجها نحوه ، وسار إليها^(٤) الفقيه عيسى - رحمه الله - وخرس الدين قليج لفتح القاعة وخربرها ، فوصلت الرسل و بهلوان قد قارب البلاد جدا ، نفوذ بهلوان من السلطان^(٥) وأشعره أنه إن قصد سلم البلاد إلى السلطان^(٦) فطلب بهلوان إصلاحه ، وزوجه ابنة له ، وولاه ، وأعاد البلاد إليه ، واعتذر إلى رسل السلطان ، وعادوا من غير زبدة . وكان السلطان قد نزل على ميافارقين ، محاصرها^(٧) .

ذكر أخذه ميافارقين^(٨)

^(٩) ثم نزل على ميافارقين بد عوده من الموصل وغالها قتالا^(١٠) شديدا ، ونصب عليها مجانيق ، وكان بها إنسان يقال له الأسد ، وما قصر فى حفظها ، لكن الأعداء لا تنال ، فلحقها السلطان عن صلح^(١١) فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين^(١٢) .

(١) هو ناصر الدين سكران الثانى ابن إبراهيم اعظم : (زليباور : مسج الأندلس ، ص ٣٤٨) .

(٢) م : « غلام بكتر » .

(٣) هو أتابك شمس الدين محمد بن الله كز .

(٤) م : « وسار إلى بكتر الفقيه » . الخ .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٦) م : « فطلبها » .

(٧) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

(٨) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٩) هذه الألفاظ ساقطة من (م) .

ذكر (١٤٩) عود السلطان إلى الموصل^(١)

ولما أيس من أمر خلاط عاد إلى الموصل ، فنزل بسيدا عنها ، وهي النفقة^(٢) الثالثة ، بموضع يقال له كفر زمار ، وكان الحر شديدًا ، فأقام مدة .

وفي هذه المرة أتاه منجر شاه من الجزيرة ، واجتمع به ، وأعاده إلى بلدة ، ومرض - رحمه الله - بكفر زمار مرضا شديداً خاف من عائلته ، فحمل طالبا حرّان وهو مريض ، وكان يتجملد ولم يركب في محفة ، فوصل حرّان شديداً للرض ، وبلغ إلى غاية الضعف ، وأيس منه ، ورجف بموته^(٣) وكان رحمه من كفر زمار في مستهل شوال سنة إحدى وعشرين وخمسة^(٤) فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها^(٥) .

ذكر صلح المواصلته

وكان سبب ذلك أن عز الدين أتاك - صاحب الموصل - سيّرني إلى الخليفة يستنجد به^(٦) ، فلم يحصل منه زبدة^(٧) وسيّر إلى العجم (٤٩ س) فلم يحصل منهم زبدة^(٨) ، فلما وصلت من بغداد وأديت^(٩) جواب الرسالة أيس من نجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلّوا سرعة انقياده ورقة قلبه في ذلك الوقت ، فندبروا لهذا الأمر وجاهدوا عز الدين الريب ، وفوض إلى أمر النسخة التي يحلف بها ، وقالوا : امضيا ما يصل إليه جسدكما واطمئنا^(١٠) ، فسرنا حتى أتينا المعسكر ، والناس كلهم آيسون من السلطان .

وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة^(١١) فاستمرنا احتراماً عظيماً ، وجلس لنا ، وكان أول جلوسه من مرضه ، وحلف في يوم عرفة ، وأخذنا منه بين النهرين ، وكان أخذها من منجر شاه ، فأعطاه المواصلته ، وحلفته^(١٢) بمينا نعمة ، وحلفت أخاه الملك العادل ، ومات - قدس الله روحه - وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه ،

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « الزينة » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) م : « ألباؤه » .

(٥) م : « يستجده » .

(٦) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٧) م : « ورجعت » .

(٨) الأصل : « أضي ما يصل جسدكم واطمئنا » وما هنا صيغة (م) وهي أكثر النسخ المعهودة .

(٩) هذه الكلمات الثلاث ناقصة من (م) .

(١٠) لهذا النص أهمية فهو يشير إلى سفارة اللؤلؤف عن صاحب الموصل إلى صلاح الدين في أوائل ذي الحجة سنة ٨٠٠ هـ .

وسرناممه وهو بحران وقد تماثل ووصله خير موت بن أسد الدين - صاحب حمص - وكانت وفاته يوم عرفة^(١) من السنة المذكورة ونحن في المسكر^(٢) وجلس الملك المادل للزاد .

وفي تلك (١٥٠) الأيام كانت وقعة التركان مع الأكراد ، وقتل بينهم خلق عظيم .
وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الذكر ، وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة .

ذكر هود السلطان إلى الشام

ولما وجد السلطان نشاطاً من مرضه وحل يطلب جهة حلب ، وكان وصوله إليها يوم الأحد^(٣) رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين ، وكان يوماً مشهوراً لشدة فرح الناس بصفاته وقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل^(٤) في ثامن عشرة^(٥) نحو دمشق ، وقيه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه قبل السلطان ، ومعه أخته ، وقد صحبه خدمة عظيمة^(٦) وقرب زائدة^(٧) ، ومن عليه بمحمص ، وأقام أياماً يمتد تركه أبيه ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول ، وكان يوماً لم ير مثله فرحاً وسروراً .

ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين التركان^(٨) والأكراد بأرض نصيبين وغيرها ، وقتل من الفتيين خلق (٥٠٠) عظيم ، وبلغ السلطان أن معين الدين بن معين الدين قد عصا بالراوندان ، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه^(٩) ، وكان نزولهم عليه في المشر الأول من سنة اثنتين وثمانين ، وأعطاه برج الرصاص لينزل في بقية ذلك الشهر^(١٠)

وفي ثامن^(١١) جمادى الأولى وصل معين الدين بن الراوندان وقد سلمها إلى حم الدين سليمان ، ثم مضى إلى خدمة السلطان .

وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

(١) هذه القصة سابقة من (م) .

(٢) هذان القتلان - سلطان من (م) .

(٣) هذه الكلمات سابقة من (م) .

(٤) هذان القتلان سابقان من (م) .

(٥) م : د اترك .

(٦) هذه العبارة سابقة من (م) .

(٧) م : د ناني .

ذكر منير الملك المادل إلى مصر

وغزو^(١) الملك الظاهر إلى محروسة حلب

وذلك أن السلطان - قدس الله روحه - رأى رواح^(٢) الملك المادل إلى مصر ، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المنظر ،^(٣) فما زال يناوذه في ذلك^(٤) ، وهو على حرمان مريض وقد حصل ذلك في نفس الملك المادل ، فإنه كان يحب البدار للصربية .

فلما عاد السلطان إلى دمشق ومن الله بعاثته ، سار يطلب الملك المادل (١٥١) إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدة^(٥) ليلة السبت الرابع والعشرين من ربيع الأول ، وسار حتى وصل محروسة^(٦) دمشق ، فأقام بها في خدمة السلطان ، يجرى^(٧) بينها أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، واستقرت القاعدة على عود الملك المادل إلى مصر ، وتسلم حلب منه ، وسير الصنيعة لإحضار أهله من حلب .

ذكر عود الملك الظاهر إلى محروسة حلب^(٨)

وكان الملك الظاهر ، والملك العزيز - رحمهما الله^(٩) - بدمشق في خدمة والدهما ، فلما استقرت القاعدة على عود الملك المادل إلى مصر استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز ، وسلمه والده إليه يري أمره ، وسلم الملك المادل حلب إلى الملك الظاهر .

وقد قال لي الملك المادل : « إنه لما استقرت عليه هذه القاعدة واجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما قلت للوك العزيز : اعلم^(١٠) يا مولاي ، أن السلطان قد أمرني أن (٥١ ب) أسير في خدمتك

(١) م : « وصول » .

(٢) م : « فخاب » .

(٣) م : « ليؤزل تناوضا بذلك » ولا مى لها .

(٤) حذان القنطان سافطان من (م) .

(٥) م : « أن دمشق » .

(٦) م : « فحرت » .

(٧) هنا الشواش غير موجود (م) .

(٨) م : « وكان الملك الظاهر - رحمه الله - وللك العزيز بدمشق ... إلخ » وما هنا صيغة الأجل ، وقول المؤلف فيها تحييا على ذكر الملكين الظاهر والعزيز : « رحمه الله » يعني أنه ألف كتابه بعد سنة ٦١٢ هـ . وهي السنة التي توفي فيها الملك الظاهر .

(٩) هنا القنط غير موجود (م) .

إلى مصر، وأنا أعلم أن الفسدين كثير، وغداً فايحون^(١) ممن يقول عنى مالا يجوز، ويخونك منى، فإن كان لك هم^(٢) تسمع، قل لى حتى لا أحمى. قال: لا أسمع، وكيف يكون ذلك؟

ثم التفت وقل للوك الظاهر: أنا أعرف أن أخاك ربما يسمع فى أقوال الفسدين، وأنا فالى إلا أنت، وقد قمت منك بمنجى^(٣)، متى ضاق صدرى من جانبه. قال: مبارك، وذكر كل خير.

ثم إن السلطان الملك الظاهر - رحمه الله - سيده والله إلى^(٤) محروسة حلب، وأعلوها عليه، وكان - قدس الله روحه - يعلم^(٥) أن حباها أصل الملك وجرؤمته وقاعدته، ولهذا دأبت فى طلبها ذلك الدأب.

ولما حصلت أعرض عما عداها من بلاد المشرق، وقنع منهم بالطاعة والمؤونة على الجهاد، فسلها إليه، علماً منه بمذاقته وحزمه وحفظه وتأنيه^(٦). وعلوخته، فصار إليها حتى أتى الدين للباركة، وسهرى خدمته شحنة^(٧) حسام الدين بشاره، وواليا عيسى بن بلاشوا، فبذل فى يوم الجمعة^(٨) بين (١.٥٢) للباركة، وخرج الناس إلى لقائه فى بكرة السبت^(٩) تسلس جمادى الآخر من سنة اثنتين وخمسة^(١٠).

وصد القلعة المحروسة نحوة نهاره، وفرح الناس به فرحاً شديداً، ومد على الناس من جنح عدله، وأفاض عليهم وأبل فضله.

وأما للوك العزيز وللك العادل فإن السلطان قرّر حالتها، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسير للوك العزيز وأنه وهو بحبة معه الملك العادل، ويأمره بالوصول إلى الشام، وشق ذلك على الملك المظفر حتى أغلظه للناس، وعزم

(١) م : « لا يحلون » و « يخونك » .

(٢) م : « أخذ » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) م : « وبناه » .

(٦) م : « الشحنة » ؟ و « بيا » (القيان) : « وشحن اليك بالخيول بلاد » . والبال شحنة من الخيل أى وإبله ، قال ابن برى : وقول الباقين فى الشحنة أنه الأبر غلط ، غير أن هنا القلط هو ما كان يصعب الناس دائماً ، ويردد فى كتب التاريخ العربية فى الصور الوسطى ، فالشحنة - ويقال الشحنة - وبأسرة الشرطة أو علف المنيشة أو الأئمة للعرف على حراسها ، ويجمع القلط على - شحن وشحنى : .

(٧) هذا التاريخ ساقط من (م) .

على السير إلى ديار الغرب^(١) ، إلى بركة ، فَبَيَّحَ ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة ، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال ، والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك ، فأراه الله^(٢) الحق بين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة ، وسلم البلاد ، ورحل وأصل إلى خدمة السلطان ، فإمر السلطان إلى قتاته فلقية بـرج الصفر^(٣) ، وفرح بوصوله فرحاً شديداً ، وذلك في ثالث عشر شعبان سنة اثنتين وخمسين^(٤) ، وأعطاه حاة ، وسار إليها .

وكان قد قُتِدَ بين الملك (٥٢ ب) الظاهر وبعض بنات الملك المائل عند نكاح ، فتم ذلك ، ودخل بها يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان^(٥) .

ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك .

ولما كان الحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسة عزم على قصد الكرك ، فسير إلى محروسة حلب من يستحضر السكرو ، وبرز من دمشق في منتصف الحرم ، فإمر حتى نزل بأرض نيطرة منتظرا لاجتماع السأكرو المصرية والشامية ، وأمر السأكرو المتواصلة إليه بشن التآزرات على مافي طريقهم من البلاد الساحلية ، فعملوا ذلك ، وأقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدو .

ووصل قتل محروسة مصر الشتوى ، ووصل معه بيت الملك المنظر ، وما كان له بالديار المصرية .

وتأخرت عنه السأكرو الحلبية بسبب اشتغالها بالافرنج بأرض انطاكية^(٦) من بلاد ابن لاون ، وذلك أنه كان قد مات ، ووصى لابن أخيه - اللمون - بالملك ، وكان الملك المنظر بجاة ، وبلغ السلطان الخليل (١٥٣) فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخاد ثأرتة^(٧) ، وكان وصول تقي الدين إلى محروسة حلب في سابع عشر الحرم سنة ثلاث وثمانين ، فنزل في دار غفيف الدين بن زريق ، فأقام بها إلى ثالث صفر ، وانتقل إلى دار كنان^(٨)

(١) توجد تفاصيل حلة جداً عن مفروع الملك المنظر تقي الدين عمر الخروج إلى الغرب وتكوين ملك له فيه في المراجع التاريخية المعاصرة الأخرى . انظر : (ابن الأثير السكندر : ج ١١ ، ص ١٩٧) و (أبو هامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠) و (ابن واصل : طرغ الكروب ج ٢ ، ص ١٨٠ — ١٨٢) .

(٢) م : لراى الحق .

(٣) هذه الكلمات الثلاث ساقطة من (م) .

(٤) م : في الثالث والعشرين من شعبان .

(٥) م : في السادس والعشرين من شهر رمضان .

(٦) م : بأرض الأرمن من بلاد ابن لاون .

(٧) هذه العبارة ساقطة من (م) .

وفي تاسع صفر سار الملك المنقز بمسكر حلب إلى حارم ، فأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهل ، فمات السلطان إلى الشام ^(١) وكان وصول السلطان - رحمه الله - إلى السواد في خلس عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين ^(٢) .

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بشترا ، ولقيه ولده الملك الأفضل ، ومنظر الدين بن زين الدين وجميع الساکر . وكان قد تقدم إلى الملك المنقز بمصالحة الجانب الحلبي مع الأفرنج ؛ ليتفرغ الیال مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم الملك المنقز في المشر الأواخر من ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين ، وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للفرقة التي عزم عليها ، فسار ومن اجتمع به من الساکر الشرقية في خدمته . وم : عسكر الموصل مقدمهم مسعود بن الرضائي ، وعسكر (٥٣ ب) ملردین ؛ ^(٣) إلى أن أتوا عشترا في المشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فلقبهم السلطان واحترمهم وأكرمهم ^(٤) .

وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان المسکر لأمر قد عزم عليه على تلي يعرف بتل تسيل ، وتقدم إلى أبواب الیمنة بحفظ موضعهم ، وإلى أصحاب الیسرة بذلك ، وإلى أصحاب القلب بقتله - قدس الله روحه - فأكان أحرصه على نصر الإسلام .

ذكر وقعة حطين للباوكة على المؤمنين

^(٥) وكانت في يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمائة . وذلك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد ، واحتياذ الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في إقامة قانون الجهاد ، فسار إلى سائر الساکر واستحضرها ، واجتمعوا إليه بشترا في التاريخ المذكور ، وعرضهم (١٥٤) ورتبهم ، واندفع قاصدا نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة سابع عشر (من) ربيع الآخر ، وكان أبدا يقصد بوقعته الجتمع (لا) سبأ أوقات صلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ، فرمما كانت أقرب إلى الإجابة .

فسار في ذلك الوقت على تسمية الحرب ، وكان بلغه أن العدو لا يلتمهم أنه قد جمع الساکر اجتمعوا بأسرم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدها نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى

(١) هذه الجمعة سالفة من (م) .

(٢) التمس ق. (م) : « فلقبهم السلطان في البصر الأوسط من ربيع الآخر فأكرمهم وأكرمهم » .

(٣) هذه الجمعة سالفة من (م) .

المُتَّيَّة^(١) . ورحل من هناك . ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بجمية الحرب مبتظراً أن الافرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم .

وكان نزوله في هذه الليلة يوم الأربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر للذكور ، فلما رآهم لا يهتدون نزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب^(٢) مجلماً قبالة وجهة العدو ، ونازل طبرية ، وزحف عليها فهجمها ، وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل (٥٤ ب) واحتلت القلعة وحدها .

ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الافرنج ، فسبَّروا إلى السلطان من هزفه ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ، وعلق المسكر هو ومن معه ، فالتقى المسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواسر الخيـس الثاني والعشرين .

وحال الليل بين الثنتين فقبأتا على مصاف شاكهن في السلاح إلى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين ، فركب المسكران وتصادما ، وعلت الجاليشية^(٣) ، وتحركت الأطلاب ، والتعم القتال ، واشتد الأمر ، وذلك بأرض قرية تسمى الوريا ، وضاق الخناق بالقوم ، وهذا وهم سائرون كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وقد أبقنوا بالويل والنبور ، وأحست أنفسهم أنهم في غيـ زوار القبور .

ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرته يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقع الرمال على من كفر ، غل بينها الليل وظلامه ، وجرت في ذلك (١٥٥) اليوم من الوقائع العظيمة ، والأمور الجسيمة ، ما لم يُحْكَمْ عن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقمده التعب عن النهوض ، وشغلته النصب عن الحيو فضلاً عن الركوض .

حتى كان صباح السبت التقى برك فيه فطلب كل من الفريقين مقبله ، وعلت كل طائفة أن للكسوة منها مدحورة الجنس مدحورة النفس ، وتحقق للسلمون أن من ورائهم الأردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا يتجيبهم إلا الله تعالى .

(١) خطبت بعد سراجمة (بالوت : مجسم الجبلان) حيث ذكر أنها موضع بالأردن مقابل لبقية أنيق . بينه وبين طبرية ثلاثة أميال .

(٢) انظر ملحق كتاب ٧٤ ، ملحق ٣ .

(٣) راجع ملحق كتاب ٧٧ ، ملحق ٤ .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين وبصره ، وأجراه على وفق ما قدره ، غلبت الاطلاب الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ، وكان حقا علينا نصر للمؤمنين .

وكان القومص ^(١) ذكرى القوم والمسيهم ^(٢) ، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يشفه ظن محاسبة جنسه عن نفسه ، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده ، وأخذ طريقه نحو صور ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجوا وحده ، وأمن الإسلام كيده ، واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر (٥٥ ب) والعنفان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وعلموهم بالصنار ، ونهزمت منهم طائفة ، فتيما أبطال للمسلمين ، فلم ينبج منهم واحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بقليل يقال له تل حطين ^(٣) ، وهي قرية عنده وعندا قبر شبيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء ، فضائقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حوالبهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر ، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدمهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدمهم للثلاث جنوى ، والبرنس أرناط ، وأخو الملك ، والبرنس - وهو صاحب الشوك - وابن المنقرى ، وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الهاوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الاستبار .

وأما الباقون من اللدنيين فاتهم قتلوا ، وأما الأدوان فاتهم قسموا إلى قتل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخذل إلى الأسر خوفا على نفسه ، ولقد حكى لي من أتى به أنه لقي بحوران شخصا واحدا معه طلب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرم ^(٤) وحده (١٥٦) غلزالان وقع عليهم . فأما الذين بقوا من مقدمهم فنذكر حديثهم .

أما القومص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس ، وأصابه ذلت الجنب فأهلكه الله بها .
وأما مقدم الاستبار ^(٥) والهاوية فإن السلطان اختار قتلهم ، وقتلوا عن بكرة أبيهم .

(١) القومص تعريب حرفي لفظة اللاتينية (Comes) أي الأمير ، ومنعما الأصل في اللاتينية «الرفيق» ، لأنه كان في بادئ الأمر يرانق الملك في حروب وتغلاته ، ثم سمي بالأمير راجع تفصيلات أكثر في تعليقاتنا على (ابن راسل : فرج الكروب ، نفس السيل ، ج ١ ، ص ٧٢ ، هامش ٢) .

(٢) م : « وأنعام » .

(٣) راجع تفاصيل هذه المعركة (جبال الدين الشهابي ومحمد سعيد الريان : قصة الكفاح بين العرب والاستعمار) .

(٤) م : « أخذهم » .

(٥) هذه هي التسمية العربية للطائفة القروسانيون المسجلين ، وهو تعريب طاهر لفظ الانجليزى (Hospitallers) أو القروسي (Hospitallers) ، وكان يطلق في مصر المروب اسميا على طائفة من القروسانيين ، وقد أسس هذه الطائفة (Blessed gerrard) ، في سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وكانت القار التي يكتفها هؤلاء الرميان (Hospice) موجودة قبل ذلك في بيت المقدس ، وتحتضن مأوى المساكين والمرضى من الصليبيين ، وتنسب هذه الطائفة في كثير من طائفة فرسان المبدأ (Fempliers) التي عرفها العرب باسم « الهاوية » ، وقد لب فرسان مآين الطائفتين دورا خطيرا في المروب الصليبية . انظر : (King : knights Hospitallers . P.1-33) .

وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إذا غفر به قتله ، وذلك أنه كان صبر به بالشوكة قتل^(١) من الدمار للضربة في حلقه الصلح ، فزولوا عنده بالأمان ، فندروهم وقتلهم ، فحاشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، قتال ما يتضمن الاستخفاف بالذي - صلى الله عليه وسلم - ، وبلغ ذلك السلطان ، فحله الدين والحياة على أنه نذر إن غفر به قتله .

ولما فتح الله تعالى عليه بالصر والنظر ، جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فإتيها لم تكن نُصبت ، والناس يتربون إليه بالأسرى ومن وجده من المقننين .

ونُصبت الخيمة ، وجلس فرحاً مسروراً شاكرًا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جبري (٥٦ ب) وأخاه والبرنس أرناط ، وتناول الملك جبري شربة من جلاب^(٢) مثليج ، فشرب منها وكان على أشد حال من السطش ، ثم تناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجان : قل للملك : أنت لقيت نسيه وإلا أنا ماسقيه^(٣) .

وكان على جميل عادة العرب وكرم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن ، قصده بذلك ، الجري على مكارم الأخلاق^(٤) .

ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عُين لزولم ، ففصوا وأكلوا شيئاً ، ثم عاد فاستحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم ، واستحضرهم وأقعد ذلك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وواقفه على ما قال . وقال له : ها أنذا استنصر^(٥) لحمد عليه الصلاة والسلام . ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل .

(١) م : « قتله » .

(٢) ذكر في (اللسان) و (المعاني : الغرب ، ص ١٠٦) و (الملك الفخر يوسف بن رسول : المعتمد في الأوعية ، ص ٧١) أن الجلاب هو ماء الفرد ، فربى عرب ؛ و (Dasy : Supp. Dict Arab) أنه الماء يقع فيه الزبيب .
(L'eau dans laquelle on a laissé tromper les raisins secs)

(٣) م : أنت لقيت سيئه وأما أنا فاسقيه .

(٤) م : أمن بذلك جرياً على مكارم الأخلاق .

(٥) م : انصر .

ثم سلّ النسيئة^(١) وضربه بها ، فخلّ كفه ، وتمّ عليه من حضر ، ومجّل الله بروحه إلى النار ، فأخذ رؤى على باب الخلية .

فلما رآه الملكُ وقد خرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يقبض به فاستحضره [السلطان] وطالب قلبه ، وقال : لم تجز عادةً للوك أن يقتلوا للوك ، وأما هذا فإنه يجاوز حدّه ، فجري ما جرى .
وبات الناس في تلك الليلة على (١٥٧) أتم سرور ، وأكل حبوب ، ترتفع أصواتهم بالمدح والشكر له ، والتكبير والتهلل حتى طلع الصبح في يوم الأحد .

١٧ ذكر أخذ قلعة طبرية

ولما كان يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل - قدس الله روحه - على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها ، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء^(٢) .

ذكر أخذ عكا^(٣)

ثم رحل - قدس الله روحه - طالباً عكا ، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر ، وقا تلها بكثرة الجيش جمادى الأولى ، فأخذها ، واستنقذ من كان فيها من الأسارى ، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر ، واستولى على ما فيها من الأموال والبخائر والبضائع (والنجائر) ، فلما كانت مظنة التجار ، وشرقت المساكن في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن للنيمة ، وأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصغورية والناصرية ، وكان ذلك غلواها من الرجال بالفتك والأسر .

ولما (٥٧ ب) استقرت قواعد عكا ، واقتسم الفاتحون أموالها وأسارها سار [السلطان] يطلب تبين .

(١) النسيئة - بالماء - خبير مقوس يشبه السيف القصير ، وهو سرب القنط الفارسي « نسيجه » ، وقال أيضاً : « نسيجا » و « نسيجه » و « نسيجا » و « نسيجه » ، راجع : (Dargy: Supp. Dict. Arab) .
(٢) هذا العنوان وهذه الفقرة غير موجودين في (م) وإنما السلام هناك حصل في جملة قصيدة لهما : وتسلم قدس - الله روحه - في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها إلى يوم الثلاثاء .
(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

ذكر أخذ تبين^(١)

نزل عليها يوم الأحد جادى عشر جمادى الأولى وهى قلمة متينة ، فنصب عليها للتأجيق ، وضيق عليها بالزحف الخلقى ، وكان بها رجال أجلاء شديون فى دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ، ونصره الله عليهم ، وتسلمها يوم الأحد^(٢) ثامن عشر (من) الشهر للذكور^(٣) حنة ، وأمر من يقى بها بعد القتل ، ثم رحل منها إلى مدينة ميدانقرل عليها ، ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها .

ذكر أخذ بيروت^(٤)

ثم سار [السلطان] حتى أتى بيروت ، فنزلها يوم الخميس^(٥) الثانى والعشرين من جمادى الأولى ، فركب عليها القتال والزحف . وضيق عليهم الأمر حتى أخذها يوم الخميس^(٦) التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، وتسلم (١٥٨) أصحابه جُبَيْلاً وهو على بيروت .

ولما فرغ به من هذا الجانب رأى قصد عقلاق ، ولم ير الاشتغال بصورة بد أن نزل عليها ومارسها ، لأن السكر كان قد تفرق فى الساحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئاً ، وكانوا قد خسروا من القتال وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع فى صور كل أفرنجى يقى فى الساحل ، فرأى قصد عقلاق ، لأن أمرها كان أيسر .

ذكر أخذ عقلاق^(٧)

ونزلها يوم الأحد السادس عشر^(٨) من جمادى الآخرة ، وتسلم فى طريقه مواضع كثيرة ، كالرملة ، وسيفتنا والدارون ، وأقام عليها المنجنيقات ، وقتلها قتلاً شديداً ، وتسلمها يوم السبت سلع جمادى الآخرة من هذه السنة ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبرين والنطرون بنير قتال .

(١) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٣) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

(٤) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٥) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

(٦) م : « ونزلها فى السادس والعشرين » الخ .

وكان بين فوج عقلائن وأخذ الأفرنج لما من للسليخ خمسة وثلاثون سنة ، فلن العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادى الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسة .

(٥٨ ب) ذكر فتح القدس المبارك الشريف

حرسها الله تعالى

ولما تسلم عقلائن والأماكن المحيطة بالقدس مقر من ساق الجدد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت عليه الساكن التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء ليلاتها من النهب والنار ، فسار نحوه مقتداً على الله ، موقفاً أمره إليه ، منهزماً قرعة فتح باب الخيرة التي سبقت على انتهائه إذا فتح ، بقوله عليه السلام ^(١) : « من فتح له باب خير فليتهزه ، فإنه لا يملق متى يفتق دونه » ^(٢)

وكان نزوله عليه يوم الأحد ^(٣) الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين للبركة ، قتل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من النخيلة والرجلة ، وقد تحزروا أهل الخيرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ماعدا النساء والصبيان .

ثم انقل - رحمه الله - لمصلحة رأها إلى الجانب الشمالي ، وكان استقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ^(٤) ، ونصب عليه الجانيق ، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ القصب في السور عما يلي وادي جهنم في قرية شمالية .

ولما رأى أعداء الله منازل بهم من الأمر التي لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل (١٥٩) وكان قد أتى في قلوبهم الرعب مما جرى على الأبطال ورجالهم من السبي والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، حلوا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف التي قتل به إخوانهم مقتولون ، فاستكانوا وأسلموا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين المقاتلين .

(١) النص في (م) : « التي حث عليه من الله عليه وسلم بقوله . . الخ » .

(٢) نص الحديث في (م) : « من فتح باب خير فليتهزه ، فإنه لا يدرى متى يفتق دونه » .

(٣) م : « وكان نزوله عليها في الخامس عشر . . الخ » .

(٤) هذه الجمعة سابعة من (م) .

وكان تسليمة القدس - قدس الله روحه - في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلته كانت ليلة العراج للنصوص عليها في القرآن المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بينهم - صلى الله عليه وسلم - إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان قسراً عظيماً يشهد من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الخلق والطرق ؛ وذلك أن الناس لما بانهم ما يسر الله على يده من قروح الساحل ، وشاع قصده القدسي قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضييق والدعاء والهيل والتكبير ، وحُطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فقهه (٥٩ ب) ، وحُط الصليب ^(١) التي كان على قبة الصخرة ، وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعة الصلح أهم قطعوا على أنفسهم : عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير ^(٢) صورية ، وعن كل صنيذر ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمن أحضر القطيعة سلم نفسه ، وإلا أخذ أسيراً . وفرج الله من كان أسيراً من المسلمين ، وكانوا خلقاً عظيماً ، زهاء ثلاثة آلاف أسير .

وأقام - رحمه الله - يجمع الأموال ويفرغها على الأمراء والعلماء ، وإيصال من دفع قطيعته منهم إلى أمته وهو صود .

وقد بلغني أنه - رحمه الله عليه - رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال ^(٣) شيء ، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمائة .

(١) هو للبروف صليب الملبوس ، وقد وصفه البهاء (في الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) بقوله : « وهم يزعمون أنه من الخشب التي يزعمون أنه صلب عليها مسيودم ، وقد غلقوه بالذهب الأحمر ، وكأله بالدر والجوهر . الخ » ؛ وتذكر للراجع أن هذا الصليب نقل إلى جزيرة قبرص بعد إجلاء المسلمين عن الشام ، ثم استول عليه لليونان منذ فتحهم لهذه الجزيرة سنة ١٤٢٦ م ، على أنه بقى بقلعة الجزيرة (Ziada : mamlouk Conquest of Cyprus P. 102) .

(٢) ذكر الأب لويس شيخو (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٤٦ ، هامش ٢) أن الدينار المصري ضرب في صور في أيام الدولة الفاطمية ، وكان القمح يساوي نحو خمسة عشر درهماً خفيفاً من النقود الحالية ، وقد كان الدينار المصري أقل قيمة من الدينار المصري ؛ وعن دار النقود في صور ، وعن الدينار المصري ، وعن أنواع النقود المتداولة في مصر والشام في العصر الأيوبي والبعث .

(٣) منصور بن بركة القمي السكالي : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب للصربية ، مخطوطة بدار الكتب المصرية .
(Ehrenkrentz : Extracts from the technical manual on the Ayyubid mint in Cairo B. & O. A. , 1953, XV3, 424-447) و (Ehrenkrentz : The Standard of Fineness of gold Coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades , journal of the American oriental Society, Vol 74, No. 3 July-Sept 1954 P. P. 162-166) .

ذكر قصده صور

يسر الله ضحيا

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور ، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد ، فرحل سائرا إليها حتى أتى عكا ، فنزل عليها ، ونظر في أحوالها ، ثم رحل متوجهاً (١٦٠) إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، وصار حتى أشرف عليها ، ونزل قريباً منها ينتظر وصول آلات القتال .

ذكر وصول ولده الظاهر إليه ^(١)

وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سبَّ إلى ولده الملك الظاهر يستحضره ، فإنه كان قد تركه بحلب ليدُ ذلك الجانب ، لاشتغاله هو بأمر الساحل ، فقدم عليه في ثامن عشر شهر رمضان على تلك المنزلة ، وسرَّ بوصوله سروراً عظيماً .

ذكر نزوله على صور ^(٢)

ولما تكاملت عنده آلات القتال من للناجيق والسيوف والستار وغير ذلك ، نزل عليها في الثاني والعشرين من شهر رمضان ^(٣) ، وضايقها وقائلاً عظيماً ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والسكر من البر .

وكان قد خلف أخاه الملك المادل بالقدس يقرّر قواعده ، فاستدعاه ، فوصل إليه في خامس شوال ، وسبَّ من حاصر هوين ، فسلمت بأمان ^(٤) في الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثمانين ^(٥)

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) :

(٢) (م) : « في الثامن والعشرين » .

(٣) هذه الألفاظ غير موجودة في (م) .

ذكر كسرة الأسطول^(١)

(٦٠ ب) وذلك أنه قدم على الأسطول إنسانا يقال له « الفارس يدران » ، وكان ناهضاً جليداً في البحر ، وكان رئيس البحرين^(٢) يقال له : « عبد المحسن » ، وكان قد أكد عليهم الرخصة في أخذ حذرهم وتيقظهم ، لئلا تنهزم منهم فرصة : فغاثقوه وغطوا عن أعينهم في الليل ، فخرج أسطول الكفار من صور وكبسهم^(٣) ، وأخذوا للقميين ، وأخذوا منهم خمسة قطع ، وقتلوا خلقا عظيما من الأسطول الإسلامي ، وذلك في السابع والعشرين من شوال .

فلما علم السلطان ما تم على المسلمين ضاق عطشه ، وكان قد هم الشتاء ، وتراكت الأمطار ، وامتنع الناس من القتال من شدة الحر ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ السكر جزاء من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعداداً جليداً ، فرأى ذلك رأياً ، ورحل عنها بعد أن رعى التحقيقات وسيورها ، وأسرقي ما لا يمكن هله .

وكان رحله يوم الأحد^(٤) ثاني ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ففرق المأسكر ، وأعطاهم دستوراً ، وسار كل قوم إلى بلادهم ، وأقام جميع جماعة من خواصه بسكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

ذكر نزوله على كوكب

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة رأى الاشتغال بهذه الحصون الباقية لهم ، مما ينفذ قلوب من في صور وينهى أمرها به ، فاشتغل بذلك ، ونزل على كوكب في أوائل الحرم سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وكان سبب بداهته بكوكب أنه كان قد جبل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل إليهم قوة أو جماعة ، فخرج الأفرنج ليلاً ، وأخذوا غرتهم ، وكبسوم بغربلا ، وقتلوا مقدمهم ، وكان من الأمراء ، يعرف بسيف الدين أخى الجلولي ، وأخذوا أسلحتهم ، فصار — رحمه الله — من هكا ، ونزل عليها بمن بقي معه من خواصه ، فإنه كان

(١) أسطول — وقد يرمز في المراجع العربية : اسطول أو سطول — والمجمع : أساطيل كلمة يونانية الأصل (Ostoia) ، وتعني في المراجع العربية على السفن الحربية مجسدة أو على السفينة الراسدة ، ويقال للجندي الذي يسير في الأسطول : « أسطول » .
اقل : (المتأخر : خلفه ، التلويح ، س ٣٨ و ١١٩) ولا على مبارك : الحائط التوفيقي ، ج ١٤ ، س ٨٧ ، و (الجبال : معجم السفن العربية) Schiff in arabischen : Rindermann (ابن خلدون : للغة ، س ١٢٨) .

(٢) م : « البحرين » .

(٣) م : « وكبسوم » .

(٤) التاريخ غير مثبت ل (م) .

قد أعطى المسأكر دستوراً ، وعاد أخوه للآل السائل إلى مصر ، وعاد والده للآل الظاهر إلى محروسة حلب ، ولقي في طريقه شدة من الثلج والبرد ، فحلت السلطان مع ذلك - رحمة الله عليه - الحجة على النزول عليها ، وأقام يقاتلها مدة .

وفي تلك الليلة وصات (٦١٠ ب) إلى خدمته ، فإني كنت قد حجبت سنة ثلاث وثمانين ^(١) وكانت وقعة ابن القدم ، وجرح يوم عرفة على عرفة ، خلف جرى بينه وبين أمير الحاج طشتكين على ضرب البكوس والبيدة ، فإني أمير الحج نهاه عن ذلك ، فلم ينته ابن القدم ، وكان من أكبر أمراء الشام ، وكان كثير الغزاة ، قدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة ، ثم حمل إلى منى بجروحا ، ومات بمضى يوم الخميس ، يوم عيد الله الأكبر ، وصل عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ، ودفن بالمملا ، وهذا من أتم السمات ، وبلغ ذلك السلطان فشق عليه .

ثم اتفق في العود من الحج على الشام قصد القدس وزيارته ، والجمع بين زيارة النبي - صلى الله عليه وسلم - وزيارة أبيه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، فوصلت إلى دمشق ثم خرجت إلى القدس ، فبلغه خبر وصولي ، ففلن أنى وصلت من جانب الموصل في حديث ، فاستحضرني عنده ، وبالح في الإكرام والاحترام .

ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج لي بمض خواصه وأبلنني تقدمه إلى بأن أعود أمثل ^(٢) في خدمته عند العود من القدس (١٦٢) ، فظننت أنه يوصيني بهم إلى الموصل ، وانصرفت إلى القدس الشريف - حره الله تعالى - يوم رحيله عن كوكب ، ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع المسأكر عليه ، وكان حصنا قويا وفيه رجال شداد من بقايا السيف ، وميرة عظيمة ، فرحل إلى دمشق ، وكان دخوله إليها في سلاس ربيع الأول سنة أربع وثمانين .

وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إليها عائداً من القدس ^(٣) ، وأقام - رحمة الله عليه - في دمشق خمسة أيام ، فكان له فيها ستة عشر شهراً .

وفي اليوم الخامس عشر بلغه خبر الإفراج عنهم فوصلوا ببغداد واقتالوا ، فخرج منرجبا ^(٤) ساعة بلوغ الخبر ، وكان

(١) ينس المؤلف هنا على أنه حج في سنة ٥٨٣ هـ .

(٢) م : « آمل » .

(٣) يعتمد المؤلف هنا تاريخ سفره إلى القدس وتاريخ عودته منها .

(٤) م : « مسرعا » .

قد سَير إلى الساكر يستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جببلا ، فلما عرفت الإفرنج بجروجه كثفوا عن ذلك .

وكان بلنه وصول عماد الدين ، وعسكر الموصل ومنظر الدين بن زين الدين إلى حلب قاصدين الخدمة لفنزاة ، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل التوفاني .

(٦٢ ب) ذكر دخوله الساحل الأعلى

وأخذة اللاذقية وجبَّه وغيرها

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تلٍ قبالة حصن الأكراد ، ثم سَير إلى اللات الظاهر واللات للظفر أن يجتصا وينزلا بتيزين قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب ^(١) فسارا حتى نزلا بتيزين في هذا التاريخ ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان في هذه اللبزة ، ووصلت إليه ^(٢) في هذه اللبزة ، فإنه كان قد سَير إلى دمشق يقول : تلحقنا نحو حصن ، ففرجت ^(٣) على عزم السير إلى الموصل متجيزاً لذلك ^(٤) فوصلت إليه امتثالاً لأمره ، فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني .

وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد ^(٥) بدمشق مدة مقام فيها ، يجمع أحكامه وآدابه ، قدَّمته بين يديه فأعجبه ، وكان يلزم مطالعته ؛ وما زلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافني عن ذلك ، ويستدعيني لحضور في خدمته في كل وقت ، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه على ذكره إني بالجليل ، فأقام في منزله ربيعاً الآخر جيمه ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد وحاصرها يوماً يحسبها به ^(٦) ، فأرأى الوقت يحتمل حصاره . واجتمعت الساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفتين ، ودخل البلاد نهباً وغنماً لمن بها من الساكر ، وتقوية الساكر بالقتال ، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر : إنا داخلون إلى الساحل وهو قليل الأزواد ، والمد يدحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب ، فاحلوا زاد شهر .

(١) هذه الجبل سافطة من (م) .

(٢) هذه إشارة عامة إلى كتاب آخر منتهى المؤلف خصباً لملاح الدين .

(٣) م : م . وحاصرها يوم غيبت بها .

ثم سُرَّ إلى مع الفقيه عيسى ، وكشف إلى أنه ليس في عزمه أن يتمكن من العودة إلى بلادى ، وكان الله قد أوقع في قلبه عجبته منذ رأيته وحبه الجليل ، فأحيته تلك ، وخدمته من تاريخ مسهل جمادى الأولى سنة أربع وعشرين^(١) - وهو يوم دخوله الساحل - ، وجميع ما حكيتُه قبل إنما هو رواية عن أئمة من شاهده . ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرتني به من أئمة به خبراً يقرّب اليقين ، والله للوفى .

ذكر دخوله - رحمة الله عليه - إلى الساحل^(٢)

(٦٣ ب) ولما كان يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأولى رحل السلطان على تسمية لقاء العدو ، ورتب الأطلاب ، وصارت الليلة أولاً ، ومقدمها عماد الدين زنكي ، والقلب في الوسط ، واليسرة في الآخر ، ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين ؛ وسار القتل في وسط الساكر حتى أتى للتلز ، فبتنا تلك الليلة في بلد العدو ثم رحل في صبيحة السبت^(٣) ونزل على المزمعة فلم يقاتلها ، ولم يتعرض لها^(٤) ، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت ورحل عنها يوم الأحد^(٥) .

ذكر فتح أنطرموس^(٦)

ووصل في السادس إلى أنطرموس ، فوقف قبلها ينظر إليها ، وكان في عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجيلة ، فاستهان بأمرها ، فزيم على قتالها ، فسير من ردّ اليمنة ، وأمرها بالتزول على جانب البحر . وأمر الميمنة بالتزول على البحر من الجانب الآخر ، ونزل هو في موضعه ، (١٦٤) وصارت المساكر محدة بها من البحر إلى البحر ، وهي مدينة رأكبة على البحر ، ولما برز خان^(٧) كاتلين حامين^(٨) "وكان رأس اليمنة عماد الدين صاحب سنجار ، ورأس اليسرة مظفر الدين بن زين الدين"^(٩) وركب هو وقارب البلد ، وأمر الناس

(١) هنا نسى هام بمحمد اللوات في هذه أصالة بخدمة صلاح الدين .

(٢) هنا العنوان غير موجود في (م) .

(٣) هذه السكيات غير موجودة في (م) .

(٤) هذه البجيرة غير موجودة في (م) .

(٥) هنا العنوان غير موجود في (م) .

(٦) م : ٥ برجان .

(٧) هذه الجملة سابقة من (م) .

بالزحف والقتال ، فلبسوا لأمة^(١) الحرب^(٢) واشتد عليها الحرب^(٣) والقتال والزحف ، وضائقهم وبأغصانهم
فما استتب نصبُ العظيم حتى صد الناس السور وأخذوها بالسيف ، وغنم السكرو جمع من بها وما بها ، وخرج
الناس والأسرى وأموالهم بأيديهم ، وترك النملان نصبُ العظيم ، واشتغلوا بالذهب والسكر ، ووفى بقوله
« - رحمه الله - فإنه كان قد عرض عليه الغداء ، فقال : « تتدنى يا بطرسوس إن شاء الله » .

وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً ، وحضرنا عنده للعناء بما جرى ومدة الطعام ، وحضر الناس ، وأكلوا
على عادتهم ، ورتب على البرجين الباقين الحصار ، فلم أحدهما إلى مقتر الدين ، فما زال يحاصره حتى أخربه^(٤)
وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان بإخراجه سور البلد ، وقسمه على الأمراء ، وشرعوا في (٦٤) إخراجه
وأخذ في محاصرته البرج الآخر^(٥) ، وكان حصناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها
بن الخيالة^(٦) والمقاتلة فيه ، وشدق يدور فيه الماء ، وفيه جروح^(٧) كثيرة تجرح الناس عن بعد^(٨) ، وليس
له قدر يجرح عليه مسلم ، فرأى السلطان تأخير أمره والاشتغال بما هو أهم منه ، فأشد في خراب السور حتى أتى
عليه ، وخرت البيعة ، وهي بيعة عظيمة عديم محجوج إليها من أقطار بلادهم ، وأمر بوضع النار في البلد ، فأحرق
جميعه حتى كانت تسج^(٩) النار في أحره^(١٠) وبيوته ، والأصوات مرفعة بالتهليل والتكبير ، فأقام عليها يجرها
إلى رابع عشر جمادى الأولى ، وسار يزيد جبلة ، وكان عرض له ولده الملك الظاهر في أثناء طريق جبلة ، فإنه
طلبه وأمره أن يحضر معه جميع المساكين التي كانت يتزين^(١١) ، «^(١٢) فحضرهم في خدمته^(١٣) .

(١) الأمانة : الفروع ، وقيل : السلاح ، وقيل : الفروع المسجدة ، سميت لأمة لاحتكامها وجود حفظتها ، وقيل : السلاح كله ،
ولأمة الحرب : أمانته ، وجعلها لأمة ولقوم ؛ واستلام الرجل : لبس الأمانة ، أي إذا لبس ما عنده من عدة رجع ويضطر
وسيف وقيل : انظر : (السان) و (أمن حذيل الأتلسي : حلية الفرسان وشعار الصيادين ، لفرع محمد عبد النبي حسن ،
ص ٢٣٨) .

(٢) هذه الجبله ساقطة من (م) .

(٣) م : « أخرجه » .

(٤) م : « وأخذوا يحاصرون الآخر » .

(٥) م : « من الجبله والجارية والمقاتلة » .

(٦) انظر ما قلت هناك ص ٦٠ ، حلتش ٢ .

(٧) م : وفيه خروج كثيرة يخرج الناس منها عن يده ، وقيل : لى أنه تصرف في من الناس لهم النفس

(٨) م : « كان تلجج » .

(٩) م : « أرزوه » .

(١٠) م : « بيمين » .

(١١) هذه الجبله ساقطة من (م) .

ذكر فتوح جبلة

"وكان وصوله - قدس الله روحه - إليها في ثلثين عشر (١٦٥) في يوم الجمعة^(١) ، وما استقر نزول المسافر حتى أخذ^(٢) البلد ، وكان فيه مسلمون مقينون فيه ، وقاض يحكم بينهم^(٣) ، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع ؛ وبقيت القلعة متمتعة^(٤) ونزل المعسكر محققاً بالبلد وقد دخله المسلمون ، واشتغل بقتال القلعة فقتلوا^(٥) قتالا يقيم عزراً لمن كان فيها ، وسلبت بالأمان يوم السبت تاسع عشر جدي الأول ، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين ، وسار عنها يطلب اللاذقية .

ذكر فتوح اللاذقية^(٦)

وكان نزوله عليها يوم الخميس الرابع والعشرين ، وهي بلد مليح خفيف على القلب ، غير مستور ، وله ميناء مشهور ، وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد ، فنزل - رحمه الله عليه - محققاً بالبلد ، وأخذ المعسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد ، واشتد القتال ، وعظم الزحف ، وارتفعت الأصوات ، وقوى الضجيج إلى آخر النهار^(٧) ، وأخذ البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه (٦٥) غنيمة عظيمة ؛ فإنه كان بلد التجار ، ففرق بين الناس الليل وهجومه .

وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أخذ القلوب ، وأخذت القلوب يوم الجمعة^(٨) من شمالي القلاع ، ويمكن منها النقب حتى بلغ طوله - على ما حكى لي من ذرعه - ستين ذراعاً ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليهم حتى صمد الناس الجبل ، وقاربوا السور ، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذقون بمحاربة^(٩) باليد ، فلما رأى عدو الله ما حل بهم من الضيق واليأس استنابوا بطلب الأمان عشية الجمعة الخامس والعشرين من الشهر ، وطلبوا قاض جبلة يدخل إليهم ؛ ليقرر لهم قاعدة الأمان ، فأجيبوا إلى ذلك .

(١) مكان هذه الجمعة في (م) : « ووصل إلى جبلة في ثلثين عشر » .

(٢) م : « آت » .

(٣) هنا من له أمانة يدل على المسلمين في المدن الخاضعة للمسلمين كان يحكم بينهم فلا من منهم .

(٤) مكان منه الجمعة في (م) : « فاشتغل بقتال القلعة » .

(٥) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٦) م : « اليوم للذكور » .

(٧) هذا العنوان ساقط من (م) .

(٨) م : « بالمحاربة » .

وكان - رحمه الله - متى طلب منه الأمان لا يبتذل به ^(١) ، فساد الناس عنهم إلى خيلهم وقد أخذ منهم الثوب ، فأتوا إلى صبيحة السبت . ودخل ناضى بجيئة إليهم ، واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم وذرائعهم ونسائهم ^(٢) وأموالهم - خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والذخائر - وأطلق لهم ذواب يركبونها إلى ما منهم ^(٣) وأجبروا إلى (١٦٦) ذلك ^(٤) ، وروى عليها التزم الإسلامى للنصور في بقية السبت المذكور للبارك ^(٥) ، وأقنا عليها إلى يوم الأحد ^(٦) السابع والعشرين .

ذكر فتوح صهيون

ورحل عن اللاتقية ظهيرة الأحد للذكور طالبا صهيون ^(٧) المحروسة ، وكان نزوله عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى للذكورة ، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأرباء ^(٨) ، ونصب عليها ستة مناجيق ، وهى قلعة حصينة منيعة في طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد ، مقدار طولها ستون ذراعا ولا يبلغ ^(٩) ، وهو مقر في حجير ، ولها ثلاثة أسوار ، سور دون رتبها ، وسور دون القلعة ^(١٠) ، وسور القلعة ، وكان على قلعتها ^(١١) عظم طولها منصوب ، فحين أقبل العسكر الإسلامى شاهده وقد وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعلم ^(١٢) أنه النصر والفتح ، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب ، فضر بها (٦٦ ب) ولله الملك الظاهر - صاحب حلب ^(١٣) وكان قد لحقه قبيل جيئة لمحفظه وعسكره وحضر فتوحها ، وكان نصب على صهيون متجنبا قباله قوته من سورها فاطلح الوادى ^(١٤) ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقى إليه منها .

(١) م : « لا يبتذل به وفاء » .

(٢) هنا اللفظ ساقط من (م) .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) م : « بقية ذلك اليوم » .

(٥) هناك اللفظان ساقطان من (م) .

(٦) النص في (م) : « واستعمرت المراكز بها من سائر نواحيها في التاسع والعشرين » .

(٧) م : « أو أكثر » .

(٨) م : « القلعة » .

(٩) م : « وعلموا » .

(١٠) النص في (م) : « فضر بها متجنبا للملك الظاهر صاحب حلب ، وكان نصب متجنبا قريبا من سورها فطلح الوادى » .

ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان^(١) - رحمة الله عليه - على الزحف، وركب^(٢) وتقدم، وأمر المتجنقات أن تتوارى^(٣) بالضرب، وارتفعت الأصوات، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وما كان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الرّيف، واشتد الزحف، وعظم الأمر، وهجم المسلمون الرّيف.

ولقد كذت أشاهد الناس وهم يأخذون القُدور، وقد استوى فيها العلمام فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الرّيف إلى القلعة وحلوا ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم، وشهب الباقي، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة، ولما عاينوا الهلاك استنأفوا بطلب الأمان، ووصل خبرهم إلى السلطان، فبذل لهم الأمان، وأنهم عليهم، على أن يسلموا (١٦٧) بأنفسهم وأموالهم، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة، وعن الصغير دينار، وسلمت القلعة - وفقه الحد - وأقام السلطان عليها حتى تسلم عنه قلاع، كالينزو، وبلاطنس^(٤) وغيرها من القلاع والحصون وتسلمها الدواب،^(٥) فلها كانت تتعلق بصهيون^(٦)

ذكر فتح بكّاس

ثم رحل - رحمة الله عليه - وسرنا حتى أتينا^(٧) سلاس جمادى الأخرى^(٨) بكّاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذاك المنزل على شاطئ العاصي، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة، وهي على جبل يطل على العاصي، فأحرق بها من كل جانب، وقاتلها قتالا شديداً بالمتجنقات والزحف المضائق إلى يوم الجمعة^(٩) تاسع الشهر، ويسّر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم، وقسم جميع ما كان فيها، وكان لما قلعة تسمى الشّفر قريبة منها يعبر إليها منها بجر، وهي في (٦٧ ب) غاية للنة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المتجنقات من الجوانب، ورأوا أنهم لا ناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشر، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأطاكية، فأذن في ذلك. وكان تمام فتحها وصعود الدّلم السلطاني على قلعتها^(١٠) يوم الجمعة سلاس عشر.

(١) هذه الجمعة سابعة من (م).

(٢) م: «توارى».

(٣) م: «كاليد، وفيه، وبلاطنس».

(٤) هذه الجمعة سابعة من (م).

(٥) هذا التاريخ غير موجود في الأصل، وقد أخيف عن (م).

(٦) هذا القنطان ساقطان من (م).

(٧) م: «عليها».

ثم عاد السلطان إلى القتل ، وسير ولده الثالث الظاهر إلى قلعة سرمانية يوم السبت سابع عشرة^(١) ، قاتلها قتالا شديداً ، وضايقها مضايقة عظيمة ، ونزلها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر ، فانتفت فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في ألهم الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء للمسلمين وسعادة السلطان حيث يسر لنا الله الفتح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع القلالية ، ولم يفتق منها في التاريخ .

ذكر فتوح برزية

(١٦٨) ثم سير السلطان جريدة إلى قلعة برزية ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على من جبل شامق يضرب بها القتل في جميع بلاد الأفرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وخرج علوها كان خمسة ذراع ونيفا وسبعين ذراعاً ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى القتل ، وكان وصول^(٢) القتل وبقية المسكر تحت جبلها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر .

وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين منه صد السلطان جريدة مع القاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحرق بالقلعة من سائر نواحيها ، وركب القتل من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتوارة الضرب ليلاً ونهاراً .^(٣) وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء^(٤) السابع والعشرين ، قسم السائر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ، ثم يستريح ويسلم القتال لقسم الآخر بحيث لا يفتقر القتال عنها أصلاً .

وكان صاحب النوبة (٦٨ ب) الأولى عماد الدين - صاحب سنجار - قاتلها قتالا شديداً حتى استوفى نوبته ، وضرس الناس من القتال ، وتراجسوا عنه .

واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه ، وركب وعمرق خطوط عدة ، وصاح في الناس ، غفلوا عليها حلة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى ردى الناس على الأسوار ، وهجموا القلعة ، وأخذت القلعة هنوة ، فاستناثوا الأمان ، وقد تمكنت الأيدي منهم

(١) التاريخ سالف من (م) .

(٢) م : « نزول » .

(٣) هذه الجمعة سالف من (م) .

«فلَمْ يَكُ يَنْتَعِمُ إِعْلَانُهُمْ لِمَا رَأَوْا بَأْسَنَا» ونهب جميع ما فيها، وأسر جميع من كان فيها، وكان قد آوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وكان يومها عظيماً.

وعاد الناسُ إلى خيامهم غانمين بحمد الله تعالى، وعاد السلطان إلى القتل فرحاً مسروراً، وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً منهم، وكان هو ومن أخذ من أهله صبعة عشر نفساً، فنُ عليم السلطان ورقاً لهم (١٦٩)، وأخذهم إلى صاحب أنطاكية، استألف له، فليهم كانوا يمتثلون به ومن أهله.

ذكر فتوح دَرْبَسَاك

ثم سار - قدس الله روحه - ^(١) حتى أتى جسر الحديد، وأقام عليه أياماً، وسار حتى نزل على دَرْبَسَاك يوم الجمعة ثامن شهر رجب ^(٢)، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية - يَسُرُّ الله فتحها - فنزل عليها وقتلها قتلاً شديداً بالمجنقات، وضايقها مضايقة عظيمة، وأخذ النقب تحت برج منها. وتمكن النقب منها حتى وقع وحوله بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عن يصد فيها، ولقد شاهدتهم وكما قُتل منهم رجلان قام غيره مقامه، وهم قيام عرض الجدار مكتشفين ^(٣)، فاشتد بهم الأمر حتى طابوا الأمان، واشتغلوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم ويولي أيديهم لا خير، ورق عليها الداء الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشرين رجب وأعطاهم قَلم الدين سليمان (٦٩ -) بن جندر، وسار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين منه.

ذكر فتوح بَرُاس

وهي قلعة منيعة أقرب إلى أنطاكية من دَرْبَسَاك، وكانت كثيرة العدد والرجال، فنزل السكر في مرج لها، وأحرق السكر بها جريدة مع أنا احتجنا إلى يَزَك في تلك المرة يحفظ جانب أنطاكية، لتلايخرج منها من يهاجم السكر، فغضب يَزَك الإسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشد عنه من يخرج منها، وأنا بمن كان في اليزك في بعض الأيام لرؤية البلد ووزارة حبيب النجار المدفون فيها، ولم يزل يقاتل بمراس مقاومة شديدة حتى

(١) م : « ثم وصل حتى أتى » .

(٢) م : « ثامن عشر رجب » .

(٣) م : « وهم قيام ل عرض الجدار مكتشفون » . ولجميع أيضاً : (ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٦٨).

طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية ، و رقى للملح السلطاني^(١) عليها في ثاني شعبان من شهر ر سنة أربع وعشرين .

وفي بقية ذلك اليوم عاد - رحمه الله - إلى الحجيم الأكبر ، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح ، فصالهم لشدة ضجر الساكر وقوة قلق عماد الدين - صاحب سنجار - في طلب المستور ، وعقد الصلح بيننا وبين أنطاكية من بلاد الأفرنج (١٧٠) لا غير على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم ، وكان إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد إلى السلطان .

ورحل يطلب دمشق ، فسأله والده الملك الظاهر - صاحب حلب - أن يختار له ، فأجابته ، وسار حتى أتى حلب حامداً عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام ، وولده يقوم بالضيافة حتى القيام ، ولم يبق من السكر إلا من ناله من نعمته منال وأكثر حتى أشفق عليه والده^(٢) .

وسار من حلب رابع عشر شعبان يريد دمشق ، فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، وأصمده إلى قلعة حماة ، واصطلع له طعاما حسنا ، وأحضر له سماع الصوفية ، وبات فيها ليلة واحدة ، وأعطاه سبيلة واللاذقية .

وسار - رحمه الله عليه - على طريق بعلبك حتى أتاها ، وأقام بمرجها يوما ، ودخل إلى حماة ، وسار فيها حتى^(٣) أتى محروسة دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة فأقام بها حتى^(٤) دخل رمضان ، وما كان يرى تبديل وقته عن الجهاد (٧٠ -) مهما أمكنه . وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها كصفد وكوكب ، فرأى أن يشغل الزمان^(٥) بفتح المكاين في الصوم .

(١) م : « الإسلامى » .

(٢) م : « وأكثر ظنى أنه أشفق عليه والده » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) م : « الوقت » .

ذَكَرَ قَتْمَ صَفَدَ .

ثم سار في أوائل رمضان من محروسة دمشق يريد صَفَدَ ، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان فيجتمع فيه بأهله ؛ « اللهم إنه احتل ذلك ابتداء مرضاتك فآته أجراً عظيماً » .

فسار حتى أتى صَفَدَ في أثناء شهر رمضان المبارك ، وهي قلعة ، منيعة قد خاضعت حولها أودية من سائر جوانبها ، فأخذق المسكر بها ، ونصب عليها للمناجيق ،^(١) وفي أثناء شهر رمضان سلت الكرك من جانب نواب صاحبها ، وخلصوه بها من الأسر ، وكان قد أسرف في وقعة حطين للباركة^(٢) ، وكانت الأمطار شديدة ، والحوادث غطيمة ، ولم يمه ذلك عن جده .

ولقد كنتُ عنده في خدمته ليلةً وقد عيّن مواضع خمسة لمناجيق ، حتى تنصب (١٧١) قال في تلك الليلة : ما تنام حتى تُنصب الخيمة .

وسلم كل منجنيق إلى قوم ، ورسله تتواتر إليهم يرفقونهم كيف يصنعون حتى أظننا الصبح ونحن في خدمته - رحمة الله عليه - وقد فرغت المنجنيقات ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها^(٣) فيها ، فرويّت له الحديث المشهور في الصلح ، وبشّرتُه بمقتضاه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « عَيْنَانِ لَا تَحْتَسِمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ يَبْكُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .

ثم لم يزل القتال على صَفَدَ متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلت بالأمان في رابع عشر شوال من السنة المذكورة .

(١) هذه الباردة سائلة من (م) .

(٢) كذا في الأصل وعند ابن واصل ، ولعلها « جنزيرها » ، فقد ذكر موسى أن جنزيرناخوة من « زنجير »

القنارية ، ومنهاما السلة .

ذكر فوج كوكب

ثم سار يريد كوكب ، فزل على سطح الجبل ، وجرد المسكر ، وأحرق القلعة ، وضايقها بالسكينة ، بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدو ، وبني له حائطاً من حجر وطن يستروا به^(١) والنشاب يتجاوزه^(٢) ولا يقدر أحد يقف على باب خيمته إلا أن كان ملبساً ؛ وكانت الأمطار متواترة (٧١ ب) ، والرحول عظيمة ،^(٣) بحيث يمنع الناس والراكب إلا بمشقة عظيمة^(٤) وعلى شدائد وأهوال من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو مسلطاً عليهم بعلوم مكانه ، وقُتل وجُرح جماعة ، ولم يزل راكباً مركب الجند حتى تمكن النقب من سورها .

ولما أحسن العدو الخدول^(٥) بالنقب وقد تمكن من السور علم أنه مأخوذ^(٦) فطلب الأمان ، فأجلهم إلى ذلك وأدبهم ، وتسلمها في منتصف ذي القعدة ، ونزل على القور إلى النقل ، وكان قد أنزله من شدة الوحل والريح في سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجه أخوه للثقل البادل في أشغال شخصية حتى هل هلال ذي الحجة ، وأعطى الجماعة دستوراً ، وسار مع أخيه الملك المادل يريد القدس الشريف لزيارته ووداع أخيه ، فإنه كان عائداً إلى مصر ، فوصلا إليه يوم الجمعة ثامن ذي الحجة وصليا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة ، وصلينا صلاة العيد الأعظم بها أيضاً يوم الأحد ،^(٧) وعاد إلى خيامه ، وعاد بقية (١٧٢) يومه وسار يوم الاثنين حادى عشر ذي الحجة^(٨) طالباً عقلاً لينظر في حالها ويودع أخاه ، فأقام بها أياماً لم شمتها ، ويصلح أحوالها ، فودع أخاه ، وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عقلاً ، وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ، ويمر على البلاد يفتقد أحوالها ، ويودعها الرجال والمدد حتى أتى عكا ، فأقام بها معظم الحريم سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً ، وأمره بجارة السور والإطعام فيه ومعه حسام الدين بشاره^(٩) وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا بعدد حفظها^(١٠) ، وسار حتى دخل محروسة دمشق مستهل صفر سنة خمس وثمانين وخمسمائة .

(١) هذا القتلان ساقطان من (م) .

(٢) هذه الجارة ساقطة من (م) .

(٣) هذه الجمعة ساقطة من (م) .

ذكر توجهه إلى شقيف أرنون

وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا

وأقام بدمشق حتى دخل في ربيع الأول (٧٢٧ هـ) سنة خمس وعشرين وثلاثة ألام .

ووصله في أثناء ربيع الأول رسول الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لوالده ولي العهد ، فخطب له .

وجدد عزمه على قصد شقيف أرنون ، وهو موضع حصين قريب من بانيس ، وكان يبرزه "بحد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع" ، فصار حتى نزل مرج فلوس وأصبح يوم "السبت راحلا حتى أتى مرج برغوث فنزل به ينتظر الساكر ، وأقام به والساكر تتابع إلى "حادى عشر ، ورحل حتى أتى بانيس ، ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون في السابع عشر ، فقيم به ، وهو قريب من شقيف أرنون ، بحيث يركب كل يوم بإشارته ويمود ، والساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، فأقنا أليما نشرف كل يوم على الشقيف ، والساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والمدة ، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن منه عدم السلامة ، فرأى أن إصلاح حاله معه قد تبين طريقا إلى سلامته فنزل بنفسه ، وما أحسنا به إلا (١٧٣) وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فأذن له ، فدخل ، فاحترمه وأكرمه ، وكان من كبار الافرنجية وعقلاها^(١) ، وكان يعرف العربية وعنده إطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث^(٢) ، وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ، وفيه ، وكان عنده ثاب ، فغفر بين يدي السلطان ، وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر له أنه مملوك ، وأنه تحت طاعته ، وأنه يعلم للسكان إليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موصفا يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج ، وإقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يمكن من الإقامة بموضعه ، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور^(٣) ويأخذ مغل هذه السنة^(٤) فأجيب

(١) م : « الثالث »

(٢) هذه البقرة سابقة من (م) .

(٣) هو : أرناط صاحب صيدا Reynold garnier, Lord of Sidon and Beaufort ومن سياسته بعد هذه الخدمة راجع : (ابن واسل : مفرج الكروب ، لفر التيال ، ج ٧ ، ص ٧٨٧)

(٤) (Ranciman : History of the Crusades, VOL. 2, P. 469-470)

(١) هذا خامه له أهمية ، لأنه يدل على أن بعض أمراء المسلمين في الشام جاءوا بطلون لآلته العربية ويأتون بالثقافة الإسلامية .

(٥) هذه الجلة سابقة من (م) .

إلى ذلك كله ، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ، ويتناظرنا في دينه وتناظره في بطلانه ؛ وكان حسن الحاضرة ومتأدباً في كلامه .

وفي أثناء ربيع الأول وصل (٧٣٠ هـ) الخبير بتسليم الشؤبك ، وكان قد أقام السلطان عليه جماعاً عظيماً يحاصرونه مدة سنة حتى فرغت أزوادهم ، وسدوه بالأمان .

ذكر اجتماع الافرنج لتقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلّم عسقلان أنه إن أمر الملك بتسليمها أطلقه ، فأمرهم بتسليمها ، وسلموها ، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه ، ولاء بالشرط ، ونحن على حصن الأكراد من انطرسوس ، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ، ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبداً ، فنسكت - لمنه الله - ، فجمع جمعاً ، وأتى صور يطلب الدخول إليها ، فخبى على بابها راجع للرئيس الذي كان بها في ذلك الوقت ، والرئيس الممين كان بصور وكان رجلاً عظيماً ذا رأى وبأس شديد في دينه ، وصرامة عظيمة فقال : إني نائب للوك الذين وراء البحر ، وما أذنوا لي بتسليمها إليك .

وطالت المراجعة ، ولمستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً (١٧٤) على اللذين ، وتجتمع المساكن التي بصور وغيرها من الافرنجية على اللذين ، وعسكروا على باب صور .

ذكر الواقعة التي استشهد فيها أليك الأخرش

وذلك أنه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة بلغ السلطان من جانب البزك أن الافرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وهي ^(١) الأرض التي نحن عليها ، فركب السلطان ، وصاح الجادوش بالناس ، فركب المسكر يريدون نحو البزك ، فوصل المسكر وقد انفصلت الوقعة ، وذلك أن الافرنج عبر منهم جماعة الجسر ، فنهض لهم البزك الإسلامي ، وكانوا في قوة وعدة ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا في النهر جماعة ، ففرقوا ، ونصر الله الإسلام

(١) م : « وبيت الأرض » .

وأهله ، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك للسلطان يعرف بأبيك الأخرش ، فإنه استشهد في ذلك اليوم ، وكان شجاعا بطلا يسلح بجرا في الحرب ، فارسا ، قنطر به فرسه (٧٤ ب) ، فلقبا إلى مضرة ، قاتل بالثياب حتى فنى ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه قتلوه ، ووجد السلطان عليه لسان شجاعته ، وعاد السلطان إلى خيم كانت قد ضربت له قريب للكان جريدة .

ذكر وقعة ثانية

استشهد فيها جمع من رجلة المسلمين

وأقام في تلك النظم إلى يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى المذكور ، وركب يتشوف على القوم - على عادة - فتبع العسكر خلق عظيم من الرجلة والنزلة والسوق ، وحرس على ردم ، فلم يفعلوا ، ولقد أمر من شربهم فلم يفعلوا ، وخاف عليهم ، فإن للكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجلة إلى الجسر ، وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع لهم من الافرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون ، وكشفهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين ؛ فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان (١٧٥) ، فإنه كان بعيدا عنهم ، ولم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بجمية قتال ، وإنما ركب مستشرفا عليهم على المائدة من كل يوم .

ولما بان له الوقعة ، وظهر له غبارها بث إليهم من كان معه ليردوم ، فوجدوا الأمر قد فرط ، والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بشها السلطان ، وظفروا بالرجلة لفترة عظيمة ، وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد ، وأسروا جماعة من الرجلة ، وقتلوا جماعة ، وكان عدد الشهداء مائة وعشرين نفرا .

وقتل أيضا من الافرنج عدة عظيمة ، وغرق أيضا منهم عدة ، وكان من قتل منهم مقدم الأتانية ، وكان هدم عظيما عتقرا .

واستشهد من اللروفين من المسلمين ابن البصار^(١) ، وكان شجاعا حسنا شجاعا ، واحتسبه والله في سبيل الله ،

(١) كنا في الأصل ، وهو عند (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٨٦) « الأمير غازي بن سعد الدين ابن الصلار .

ولم تقطر من عينه عليه دمة — على ما ذكر جماعة — لإزموه — ، وهذه الوقعة لم يفتق للأفرنج مثله في هذه الوقائع التي حفرتها وشاهدتها ، ولم يتألوا من المسلمين (٧٥ ب) مثل هذه الملة في هذه الملة .

ذكر مسيره جريدة إلى عكا

وسبب ذلك

ولما رأى السلطان — رحمه الله — ما حل بالمسلمين في تلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم ، وقدر معهم أنه يهجم على الأفرنج ، ويسير الجسر ، ويقتلهم ويستأصل شأقتهم ، وكان الأفرنج قد رحلوا من صور ، ونزلوا قريب الجسر ، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ ، فلما حتم العزم على ذلك أصبح يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى على ذلك وركب وسار ، وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أوأخر الناس إلى أوألتهم وجدوا اليزك عائدا ، وخيامهم قد قلت ، فستلوا عن سبب ذلك ، فذكروا أن الأفرنج رحلوا راجعين إلى صور ملتجئين إلى سورها ، محتصين بقربها ، وأنهم لما بلغهم ذلك عادوا^(١) خائبين ، فوقع الخفي عن اليزك وعادوا^(٢) ، ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بُني من سورها ، ويبحث على الباقي ،^(٣) ويودع ، فراح على تبين ولم يرجع على مرج عيون^(٤) ففضى إلى عكا ، ورُتّب أسوأها ، وأمر بقتلة (١٧٦) عمارة سورها وإتقانه وإحكامه ، وأمرهم بالاحتياط والاحتراز ، وغاد إلى المسكر ، المنصور إلى مرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف ، لعله الله .

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت سلاسل جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجلة العدو يسبلون ويصلون إلى جبل تبين بحطوبون . وفي قلبه من رجلة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة وكيئا يرتبه لهم ، ويأخذهم فيه ، وبلغه أنه يخرج وراهم أيضا خيل تحفظهم ، فسل كيئا يصلح لقاء الجميع ، ثم أخذ إلى عسكر تبين وقدم إليهم أن يخرجوا في شر يسير غافرين على تلك الرجلة ، وأن خيل العدو إذا تبنتهم ينهزمون .

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

إلى جبة عتيها لهم ، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة ، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر المدو حتى إذا تحركوا في نصرته أصحابهم قصلوا خيهم ، وركب هو ونجفله سحر يوم الاثنين شاكي السلاح متجرد ، ليس معهم خيمة إلى الجبة التي (٧٩ ب) عتيها لمزعة عسكر تبني ، ورتب المسكر ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طُلب^(١) عشرين فارساً من الشجمان الجياد الخيل ، وأمرهم أن يترأوا للمدو حتى يظهروا إليهم وينالوشوم وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين ، قصلوا ذلك ، وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم ، يقدمهم الملك - لئنه الله - وكان قد بلغهم الخبر وتمبوا تسمية القتال ، وجرى بينهم وبين هذه السرية السيرة قتال شديد ، والتزمت السرية القتال ، وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم ، وحلتهم الجبة على مخالفة السلطان وقاتهم العدو الكثير بذلك الجمع اليسير ، واتصل الحرب بينهم إلى أواخر نهار الاثنين ، ولم يرجع منهم أحد إلى العسكر ليخبر بما جرى .

واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر وقد هجم الليل ، فبث إليهم بوثاً كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف ، وفوات الأمر .

ولما بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكسين على أعقابهم بعد أن جرت مقلة عظيمة بين الجانبين ، وكانت القتل من الافرنج على ما ذكر من حضر - فإلى لم أكن حاضرها - زهاء عشرة أنفس ، ومن المسلمين ستة أنفار : (١٧٧) اثنان من اليزك ، وأربعة من العرب ، منهم الأمير زامل ، وكان شاباً تاماً حسن الشاب ، مقدّم مشيرته ؛ وكان سبب قتله أنه تقطعت به فرسه ، ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقطعت به أيضاً ، وأسر نحو وثلاثة من أهله .

ولما بصر الافرنج بالمدد للعسكر فلولهم خشية الاستفاد ، وجرح خلق كثير من الطائفتين ، وخيل كثيرة . ومن نوادر هذه الواقعة أن ملوكاً كان من عماليك السلطان يقال له : أيبك أئمن بالجراح حتى وقع بين القتل ، وجراحاته تشعب دماً ، وبات ليته أجمع على تلك الحلة إلى صبيحة يوم الثلاثاء ، فتفقد أصحابه فلم يجدوه فمروا السلطان ففداه ، فأنقذ من يكشف خبره ، فوجدوه بين القتل على مثال هذه الحلة ، فخلوه وقلوه إلى الخيم على تلك الحال ، وعافاه الله ، وعاد السلطان إلى الخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر منصوراً ، فرحاً مسروراً .

ذكر أخذ صاحب الشقيف

وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من اللذة غيلة ، لا أنه صادق في ذلك ، وإنما قصد به تدفيع الزمان ، وظهر لذلك (٧٧ ب) محائل كثيرة من الحرص في تحصيل اللذة واتقان الأبواب وغير ذلك ، قرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويكون بمرأى منه ، بمنع من دخول نجدة وميرة إليه وأظهر أن سبب ذلك شدة حو الزمان ، والفرار من وشم اللرج ، وكان انتقاله إلى سطح الجبل ليلة الجمعة الثاني عشر من الشهر ، وقد مضى من الليل ربه ، فأصبح صاحب الشقيف إلا والخليفة مضروبة ، وبقي بعض الماسكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب المسكر منه ، وهلم أنه بقي من اللذة بقية جهادى الآخرة حدثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السلطان ويستعطفه ، ويستزبد في اللذة ، ويحائل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته أن ذلك يتم ، فنزل إلى الخدمة وعرض المكان ، وقال : « اللذة لم يبق منها إلا اليسير ، وأرى فرق بين التسليم اليوم أو غداً » ومن المصلحة أن يبيت السلطان من يتسلم المكان ، وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور ، وأتهم على الخروج منها في هذه الأيام .

وأقام في الخدمة ذلك اليوم إلى الليل ، وعاد ساعداً إلى القلعة ولم يظهر له (١٧٨) السلطان شيئاً ، وأجراه على قاعدته^(١) ، ومقتضى مدته ، ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب بعد انتهاء اللذة والفرار منها ، وطالب الخلو بالسلطان ، وسأل منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر ، فأحسن السلطان منه الفدر ، فأطله وما آتاه ، وقال :

« تفكر في ذلك ، ونجمع الجماعة وتأخذ رأيهم ، وما ينفصل الحال عليه نرفك » وضرب له خيمة قريبة من خيمته ، وأقام عليه حرساً لا يشرب بهم وهو على غاية من الإكرام والاحترام له والمرافة والمراسلة بينهم في ذلك الفن مستمرة حتى اهضت الأيام ، وطولب بتسليم المكان ، فكتشف له أنك أضمرت الفدر ، وجددت في المكان عمار ، وحملت إليه ذخائر ، فأنكر ذلك ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده فتهته ، وينفذ السلطان تهته لتسلم المكان ، ويظهر هل تجد فيه شيء من البناء أم لا ، ففضوا إليه فلم يلفت أصحابه القميون فيه إليهم ، ووجدوه قد جدد باباً للصور لم يكن ، فأنقش الحرس الشديد عليه ، وأظهر ذلك ومنع من الدخول إلى

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « مادته وتعنى مدته » .

الخدمة ، وقيل له : قد انقضت المدة ولا بد من التسليم ، وهو يناط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه ^(١) ثم عاد وأخذ إليهم صاحبه (٧٨ ب) يأمرهم بالتسليم ، فأظهروا له المصيان عليه ، وقالوا : نحن نؤب المسيح لا نؤابك ، فأحيط على الحصن ، وأقيم عليه من خارجه يرك يحفظ الداخل إليه والخارج منه ^(٢).

ولما كان الأحد الثامن عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وفيه انتفخ هو إتهام المدة ^(٣) فأركب بنه وسار ^(٤) فإنه كان عنده مجاهدة فيما مضى ، قال ^(٥) . أنا أمضى وأسلم للمكان .

وسار معه جمع كثير من الأمراء والأجناد حتى أتى الشقيف ، وأمرهم بالتسليم فأبوا ، وطلب منهم قيساً ، فخرج إليه ، وحذته بلباسه ثم عاد ، واشتد لمتناهم بعد عود القيس إليهم ، فظن أنه أكد الوصية على القيس في الامتناع ، وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد ، فلم يلتفتوا وأعيد إلى الخيم للتنصير ، ونذر من ليته إلى بانياس وأحيط عليه بقلعتها ، فأحرق المسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين ، وأقام صاحب الشقيف بانياس إلى سادس رجب ، واشتد جنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب قضيب ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ، ولم يعملوا فيها شيئاً ، فأحضر إلى الخيم ، وفهد ليله وصوله بأمور عظيمة ، فلم يعمل .

وأصبح السلطان صبيحة الأربعاء ثامن رجب ورق (١٧٩) إلى سنام الجبل بجيحه ، وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان فيه أولاً وأبعد من الرخم ، وكان قد تغير مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك أن الأفرنج بصرور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو التواقيع يزيدون سعة عكا ، وأن بعضهم نزل بالأسكندونة ، وجرى بينهم وبين رجال المسلمين مناوشة ، وقتل منهم المسلمون غراً يبيراً وأقاموا هناك .

ذكر وقعة عكا - يسر الله فتحها - وسبب ذلك

وذلك أنه لما بلغ السلطان حركة الأفرنج إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير السارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان ، فأقام مستكشفاً للحال إلى ^(٦) يوم الأحد فأتى عشر رجب ، فوصل فأصد

(١) هذه الفترة كلها ساقطة من (م) .

(٢) هناك الاثنان ساقطان من (م) .

وأخيراً^(١) أن الأفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم إلى الزيب^(٢) ، ففعل ذلك عنده وكتب إلى سائر أرباب الأطراف يتقدم إلى^(٣) الساسكر الإسلامية بالسير إلى الحشم الحروس . وعاد فجاءد الكتب والمث . وتقدم إلى التقل أن سار الليل .

وأصبح هو صبيحة الاثنين^(٤) الثالث (٧٩ ب) عشر سائراً إلى عكا على طريق طبرية ، إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو ، وسير جماعة على طريق تبينين يستشرفون^(٥) العدو ، ويواصلون بأخياره ، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار ، فنزل بها ساعة ، ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له : اللنية صباح الثلاثاء^(٦) الرابع عشر رجب^(٧) ، وفيه بلغنا نزول الأفرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر ، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه .

وسار هو جريداً من اللنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أخذهم على طريق تبينين بمرج صفورية ، فإنه كان واعدم إليه وتقدم إلى التقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة ، وبث بعض العسكر ، ودخل عكا على غرة من العدو فتوقية لمن فيها ، ولم يزل يبيت إليها بئنا بعد بئنا حتى حصل فيها خلق كثير وعدد وافر ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وسار من الخروبة ، وكان قد نزل عليها يوم الأربعاء^(٨) خلس عشر الشهر ، فسار منها حتى أتى تل كيسان في أوائل مرج عكا ، فنزل عليه^(٩) وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك التمية ، وكان آخر الليرة على طرف النهر الحلو ، وآخر اليمنة مقارب تل العياضية ، فاحتاط العسكر الإسلامي للصور بالمدو المخدول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب ، وتلاحقت الساسكر الإسلامية ، واجتمعت ، ورتب البزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو ، وحصر العدو في خيامه من كل جانب ، بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد إلا ويخرج أو يقتل .

وكان معسكر العدو المخدول على (١٨١) شطر من عكا ، وخيمة ملكهم على تل اللعينين قريبا من باب

(١) م : « آخر » .

(٢) الأصل : « الزيت » ، وقد صحت بعد مراجعة (يا قوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قرية كبيرة على ساحل

بحر الشام قريب عكا ، وقد ذكر .

(٣) (Dussaud : Topographie Historique de la Syrie Antique et médiévale P. 47)

بأنها قرية على الشاطئ بين عكا وسور .

(٤) م : يتقدمون بالساسكر .

(٥) السلطان سائقان من (م) .

(٦) م : « يتخللون » .

(٧) هذان القتال سائقان من (م) .

البلد ، وكان عدد راجعهم ألفي فارس ، وعند راجعهم ثلاثين ألفاً ، وما رأيتُ من أعصم عن ذلك ، ورأيتُ من حزم برزخه على ذلك ، ومدد من البحر لا يقطع ، وجرى بينهم وبين السيزك مقاتلات عظيمة متواترة ، وللحمون يهاقون على قتالهم ، والسلطان بمنهم من ذلك إلى وقته ، والبعوث من الساكر الإسلامية تتواصل ، والملوك والأمراء من الأقطار تتتابع ، فأول من وصل الأمير الأجل^(١) الكبير مظفر الدين بن زين الدين ، ثم قدم بعده الملك للظفر تقي الدين صاحب حماة^(٢) في جفله ، وتتابعت الساكر الإسلامية^(٣) .

وفي أثناء هذه الحال توفي حسام الدين سقر الأخلط^(٤) بأسهال شديد^(٥) ، وأسف للحمون عليه أسفا شديداً ، فإنه كان شجاعاً ديناً - رحمه الله - يوم الاثنين سابع عشرين رجب على تل بروج عكا مشرف على الميضية . ثم إن الأفرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم ، واستعدروا بعبكاً بحيث منوا من الدخول والخروج منها ، وذلك يوم الخميس سابع رجب .

ولما رأى السلطان - قدس الله روحه - ذلك عظم لديه ، وضاق صدره ، وثارت عنه الغالية في فتح^(٦) الطريق إلى عكا لتستمر السابغة إليها (٨١ ب) بالورة والتجدة وغير ذلك ، فأحضر أمراءه وأصحاب الرأي من دولته ، وشاروهم في مضايقة القوم ، وانفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث يتفصل أمرهم بالكلية ، وانفتح^(٧) الباب والطريق إلى عكا ، فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان سنة خمس وثمانين ، وسار مع المسكر وقد رتبته لقتال : ميمنة وميسرة وقلبا ، وضايقهم مضايقة شديدة .

وكانت الجمعة بعد صلاة الجمعة اختتاماً لدعاء خطباء المسلمين على منابرهم^(٨) ، وجرى حملات عظيمة وقلبات كثيرة^(٩) وانتشر هسكر العدو إلى أن ملك التلول ، وكانت ميسرة عسكرهم إلى النهر الحلو آخذة إلى البحر ، وميمينتهم قبالة القلعة الوسطى التي لكها^(١٠) ، واتصل الحرب إلى أن حال بين القشتين هجوم الأيل ، وبات الناس على حالم من الجانبين ، شاكين في^(١١) السلاح ، تحرس كل طائفة نفسها من الطائفة الأخرى^(١٢) إلى أن أصبح صباح السبت ثاني شعبان .

(١) هذا القبط ساقط من (م) :

(٢) هذه الجمعة ساقطة من (م) :

(٣) هذان الانطذان ساقطان من (م) .

(٤) م : « وقبح الطريق » .

(٥) م : « وفتح » .

(٦) م : « الحلباء على النابر » .

(٧) هذه القفرة كلها ساقطة من (م) .

(٨) م : « شاكن السلاح » .

(٩) هذه الجمعة ساقطة - .

ذكر فتح الطريق إلى عكا

ولما كانت مبيحة السبت أصبح الناس على القتال ، وأخذ السلطان طائفة من شعبان المسلمين إلى البحر من شمال عكا ، ولم يكن هناك للمدوخي ، لكن عسكره كان قد امتدَّ جريدة " شمال عكا (١٨١) " إلى البحر ، " فحل شعبان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف على شمال عكا " فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانكشف السلون منهم إلى خيامهم ، وهجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم " ووقف اليرك الإسلامي مانعا من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل " ، وافتتح الطريق إلى عكا من باب القلعة للجهة بقلة الملك إلى باب قرقوش - القى جدده - ، وصار الطريق مهيئا يمر فيه السوقي ومعه الحوافج ، ويمر به الرجل الواحد والمرأة ، واليرك بين الطريق وبين المدو .

ودخل السلطان - رحمه الله - في ذلك اليوم إلى عكا ، وورق على السور ، ونظر إلى عسكر المدو من تحت السور ، وفرح المسلمون بنصر الله ، " وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان ؛ واستدار العسكر الإسلامي حول العسكر " الأفرنجي ، وأحذقوا به من كل جانب .

ولما استقرَّ ذلك تراجع الناس عن القتال ، وذلك بعد صلاة (٥) الظهر ، لسي الباب ، وأخذ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حفا من الراحة عادوا إلى القتال لمناجزة المدو بالكلية لما أخذهم منهم من الطمع (٦) وضاق الوقت ، وأخذ الضجر والتعب من الناس ، فلم يرجعوا إلى القتال في (٨١ ب) ذلك اليوم ، وبات الناس على أنهم يصيرونهم بكرة الأحد إلى القتال ، رجاء المناجزة بالكلية ، واحتوى (٧) المدو في خيامه بحيث لم يظهر منهم أحد .

ولما كانت بكرة الأحد ثالث شعبان تمى الناس للقتال ، وأحذقوا بالمدو ، وعزموا على مهاجمة القوم ، وعلى أن يترجل الأمراء ومعلم العسكر ، ويقاطعوا المدو في خيامه ، فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك

(١) هناك القنطان ساقطان من (م) .

(٢) م : « دخلوا عليهم » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من (م) .

(٦) م : « المناجزة القوم وضاق الوقت » .

(٧) م : « واحتفى المدو في خيامهم » .

إلى بكرة الاثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الراجل كله إلى داخل عكا ، ويخرجوا مع المسكر المتيم بالبلد من أبواب البلد على المدو من ورائه ، وتركب المساكر الإسلامية من خارج من سائر الجواب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد ، والسلطان يماي^(١) هذه الأمور بنفسه ويصاغها^(٢) بذاته ، لا يختلف عن مقام من هذه اللقائات ، وهو من شدة حرصه ووفوره همه كالوالدة الشكلى .

واتد أخبرى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى يوم الأحد المذكور لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً — لقرط اهتمامه — ، وضلوا ما كان عزموا عليه ، واشتدّت منمة المدو ، وحى نفسه في خيلهم ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفاس ، وتطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومقرئس ، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .

ذكر (١٨٢) تأخر الناس إلى تل الميضية

ولما كان يوم الجمعة ثامن شعبان^(٣) هزم المدو على الخروج بمجموعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم ، وامتدوا على التلول ، وساروا المروينا غير مفرطين في أنفسهم ، ولا خارجين من راجلهم ، والرجالة حولم كالسور للبنى ، يتلو بعضهم بعضاً ، حتى قاربوا خيام التيزك .

ولما رأى المسلمون ذلك وإقدام المدو عليهم تداعت^(٤) الشجعان ، وتنازلت الحكمة إلى الأقران ، وصاح السلطان — قدس الله روحه — بالسساكر الإسلامية :

« يا للإسلام . . »

فركب الناس بأجمعهم ، ووافق فارسهم راجلهم وشأبهم شيخهم ، وحلوا حملة الرجل الواحد على المدو الحذول ، فمادنا كماً على عقبيه ، والسيف يعمل فيهم ، والسالم منهم جريح ، والماعطب طرح ، مشددون هزيمة ، يمتز^(٥) جريحهم قتييلهم ، ولا تبرى الجماعة منهم على قتييلهم^(٦) ، حتى لحق انطياط من سلم منهم ، وانكفوا عن القتال ألبا ، وكان قصارهم^(٧) أن يحفظوا قوسهم ، ويحرسوا رؤوسهم .

(١) م : « يوال » .

(٢) م : « ويكافها » .

(٣) م : « ولما كان الثامن هزم . . الخ » .

(٤) م : « عليها شدوا وتنازعت الشجعان » .

(٥) م : « يير » .

(٦) م : « قتييلهم » .

(٧) م : « وكان رأيهم » .

واستمر^(١) فتح طريق عكا ، والصلون يتقدمون إليها ..

وكذلك من دخل ، ورق على السور ، ورمى المدو بما يسهل الله تعالى من فوق السور .

ودام القتال بين الفتيين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان .

ورأى (٨٢) السلطان توسيع الدائرة عليهم ، لملهم يخرجون إلى مصارعهم ، فنقل القتل إلى تل المياضية وهو تل قبالة تل الصليين ، مشرف على عكا ونجيام المدو .

وفي هذه الليلة توفي حسام الدين طمان ، وكان من شعبان للسلين - رحمه الله -^(٢) ودُفن في سطح^(٣) هذا التل ، وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان ، وقد مضى من الليل هزيع ، رحمه الله .

ذكر وقعة جرت العرب مع المدو

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن حسام الدين يخرجون للاحتشاش من طرف النهر بما يبني عليه ، فأمكن السلطان لهم جماعة من العرب ، وقصد العرب خلفهم على خيلهم وأمنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم ، فجمعوا عليهم ، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوساً عديدة بين يديه ، فغلق عليهم ، وأحسن إليهم وكان ذلك في يوم السبت سادس عشر شعبان .

وفي عشية ذلك اليوم وقع بين المدو وبين أهل البلد حرب عظيم قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، فطال الأمر بين الفتيين ، وما يخلو يوم من قتل (١٨٣) وجرح وسبي ونهب ، وأنس البعض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض ، لطلول المباشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة .

نادرة في هذه الواقعة^(٤)

وذلك أنه كان الرجال يوماً من الطائفتين قد شتموا من القتال فقالوا^(٥) : « إلى كم يقتال الكبار ، وليس لاصغار حظ ، نريد أن يصطارع^(٦) صبيان : صبي منا وصبي منكم . »^(٧)

(١) م : « واستمر » .

(٢) م : « وكان من شعبان » .

(٣) م : « سطح » .

(٤) هنا المتن غير موجود في (م) .

(٥) م : « فقالوا لي كم قتال . . الخ » وللي حذف تماماً .

(٦) م : « مصارع » .

(٧) م : « صبيان منا وصبي منكم » .

فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الأفرنج ، واشتد الحرب بين الصبيان^(١) ، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الكافرين فأخطفه وضرب به الأرض ، وقبضه أسيراً ،^(٢) واشتد به ليأخذه^(٣) فأشتراه بعض الأفرنج بدينارين ، وقالوا : « هو أسيرك حقاً » فأخذ الدينارين وأطلقه ، وهذه من نوازل القتال^(٤) .

ووصل الفرنج مركب فيه خيل ، فهرب منها فرسٌ ووقع في البحر ، وما زال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء ، عكا ، وأخذ السلون .

ذكر المصاف الأعظم على عكا

بِسْمِ اللَّهِ ضَمًّا

وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرون من شعبان تحورت عساكر الأفرنج حركة لم تكن لم يمثلها عادة ، فارسمهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، فاصطفوا خارج خيمهم : قلباً ومينة وميسرة ، وفي القلب (٨٣ ب) ، للآك وبين يديه الأنجيل محمولاً مستوراً بثوب أبيض منطى ، يمسه أربعة أشخاص بأربعة أطراف ، وهم يسيرون بين يدي الآك .

ولبتت المينة في مقابلة الميسرة التي لمسك الإسلام من أولها إلى آخرها ، وامتدت ميسرة المدفوف في مقابلة ميسرتنا إلى آخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميسرتهم إلى النهر ، وطرف ميسرتهم إلى البحر .

وأما المسكر الإسلامي للنصور فلين السلطان^(٥) لما بعصر بالقوم^(٦) أمر الجلاويش أن ينادى في الناس :

« يا للإسلام ، وضأكر موحدين »

فركب الناس وقد باهوا أنفسهم بالجنة ، وامتدت للينة إلى البحر^(٧) ، كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم^(٨) ، والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً .

(١) م : « بينهم » .

(٢) هذه الألفاظ ساقطة من (م) .

(٣) م : « هذه كلمة غريبة » .

(٤) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (م) .

وكان - رحمه الله - قد أنزل الناس في انطيم مينةً وميسرة وقلبا، تسمية الحرب ، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هوى القلب ، وفي مينة القلب واداه الملك الأفضل ،^(١) ثم واداه الملك الظاهر - عز نصره^(٢) ثم عسكر الواصلة يقدمهم ظهور الدين ابن البلبندى^(٣) ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن - ؛ ثم حسام الدين بن لاجين - صاحب نابلس - ؛ ثم الطواشي فاجاز النجى ، ووجوع عظيمة متصلين بطرف المينة ، وكانت في (١٨٤) طرفها الملك المظفر تقي الدين يحفظه وعسكره ، وهو مطلق على البحر .

وأما أوائل الميسرة : فكان مما على القلب سيف الدين على بن أحمد للشطوب ،^(٤) من كبار ملوك الأكراد ومقدمهم^(٥) والأمير بجلى ، وجماعة المهرانية والمكارية ، ومجاهد الدين برقتش^(٦) - مقدم عسكر سنجار - ، وجماعة من المماليك ؛ ثم مظفر الدين بن زين الدين يحفظه وعسكره .

وأواخر الميسرة : كبار المماليك الأسيديّة ، كيف الدين يازكج ، ورسلان بُنا ، وجماعة الأسيديّة الذين يُضرب بهم المثل . وفي مقدم القلب الفقيه عيسى زججه . هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ، ويدهم إلى الزوال ، ويرغبهم في نصرة دين الله .

ولم يزل القوم يتقدمون ، والمسلحون يقدمون ، حتى علا النهار ، ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على مينة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قليات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر - وكان في طرف المينة على البحر - ، فراجع عنهم شيئاً ، إطماعاً لهم ، لعلهم يمدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضاً ، فلما رأى السلطان قد تأخر^(٧) ظنّ به ضعفاً ، فأمدّه بأطلاب هدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة (٨٤ ب) العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « البكتري » ، وعند ابن واسل : « البكتري » وفي (الروشدين ، ج ٧ ، ص ١٤٤) : « البكتري » .

(٣) م : « برقتش » .

(٤) م : « فلما رأى السلطان ذلك ظن - الخ » .

ولما رأى الدين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الأطلاب دأخلهم الطمع ، وتحركوا نحو مينة القلب ، وحلوا حلة الرجل الواحد ، واجلهم وفارمهم ، وقد رأيت الرجال تدير سير الخيالة ولا يبقونها ، وهم يسوقون خيلاً^(١) .

وجاءت الحلة على الديار بكربة - كما يشاء الله تعالى - وكان لهم غرة عن الحرب ، وتحركوا بين يدي العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم للينة ، واتبع المدوا للتهزمين إلى المياضية ، فلبثهم استدأروا حول التل ، وصعد طائفة من المدو إلى خيم^(٢) السلطان ، قتلوا طست در^(٣) كان هناك .

وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل للكبيس ، وابن رواحة ورحمهما الله .

وأما الليرة ، فلها ثبتت لأن الحلة لم تصادفها .

وأما السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فيهنهم ، ويعدم الوعد الجيلة ، ويحثهم على الجهاد ، وينادي فيهم : « بالإسلام » ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الأطلاب ، ويتجاوز^(٤) الصفوف ، وأوى إلى تحت التل الذي كان عليه انليام .

وأما الهزموون من السكر فإنه بلغت هزيمتهم إلى القحوانة ، قاطع جسر طبرية ، وأثم منهم قوم محروسة دمشق ، فأما المتبقون لهم فلبثهم أتيموم (١٨٥) إلى المياضية ، فلما رأوهم قد صدوا إلى الجبل رجعوا عنهم ، وجاءوا عائدتين إلى عسكرهم ، فلبثهم جماعة من الفلنان والخرنيدية والساسة منهزمين على ينال الجبل ثم جاءوا ، قتلوا منهم جماعة ، فبأن السوق كان فيه خلق عظيم ، ولهم سلاح .

وأما الذين صدوا إلى انليام السلطانية فلبثهم لم يلتسوا فيها شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرنا ، ولم تلاثة نفر ، ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فملوا أن الكسرة لم تتم^(٥) ، فعادوا منعدرين من التل يطلبون عسكرهم .

(١) م : « الخيالة وهم يسوقون خيلاً » ، ومي قراءة خاطئة تدعو للنسب .

(٢) م : « خيصة » .

(٣) التلست لفظ عامي . وسواها التلست ، وهو مررب من اللفظ الفارسي « تلت » ، والتلست دار : أحد التلنان للصرفين على التلست خانة ، ومي كما عرفنا (التلستلتي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ - ١١) « بيت التلست » سميت بذلك لأن فيها يكون التلست الذي تنزل فيه الأيدي ، والتلست الذي ينزل فيه القهات السلطان . . . وفيه ما يليه السلطان من الكلوثة والأنية وسائر التياب ، والسيف واللف والسروروز . إلخ » انظر كذلك (هس الرابع ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) و (عيظ المحيط) .

(٤) م : « ويحرف » .

(٥) م : « لا تم » .

وأما السلطان - رحمه الله عليه - فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه قرص يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحلة على الدو ، فلما رأى الإفرنج نازلين من التل أرادوا قتالهم ، فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم ، واشتدوا يطلبون أصحابهم ، فصاح في الناس ، خجلوا عليهم ، فطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس وراهم حتى لحقوا أصحابهم ، والطرد وراهم ، فلما رأوهم منهزمين للسلون وراهم في عدد كثير غلوا أن من حل منهم قد قُتل ، وأنهم إنما نجوا منهم هذا النفر فقط ، وأن المزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا في الحرب والمزيمة ، وتحركت لليسرة عليهم .

وعاد الملك لأظفر بجمعه (٨٥ ب) من الليثة ، وتجمعت الرجال وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ، ونصر الإيمان ، وظل الناس في قتل وطرح ، وضرب وجرح ، إلى أن اتصل المنهزمون السلون إلى عسكرهم ، فهجم السلون عليهم في الخيل ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها - خشية من مثل هذا الأمر - مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان الثعب قد أخذ من الناس ، والخوف والترق قد ألجمهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر ، يخوضون في القتل ودمائهم إلى خيامهم ، فرحين مسرورين .

وعاد السلطان في ذلك اليوم إلى خيمته فرحاً مسروراً ، وجلسوا في خيمته يتذاكرون ^(١) من قُتل من النملان ، وكان مقدار من قُتل من النملان والمجهولين مائة وخمسين قرأ ، ومن المروفين استشهد في ذلك اليوم ظهور الدين - أخو النقيع عيسى - وقد رأيته وهو جالس يضحك ، والناس يمزونه وهو ينكر عليهم ويقول : « هذا يوم المناء لأيوم الزاء » ؛ وكان هو قد وقع من فرسه وأركبه ، وقُتل عليه جماعة من أقاربه . وقُتل في ذلك اليوم الأمير مجلى . هذا الذي قُتل من المسلمين .

وأما من الدو المخذول غُزِر قتلهم بسبعة آلاف (١٨٦) نفر ، ورأيتهم وقد حلوا إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه ، فغرزتهم بدون سبعة آلاف .

ولما تم على المسلمين من المزيمة ما تم ، ورأى النملان خلو الخيل عن يمترض عليهم ، فلين المسكر اهتم

(١) م : « جملوكود » .

إلى قسمين منهزمين ومقاتلين ، فلم يبق في الخيم أحد^(١) ورأوا الكسرة قد وقعت وظنوا أنها تم^(٢) ، وأن العدو ينهب جميع ما في الخيام ، فوضعوا أيديهم في الخيام ، ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا .

ولما عاد السلطان إلى الخيم ، ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والمزينة سارع في الكتب والرسل في ردّ اللهزمين ، وتتبع من شذ من المسكر ، والرسل تتابع في هذا المعنى حتى بلغت حقبة فيق^(٣) فردوم وأخبروم بالكسرة للمسلمين^(٤) ، فسادوا .

وأمر بجميع الأقدسة من أكف النملان ، وجمع الأقدسة في خيمته^(٥) حتى جلاّت الليل والنهار - بين يديه في خيمته ، وهو جالس ، ونحن حوله ، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئا وحلف عليه يسلم إليه ، وهو يلتقي هذه الأحوال بقلب صلب ، وصدر رطب ، ووجه منبسط ، ورأى مستقيم غير مختبط ، واحتساب لله تعالى ، وقوة عزم في نصرته دين الله .

(٨٦ ب) وأما العدو المنحذول فإنه عاد إلى خيمته وقد قُتل شجعانهم ، وطُرحت مقدموم ، وفُقدت ملوكهم ، فأمر السلطان أن يخرج من عكا مجل يسحبون عليه القتل منهم إلى طرف النهر ليقبوا فيه .

ولقد حكى لي بعض من ولي أمر الجبل أنه أخذ غيطا ، وكان كما أخذ غيطا عقدة ، فبلغ عدد قتل الليرة إلى أربعة آلاف ومائة وكسر^(٦) ، وبقى قتل اللينة وقتل القلب لم يدم فإنه ولي أمرم غيره ، وبقى من العدو بعد ذلك من حى نفسه ، وأقاموا في خيمهم لم يكثرثوا بمحافل المسلمين وعسكرهم ، وشذت^(٧) من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب المزينة ، فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقيون هربوا في حال سبيلهم . وأخذ السلطان - رحمه الله - في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها ، وأقام للنادية^(٨) في العساكر ، وقرّن النداء بالوعيد والتهديد ، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه ، واجتمع من

(١) م : « أحد ورأوا » ، فظنوا أن الكسرة تم .

(٢) م : « وأخذوم بالكسرة إلى عسكر المسلمين » ، واجم أيضا : (ابن واسل ، فخرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٠٠) .

(٣) م : « وأمر بجميع الأقدسة من أكف النملان إلى خيمته » .

(٤) م : « وكسور » .

(٥) م : « ووقفت » .

(٦) م : « للنادية » .

الأقنعة عدد كثير في خيمته ، حتى إن الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر ، وأقام من ينادى على من ضاع منه شيء ، فغسر الخلق وصار من عرف شيئاً وأعطى (١٨٧) علامته سلف عليه وأخذ من الجبل^(١) وانحلت إلى الميادين والجوهر ، ولقي من ذلك مشقة عظيمة ، ولا يرى ذلك إلا نسمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها ، وقد حضرت يوم تفرقة الأقنعة على أربابها ، فرأيتُ سوقاً للعدل قائمة لم يرقى لها الدنيا أعظم منها ، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان . وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون تأثيرها أمر السلطان بالنقل ، حتى تراجع إلى موقع يقال له الخروبة ، خشية على العسكر من أراييح^(٢) القتل وآثار الوقعة من الوخم ، وهو موضع قريب من مكان الوقعة ، إلا أنه أبعد عنها في المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل ، وضربت له خيمة عند النقل ، وأمر بالترك أن يكون مقياً في المكان الذي كان نازلاً فيه ، وذلك في يوم الخميس التاسع عشرين شعبان . واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلع الشهر ، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، وكنتُ من جملة الحاضرين ، ثم قال : بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلما أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا ، وقد وطئ أرض الإسلام ، وقد لاحت^(٣) لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى ، وقد (٨٧ ب) بقي في هذا الجمع اليسير ؛ ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا مجدة ننظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا المدلولان بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مددٌ عظيم ، والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ، فليخبرنا كلٌ منكم ما عده في ذلك . وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية ، فاستحضت الآراء ، وجرى تجاذب في أطراف الكلام ، واضطربت أرايهم على أن الصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حل السلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التمسك ، واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تمحله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخليل^(٤) ، والخليل قد ضجرت من عراك الأجم ، وسأمت نفوسها ذلك ، وعند أخذ حظٍّ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ، ويشاركنا في الرأى والعمل ، ونستمد من شدة من العساكر ، وتجمع الرجلة ليقتوا في مقابلة الرجلة وكان بالسلطان رحمه الله - التماس مزاجي ، قد عراه من كثرة ما حل على قلبه ، وما عناه من التعب بمحمل السلاح والعسكر في تلك الأيام ، فوقع به ما ظنوه وراءه مصلحة ، وكان انتقال العسكر إلى النقل يوم (١٨٨) الاثنين ثالث رمضان

(١) م : الجبل .

(٢) م : « روائح » .

(٣) الأصل : « لاح » ، والتصحيح من (م) .

(٤) م : « الجبل » .

وانتقل السلطان - رحمة الله عليه - تلك الليلة ، وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع الساكر ، وينتظر أخاه الملك العادل إلى يوم الاثنين عاشر رمضان .

ذكر وصول خبر ملك الألمان

لعمرة الله

ولما دخل رمضان من شهر سنة خمس وثمانين وخمسة واصل من جانب حلب المحروسة كتب من ولده الملك الظاهر ، يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة ، قيل : مائتا ألف ، وقيل : مائتان وستون ألفاً ، يريد البلاد الإسلامية ، واشتد ذلك على السلطان - قدس الله روحه - وعظم عليه ، ورأى استفزاز الناس^(١) للمجاد ، وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة ، فاستدبني^(٢) ، فقلت ، وأمرني بالسير إلى صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالسير إلى محروسة بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك ، وتحريك عزمه على المعاونة . وكان الخليفة إذ ذاك الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله ، وكان مسيرى في ذلك المعنى في حادى عشر رمضان ، ويتر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا (٨٨ ب) بنفوسهم . وسار عماد الدين زنكي - صاحب سنجان - بسكره ويجمه في تلك السنة - وسار ابن أخيه سنجر شاه - صاحب الجزيرة - بمجره عسكره وسير صاحب الموصل عز الدين^(٣) ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره^(٤) وسار صاحب إربل بنفسه وعساكره^(٥) وحضرت الديوان المزبذ وأنهايت الحال كما رُسم ، ووعد كل جيل ، وعدت إلى خدمته - رحمة الله عليه - وكان وصولي إليه في يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهر سنست وثمانين وخمسة وكتب^(٦) قد سبقت الساكر ، فمرقته لجاباتهم بالسمع والطاعة ، وتأهبهم^(٧) بالسير ، فسر بذلك ، وفرح فرحاً شديداً

(١) م : « استيوار » .

(٢) م : « استدعاني » .

(٣) هذا الاسم ساقط من (م) .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) الأصل : « وكان » ، والتصويب عن (م) .

(٦) م : « وبأمرهم » .

ذكر وقعة الرمل

التي على جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج للسلطان - قدس الله روحه - يتصيد ، مطمئن النفس ببعد المنة عن العدو ، فأوغل في الصيد ، وبلغ ذلك العدو ، فأخذوا غرة المسكر ، واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على المسكر الإسلامي ، فأحس بهم الملك الحادل - قدس الله روحه - فصاح بالناس ، وركبت المساكن من كل جانب ، وحمل على القوم ، وجرت مقتلة عظيمة ، قُتل فيها منهم خلقٌ عظيم وجرح جمع عظيم^(١) ، ولم يُقتل من معروف المسلمين إلا مملوك (١٨٩) للسلطان ، استشهد في ذلك اليوم يدعى أرعاش^(٢) ، وكان رجلاً صالحاً - رحمه الله - وبلغ الخبير السلطان - رحمه الله - فساد مزيجها ، فوجد الحرب قد انفصل وعاد كل فريق إلى حزبه ، وعاد العدو خائباً خاسراً ، وفقد الخلد واللثة^(٣) وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنت مسافراً^(٤) ، وما مضى من الوقعات شأدت منها ما يشاهده مثلي ، وعرفت^(٥) الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور^(٦)

ذكر وفاة الفقيه عيسى

رحمه الله .

وهي مما بلّغني ولم أكن حاضراً ، وذلك أنه مرض مرضاً كان يشاهده وهو ضيق^(١) النفس ، وعرض له إسهان فأضمفه ، ولم يقطع صلاة^(٢) ولم ينسب ذهنه عنه إلى أن مات -^(٣) على ما بلّغني عن حضره^(٤) - وكان رحمه الله كريماً ، شجاعاً حسن المقصد^(٥) كثير الغرام بقضاء حوائج المسلمين توفي - رحمه الله تعالى - طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة من شهر سنة خمس وثمانين وخمسة ، رحمه الله .

(١) النفس و م : « قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم » .

(٢) م : « أرعاش » .

(٣) هذه الجلة ساقطة من (م) .

(٤) التي و م : « وعرفت الباقي معرفة خاصة في هذه الأمور » .

(٥) م : « ضيق النفس » .

(٦) م : « فلم يقطع صلواته » .

(٧) هذه الجلة ساقطة من (م) :

(٨) حقا القتل ساقط من الأصل ، وقد أنضيف من (م) .

نادرة

ومن نادر هذه الرقعة أن ملوكا كان للسلطان يدعى سراسنغر^(١) ، وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيما ، وقتل فيهم ، فأخذوا في قلوبهم من نكاته فيهم ،^(٢) ففكروا به^(٣) ، وتجمعوا له ، وكنوا له ، وخرج إليه بعضهم ، وراموا له ، فجل عليهم حتى صار بينهم ، ووثبوا عليه من سائر جوانبه ، فأمسكوه (٨٩ ب) وأخذ واحد بشره^(٤) ، وضرب الآخر رقبة بسيفه ، فإنه كان قتل له قريبا^(٥) فوقت القربة في يد للمالك بشره قطعت يده ، وشغل عن شره ، فاشتد هاربا حتى عاد إلى أصحابه ، وأعداء الله يشتدون على خلقه ، فلم يلحقه منهم أحد ، وعاد سلا ، والله الحمد ، « ورد الله الذين كفروا بغيرهم ، لم ينلوا خيرا » .

ذكر تسليم الشقيف

سنة ست وثمانين وخمسة

ولما كان يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول لم الفرج المستخفون بالشقيف أنه لا عاصم لهم من أمر الله ، وأنهم إن أخذوا عذوة ضريت وقاهم فطليوا الأمان ، وجرت مراجعت كثيرة فاعده الأمان ، وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قد عذب أشد المذاب ، فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يُسلم ، ويُطلق صاحبه وجميع من فيه من الفرج ، ويُترك ما فيه من أنواع الأموال والذخائر^(٦) ، فسلم في التاريخ المذكور . وكان الحديث قد جرى مرارا حتى استقرت القاعدة في التاريخ للتقدم^(٧) ، وعاد صاحب صيدا والفرنج الذين كانوا في الشقيف إلى صور ، ولما رأى السلطان - رحمه الله عليه - اهتمام الفرج من أقطار بلادهم بالمكان ، وتصويب سهام^(٨) عزائمهم نحوه ، أغتم الشتاء (١٩٠) واقطع البحر ، وحصل في عكا من الليرو والذخائر والمدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالى ، وتقدم إلى النواب بمحروسة مصر أن همروا لها أسطولا^(٩) عظيما يحمل خلقا كثيرا ، وسار

(١) م : « فره ستر » .

(٢) حنا القطن ساقط من (م) .

(٣) القس في م : « فأبىك واحد منهم يصره » .

(٤) م : « أفواه » .

(٥) هذه البقرة ساقطة من (م) .

(٦) حنا القطن ساقط من (م) .

(٧) انظر ما تحت حنا م ٨٤ ، حاشي ٩٠ .

حتى دخل عكا مكابدة^(١) لملكو وبراغمة له ، وأعطى المساكِر دستوراً في تلك السنة طول الشتاء ، ليستجروا ويستريحوا ، وأقام هو - رحمه الله - مع نفرٍ يسير قبالة المدو ، وقد حال بين المسكرين شدة الوصول ، وتغلّر عليهم بسبب ذلك وصول بعضهم إلى بعض .

طسرفة

كان لما بلغ خبر المدو قصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون ، وغاورهم فيها يصنع ، وكان رأيهم - رحمه الله - أنه قال : « المصلحة متاجزة القوم ومنهم من النزول على البلد ، وإلا إن نزولوا جعلوا الرجالة سوراً لم وحفروا الخنادق ، وصعب علينا الوصول إليهم ، وخيف على البلد منهم » . وكانت إشارة الجناحة : « أنهم إذا نزولوا واجتمعت المساكِر قلعناهم في يوم واحد » . وكان الأمر كما قال السلطان - رحمه الله - والله لقد سمعت منه هذا القول ، وشاهدتُ النمل كما قال رحمه الله ، وهذا يوافق معنى قوله - صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتي لحذنين ومكلمين وإن عمر لنهم » . ولم يزل السلطان - رحمه الله - مجداً في الإنفاذ إلى عكا (٩٠ ب) بالمير والمدد والأسلحة والرجال حتى انقضى الشتاء ، وانفتح البحر ، وحان زمان القتال ، فكتب إلى المساكِر يستدعيها من الأطراف . ولما تواصل أوائل المسكر ، وقوى جيش الإسلام ، رحل السلطان - رحمه الله عليه - نحو المدو ، فنزل بقل كيسان ، وذلك في ثامن عشر ربيع الأول من شهر سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ورتب المسكر قلعا وميمنة وميسرة ، وكان أول الميمنة ولده للأكفصل ، وأخذت المساكِر في التواصل ، والنجد في التواتر ، فوصل رسول الخليفة .

ذكر وصول رسول الخليفة

ولما كان يوم الإثنين سادس عشر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل رسول بغداد ، وهو شاب شريف ، وصل معه حملان من النفط ، وجاعة من النفاطين الزرقاين^(٢) ، ووصل معه رقعة من الديوان العزيز النبوي - بحمد الله تعالى يتضمن الإذن للسلطان - رحمه الله عليه - في أن يقترض عشرين ألف دينار

(١) : م « مكابرة » .

(٢) الزرقاين - والجمع زرقاوين - هو الذي يرى النقط من الزرقاة ، وهي أنبوبية خاصة يروق بها النفط (Doxy : Supp. Diet Arab) ، وجاء في النسيان (: الجندي في القولة الباسية ، ص ١٥٤) أن النقط كان يرسل من أنابيب تحمل في الخن ، وتعرف في اليونانية باسم « سيقونية » ، وتسمى عند العرب بالزرقاين ، تلبث منها فار النقط بأرماد وخنجان شديد ضحرق الخن .

من التجار^(١) ينفقها في الجهاد، ويحيل بها على الديوان العزى، تقبل جميع ما وصل مع الرسول، واستنق^(٢) عن الرقعة والتشيل بها، رحمة الله عليه. وفي ذلك اليوم بلغ السلطان - رحمه الله - أن القرعج زحفوا على البلد وضايقوه، فركب (١٩١) إليهم ليشتغلهم بالقتال عن البلد، فركب وقاتلهم قتالاً شديداً إلى أن فصل بين الطائفتين الليل، وعاد كل فريق إلى أصحابه. ورأى السلطان - رحمه الله عليه - قوة العساكر الإسلامية، ورأى بُعد المكان عن العدو، تخاف أن يهجم البلد، فتمّ عليه أمر^(٣)، فرأى الانتقال إلى تل السجول بالمسكر والقتل بالكلية. وكان الانتقال إليه في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسة. وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد قوام معه كتب^(٤) تتضمن أنه قد طمّ العدو بعض الخندق، وقد قوى عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته، فجدد الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وعبأ العساكر تمهية القتال، وزحف إلى العدو ليشتغله عن ذلك.

ذكر وصول الملك الظاهر والده

رحمة الله

ولما كانت سيرة^(١) ليلة الجمعة سابع عشر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسة وصل والده الملك الظاهر - رحمه الله - غياث الدين غازي - صاحب حلب - جريدة إلى خدمته - قدس الله روحه - معاجلة لايرة، وترك عسكره في المنزلة، وخدم والده، وبل شوقه منه، وعاد إلى عسكره سيرة السبت ثامن عشرين منه^(٢)، وسار بهم حتى وصل في ذلك اليوم بمحفظه، وقد أظهر الزينة، ولبسوا (٩١ ب) لأمة^(٣) الحرب، ونشرت^(٤) الأعلام والبيارق، وضربت الكوسات^(٥)، ونفرت البوقات، وعرض بين يدي والده - رحمه الله عليه - وقد ركب إلى لقائه في المرج، وسار بهم حتى وقف بهم على العدو، وشاهدوا من جند الله ما أزعجهم

(١) أضيف هذان اللفظان عن (م).

(٢) م : « واستنق ».

(٣) النص في م : « وصلت كتب تتضمن ».

(٤) م : « ولما كان سحر ».

(٥) م : « في الثامن والعشرين ».

(٦) انظر ما كانت حنا ٨٨ ، حناش ١

(٧) م : « وكثرت ».

(٨) انظر ما كانت حنا ٣٠ ، حناش ٣

وأفلقهم . وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضا ، مسارة للخدمة ، ثم عاد إلى عسكره ، وقدم معه في يوم الأحد في لامة الحرب ، فرضهم للسلطان . رحمة الله عليه . وسار بهم حتى وقف بهم على العدو ، وعادوا إلى منزلتهم . وكان . رحمة الله . ما يقدم عسكر إلا ويرضهم ، ويسير بهم إلى العدو ، وينزل بهم في خيمته ، ويمد لهم الطعام ، وينم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب ، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين .

.. لطيفة تدل على سعادة ولله الملك الظاهر

رحمه الله وقس روح ولله

وذلك أن العدو كان قد اصطنع ثلاثة أبرجة^(١) من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقا بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران ، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدنا من مواضعنا عالية على أسوار البلد ، وهي مركبة (١٩٧) على عجل ، يسع الواحد منها من القناصة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ، ويسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شرحه ، وآيس الناس من البلد بالسكينة ، وتغطت قلوب القناصة فيه ، وكان قد فرغ عملها ، ولم يبق إلا جرّها إلى قريب السور . وكان السلطان قد أحمل فكره في إحراقها وإهلاكها ، وجع الصناعات من الزرافين^(٢) والنفالين وباحثهم في الاجتهاد^(٣) في إحراقها ووعدهم عليه بالأموال الطائلة والعليا الجزيلة ، وضاعت حيلهم عن ذلك ، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشق ، ذكر بين يديه . رحمه الله . أن له صناعة في إحراقها ، وأنه إن سُكن من الدخول إلى عكا ، وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها ، فحصل له جميع ما طلبه ، ودخل إلى عكا ، وطبخ الأدوية التي حصلها مع النفط في قدور من النحاس ، حتى صار الجميع كأنه جرة نار . ولما كان يوم وصول ولده الملك الظاهر . رحمه الله . ولله كان عقيب وصوله ، شرب البيرج الواحد يقدر عظيم ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه واشتعل من ساعته ووقبه ، وصار كالجبل المنظم من النار طالعة قوائمه نحو السماء ، فاستنثت المسلمون

(١) م : « أبراج » .

(٢) انظر مائات متاس ١١٨ ، ملحق ٢

(٣) م : « وشبه على الاجتهاد » .

بالتلهيل (٩٢ م) والتكبير وغلبهم^(١) الفرح حتى كادت عقولهم أن تنزع ، وبينما الناس ينظرون ويصيحون إذ رمى البرج الثانى بالقدرة الثانية ، فما كان إلا أن وصلت إليه واشتملت كالتي قبلها ، فاشتد ضجيج الفتنين وارتفعت الأصوات إلى السماء ، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث ، فالتهب وغشى الناس من السرور والفرح .
ماحرك ذوى الأحلام والنهى منهم حركة الرعاء ، وركب السلطان - قدس الله روحه - وركبت المساكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان أواخر النهار ، وسار حتى أتى عسكر القوم ، وانتظر أن يخرجوا فيناجرهم ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم . من « فتح له باب غير فليتهزه » فلم يظهر العدو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل ، فعاد كل فريق إلى حربه ، ورأى الناس ذلك بركة قدوم وفده الملك النظار - رحمه الله - واستبشر والده بفرته ، وعلم أن ذلك أثر^(٢) صلاح سريره ، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم ، وطلب تزلهم وقهلم وم لا يخرجون من خيامهم ، لهمهم يشار النصر والفقر بهم ، والمساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل .

ذكر وصول عماد الدين زنكى

صاحب سنجار

ولما كان يوم الثلاثاء الثانى عشرين ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكى بن مودود (١٩٣) بن زنكى ، صاحب سنجار يجر عسكره ، ووصل بجبل حسن وعسكر تام ، وقيه السلطان - رحمه الله عليه - بالاحترام والتنظيم ورثب له المسكر في لقائه ، فكان أول من لقيه من العسكر للنصور قضائه وكتابه ، ثم لقيه أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السلطان - قدس الله روحه - ثم سار به حتى أوقفه على العدو ، وعاد معه إلى خيمته ، وأزله عنده ، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم ، فغضه وجميع أصحابه ، وقدم له من التحف والعطائف ما لا يقدر عليه غيره ، وكان قد أكرمته ببحث طرح له طراصة مستقلة إلى جانبه ، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله ، وضربت خيمته على طرف للبصرة على جانب النهر .

ذكر وصول معز الدين سنجر شاه^(٣)

صاحب الجزيرة

ولما كان يوم الأربعاء سابع جمادى الأولى سنة ست وصل سنجر شاه معز الدين ، وهو ابن سيف الدين غزوى ابن مودود ، وهو صاحب الجزيرة ، وصل في عسكر حسن ، وزي منتعشن ، فقيه السلطان - قدس الله روحه -

(١) م : « وعلم » .

(٢) م : « بين صلاح سريره » .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

واحترمه وأكرمه ، وأثله في خيمته ، وأمر أن تُرَبَّتْ له خيمة إلى جانب عنه عماد الدين .

ذكر وصول علاء الدين^(١)

ابن صاحب الوصل

(٩٣ ب) وكان وصوله في تاسع جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسمائة وهو علاء الدين خرمشاه^(٢) ابن مسعود بن مودود بن زنكي ، وصل نائباً عن أبيه عز الدين مسعود - صاحب الوصل مقدماً على عسكره ، ففرح السلطان - رحمه الله عليه - بقدومه فرحاً شديداً ، وتلقاه عن بعد هو وأهلُه ، واستحسن أدبه ، واستنجه^(٣) وأثله عنده في الخيمة ، وكارمه مكارمة عظيمة ، وقَدَّمْ له تحفاً حسنة ، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر ، وما من أهل إلا من بسط له من ضيافته ومكارمته وجهاً وضيئاً .

ذكر وصول الأصطول^(١)

ودخوله إلى عكا

ولما كان ليلة ذلك اليوم - وهو يوم وصول علاء الدين - ظهرت في البحر قلعح كثيرة ، وكان - رحمه الله عليه - في نظره وصول الأصطول من محروسة مصر ، فإنه كان قد أمر بتدميره ووصوله ، فلم أنه هو ، وركب السلطان - رحمه الله - وركب الناس في خدمته ، وتبأ تمبئة القتال ، وقعد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الأصطول ولما علم العدو وصول الأصطول استعذَّ له ، وعزَّز له أصطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا ، وخرج (١٩٤) أصطول العدو واشتد السلطان - رحمه الله عليه - في قتالهم من خارج ، وسار الناس على جانب البحر تقويةً للأصطول وإيناساً لرجالِه ، والتقى الأصطولان في البحر والمسكران في البر ، واضطربت نار الحرب ، واستمرت وباع كل فريق روحه براسته الأخروية ، ورجح حياته الأبدية على حياته الدنيوية ، وجرى بين الأصطولين قتال شديد ، اقتشع على نصرة الأصطول الإسلامي - والله الحمد - على عدو الله ، وأخذ منه شأى^(٢) وقتل من به ونهب جميع مانيه ، وظفر من العدو بمركب أيضاً كان أصلاماً من قسطنطينية ، ودخل الأصطول للنصور إلى عكا ، وكان قد صميه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر ، وطابت قلوب أهل البلد بذلك ، وانشرحت صدورهم . فإن الضائقة

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

(٣) م : « وأخذ من العدو الشرائع » وللتعريف بلفظ « شأى » راجع ما قبل هذا ، ص ٤٨ ، هامش ٢ .

كانت قد أخذت منهم واتصل القتال بين السكركين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل ، وعاد كل فريق إلى خيمته ، وقد قُتل من عدو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم ، فإتهم فأتوا في ثلاثة مواضع ، فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلهم عن الأسطول أيضاً ، والأسطولان يتقاتلان ، والميكرك من البر يقاتلهم ، وكان النصر بحمد الله للسليين في ذلك اليوم في الأمان كلها .

ذكر (٩٤ ب) وصول زين الدين ^(١)

صاحب لادبل

وكان وصوله في الشهر الأخير من جمادى الأولى ، وهو زين الدين بن يوسف زين الدين علي بن بكشكين ^(٢) صاحب لادبل - قدم بمسكرك حسن ، وتجهل جميل ، فاحترمه السلطان - رحمه الله - وأكرمه ، وأتته في خيمته . وأكثر من ضيافته ، وأمر بضرب خيمته عند أخيه مقعر الدين .

ذكر خبر ملك الألمان

ثم تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان ، وأنه اتهم لقائه جمع عظيم من التركان ، وقصدوا منه من عبور النهر ، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه ، وعدم مقدم لهم يجمع كلهم ، وكان قليج أرسلان يظهر شقاؤه ، وهو في الباطن قد أضر وفاته ، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضره ، وواقته وأعطاه وهائن منه على أنه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاقون ، وأخذ معه أدقة يدلون به ، وعرام في الطريق جوع عظيم ^(٣) وأعوزم الزاد ، وقل بهم الظهر ^(٤) حتى أنهم ألقوا بعض أقتشهم ، ولقد بلغنا - والله أعلم - أنهم جموا عددا كثيرة من زرديات وغرذ وآلات سلاح مجزوا عن حملها ، وجعلوها يديرا ^(٥) واحدا ، وأضرموها فيها النار لتتلف ولا ينفع (١٩٥) بها أحد ، وأنها جيت بعد ذلك رايته ^(٦) من حديد ، وساروا على هذا الحال حتى وصلوا إلى بلد يقال له طرسوس ، فأقاموا على نهر ليبروه ، وأن ملكهم للمعون عن له أنه سيح فيه ، وكان مأوه شديد

(١) هذا العنوان غير موجود في (م)

(٢) م : « وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكشكين » .

(٣) ما كان الجبلان ساهلان من (م) .

(٤) م : « صدرا » ، واليدر الجرن أو المجرن .

(٥) م : « تلا »

البرودة ، وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والشقة والخوف ، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به إلى أن قذفه ، ولما رأى ماحل^(١) به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته ولمعات أجمعوا^(٢) أرادهم على أنهم سلقوه في خلج^(٣) ، وجعوا عظامه في كيس ، حتى^(٤) يحملوه إلى القدس الشريف ويدقوه فيه ، وترتب ابنه مكانه على خنفر من أصحابه ، فإن ولده الأكبر كان قد خلفه في بلاده ، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه ، واستقر قدم ولده الحاضر في مقدمة المعسكر ولما أحسن ابن لافون بما جرى عليهم من الخلل وما حل بهم من الجوع واللوث والظوف والضعف بسبب موت ملكهم ماراى أن يلقى نفسه بينهم ، فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر ، وهم يفرغ وهو أرمنى ، فاعتصم هو حته في بعض قلاعه للبيعة .

صورة كتاب الكافيكوس الأرمني^(٥)

ولقد وصل إلى السلطان - رحمه الله - كتاب من الكافيكوس^(٦) ، وهو مقدم الأرمن ، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات .

نسخة

هذه ترجمته :

(٩٥ ب) « كتاب الداعي المختص الكافيكوس : بما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله قبليه ، وضاعف جلاله ، وصان مهيبته وكلاله ، وبلغته نهاية آماله ، بنظمته وجلاله : من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك : أنه أول ما خرج من دياره ، ودخل بلاد الهندستان ، وغضب ملك الهندستان بالإنذار والاعتذار تحت ظاهته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم إنته دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ، ونهبها ، وأقام بها وأخلاها ، وأحوج ملك الروم إلى أن أطلعته ، وأخذ رهائته : ولده وأخاه وأربعين فترا من خصاصته ، وأخذ منه خسين قنطارا ذهباً وخسين قنطارا فضة ، وثياب أطلس مبلتنا عتيا ، واعتصب الرأكب ، وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته

(١) الأصل : « أرجوا » ، والتصحيح من (م) .

(٢) م : « على أد » .

(٣) هذا العنوان غير موجود في الأصل ، وقد أخيل عن (م) .

(٤) م : « الكافيكوس » .

الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد قليج أرسلان ، ورد الرهائن ، وبقي سائرًا ثلاثة أيام ، وتركهم الأوج يلقونه بالأغنام والأخبار والخيل والبضائع ، فتدخلهم الطمع ، وجعوا جميعاً من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التركان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين (١٩٦) يوماً وهو سائرٌ ولما قرب من قونية جمع قسطنطين الدين ولد قليج أرسلان الماسكر وقصدته وضرب معه مصافاً عظيماً ، ففقر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فقدم مكسورين ، وهجم قونية بالسيف ، وقتل منها علماً عظيماً من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب قليج أرسلان منه الأمان ، فأمنه للملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ منه الملك رهائن . وعشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يحمل طريقه على طرسوس والصيصة ، فقبل منه ، وقبل وصوله إلى هذه البلاد^(١) فخذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصدته ، وما لقيه في طريقه ، وأنه لا بد مجتاز^(٢) هذه البدار اختياراً أو كرها ، فالتقى الحال إنقاذ الملوك حاتم ، وصحبته ماسأل ، ومعه من الخواص جماعة لقاء الملك في جواب كتابه . وكانت الوصية مهمهم أن يمرّ قوفوه^(٣) على بلاد قليج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعدوا عليه الجواب ، وعرفوا الأحوال ، أبى الانحراف ، ثم كثر عليه الماسكر والمجروح ، ونزل على شطّ بعض الأنهار ، فأكل خبزاً ونام ساعة ، وانتبه ، فالتقت نفسه إلى الاستخفاف في اللاد (١٩٦) البارد^(٤) ، فكشك إليها قلائل ومات . وأما لافون^(٥) فكان سائراً ياقى الملك ، فلما جرى هذا الجري ، هرب الرسل من المسكر ، وتقدموا إليه ، وأخبروه في الحال ، فدخل في حرب حصونه واحتسب هناك .

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه البدار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة وبلغه حرب رسل ابن لاون فاقه واستطعمهم وأحضرهم وقال : إن أبي كان شيخاً^(٦) كبيراً وما قصدته هذه البدار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وهانت الشاق في هذه الطريق فن أطفأني وإلا قصدت دياره .

واستخلف ابن لاون واتخفى الحال الاجتماع ضرورة وبالجملة فهو في عدد كثير .

(١) هذه البادرة ساقطة من (م) .

(٢) م : « أن يمرّوا به » .

(٣) الترس في م : « الاستخفاف في الدار البارد » ، قبل ذلك ، وخرج ، وكان من أمره أن تحرك حلب مرز بن علي من الدار البارد فكشك إليها قلائل ومات .

(٤) م : « ابن لاون » .

(٥) الأصل : « شجاعاً » ، والصحيح (من م) .

وقد عرض عسكره فكان " اثنين وأربعين مجنفاً " " وأما الرجال فأيحى ، عدم " وهم أجلس مفاوضة على قصد عظيم وحد في أمرهم وسيلة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة .

وقد بلنهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم فاختصى الحال والحكم العالم ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم . فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه وقد حرموا للملاذ على أنفسهم حتى أن من بلنهم عنه بلوغ لغة مجرؤه وعزروه كل ذلك كان حزناً على البيت للقدس .

وقد صرح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموا ما حل ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من العبر على الشقاء والقتل والتمب في حال عظيم طالع للملك بالحال وما يتجدد بعد يطالع به إن شاء الله تعالى . « هذا كتاب السكاغيكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة - ، واسمه بركرى كور ابن باسيل .

ذكر مسير المسافر إلى أطراف البلاد

التي في طريق ملك الألمان

ولما تحقق السلطان - قدس الله روحه - وصول ملك الألمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الإسلامية ، جمع أمراء دولته وأرباب الآراء ، وشاورهم فيما يصنع ، فاتفق الرأي على أن المسكر يسير بهضاً إلى البلاد الناحية لطريق عسكر العدو الراصل ، وأن يقيم " هو - رحمه الله - " على منازلة العدو بباقي العسكر النصور ، فكان أول من سار صاحب منبج ، وهو ناصر الدين بن تقي الدين ، وعز الدين بن المقدم - صاحب كفر طاب وبشرين وغيرها - ثم مجد الدين - صاحب بعلبك - ، ثم سابق الدين - صاحب شيزر - (٩٧٠ هـ) ثم الياروقية من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماة ، وسار ولده الملك الأفضل لمرضى عرض له أيضاً ، ثم بدر الدين شيخنة دمشق ، لمرضى عرض له أيضاً وسار ولده الملك الظاهر إلى محروسة حلب لإيالة الطرق ، وكشف الأخبار ، وحفظ مايليه من البلاد . وسار بعده الملك الظاهر يحفظ مايليه من البلاد وتدير أمر العدو المحتل . وكان آخر من سافر في ليلة السبت التاسع

(١) م : « اثنين وأربعين مجنفاً » وباء (للمبج الوسيط) : التجهاف : آلة الحرب من حديد وغيره يلبس الفرس

أو الإنسان ليبي في الحرب ، والمبج تجهاف » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

من جمادى من شهور سنة ست وخمسين^(١). ولا سارت هذه المأساة خفت اليمنة ، فإن معظم من سار منها ، فأمر - رحمة الله عليه - الملك العادل - رحمه الله - أن ينتقل إلى منفرة تقي الدين في طرف اليمنة ؛ وكان عماد الدين زنكي في طرف اليسرة ، ووقع في السكر مرض عظيم ، فرض مظفر الدين بن زين الدين - صاحب حران - وشقي ، ومرض بمدة الملك الظاهر ولد السلطان - رحمة الله عليه - وشقي ، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم ، إلا أن الأرض كان سليماً بحمد الله تعالى ، وكان المرض عند المدوا أكثر وأعظم ، وكان مقروناً بموت^(٢) عظيم . وأقام السلطان - قدس الله روحه - مصابراً على ذلك مرابطاً للمدو .

ذكر تمام خير ملك الألمان

(١٩٨) وذلك أن ولده الذي أقام مقامه مرض مرضاً عظيماً ، أقام بسببه بموضع^(٣) يسمى المينات^(٤) من بلاد ابن لافون وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعمائة فارساً ، وجهاز عسكره نحو أطلاكية حتى يقطعوا الطريق ، وروبتهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بفراس يدها كد عظيم عندهم ، وأن عسكر بفراس مع قلعة أخذ منهم مائتي رجل قهراً ونهباً ، وكتبوا يخبرون عنهم بالصف العظيم^(٥) والمرض الشديد وقلعة الخليل والظهير والمدد والآلات ، ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الشامية أنفذوا إليهم عسكراً يكشف أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا عليهم غارة عظيمة ، وقتلوا وأسروا ، وكان مقدار ما أخذوه على ما ذكره المحبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس ، ولقد حضرت أداء رسالة رسول ثان وصل من كاغيكوس بين يدي السلطان - رحمة الله عليه - وهو يذكر خبرهم ، ويقول : هم عدد كثير ، ولكنهم ضئاف قليلو الخليل والندة وأكثرم ثقلهم على حير وخيل ضعيفة قال : « ولقد وقتت على جسر يميرون عليه لأحترق فمير منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم (١٩٨) طارقة^(٦) ولا رحاً إلا النادر ، فآلتهم عن ذلك فقالوا

(١) العبارة من قوله : « وكان آخر من سافر . . إلى غسالة : ساقطة من (م) .

(٢) (م) : « يموتان » .

(٣) حذفتان ساقطتان من (م) .

(٤) النص في م : وكتب جزء منهم بالصف العظيم .

(٥) الطارقة - وتجمع على طواقي أو طارقيات - اشتقت في أصلها ، ويرى (حوزي) ملحق للجامع العربية) أنها لا ترجع إلى أصل عربي ، بل هي مأخوذة عن الكلمة اللاتينية « targa » ، ومنها اشتقت الكلمة الأمازيغية « tarja » والقرابية « targo » ، والأصل اللاتيني لها جيبا « targum » ويؤيد حوزي رأيه هذا القائل بأن الكلمة ترجع إلى أصل أوروبي بشواهد كثيرة متفرقة عن المراجع العربية المأثرة للعروب الملية . ويظم هذه الشواهد يورد قنط « الطواقي » عند وصفه للمسلمين الأوربيين وأصلحتهم ، قد جاء في (التباد الأصفهاني : القنط القسي ، ص ١٦٤) عند وصفه لقتال مع الفرنج قوله : «

أقنا بمرج وريح اليما ، وقتت أزودانا وأحسابنا ، فوجدنا معظم عدتنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها ، وأوقدنا الرماح والعدد لإعزاز الحطب ؛ وأما السكند القدي وصل إلى أنطاكية - يسر الله فتحها - في مقدمة المعسكر فإنه مات ، وذكر أن ابن لافون لما أحسن منهم بهذا الضعف طمع فيهم حتى إنه عزم على أخذ مال الملك لرضه وضغه ، وقلة جمه القدي تخلف معه ، وأن البرنس - صاحب أنطاكية - لما أحسن منهم بذلك سار إلى ملك الألمان لينقله^(١) إلى أنطاكية ، طمعا في أن يموت عنده ، ويأخذ ماله ولم تقل أخبارهم تتوار بالضعف والمرض إلى أن وقت وقعة المادل - رحمه الله - على طرف البحر .

== « وم (أي الأفرنج) لما منهم ملازمون - والمتنافق من البوائق مجنون ، وبالطوارق من الطوارق متحصون . . . »
 « وفي ٧٤٧ : « فزاجع الفرنج واسطفوا على غناديقهم ووقفوا بطاراتهم وطوارقهم » ، وفي ٧٦٢ : « وتدرج (العدو) بأسواره وخنادقه ، وتتر عن طوارق البلاد - يستأثره وطوارقه ، فلا يخرج منه إلى مباركة » ، وفي ٧٦٣ : « إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق والخلوج . . الخ » .

أما من معنى اللفظ فآراء مختلفة ، ولكننا بطبيعة هذه القصص نستطيع أن نقول : إن هذا الصلح كان يطلق على نوعين من السلاح :

الأول : نوع من الترس يحمله الجندي لحاية نفسه أثناء القتال ، أو هو - كما عرفه دوزي - « ترس كبير يغطي معظم الميز - الأسفل من الجسم » ، ويؤيد هذا المعنى قول العهد نيا سلف : « ووقفوا بطاراتهم وطوارقهم » ولول ابن شداد في القتي حنا : « ما وجدت مع واحد منهم مثاقفة ولا رماح إلا التادر » ؛ وكان في القضاة حارة تسمى « حارة الطوارق » أو « حارة سيان الطوارق » ، قال (الميرزي : الحطط ، ج ٣ ، ص ٢٤) : « وم من حلة طوائف المعسكر كانوا مهيئين لمل الطوارق » وبهذا المعنى أيضاً استعمل اللفظ في الغرب الإسلامي ، ففي كتاب المجلد مثلا فقرة لابن الياس يقول فيها أحد المؤرخين : فغننا حارة مربية في البسط ، جهتا فيها من جهتها الأربع صفان من الرجال بأيديهم القنا الطوال والطوارق الماتة ، ووراءهم أصحاب الفرق والحرب صفا صفا . »

والثاني : آلة حربية مكونة من حلة من الألواح الخشبية تستخدم كتراس يحمي الجنود الرماح والصخور خلتها (القنطريزي) ويؤيد هذا المعنى قول العهد : « وم بالمخاند من البوائق عتدون ، وبالطوارق من الطوارق متحصون » وقوله : « وتدرج بأسواره وخنادقه ، وتتر عن طوارق البلاد - يستأثره وطوارقه » وقوله : « إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق » ؛ فلفظ الطوارق في هذه القصص يستعمل دائما مقرونا بلفظ التادر أو المخاند ، فكأنه كان يؤدى عملها ، وليس أوضح في هذا المجال من قول (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٦٧) عند وصفه لنوع من القبايا أو الرج : « فتتفج وتجرى على سيولة النبل التي ركب عليها ، ويصد الرجال في أعلاه ، وقد أدبرت حوله التادر والطوارق » .

وقد وصف مرضى بن علي الطوارق في كتابه (تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٢) القدي أنه لصلح الدين وسفادنياً يقطع العك بالبين ، قال عند ذكره لأنواع التراس : « ومنها الطوارق وهي التي يستعملها الفرنج والروم ، وتبليها في حسن إطباقها ودعائها وتطوينا بأنواع الأساغ وتصويرها ولقائها ، وهي مستعالة ، وتكونيتها إلى أن تستر القلوس والرجل ، تبدأ مدورة ، ثم تجمع أولا أولا إلى أن ينهي آخرها إلى نقطة عمودية كزؤوس الماويل » ، ولينج كذلك :

Cabon : Un' Araité d'Armurerie-etc. P. 155-156.

(ابن الفلاس : ذيل تلرخ دمشق ، ص ١٧٩) :

(١) م : « النطلة » .

ذكر الواقعة المادية

. ولما كان يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من شهر سنة ست وثمانين وخمسة ، علم علو الله أن السائر قد تفرقت في أطراف العدو ، وأن الليمنة قد خفت لأن معظم من سافر كان منها يحكم قرب بلادهم من طريق العدو ، وأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بنية ، ويهجمون على طرف الليمنة فجأة ، وتلاعبت بهم آمالهم التي أكسبها الله تعالى ، فخرجوا غيرة نهار الأربعاء (١٩٩) ، ولتدوا مينة وميسرة وقلبا ، وابتدوا في الأرض ، وكانوا حذرا عظيما ، واستنفذوا طرف الليمنة ، وكان في طرفها غيم للآل المائل - قدس الله روحه - فلما بصروهم الناس قد خرجوا في تهيئة القتال صاح صائحهم ، وخرجوا من خيلهم كالأسود من آجالها ، وركب السلطان - قدس الله روحه - ونادى مناديه : بالإسلام ، وركبت الميوش وطلبت الأطلاب ، وكان - رحمة الله عليه - أول راكب ، ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله ثوب من خواصه ، والناس لم يستم ركبهم ، وهو كالقنطرة ولدها ، التاكلة واجدها ، ثم ضرب الكوس ، فأجابته كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس . وأما الفرنج - منهم الله - فلأنهم ساروا في القصد إلى الليمنة حتى وصلوا قبل استقام ركوب السائر إلى تخيم للآل المائل ، ودخلوا في وطاقه ^(١) ، وامتدت أيديهم في السوق ، وأطراف الخيم ، بالنهب والغارة ، وقيل وصلوا إلى خيمة الخالص وأخذوا من شراب خاناته شيئا .

وأما للآل المائل فإنه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته ، واستركب من يله من الليمنة ، كالطوائش قايلز النجى ، ومن يجرى مجرا من أسود الإسلام ، ووقف وقوف متخلع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم ، ويستولوا (٩٩ ب) بالنهب ، وكان كالغن - رحمة الله - فلأنهم عانت أيديهم في الخيل والأقشة والقواكة والطعام ، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس ، وحل بنفسه " يقدمه وله الكبير شمس الدين " ، وحل بمحلته من كان يله من الليمنة " من الطوائش قايلز وغيره " ، واتصل الأمر بجميع الليمنة حتى وصل الصائح إلى عسكر الموصل ، وهجموا على العدو هجمة الأسود على فرانسها ، وأسكنهم الله تعالى منهم ، ووقت الكسرة ، فنادوا يشتدون نحو خيامهم هارين ، على أعقابهم ناكسين ، وسيف الله فيهم يلتقط الأرواح من الأشباح ، ويفصل بين الأجساد

(١) الرطاب : قنط مرعب ، وأصله بالتركية (أوتاق أو أوتاق أو أوتاق) وسنة الحية ، أو بقوطة الخيل ، أو المسكر ، أو الحمرة . انظر : (Doxy : Supp. Dict. Arab)
(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

والرهوس ، ويفرق بين الأبدان والنفوس . ولما بصر السلطان - رحمه الله عليه - بقضال^(١) الحرب قد ارتفع مما يلي خيام أنجيح - رحمه الله - ثارت في نفسه نار الإشتاق ، وسركت الأخوة حبيته ، وأنهضت الرغبة في نصرته دين الله وانطوف على أوليائه عزيمته ، وصلاح صائغته في الناس : « يا للإسلام وأبطال للوحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد دخله الطمع حتى غشى خيلكم بنفسه » . فكان من اللباديين إلى إجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ، ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ، ثم عسكر مصر يقدمهم سقر الحلبى ، وتمايت الماسكر (١١٠٠) وتجاوبت الأبطال ، ووقف جو - رحمه الله عليه - في القلب خشية أن يستضعف المدو القلب يحكم ما أخذ منه من الماسكر فينال غرضاً ، وتواصلت الماسكر واتصل الضرب ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن إلا ساعة ، حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أمحاز نخل خاوية ، وامتدوا مطرحين من خيام الملك المائل - رحمه الله - إلى خيامهم ، أولم في النظم الإسلامية ، وآخرم في خيم العدو ، صرعى على التلطل والوهاد ، وشربت السيوف من دماهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر بهم حتى شبت ، وأظهر الله سبحانه كفته ، وحقق لمبيده نصرته . وكان مقدار ما امتد فيه القتلى فيما بين الحميمين فرسخاً ، وربما زاد على ذلك ولم ينبج من القوم إلا النادر . ولقد خضت في تلك السماء بدابتي واجهدت أن أعدم فاقدوت على ذلك استكثرتهم وتوقوهم ، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين ، وحكى لى من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن ، وأسر منهن اثنتان . وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان - رحمه الله - كان أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً ، هذا كله في الليلة وبعض القلب .

وأما في الميسرة فأتصل العاصم بهم إلا وقد نجح الأمر وقضى القضاء على (١٠٠) على العدو ليلد ما بين الساقين . وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر والعصر ، فلما المذو ظهر في قائم الظفيرة ، واضعلت الحرب بعد صلاة العصر ، وانكسر القوم حتى دخلت معهم طلائفة من المسلمين وراهم إلى خيمهم على ما قيل ،^(٢) ثم إنته - رحمه الله عليه - أمر الناس بالتراجع لما ظهر له وجه الرج ، حيث قُتل من العدو ما قتل من هذا الخلق العظيم^(٣) ، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أغس غير مروفين . ولما أحسن جند الله بمكا بما جرى بين المسلمين وبين عدو الله من الوقعة - فإنهم كانوا يشاهدون الواقعات من أعلى السور - خرجوا إلى خيم العدو الخنول من البلد ، وجرى بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النصره - والحمد لله - للمسلمين ، بحيث هجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من النساء والأقتة ، حتى التقدور وفيها الطعام ، ووصل كتاب من المدينة يخبر بذلك ، وكان يرسا على الكافرين صبراً . واختلف الناس في عدد القتلى منهم ، فذكر قوم أنهم ثمانية ألف ،^(٤) وقال آخرون : سبعة ألف ، ولم يقصمهم سحر بأقل من خمسة آلاف^(٥) .

(١) م : « بسطلاء الحرب » .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

ولقد شاهدتُ منهم خمسة صفوف أولها في خيم الملل - رحمه الله - وآخرها في خيم العدو ، ولقد لقيتُ إنسانا عاقلا جنديا يسمى بين صفوف القتل ويدهم ، قتلته : كم عدت أقتال (١٠١) لي : إلى هاهنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلًا ، وكان قد عدَّ صفين وهو في الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي ، وانجلي يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما ينبغي عنه الإسلام . ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى المذكور ورد في عصره نجابٌ له عن محروسة حلب خمسة أليم يتضمن كتابه أن جماعة عظيمة من العدو التالى خرجوا تهب أطراف البلاد الإسلامية ، ونهضتُ المعسكر الإسلامى لمحروسة حلب إليهم ، وأخذ عليهم الطريق ، فلم ينجُ منهم أحد إلا من شاء الله ، وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الوقعة المباركة وقعا عظيما ، وضربتُ البشارة ، ولم يُرَ صبيحة هذا المرس أحسن من هذه الصبيحة . وجاء في بقية ليلة ذلك اليوم من البرزك فاعلمز الحرثاني ، وذكر أن المدوقد سأل من جانب السلطان - قدس الله روحه - من يصل إليهم ، ليسع منهم حديثنا في سؤال الصلح ، لضمير حل بهم ، ولم يزل عدو الله من حينئذ مكسور الجلع مهاض الجانب حتى وصلهم كُنتُ يقال له : كُنتُدهرى .

ذكر وصول الكُنتُدهرى

وهذا المذكور من ملوكهم وأغنيائهم^(١) ، وصل في البحر في مراكب عدة ، ومعه (١٠١ ب) من الأموال والذخائر واللب والأسلحة والرجال عدد عظيم ، قصى بوصله جأشهم^(٢) ، واشتد أزهم ، وحدتهم قوسهم بكبس^(٣) المعسكر الإسلامى للنصور ليلا ، وكثر ذلك الحديث على السنة الملتأمنين والمجوايس ، لجميع السلطان - رحمه الله عليه - الأمراء وأرباب الرأى ، واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخر الرأى أنهم يؤتمنون الحلقة ، ويتأخرون عن العدو ، رجاء أن يخرج العدو ، ويبد عن خيمه فيمكن الله منهم ، وواقهم السلطان - رحمه الله عليه - على ذلك ، وأوقفه في قلبه ، فرحل إلى جبل الخروبة بالساكر بأسرها ، وذلك في^(٤) يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وترك بقية من المعسكر في تلك الليلة كاليزك ، مقدار ألف فارس ، يتناوبون بحفظ النوبة ، وهذا والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور ، وأيدى الثباج^(٥) ، والراكب اللطاف ، تخرج ليلا ، وتدخل سرقة من العدو .

(١) م : « وأعيانهم » .

(٢) م : « عزيمهم » .

(٣) م : « يلبس » .

(٤) م : « فنان القفطان ساسان من (م) » .

(٥) م : « السباح » وهو خطأ وانصح .

«عدنا إلى أخبار ملك الألمان»^(١) ، هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة وقلة خيله وعدده ، وما قد عرام من الأرض واللوت ، وأنهم قد اجتمعوا في أنطاكية ، وأنهم ينتفون في الرحلة^(٢) ، وأن أصحابنا عسكر حلب يصنعون حشائهم^(٣) وعلاقتهم ومن يخرج منهم .

ذكر (١١٠٢) كتاب وصل من قسطنطينية

بشر الله شعبها

وكان بين السلطان - رحمه الله عليه - وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطاني بمرج هيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسة في جواب رسول كان أخذها السلطان - رحمه الله عليه - إليه بعد تقرر القواعد وإقامة قانون الخطبة في جميع قسطنطينية ، ففنى الرسول ، وأقام الخطبة ، ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد ، وكان قد أخذ معه في الراكب الخطيب والنبروجما^(٤) من اللوذنيين والقراء ، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار ، وروى الخطيب النبر ، واجتمع إليه المسلمون القيسون بها والتجار ، وأقام الدعوة الإسلامية المبالية ، ثم عاد ، فبدا معه هذا الرسول بخيرنا بانتظام الحال في ذلك ، فأقام مدته . وقد شاهده يبلغ الرسالة ، ومعه ترجمان يترجم عنه ، وهو شيخ أحسن ما يترض أن يكون من صور المشايخ ، وعليه زيهب الذي يختص بهم ، ومعه كتاب وقد كره ، والكتاب عتوم يذهب ، ولما مات وصل إلى ملك القسطنطينية خبر وفاته ، فأخذ هذا الرسول في تنية ذلك ، ووصل معه (١٠٢ ب) الكتاب في جواب ذلك وصورة ما فُتّر من الكتاب الواصل منه ووصفه : أنه كتاب مدروج عرّضا ، وهو دون عرض كتاب بغداد ، مترجماً في ظاهره . وطلته بسطرين ، بينهما فرجة ، وضع فيها النظم ، ولتئم في ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على خضه صورة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر ديناراً ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته : « من إيساك كيوس الملك للؤمن بالمسيح الإله ، للتوج من الله للنصور العالي أبدا ، أفتقوس^(٥) للذبر من الله القاهر الذي لا ينضب ، ضابط الروم بذاته أنكليوس إلى النسيب لمطان مصر صلاح الدين . » فهذا صورة ما كتب عليه من الترجمة باطنا وظاهراً وأما ما فُتّر من الكتاب فهذا : الحجة واللودة ، وقد وصل خط نسيبك الذي أخذت إلى

(١) هذه الجملة غير موجودة في (م) .

(٢) م : « وأنهم قد بقوا رجلة » .

(٣) يبدو من سياق المتن هنا أن القليل سنة الذين يحسبون الحاشي لفك الدواب .

(٤) الأصل « وجم » ، والتصحيح من (م) .

(٥) م : « أفتقوس » .

ملكى، وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفى، وحرزنا حيث أنه توفى في بلد غريب، وما قدر أن نيم كلارسم له ملكى، وأمره أن يتحدث مع نبيك، ويقول في حضرتك، ولا بد لتبكت أن تبته بإفاد رسول إلى ملكى^(١) يعرف ملكى ما بشت إليك^(٢) مع رسول للتوفى. وأما القباش الذى خلقه ووجد بعد موته^(٣) يغذى إلى ملكى^(٤) لتبته أولاده وأقاربه، وما أعلن أنه سمع نبيك أخباراً ردية، وأنه قد سار في بلادى الألمان (١١٠٣) وما هو يجب فإن الأعداء يرجون بأشياء كذب^(٥) على قدر أغراضهم^(٦)، ولو تشبهى أن نسمع الحق فلههم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحى بلادى^(٧)، وقد خسروا كثيراً من المال والذهب والرجل والرجال، ومات منهم كثير، وقتلوا، وتلقوا، وبالشدة قد تخلصوا من أيدى أجناد بلادى، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعفاً بعد شدة كثيرة، ولا يقدرون يفتغون جنسهم، ولا يضررون نبيك، وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذى بينى وبينك، وكيف ما عرفت للكى شيئاً من المقاصد واللمبات،^(٨) ما ربح ملكى^(٩) من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم،^(١٠) ولا بد لتبكت كما قد كتبت للكى في كتابك الذى قد فقت إيتنا من إفاد رسول حتى يعرفنى جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ولا تحمل على قلبك من بحى الأعداء الذين قد سمعت بهم، فإن إدارم على قدر نيتهم وآرائهم. وكعب في أيام سنة ألف وواحد وخمسمائة^(١١) فوقف - راحة الله عليه - على هذه الترجة، وأكرم الرسول، وأحسن منواه، وكان شيئاً حسن الملق، مهيباً، عارفاً بالبرية والرومية والفرنجية.

ثم إن الفرنج - لنهم الله تعالى - اشتدوا في حصار (١٠٣ ب) البلد ومضايقته، لما حدث لهم من القوة بوصول الكندهرى، فإنه ألقى^(١٢) على ما ذكر - والله أعلم - في عشرة آلاف مقاتل، ووصلهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم، ولزوا^(١٣) البلد بالقتال.

(١) هذه الجملة ساقطة من (م).

(٢) م : « مكفوف ».

(٣) مكان هذا القبط يأتى بالأصل، وقد أشيب عن (م).

(٤) م : « أكثر مما أوصى فلاحى بلادك »، والفرق واضح بين التبعين، ونسب الأصل أصح.

(٥) الأصل : « وكما يظهر للكى تاريخ ملكى » والمبنى غلط، وقد آثرنا عليه (م) فهو أوضح.

(٦) هذه العبارة كلها ساقطة من (م).

(٧) م : « وصل ».

(٨) م : « غزلوا ».

ذكر حريق^(١) المنجنيقات التي للدو المنحول^(٢).

وذلك أن الدو لما أحسَّ في نفسه بقوة ، بسبب توالي التجد عليهم ، اشتد طمعهم وسلطوا^(٣) عليه المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يسطل رمتها ليلاً ولا نهاراً ، وذلك فدرجب أثناء من سنة ست وثمانين وخمسة . ولا رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة الدو وتعلق طمعه بهم حركتهم النخوة الإسلامية ، وكان مقدموه حينئذ . أما والى البلد وحارسه فالأمير الكبير بهاء الدين قراقوش ، وأما مقدم المسكر فالأمير الاسفهلار الكبير حسام الدين أبو الميلاء ، وكان رجلاً ذا كرم وشجاعة ، وقدمه^(٤) في عشرته ومضاء في عزيمته ، فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى الدو ، فإرسلهم وراجلهم ، عن غرة وغفلة منهم ، ففعلوا ذلك ، وفتحت الأبواب ، وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ، ولم يشمر الدو إلا والسيوف فيهم حاكم عادل ، وسهم قضاء الله وقدره فيهم نافذ (١٠٤) خاف^(٥) ، وهجم الإسلام على الكفر في منازل ، وأخذ بناصية مناضله ، وداس مقاتله ، ولما ولج المسلمون خيام الدو ذهلوا عن المنجنيقات وحراستها ، وحفظها وسياستها ، فوصلت شهب الزرافين للقذوفة وجاءت عوائد الله في نصرته دينه للأوفى ، فلم تكن شائعة حتى اضطربت فيها النيران ، وتغرَّق منها بيدها ما شيد الأمداء في اللدة الطولية في أقرب آن ، وقُتل من الدو في ذلك اليوم سبعون فارساً ، وأسرى خلق عظيم ، وكان من جهة الأسمري رجل مذكور منهم ، ظفر به واحد من آحاد الناس ولم يعلم بمكائنه ، فلما انفصل الحرب سأل الفرنج عنه هل هو حي أم لا ، فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنه رجل كبير ، وخاف أن يُنقلب عليه ويُرد إليهم بنوع مصادمة أو على وجه من الوجوه ، فإسارع وقته ، وبذل الفرنج فيه أموالاً كثيرة ، ولم يزالوا يشتدون في طلبه ويحرسون عليه حتى رُميت إليهم بجثته ، ففرضوا بنفوسهم الأرض ، وحشوا على وجوههم الزراب ، ووقفت عليهم بسبب ذلك خدة عظيمة ، وكنتموا أمره ، ولم يظهروا من كان ، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم ، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون ويقتلون ويأسرون إلى ليلة شعبان سنة ست وثمانين وخمسة ، وكان (١٠٤ ب) السكندهرى قد ألقى على منجنيق كبير عظيم الشكل — على ما قل الجواسيس والمستأمنون — ألقاً وخمسة دینار ، وأعداه ليقدمه إلى البلد ، ومنع من حريقه ذلك اليوم كونه بعيداً عن البلد ، ولم يقدم بعد إليه ، فلما كانت الليلة المباركة للذكورة خرج الزرافون والمقاتلة ، والله يحفظهم من كل جانب ، والله يكلامهم ،

(١) هذه الكلمات غير موجودة في (م) .

(٢) م : « وركبوا » .

(٣) م : « وقدم » .

(٤) م : « أزل » .

فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المتجنين للذكور ، وأضرموا فيه النار . فاحترق من ساعته ، ووقع الصباح من الطائفتين ، وذهل العدو ، فإنه كان بعيداً من البلد ، ونخف أن يكون قد أحيط به من الجوانب ، وكان نصراً من عند الله ، وأحرق بلبه متجنين لطيف إلى جانبه .

ذكر الحيلة في إدخال بطسة بيروت إلى البلد

وذلك أنه - رحمة الله عليه - كان قد أعد بيروت بطسة ، وعمرها ، وأودعها أربع مائة غرارة من القمح ووضع فيها من الجبن والليرة والبصل والقمح وغير ذلك من الليرة ، وكان الفرنج - خذلم الله - قد أجاروا مراكبهم حول عكا ، حراسة لها عن أن يدخلها مركب للسفن ، وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والليرة ، فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين ، وتزبروا بزي الفرنج ، حتى حلقوا الحام ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة ، بحيث (١١٠٥) ترى من بعد ، وعلقوا الصليان ، وجاءوا قاصدين البلد من البمد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم ، واعتزروهم في المراكب ^(١) ، وقالوا : « نراك قاصدين البلد » . واعتضدوا أنهم منهم فقالوا : « ولم تكونوا قد أخذتم البلد ؟ » فقالوا : « لا ، لم نكن نأخذ البلد بعد » ، فقالوا : « نحن نرد القلوع إلى المسكر ، ووراءنا بطسة أخرى في هوائنا ، فأنزروهم حتى لا يدخلوا البلد » . وكان وراهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين للمسكر ، فظفروا فرأوها ، فقصدها لينزروها ، فاشتدت البطسة الإسلامية في السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، وسلت وقه الحمد ، وكان فرحاً عظيماً ، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد ، وكان ذلك في العشر الأخير من رجب ^(٢) من شهر سنة ست وثمانين وخمسة ^(٣) .

ذكر قصة «الغزاة» عيسى

رحمة الله

ومن نواذر هذه الورقة ومحاسنها أن عولما مسلماً كان يقال له عيسى ، ^(١) وكان يدخل ^(٢) إلى البلد بالسكب والفتقات على وسطه ليلاً ، على غريرة من العدو ، وكان ينوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ،

(١) م : « المراكب والكلاب » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « وصل » .

وكان ذات ليلة شذ على وسطه ثلاثة أكياس ، فيها ألف دينار وكتبُ السكر ، وعام في البحر (١٠٥ ب) جرى عليه من أهل مكة ، وأبطأ خبره عنا ، وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طير عرقنا بوصوله ، فأبطأ الطير ، فاستشر الناس هلاكه ، ولما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً ، فافضوه فوجدوه عيسى الموام ، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب ، وكان الذهب ثقاة للبعاملين ، فما روى من أدبي الأمانة في حال حياته وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل ، وكان ذلك في الشر الأخير من رجب أيضاً .

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن المدون كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور ، وأن حيلاتها تواترت حتى أثرت في السور أثراً يئس ، وخيف من فائتها ، فأخذ سهبان من سهام الجرح العظيم وأحرق نعلهما حتى بقيا كالشعة من النار ، ثم رميا في المنجنيق الواحد ، فعلقا فيه ، واجتهد المدون في إطفاء النار فلم يقدروا على ذلك ، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالاً عظيماً ، واتصلت لهبته بالأخر فأحرقته ، واشتد ناراها بحيث لم يقدر أحد أن يقرب مكانها ليحتمل في إطفائها ، وكان يومها عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين وسامت عاقبة الكافرين .

ذكر (١٠٦) عام حديث الألمان^(١)

وكان من حديثه أنه بعد أن استقر قلمه في أنطاكية - يتر الله فضحا - وأخذها من صاحبها وحكم فيها ، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره فأخذها منه غيلة وخديعة ، وأودعها خزائنه ، وسار عنها يوم الأربعاء خلس مشرى واجب سنة ستة وثمانين وخمسمائة متوجهاً نحو عكا ، في جيوشه وجنوده ، على طريق اللاقية ، حتى أتى طرابلس - يتر الله فضحا - ، وكان قد سار إليه من مسكر الفرنج يلتقيه للرئيس - صاحب صور - ، وكان من أعظمهم حيلة وأشداهم بأساً ، وهو الأصل في تهيج الجوع البحرية^(٢) .

ذكر الحيلة التي عملها للرئيس في جمع الفرنج

من وراء البحر

وذلك أنه صور القدس في ورقة خطية ، وصور فيه صورة القيلة^(٣) التي لم ينجحوا إليها ويظنون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يقتلون نزول النور

(١) نص العنوان في م : « ذكر عام حديث ملك الألمان والحيلة التي عملها الرئيس » . ول الأصل فصل بين العنوانين ، انظر ما يلي بعد سطور قليلة .

(٢) م : « الجوع من وراء البحر » .

(٣) م : « القيلة » .

عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم ، فصور القير وصور عليه فرسا عليه فارسٌ مسلم ركب عليه ، وقد وطئ قير السيج وقد بال القير على القير ، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع ، والتسوس يحملونها ، ورومهم (١٠٦ ب) مكتشفة ، وعليهم للسوحة^(١) ، وينادون بالويل والتبور ، ولصور عجل في قلوبهم ، فلها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلانق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وكان من جعلهم ملك الألمان وجنوده ، فقبحهم الركب ، لأنه أصل استدعائهم إلى هذه الواقعة ، فلما اتصل به قوى قايه ، وبشره بالطرق ، وسلك به الساحل ، خوفاً من أنه إذا أتى على بلاد حلب المحروسة وحدة المحروسة قلوبهم للسلون من كل جانب ، وقامت عليهم كفة الحق من كل صوب ، ومع ذلك لم يسألوا من شن الفارات عليهم ، فإن للك النظر - رحمه الله - قصدم بساكره ، وجع لم جوعا ، وهجم عليهم هجوما عظيما أخذ منه من أطراف عسكره ، وكان قد لحقهم بأوائل عسكره ، ولولحقة الملك الظاهر بساكره هضم عليهم ، ولكن لكل أجل كتاب ، واختطف حزر الناس لم ، وقد وقت على بعض كتب الخبيرين بالحرب ، وقد حزر فارسهم ورجالهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر "بماتى ألف" ، فانظر إلى صنع الله مع أعدائه . . . وقد وقت على بعض الكتب يذكر فيه أنهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة ، وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطيت وانزع لحما ، ولم يبق فيها إلا النظام ، من شدة الجوع^(٢) وضف (١٠٧ ا) الخليل ، ولم يزالوا سائرين وأبدى للمسلمين تنخطهم من حولهم نيبا وقتلا وأسرا ، حتى أنوا طرابلس - يتر الله فحما - ووصل خبره ووصولهم بكرة الثلاثاء من شعبان سنة ست وثمانين . هذا والسلطان - قدس الله روحه - ثابت الجأش ، راسخ القدم ، لا يدعه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ، ومراصدة المسكر النازل بها ، وشن الفارات عليهم ، والمهجوم عليهم في كل وقت ، فأنفوا أمره إلى الله تعالى ، مستدأ عليه ، منبسط الوجه قضاء حوائج الناس ، مواعلا يبره من يقد إليه من الفقراء والفقهاء والشايع والأدباء ، وقد كنت إذا بلتق هذا الخبير تأثرت حتى إذا دخلت إليه فأجد منه من قوة النفس^(٣) وشدة البأس ما يشرح صدري ، وأتقين معه نصرة الإسلام وأهله .

(١) م : السوح .

(٢) مذن القطنان ساهلان من (م) .

(٣) م : الله .

ذكر وصول البطس من عروسة مصر

ولما كان الشهر الأوسط من شعبان من شهر سنة ست وثمانين وخمسة كتب بهام الدين قراقوش ، وهو والى البلد ، والتقدم على الأصطول وهو الحاجب لؤلؤ ، يذكران السلطان ، رحمة الله عليه : « لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر يكنى البلد إلى ليلة النصف من شعبان لا غير » ، فأمرها يوسف في سنة (١٠٧ ب) ولم يبقها نخلص ولا عام ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو ، ويضعف به قلوب المسلمين . وكان [السلطان] قد كتب إلى مصر بجييز ثلاث بطن مشحونة بالأقوات والإدام والمير وجميع ما يحتاج إليه في الحصار ، بحيث يكتبهم ذلك طول الشتاء ، وأقفلت البطس الثلاث من الديار المصرية وبلغت في البحر تنوح النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا ، فطابت لهم الريح حتى صاروا ، ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان المذكور ، وقد فتحت الأرواد ، ولم يبق عندهم ما يطمنون الناس في ذلك اليوم ، وخرج عليها أصطول العدو قاتلتها ، والمساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل ، والناس في تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم ، ينتهلون إلى الله تعالى في القضاء بتسلمها إلى البلد ، والسلطان - رحمة الله عليه - على الساحل كالوالدة الشكلي يشاهد القتال ، ويدعو إلى ربه بنصره ، وقد علم من شدة القوم ما لم يطمعه غيره ، وفي قلبه ما في قلبه والله ينتجته ، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب ، والله يدفع عنها والريح تشتد ، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخرق الحجب ، حتى وصلوا بحمد الله تعالى سائلين إلى ميناء البلد ، وتلقاهم أهل عكا تلقى الأمطار من جدد ، وامتلأوا ما فيها ، وكانت ليلة ليالي ، وكان دخولها ^(١) . (١٠٩ ا) عصر يوم الإثنين رابع عشر شعبان المذكور من السنة المذكورة .

ذكر محاصرة برج النيران^(٢)

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان سنة ست وثمانين وخمسة سجد العدو - لعنه الله - بضعاً متعددة لمحاصرة برج النيران ، وهو برج في وسط البحر ، مبنى على الصخر على باب ميناء عكا ^(٣) ، يحرس به الديار ، ومضى عبره للركب أمن من غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ، لبقى الميناء بحكمه ، ويمنع دخول شيء من البطس إليه ، فتقطع

(١) ورقة ١٠٨ - ١٠٨ ب ورقة خذلة على اليسر هنا ، ومكانها الصحيح خلال من ١٧٧ ب وقد أبتاعها هناك ، فيها يصل النص وينسق .

(٢) م : « النيران » .

(٣) هنا فقط ساقط من (م)

لليرة عن البلد ، فجعلوا على صواري البطس بُرجاً ، وملأوه حطباً وضطاً^(١) ، على أنهم يُسَّرون البطس ، فإذا قاربت برج القبان ولاصقته ، أحرقوا البرج الذي على الصاري وألقوه ببرج القبان ليقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من القناتة ويأخذوه ، وجعلوا في البُطسة وقوداً كثيراً حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النار فيه ، وعبروا بطسة ثانية وملأوها حطباً ووقوداً ، على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الإسلامية ، ثم يليونها ، فتحترق البطس الإسلامية ، وتهلك ما فيها من الليرة ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نشاب^(٢) ولا شيء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا أسراراً إمراته دخلوا ذلك القبو فأمنوا ، فأحرقوا ما (١٠٩) أَرادوا إمراته ، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور ، وكان طمسهم يشتد حيث كان الهواء مُسَمَّماً^(٣) لهم ، فلما أحرقوا البطسة التي أَرادوا يحرقون بها بطس للسليخ ، والبرج الذي أَرادوا يحرقون به من على البرج ، فأوقدوا النار ، وضربوا فيها النفط ، فانعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وأراد ، واشتعلت البطسة والقي كان فيها بأسرها ، واجتهدوا في إطفائها فما قدروا ، وهلك من كان بها من القناتة إلا من شاء الله تعالى ، ثم احترقت البطسة التي كانت مُعدة لإحراق بطسنا ، ووثب أصحابها عليها فأخذوها إليهم ، وأما البطسة التي فيها القبو ، فإتهم أنزعجوا وخافوا ، وهو بالرجوع ، واشتعلوا واضطربوا اضطراباً عظيماً ، فأقبلت وهلك جميع من كان فيها ؛ لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها ، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى ، وأندر المعجائب نصرة دين الله ، وقه الحسد ، وكان يوماً مشهوداً .

ذكر وصول الألمان إلى عسكرهم المفلول

عدنا إلى حديث ملك الألمان ، وذلك أنه أقام بطرابلس ، حتى استجمع عسكره ، وأرسل إلى النازلين على مكا يخبرهم بقدمه إليهم ، وقد رجوا من ذلك (١١٠) لأن المركيس - صاحب صور - هرب مشورته وصاحب دولته ، وكان الملك جفري - وهو ملك الساحل - بالمسكر ، وهو الذي يرجع إليه في الأمور ، فلم أن مع قدم ملك الألمان لا يبقى له حكم . ولما كان الشهر الأخير من شعبان سنة ست وثمانين وخمسة أزمع رأي على السير في البحر ؛ لعله أنه إن لم يركب في البحر نكب وأخذت عليه مضائق الطرق ، فأعذر الراكب ، وأضفت إليه من كل جانب ، ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وحشهم ، وساروا يريدون العسكر فلم تمض إلا ساعة من نهار

(١) هذا القسط ساقط من (م) .

(٢) انظر ما ثبت هنا من ٦٣ ، هامش ١

(٣) م : « مصدا » .

حق قامت عليهم ريح عاصف ، وثار عليهم الموج من كل مكان ، وأشرفوا على الملوك ، وهلك منهم ثلاثة
مراكب حائلة^(١) ، وعاد الباقون يرمدون هواه طيبا ، فأقاموا أياما حتى طابت لهم الرج ، وساروا حتى أتوا
صور - يترأف الله ضحاياهم فأقام الركن والألاني بها ، وأخذوا بقية الساكر إلى المسكر التازل على عكا ، وأقاموا
بصور إلى ليلة السادس من رمضان من السنة المذكورة . وسار الألاني وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب
الشمس من ذلك اليوم في نهر يسير ، هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم ، وكان قدومه وقع عظيم عند
الطائفتين ، فأقام أياما ، وأراد أن (١١٠ ب) يظهر قدومه أثر ، فوجع القوم على طول مقامهم ، وحسن في رأيه
أن يضرب مصافح اللعين ، فغزوه من الإقدام على هذا الأمر وعاقبته ، قال : لا بد من الخروج على اليزك
لنذوق قتال القوم ، وتعرف مراسهم ، وتبصر أمرهم ، فليس الخبير كالبيان ، فخرج على اليزك الإسلامي ، واتبعه
معظم الفرع راجلهم وفارسهم ، وخرجوا حتى قطعوا الوطاة^(٢) التي بين تلهم وتل المياضية وعلى تل المياضية خيام
اليزك ، وهي نوبة الحلة السلطانية للنصرة في ذلك اليوم ، فوقفوا في وجوههم ، وقاتلهم وأدقروهم طعم الموت ، وعرف
السلطان - رحمة الله عليه - ذلك ، فركب من خيبه يحفظه ، وسار حتى أتى تل كيسان ، فلما رأى المدو الساكر
الإسلامية قد صوبت نحوهم صام قسدها ، وأتته من كل جانب كتفح الليل للدهم عاد ناكسا على عقبه ، وقد قُتل
منهم وشرح خلق عظيم والسيف يعمل في قبيهم ، وهم هاربون ، حتى وصل الخيم غروب الشمس من ذلك اليوم ،
وهو لا يتعد سلامة نفسه من شدة خوفه ، وفصل الليل بين الطائفتين وقد قُتل وسُرح من المدو خلق عظيم ، وقتل
من المسلمين في ذلك اليوم اثنان ، وشرح جماعة كثيرة ، وكانت السكرة على أعداء الله وقه الحجد ، فلما عرف ملك
الألمان - لمة الله - ما جرى عليه وعلى (١١١) أصحابه من اليزك الذي هو شريعة من المسكر ، وهم جزء
من كل ، رأى أن يرجع إلى قتال البلد ، ويشغل بمضايقته ، فأخذ من الآلات العجيبة والصناعات الغريبة ما أحال
الناظر إليه من شدة الخوف على البلد ، واستشر أخذ البلد من تلك الآلات ، وخيف منها عليه ، فما أحدثوه آلة
عظيمة تسمى دبابة^(٣) يدخل تحتها من القنطرة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك بها

(١) الحلة - ج : حالات ، هي كاحرنا (ابن عماني : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٩ - ٣٤٠)

و : (Doxy : Supp. Dict. Arab) نوع من السفن الخمسة لنقل مؤنقا لجيش وأزواده والصناع والمعلم للبحرين بجيش
والأسطول (Vaisseau de Transport) ، ول (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٢٢٠ - ٢٢١) ما يدل على أن د الحلة ،
كانت لتسجل في جل الخيل كذلك ، قال : « ول سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٨٢٥ م) هجر السلطان في مصر أربع حالات
كار برسم خيل الجيول والأهبال ، وبعث الناس الكثيرين .. الخ » وجاء في (خليل بن شاهين : زبدة كشف اللالك ،
ص ١٣٩ - ١٤٠) : « ثم إن العلة تسكنت وهي غس فربيع وقصة مصر متا وست حالات برسم الجيول .. الخ » .

(٢) : « الزحاد » .

(٣) انظر ما كانت حنا ص ٤٧ ، حاشي ١ ، وهذا وصف لادر وعقيل لدبابة .

من داخل ، وفيها القنطرة ، حتى ينطع بها السور^(١) ، ولما رأس عظيم برقية شديدة من حديد ، وهي تسمى كبشا ، ينطع بها السور^(٢) بشدة عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها ، وآلة أخرى ، وهي قبو فيه رجال ، يسحب كذلك إلا أن رأسها معد ، على شكل السكة التي يحرث بها ، ورأس الكيش مدور ، وهذا يهدم بقفه ، وتلك تهدم بجذعها وتقلها ، وهي تسمى سينورا^(٣) . ومن الستائر والسلالم الكبار المائة . وأعدوا في البحر بطلة حاتكة ، وصنعوا فيها برجاً بخروطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور اقلب بالحركات . ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه ؛ فخشى عليه القنطرة ، وعزموا على تقريبه إلى برج القبان ليأخذوه به .

(١١١) ذكر حريق الكيش وغيره من الآلات

وذلك أن العدو لما رأى أن آلاته قد تمت واستكلت ، شرع في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب ، وأهل البلد - وقسمهم الله - كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم في نصرته دين الله تعالى ؛ وقويت قلوبهم على المصاهرة . ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة للذكورة وهو الذي قدمت فيه عساكر الشام .

(١٢) ذكر قدوم الملك الظاهر

رحمة الله

قدم الملك الظاهر والده - صاحب حلب المحروسة - بمجندة وعسكره وهو من كبار أولاده ومقنعيهم ومهذبيهم ، وهو يمتد عليه في كثير من أموره ، قدم في عشية ذلك اليوم وحده متابرة على خدمة والده ، ومعالجة في يده ، ثم بكر وعاد حتى لقي عسكره ، وقدم معهم بكرة الثلاثاء يرتب أطلاباً ويهذبها ، وفرح والده وسر به سروراً عظيماً ، رضاه بما وثب وجمع من البسائر والجبايل ، وقدم في ذلك اليوم سابق الدين - صاحب شيز - ، وعز الدين بن القندم ، وعبد الدين - صاحب بيليك - وخلق عظيم من عساكر المسلمين ، قدموا في أحسن زى ، وأجل ترتيب ، وأكل عدة ، في ذلك اليوم^(٤) وكان السلطان - رحمة الله عليه - قد

(١) الأصل وم : « السور » .

(٢) الأصل : « بسورا » ، وسامنا من م ، وهذا وصف تادر وخلق نوع من أنواع الأسلحة المستعملة لخدم الأسوار

إلى المروءات السليبية ، وفي (البسم الوسيط) : « السور جلة السلاح ، وليس من ستر ليس في الحرب كالمدح

(٣) هذه الفترة كلها غير موجودة في م ، وسكانها هناك من آخر هو : « في أحسن زى وأجل ترتيب ، وأكل عدة ،

مع والده صاحب حلب ، وسابق الدين صاحب شيز وعبد الدين صاحب بيليك » .

الثبات مزاجه الكريم بحسب صفراوية (١١١٢) سيرة ، فركب في ذلك اليوم ، وكان عبيداً من وجوه متعلمة ، وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، فأهلوا أهل البلد وشجعان القنطرة الذين فيه ، وذو الأراء المتقنة من مقدمي المسلمين فيه ، حتى نشبت غزاليب أطماعهم في البلد ، وصحبوا آلائهم المذكورة ، حتى قاربوا أن يلققوها بالسور ، وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة ، وأطلقوا عليهم سهام الجروح ، وأحجار المناجيق ، وأقواس الرمي والثيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب ، وباعوا أنفسهم لخالقها وباريها ، ورضوا بالصفقة للوعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوم في الخنادق ، وأوقع الله الرعب في قلب العدو ، وأصلى ظهره للهزيمة ، وأخذوا مشددين هاربين على أعقابهم ناكسين ، يطلبون خيماهم ، والاختباء بأسوارهم ، لكثرة ما شاهدوا وذوقوا من الجرح والقتل ، وبقي في الخندق خلق عظيم ، فوقع فيهم السيف ، وصحبل الله بأرواحهم إلى النار ، ولأراى المسلمون منازل بالعدو من الخذلان والمزمنة ، هجموا على كبشهم ، فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه لمرب القنطرة عنه ، وأحرق حريقاً شديداً ، وظهرت له (١١٢ ب) هيب نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، والشكر لقوى الجليل ، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السور فأحترق^(١) ، وعلق المسلمون في الكبش الكلايب الحديد المصنوعة في السلاسل فحبسوه ، وهو يشتمل ، حتى حملوه عديم في البلد ، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة ، وألقى الماء عليه حتى برد حديدته بمد أيام ، وبلغنا من البلد^(٢) أنه وُزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشأى ، والتمطار مائة رطل ، والرطل الشأى بالبندادى أربعة أرطال وربع رطل ، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان - رحمة الله عليه - ومثل بين يديه ، وشاهدته وقلبيته ، وشكله على مثال السقود الذى يكون بحجر المدار ، قيل - إنه يُنطح به فيهدم مايلقيه ، وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام^(٣) ، وما استدلل به على سعادة ولده الملك الظاهر حيث اقترن بمحبته نصرته الإسلام وحريق تلك الآلة الملهوة المخوفة ، واتفق له ذلك مرة أخرى في حريق الأبراج ، وقد سبق شرحها ، فأله تعالى يسد بولده الإسلام ، ويمجى نصره بأبيه على أحسن نظام^(٤) ، ووقع على العدو خذلان عظيم ، ورفضوا مسلم من آلائهم ، وسكنت حركاتهم التى ضيقوا فيها نفقاتهم ، وتحيرت أبصار حيلهم ، واستشير السلطان - رحمة الله عليه - بنرة ولده ، واستبرك بها حيث وجد (١١٣) النصر مقرونا بقدمه مرة بمد أخرى ، وثانية بمد أولى .

(١) الأصل : « السور فحترقت » ، وما هنا نص (م) .

(٢) م : « البرك » .

(٣) هذه الفترة كلها ساقطة من (م) .

ذكر حريق البطيسة المندة لأخذ برج الدبان^(١)

ولما كان يوم الأربعاء خلس عشر رمضان للذكور خرج أصحابنا من التفر المحروس في شوان على بنته من العدو المحنول، وضربوها بقوارير قط فاحترقت، وارتفع لهيبها في البحر ارتفاعا عظيما، واشتعلت الأصوات بالتهليل والتكبير، وكفى الله شرها، ورد الله الذين كفروا بنيظلم لم ينالوا خيرا، وحزن الألمان لذلك حزنا عظيما، وغشيتهم كآبة شديدة، ووقع عليهم خذلان صميم.

ذكر خروج البرنس إلى الفارة

على البلاد الشامية التي تليه^(٢)

ولما كان يوم الخميس سادس عشر رمضان المذكور من السنة المذكورة - سنة ست وثمانين وخمسمائة - وصل كتاب ملائر في طي كتاب، وصل من محروسة حماة، قد طار به الطائر من محروسة حلب، يذكر فيه أن البرنس - صاحب أنطاكية - خرج بسكره نحو القريا^(٣) الإسلامية لشن الفارة عليها، فبصرت به المسافر ونوب الملك الظاهر - ولد السلطان - فكنت الكناه^(٤)، وخرجوا عليه، فلم يشمر بهم إلا والسيف قد وقع فيهم فقتل من عسكرهم خمسة وسبعون (١١٣ ب) فترا، وأسر منهم خلق عظيم، واستعصم بنفسه في موضع يسمى صبحا^(٥)، حتى اندفعوا واصلوا إلى بلده، يشر الله فتحها.

ذكر أخذ البطستين من العدو^(٦)

وفي أثناء المشر الأوسط ألت الرمح بطستين وفيها رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة، وغنم كثيرة، فأصدين نحو العدو، فندمها المسلحون، وكان العدو قد ظفر لنا ببركوس^(٧)، فيه نقعة ورجال، أراد المحنول إلى

(١) هذا العنوان غير موجود في (م).

(٢) م : « القرى ».

(٣) م : « فكنت له مكينات ».

(٤) م : « حيجا ».

(٥) هذا العنوان غير موجود في (م).

(٦) م : « بزورق »، والبركوس (ج) براكيس : نوع من السفن التي كانت تستعمل في الحروب بين العرب والفرس في مياه البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى، وهي أصغر حيجا من البطيسة ؟ وجاء في الروضتين، ج ٢، ص ١٨٧ : « فأخذوا لهم ببركوسا، وهو مركب صغير » ؟ وقد ذكره (ابن ماضي : قوانين الدواوين، ص ٣٤٠) وإن كان الناشر الدكتور سوريل قد أخطأ في قراءته فجعله « مركوش » - فقال : إنه مركب « لطيف يستعمل لنقل الماء لجنه، وسقته مائة أردب » ؟ =

الياء ، فأخذه ، ووقع النقر بهاتين البطشتين ماحيا تلك وجابراً ، ولم تزل الأخبار بعد ذلك تتواصل على السنة الجواسيس والسامعين أن العدو المحنول قد عزم على الخروج إلى المسكر الإسلامي خروج مصاف ومفاضة^(١) ، والتفت مزاج السلطان - قدس الله روحه - بحسب صفراوية ، فالتفت الحلال تأخر المسكر إلى جبل لصيق بجبل شغرم .

ذكر انتقال المسكر إلى شغرم^(٢)

"ولاعزم السلطان - رحمه الله عليه - على التأخر بسبب ذلك الاتيك فله" ، وكان انتقاله في عشية الاثنين تاسع عشر رمضان من شهر سنة ست وثمانين وخمسة ، فزل على أعلى الجبل ، ونزل الناس على رموس التلال للاستعداد لشتاء والاستراحة من الرحل^(٣) ، وفي ذلك الزمان^(٤) مرض زين الدين يوسف بن زين الدين - صاحب (١١١٤) لإربل - مرضاً شديداً بحيثين مختلفي الأوقات ، واستأذن في الرواح فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال إلى الناصرة فأذن له في ذلك .

ذكر وفاته ، رحمه الله^(٥)

وأقام بالناصرة أياماً عدة يمرض نفسه ، فاشتد به الأمر إلى ليلة الثلاثاء ثامن عشر رمضان من سنة ست وثمانين وخمسة ، ثم توفي - رحمه الله - وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده ، وحزن الناس عليه ، لمكان شبابه وغبته ، وأنتم السلطان على أخيه مظفر الدين ببيلة لإربل ، واستقره عن بلاده التي كانت في يده ، وهي حران

تغير أن النصوص الكثيرة التي أوردها المؤلف في هذا الكتاب والتي أوردها المهاد الأسفاني في الفتحة التي بين في وضوح أن البركوس كان يستعمل لركوب الجنود والناس عامة ، وبهم من هذه النصوص كذلك أن حولة البركوس الواحد كانت حوالي خمسة وعشرين ذنباً ، قال المهاد في ص ٢٤١ : « أخذ من القرج بركوسان فيها ثيف وخسون غرا . . . ولى الخامس والمصيرين منه أخذ أيضاً بركوس فيه من القرج ثيفون وروسون وثم ثيف وعشرون ، منهم أربعة خيالة » ؛ وجاء (محيط المحيط) : « البركوس ، والباركوس - ضرب من السفن بين البريل والفرهلة ، ضرب » ؛ وهو مأخوذ من الإيطالية « Barcoro » ، وبالعابا بالفرنسية « Berque » ، وبالنمليزية « Bark » انظر أيضاً : « الفيل : سيم السفن البحرية ، تضلولة لم تنعربد) و (ابن واسل : مفرج الكروب ، نصر الفيل ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ -) و (Kinderman Op.bit. P. 5)

- (١) م : « ومفاضة » .
- (٢) هذا العنوان غير موجود في (م)
- (٣) هذه الجملة سابقة من (م) .
- (٤) م : « الرحل » .
- (٥) م : « اليوم »
- (٦) هذا العنوان سابق من (م) .

والزُّها ، وما يتبعهما من البلاد والأعمال ، وسمَّ إليه يد شهر زور أيضا ، وحلف^(١) السلطان - رحمه الله عليه - على ذلك ، وقرَّر معه أنه إذا تسلَّ الواضع سَلَمَ ما كان معه من البلاد ، وهى الزُّها وحرَّان وصحبيات والووزر ، وأعمال جميع ذلك^(٢) ، واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شافعشاه ، ليكون نازلا مكانه ، جابرا خلال غيبة مظفر الدين وأقام مظفر الدين^(٣) كوكبودى بن زين الدين على - رحمه الله - بالمسكر للنصور^(٤) فى نظرة قدوم تقي الدين ، ولما كان ضاحى نهار ثالث شوال دم ، وقد أعاد صحبته معز الدين سنجر^(٥) شاه - صاحب الجزيرة - وهو ابن سيف الدين^(٦) .

ذكر قصة معز الدين

(١١٤ ب) وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ، وهو صاحب الجزيرة إذ ذاك ، وكان من قصته أنه حضر للجهاد ، وقد ذكرت تاريخ وصوله ، وأنه أخذ منه الضجر والسَّامة والقلق ، بحيث ترددت رسله ورفاعه إلى السلطان - رحمه الله عليه - فى طلب المستور ، والسلطان يمتدُّ إليه بأن رسل المدعو متكررة فى معنى الصلح ، فلا يجوز أن تنفض الساكر حتى تتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب ، وهو لا يألو جهدا فى طلب المستور إلى أن كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين وخمسمائة حضر سحرة ذلك اليوم فى باب الخليفة السلطانية فاستأذن فى الدخول ، فاعتذر إليه بالتبثيث كان قد عرى مزاج السلطان - رحمه الله عليه - فلم يقبل المنذر ، وكرَّر الاستئذان ، فأذن له فى الدخول ، فلما مثل بالخدمة استأذن فى الرواح شفاها ، فذكر له السلطان المنذر فى ذلك ، وقال : « هذا وقت تقدم فيه الساكر وتجتمع ، لا وقت تفرقها » فانكب على يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعده وسار ، وأمر أحمابه أن اكفوا القدوز وفيها العلماء ، وقلعوا الخيم ، وتيمره ، فلما بلغ السلطان - رحمه الله عليه - صنيعة أمر بإنشاء مكاتبته إليه يقول فيها : « إنك أنت قصدت الانقباء إلى ابتداء ، وراجعتنى فى ذلك مرارا ، وأظهرت الخليفة على نفسك وبذلك (١١٥ ا) من أهلك ، قتلحك وآويتك ونصرتك ، فبسطت يدك فى أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، ففضلت إليك ونبيئك عن ذلك مرارا ، فلم تنص ، فأتيتك وقوع هذه الواقعة للإسلام قد دعوتك ، فأنتيت بفسكر قد عرفته وعرفه الناس ، وأقت هذه اللديبة ، وقتلت هذا القلق ، وتحركت بهذه الحركة ، واتصرفت عن غير طيب نفس ، وغير فصل حال مع العدو ، فانظر لنفسك وأبصر من تنصى إليه غيرى ، واحفظ نفسك من يقصداك ، فاقبلى إلى

(١) هذه الفترة كلها ساقطة من (م) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

جانبك الثلاث . . . وسَمَّ الكُتُوبَ إلى نَجَاب ، فَلَاحَهُ قَرِيبَ مِنْ طَبَرِيَّة ، قَرَأَ الكُتُوبَ وَلَمْ يَلْقَ ، وَسَارَ عَلَى وَجْهِهِ
وَكَانَ الْمَلِكُ لِلْمُظَفَّرِ تَقَى الدِّينِ قَدْ اسْتَدْعَى إِلَى التَّرَاةِ بِسَبَبِ حَرَكَةِ مُظَفَّرِ الدِّينِ - عَلَى مَا سَبَقَ شَرَحَهُ -
فَلَقِيَهُ فِي الطَّرِيقِ فِي مَوْضِعٍ يُسَمَّى عَقِبَةَ قَيْقٍ ، فَرَأَاهُ عَمَّاءَ ، وَلَمْ يَرَّ عَلَيْهِ إِلَّا رَلَاتٍ حَسَنَةً ، وَسَأَلَهُ مِنْ حَالِهِ ، فَأَخْبَرَهُ
بَأَمْرِهِ ، وَتَسَبَّبَ عَلَى السُّلْطَانِ كَيْفَ لَمْ يَخْلُقْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ فِي الرُّوْحِ ، فَهَمَّ الْمَلِكُ لِلْمُظَفَّرِ انْفِصَالَهُ مِنْ غَيْرِ دَسْتُورٍ
مِنَ السُّلْطَانِ ، وَأَنَّهُ عَلَى خِلَافِ اخْتِيَارِهِ ، قَالَهُ : « الْمَصْلَحَةُ لَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْخِدْمَةِ وَتَلْزِمَ إِلَى أَنْ يَأْذَنَ لَكَ ،
فَأَنْتَ صَبِيٌّ وَلَا تَعْلَمُ خَالَةَ هَذَا الْأَمْرِ » قَالَهُ : « مَا يُمْكِنُنِي الرَّجُوعُ » . قَالَهُ : « تَرْجِعْ مِنْ غَيْرِ بَدَلٍ ، فَلَيْسَ
فِي الرُّوْحِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لَكَ رَاحَةٌ أَصْلًا » . فَأَصْرَّ عَلَى الرُّوْحِ ، فَخَشِنَ عَلَيْهِ وَقَالَ : « تَرْجِعْ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارِكَ » .
وَكَانَ تَقَى الدِّينِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - شَدِيدَ (١١٥ ب) الْيَأْسِ ، مَقْدَامًا عَلَى الْأُمُورِ ، لَيْسَ فِي عَيْنِهِ مِنْ أَحَدٍ
شَيْءٌ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ قَابِضٌ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ بِاخْتِيَارِهِ ، فَرَجَعَ مَعَهُ حَتَّى أَتَى السَّكْرَ ، وَخَرَجَ لِلْمَلِكِ الْمَاعِلُ - وَنَحْنُ
فِي خِدْمَتِهِ - إِلَى لِقَاءِ الْمَلِكِ الْمُظَفَّرِ ، فَوَجَدَنَاهُ مَعَهُ ، فَدَخَلَا بِهِ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَسَأَلَاهُ الصَّغْحَةَ عَنْهُ ، « فَعَاذَ عَنْهُ » ،
وَطَلَبَ أَنْ يَقِيمَ فِي جَوَارِ تَقَى الدِّينِ ، خَشْيَةً عَلَى نَفْسِهِ ، فَأَذْنَهُ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَأَقَامَ فِي جَوَارِهِ إِلَى حَيْثُ ذَهَابَهُ .

ذَكَرَ طَلَبَ عَمَادِ الدِّينِ الْمَسْتُورَ

وَذَلِكَ أَنَّ عَمَادَ الدِّينِ زَنَكَ عَمَ الْمَذْكُورَ أَلْحَ فِي طَلَبِ الْمَسْتُورِ ، وَشَكَاهُ هُجُومَ الشَّتَاءِ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ
الِاسْتِدَادِلَةِ ، وَالسُّلْطَانُ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - يَسْتَنْدِرُ إِلَيْهِ بِأَنَّ الرُّسُلَ مُتَوَاتِرَةً بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ فِي الصَّلَاحِ ، وَرَبَّمَا
إِتْقَانٌ ، فَيُذِنُ أَنْ يَكُونَ اتِّعَظَامُهُ بِمَحْضُورِكُمْ ، فَارَأَى مُشْتَرِكًا ، وَاسْتَأْذَنَ أَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ خِيَمَ الشَّتَاءِ فَلَمْ يَفْعَلْ ،
وَأَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ نَفَقَةٌ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَتَكَرَّرَتْ الرُّسُلُ مِنْهُ إِلَى السُّلْطَانِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - فِي الْمُنَى ، وَالسُّلْطَانُ
يَكْرَهُ الْإِعْظَارَ ، وَقَدْ كَذَّبَ بَيْنَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ عِنْدَ عَمَادِ الدِّينِ مِنَ الْعَزَمِ عَلَى الرُّوْحِ مَا يَحَاوِزُ
كُلَّ وَصْفٍ ، وَعِنْدَ السُّلْطَانِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - مِنْ مَسْكَهٍ إِلَى أَنْ يُفْصَلَ أَمْرُ بَيْنِنَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ مَا لَا يُحْدُ ، وَآلُ
الْأَمْرِ إِنْ أَلَى كَتَبَ عَمَادِ الدِّينِ بِحُطَّةٍ رَقْعَةً يَطْلُبُ فِيهَا الْإِذْنَ فِي الرُّوْحِ ، (١١٦ أ) وَيَلِينُ فِيهَا وَيَخْشَنُ ، فَأَخَذَهَا
السُّلْطَانُ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - وَكَتَبَ فِي ظَهْرِهَا بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ .

« مِنْ ضَمَاعٍ مِثْلِي مِنْ يَدِي - عَلَيَّ شَمْرِي مَا اسْتَغَاذَا »

فَوَقَفَ عَمَادُ الدِّينِ عَلَيْهَا ، وَاتَّعَظَمَتْ مَرَايَتُهُ بِالْكَلِيَّةِ . وَتَوَاصَلَتْ الْأَخْبَارُ بِضَعْفِ الْمَدُونِ الْخَفُولِ وَوَقَعَ الْفَلَاءُ
فِي بِلَادِهِمْ وَعَسْكَرِهِمْ ، حَتَّى إِذَا الْفَرَارَةُ مِنَ الْقَمَحِ بَلَّتْ فِي أَطْلَاقِيَّةٍ سِتَا وَتَسْمِينِ دِيْبَارًا ^(١) صُورَةٍ ، وَلَا يُزِيدُهُمْ
ذَلِكَ إِلَّا صَبْرًا وَإِسْرَارًا وَهَتَاؤًا .

(١) حَفَانُ الْفَتَّانِ سَالِحَانِ مِنْ (م) .

(٢) انظر ما فات حَتَا مِ ٨٢ ، حَلَشَ ٢ .

ذكر خروجهم إلى رأس الماء

ولما ضاق بهم الأمر ، وعظم عليهم التلاذ ، وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع ، عزوا على الخروج إليها ، وكان طعمهم يبيب مرض عرى السلطان - قدس الله روحه - فظنوا أنه لا يستطيع النهوض ، وكان خروجهم يوم الاثنين حادى عشر شوال سنة ست وثمانين وخمائة ، بجيهم ورجلهم ، متصليين أزواكاً وخيلاً ، وكان خروجهم إلى الآبار التي استحدثها للمسلمون تحت تل المعبل لما كانوا نزولاً عليه ، وأخذوا معهم عقيق أربعة أليم - على ماقيل - فأخير - رحمة الله عليه - بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك أن يزاح من بين أيديهم إلى تل كيسان ، وكان اليزك على تل المياضية ، وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة (١١٦ ب) العصر من اليوم للذكور ، وباتوا تلك الليلة ، واليزك حولهم جميع الليل ، فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخيره - رحمة الله عليه - بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان - رحمة الله - قد أمر النقل في أول الليل أن يسير إلى الناصرة والقيمون ، فحمل النقل وبقى الناس ، وكنت من جملة من أقام من خلعتة ، وأمر السكر أن يركب ميمنة وميسرة وقلبا تمينة القتال وركب - رحمة الله عليه - صلاح الجاوش بالناس فركبوا ، وسار حتى وقفوا على جبل من جبال الخروبة ، وسارت للبصرة حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت الميمنة حتى بلغ آخرها إلى النهر وقرب البحر ^(١) ، فكان في الميمنة وله الملك الأفضل - صاحب دمشق - وولده الملك الظاهر - صاحب حلب - ، وولده الملك الظاهر - صاحب بصرى - ، وولده ^(٢) عز الدين - صاحب الموصل علاء الدين حزم شاه ثم الملك الحادل أخوه في طرفها ، ويلييه قريب منه حسام الدين لاجين والطواشي قايمار النجوى ، وهز الدين جريدك النورى ، وحسام الدين بشارة - صاحب بانياس - ، وبدر الدين ولهم - صاحب تل باشر - - إلياروقى ، وجمع كثير من الأمراء . وكان في البصرة عماد الدين زنكى - صاحب منبج - ، وابن أخيه من الدين - صاحب الجزيرة - وفي طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه . وكان حماد الدين زنكى غائباً بنفسه مع النقل لمرض كان به ، وبقى عسكره . وكان في البصرة سيف الدين على المشطوب وجميع المهرانية ، (١١٧) والمكارية ، وششتين ، وغيرهم من الأمراء الأكراد . وفي القلب الحلقة السلطانية . وتقدم السلطان - رحمة الله عليه - أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ^(٣) ، وأن يدوروا حول العدو واليزك

(١) النسي في م : « واجتاحت الميمنة بالمير فسلطت حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت للبصرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر . . . »

(٢) الأمل : « وولده عز الدين » والصحيح عن (م) .

(٣) انظر ما في حنا ص ٦٧ ، حاشى ٤ .

معهم ، وأخفى بعض الأطلاب وراء التلال ، عساف محدون غرة من المدو (ولم يزل هدو الله يسير والناس يقاتلونهم من كل جانب ، وهو سائر على شاطئ النهر من الجانب الشرقى ، حتى أتى رأس العين ، وداروا حوله حتى عبروه إلى الجانب الغربى ، ونزلوا والقتال يتقلب منهم الأبطال ، ويصرع منهم الرجال ، وكان نزولهم على تل هناك ، وضربوا خيامهم ممتدة منه إلى النهر ، وخرج منهم فى ذلك اليوم خلق عظيم ، وقتل منهم أيضاً جماعة ، وكانوا إذا جرح منهم واحد حملوه ، وإذا قتل واحد منهم دفنوه ، وهم سائرون ، حتى لا يتبين قتيل ولا جريح ، وكان نزولهم يوم الثلاثاء المذكور بعد الظهر ، وتراجعت الساكر عنهم إلى مواطن للصابرة ومواقف الحراسة ، وتقدم السلطان - رحمة الله عليه - إلى الميسرة أن تستدبر بهم بحيث يقع آخرها على البحر ، والميسنة تستدبر بالنهر من الجانب الشرقى ، والجاليش يقاتلهم ويضربهم بالنشاب بحيث لا يقطع النشاب عنهم أصلاً ، وبات الناس تلك الليلة على هذا التلال . وسار هو - رحمة الله عليه - ونحن فى خدمته إلى رأس جبل انخروبة الذى كان نازلاً عليه فى العام (١١٧هـ) المسمى قنزل فى خيمة لطيفة والناس حوله فى خيم لطاف بمرأى من المدو وأخبار المدو تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصبح . ولما كان الصبح فى يوم الأربعاء ثالث عشر شوال وصل من أسير أنهم تحركوا لركوب عند الصبح فركب - رحمة الله عليه - وذلك فى صبيحة الأربعاء ثالث عشر شوال ، ورتب الأطلاب وسار حتى أتى قرب جبال انخروبة إليهم بحيث يشاهد جميع أحوالهم . وكان - رحمة الله - ثلاث الزاج ، ضيف القوة ، قوى القلب ، ثم بث إلى الساكر وأمرها بالقتال والضايقة والحالة عليهم من كل جانب ، وأمر الأطلاب أن تحيط بهم بحيث أن لا تكون قرية أو بيعة . ليكون ردأ للقتال إلى أن تضاحى النهار ، وسار المدو على شاطئ النهر من الجانب الغربى يطلب جهة خيمه ، والقتال يشتد عليهم من كل جانب ، فاشتدوا فى قتالهم من كل جانب إلا من جانب النهر ، وانتم القتال ، فصرع منهم خلق عظيم ، وهم يدفنون قتلاهم ، ويجعلون جرحاهم ، وقد جعلوا راجلهم سوراً لهم ، تضرب الناس بالزنبورك^(١) والنشاب ، حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنشاب فإنه ،

(١) الزنبورك - ح - زنبوركات - قد يسمى نوعاً من النسي التي ترى عنها السهام ؟ وقد يسمى نوعاً من السهام قائماً بفن النصوص التي تؤيد للمأدود (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٠٠) . عدهم من فتح صهيون سنة ٥٨٤ هـ لاذ يقول : « ودام رشق السهم من نسي اليد ، والمخرج ، والزنبورك ، والزيفر » . فهذه جيأ أنواع معروفة من النسي ، وذكر الزنبورك بينها دليل على أنه واحد منها ، وجاء أيضاً فى : (المبدأ : الفتح النسي ، ١٦٨) : « وتوتير الجربوخ والزنبوركات » ، وتطير التاوكات « والتوتير لا يكون إلا القزى ، والتطير لا يكون إلا السهم ، فالتاوك - بناءً لهذا - نوع من السهم ؟ وجاء أيضاً فى (المناسك بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٢٦) : « والروم أهل - أربع وحرف وسك ، وفيهم سر وخدمة ، ولم يحل فى السياسات ووضع آلات حربية ، وعظمى فى القروسية قليل - ولهم ضرب بالسيف ، وروى بالبرخ والزنبورك . . الخ - » . و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩) : « مراكب وحراطين وفيها ردة المروخ والزنبوركات » . ولكن (Dozy Supp. Dict. Arab) ، يورد نصاً آخر خلاصه عن تاريخ بطارقة الاسكندرية يؤيد للمأدود ، أى أن الزنبورك يسمى نوعاً من السهم ، قال سارته : « والزنبورك سهم فى سمك الإبهام ، وفى طول القراع ، وله أربعة أوجه ، وطرفه من الحديد » .

كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالاتهم يسدون في وسطهم بحيث لم يظهر أحد منهم في ذلك اليوم أصلاً ، والكوسات تحقق ، واليوقات تنمر ، والأصوات بالتهليل والتكبير ترتفع (١١٨) هذا والسلطان - رحمه الله - يد الجاليس بالأطلاب والمساكر التي عنده حتى لم يبق معه إلا قريير ، ونحن نشاهد الأحوال ، وعلم المدو مرتفع على عجلة هو مفروس فيها ، وهي تسحب بالبنال ، وهم يذبون عن العلم ، وهو عالٍ جداً كالنارة ، خرقة يياض ، ملع بحمرة على شكل الصلبان^(١) ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة إلى قبالة جسر دقوق ، وقد ألجمهم العطش وأخذ منهم التعب ، وأمختهم الجراح ، واشتد بهم الأمر ، وألجمهم العطش من شدة الحر . ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً ، وأعطوا الجهاد حق ، وهجموا عليهم هجوماً عظيماً ، واستدلوا بهم كالخلفة ، وهم لا يظهرون من رجالتهم ، ولا يحملون ، وكان الفعل معظه للحقة في ذلك اليوم ، فإهم أذاقهم طعم اللوت ، وجرح منهم في ذلك اليوم جماعة كليلز الطويل - رحمه الله - ، فإنه قام ذلك الحرب أعظم مقام يحكى عن الأوائل ، وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الإسلام وشخصاته ، وله مقامات متعددة ، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم ، ولم يزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهيرة نهار ذلك اليوم عند جسر دقوق ، وقطعوا الجسر وأخربوه ، خوفاً من عبور الناس إليهم . ورجع (١١٨ -) السلطان - رحمه الله عليه - إلى تل النروبة . وأقام عليهم يركا يحرسهم ، وبات وأخبارهم تتوارى عليه حتى الصباح ، وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم ، وكتب إلى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجهم من ذلك الجانب ، ونحن من هذا الجانب ، فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب . ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن المدو كان قد قرب من خيمه ، وأوقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تنير قبيلة المدو حتى وصل إلى خيمه ، وكان بمن جرح من مقدميهم في هذه البرية الكندهرى والمركيس وتخلف ابن ملك

= وهو مرئش ليكون اغتلاه أكثر نياتاً ، وحيث سقط فإنه -ؤكد الإصابة- ، وقد اخترق الزبورك أحياناً في رمية واحدة -جسي رجلين اثنين وقت أحدهما خلف الآخر ، واخترق في نفس الوقت درع الجندي وملايحه ، ثم هذ به ذلك واستجر في الأرض ، وقد صيب كذلك أحجار الأسوار ؟ ويقول دوزى به هنا -تلا عن كاتريم- إن الإنط قد بين « الزبور المنير » من كذلك لشبه بين الصوت الذي تحدثه تلك المعصرة المنيرة « الزبور » وبين الصوت الذي يحدثه وتر القوس عند إطلاق سهم ، ثم يرد دوزى به هذا قوله إن هنا الإنط أصبح - منذ اكتشاف الأسلحة الحديثة - يطلق على نوع من للمعصنة الذي يصل على ظهر الجمل . انظر كذلك :

(L. Lahen : Un Traité d'Armurerie etc. P. 153-154).

(١) هذا وصف لطيف ويذكر للم الجيوش المليية وطريقة رصفه أثناء الحركة .

الأفان في الخيبر مع جمع كثير منهم ، ولما دخل العدو إلى خيبر كان لم بها أطلاب مستريحة ، ففرجت على اليرك الإسلامي وحلت عليه ، وانتشب القتال بين اليرك وبينهم ، وجرى قتال عظيم قُتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم ، وقُتل من المسلمين ثلاثة نفر ، وقُتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عديم ، وكان على حصان عظيم ، ما يتر بالزرد إلى ساقه ، وكان عليه لبس لم ير مثله ، وطلبوه من السلطان - رحمة الله عليه - بعد اخصال الحرب فدفع إليهم جثته وطلب (١١١٩) رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان إلى خيبر ، وأعيد النقل إلى مكانه ، وعاد كل قوم إلى منزلتهم وعاد عمار الدين وقد أظلمت حياه ، وبقي التليث مزاج السلطان ، وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه ، ولقد رأيت - رحمة الله عليه - وهو يبكي في حال الحرب ، كيف لم يقدر على مخالطة ^(١) القوم ، ورأيت وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمصافحة الأُمر ، ومخالطة الحرب - رحمة الله عليه - ولقد سمعت منه وقائل يقول له : إن الوخم قد عظم في مرج عكا ، بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين ، فأشد مقتلاً :

اتحلاني ومالكاً واتحلا مالكاً مئى

يريد بذلك : أتقى قد رضى أن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله ، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس المساكر الإسلامية .

ذكر وقعة الكمين

ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال من شهر سنة ست وثمانين وخمسمائة رأى - رحمة الله عليه - أن يضع العدو كميناً ، وقوى عزمه على ذلك ، فأخرج جمعا من كابة المسكر وشجعائه . وأبطاله وفرسانه ، وانتخبهم من خلق كثير ، وأمرهم أن يسيروا في الليل ، ويكنوا في سفح تل هو شمال عكا ، (١١٩ -) بعيداً عن عسكر العدو ، عنده كانت منزلة الملك الناصر حين وقفت الوقعة المنسوبة إليه ، وأن يظهر للعدو منهم نفر يسير ، وأن يقصدوه في خيبر ، ويحركوه حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحو الكمين ^(٢) ، قتلوا ذلك ، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً ، فكمنوا تحته ، ولما علا ^(٣) نهار السبت الثالث والعشرين من شوال خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيل ، فساروا حتى أتوا خيبر العدو ، ودموم بالشلب ، وسر كواحيهم بالضرب القوار ، فأتى

(١) م : « عاكته » .

(٢) م : « نحو للين » .

(٣) م : « تهل » .

لم مقدار مائتي فارس ، وخرجوا شاكين في السلاح على خيل جياد ، بدلة تامة وأسلحة كاملة ، وقصودهم وليس معهم راجل واحد ، وناخلهم الطمع فيهم لقة عندهم ، فانهزموا بين أيديهم ، وهم يقاتلون ويقتلون^(١) ، حتى أتوا السكين^(٢) ففرج عليهم رجاله^(٣) ، وثارت عند وصولهم إليه أبطاله ، وصاحوا فيهم صيحة الريل الواحد ، وهجموا عليهم هجم الأسد على فريسته ، فقتلوا وصبروا وقتلوا قتالا شديداً ، ثم ولوا منهزمين قتلوا أولياء الله منهم ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف ، حتى ألقوا^(٤) منهم جمعا عظيماً ، واستسلم الباقون للأسر ، فأسروهم ، وأخذوا خيلهم وعددهم ، وجاء البشير إلى للمسكر الإسلامي ، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وركب السلطان (١١٢٠) - قدس الله روحه - يلتقي المجاهدين ، وصار - وكنت في خدمته - حتى أتى تل كيسان ، فلقنا أراذل القوم ، فوقف هناك يتلقى المديدين^(٥) من المجاهدين ، والناس يتبركون بهم ، ويشكرونهم على حسن صنيعهم ، وهو - رحمه الله عليه - يعتبر الأسارى ويتصفح أحوالهم ، وكان بمن أسرف في ذلك اليوم مقدم عسكر الافرنسيس ، فإنه كان قد أخذ نجدة قبل وصوله ، وأسر خازن لللك أيضاً . وعاد السلطان - رحمه الله - بعد تكامل الجماعة إلى غيمه فرحاً مسروراً ، وأحضر الأسرى عنده وأمر منادياً بجدي : « ألا إن من أسر أسيراً فليحضره » . فأحضر الناس أسراهم وكنت حاضرًا ذلك المجلس ، وقد أكرم - رحمه الله عليه - على المقدمين منهم ، وخلع على مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاساً ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فإن البرد كان شديداً ، وكان قد أخذ منهم ، وأحضر لهم طعناً أكلوه ، وأمر لهم بنجمة نصبت قريباً من خيمته ، وكان يكادهم في كل وقت ، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الأوقات ، وأمر بتقييدهم وحملهم إلى محروسة دمشق ، فخلعهم إليها بكرمين ، وأذن لهم في أن يربطوا أصحابهم ، وأن يحضروا لهم من عسكرهم لمحتاجون إليه من الثياب وغيرها ، فقبلوا ذلك وصاروا إلى محروسة دمشق .

ذكر (١٢٠ ب) عود المساكين من الجهاد

ولما هم الشتاء ، وهاج البحر ، وأمن السدان يضرب مصافاً ، وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتوارثها ، أذن السلطان - قدس الله روحه - للمساکر الإسلامية في العود إلى بلادها ، لتأخذ نصيباً من الراحة ، وتجهز خيولها إلى وقت العمل ، فكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار ، لما كان عنده من القلق

(١) م : « وهم يقاتلونهم ويقتلون » .

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٣) م : « ألقوا » .

(٤) م : « الماتدين » .

في طلب المقتور ، وكان مسيره يوم الاثنين خلس عشر شوال سنة ست وثمانين وخمسة ، وسار عتيبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف والإنعام والتحف ما لم ينم به على غيرها . وسار علاء الدين ابن صاحب الومل في مستهل ذي القعدة من السنة المذكورة مشرفا مكربا ، معه التحف والطرائف ، وتأخر من المسافر للملك للظفر بقى الدين إلى أن دخلت سنة سبع وثمانين ، وتأخر أيضا . ولله الملك الظاهر حتى دخلت السنة المذكورة ، وسار ولله الملك الظاهر إلى محرومة حلب ضاحي نهار الأربعاء تاسع الحرم سنة سبع وثمانين ، وسار الملك للظفر في ثالث صفر منها ، ولم يبق عند السلطان إلا ثمر يسير من الأمراء والحلقة الخالص .

ذكر (١١٢١) وفود زلفندار عليه

رحمة الله عليه

وكان وفوده عليه في أثناء شهر ذي القعدة سنة ست وثمانين^(١) ، فلقاه وأكرم مشواه ، وصنع^(٢) له طعنا يوم قدومه ، وبأسطة مباسطة عظيمة ، وكانت حاجته أن يوقع له بإعادة أملاك كانت في يده ثم انتزعت ، من أعمال نصيبين والخابور ، فوقع بإعادتها إلى يده ، وأجزى الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة للطهرة ، وخلع عليه وشرفه ، وسار فرسا مسرورا شاكرا لأبوابه .

ذكر اشتغال^(٣) السلطان - رحمه الله -

بإدخال البدل إلى البلد

ولما حاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ، ووقع ما كان له في البحر من الشواني إلى البر ، اشتغل السلطان - رحمه الله عليه - في إدخال البدل إلى عكا ، وحمل الليروا والبخائر والتفقات والمدد إليها ، وإخراج من كان بها من الأمراء ، لعظم شكائهم من طول اللقائم بها ومماناة التبع والسير ، وملامزة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل لداخل من الأمراء الأمير سيف الدين على المشلوب ؛ دخل في يوم الأربعاء سادس عشر الحرم من شهور سنة سبع وثمانين وخمسة . وفي ذلك اليوم خرج للقائم الذي كان بها ، وهو الأمير حسام الدين أبو المهيمن ،

(١) لم يذكر هذا التاريخ في م ، وإنه ورد النص متصلا بما سبقه هكذا : « وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وفد علي زلفندار فلقاه . . إلخ » .

(٢) م : « ووضع » .

(٣) م : « اشتغال » .

وأصحابه وتَمَنَّ كان بها من الأمراء (١٢١ ب) "ودخل مع المشطوب خلق من الأمراء" وأعيان من الخلق ، وتَهَدَّم إلى كل من دخل أن يصحب معه ميرة سنة كاملة . وانتقل للآل العادل بسكره إلى حيفا على شاطئ النهر ، وهو الموضع الذى تحمل منه للراكب وتدخل إلى البلد ، وإذا خرجت تخرج إليه ، فأقام ثم يمشى الناس على المنحدر ، ويمررس للير والدفتر ، لئلا لا يقطع إليها من العدو من يقرضها . وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة ، وذخائر وخفقات ، كانت وصلت من محروسة مصر بحملة ، قد تقدم السلطان بتبعيتها من مدة مديدة ، وكان دخولها يوم الاثنين ثانى ذى الحجة من السنة الخالية ، فانسكس منها مركب على الصخر الذى هو قريب اللينة ، فأقلب كل من فى البلد من اللقطة إلى "جانب البحر" لتلقى البطس وأخذ ما فيها . ولما علم المدوا انقلاب اللقطة إلى جانب البحر أخذوا غرتهم ، "واجتمعوا فى خلق عظيم" ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار ، وصعدوا فى سلم واحد ، فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى ، وتدلركم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وعادوا خائبين خاسرين . وأما البطس فإلى البحر هاج هيبا عظيما ، وضرب بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم ، (١٢٢) قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلت كفت البلدة سنة كاملة ، وذلك بقدر الرزى السلم ، ودخل على المسلمين من ذلك ومن عظيم ، وخرج السلطان بذلك حرجا شديدا ، واستخلف ذلك فى سبيل الله ، وما عند الله خير وأبقى ، وكان ذلك أول علام أخذ البلد والنظر به .

ذكر وقوع قطعة من السور^(١)

فى العلامة الثانية

ولما كانت ليلة السبت سابع ذى الحجة من السنة الخالية قضى الله وقدر بأن وقع من السور قطعة عظيمة ، "فوقت بتلقها على الباشورة" فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة ، فدخل المدوا الطمع ، وهاج للزحف هيبا عظيما ، وجادوا إلى البلد كقطع الليل للدلم من كل جانب ، فضحوا الناس فى البلد وثارت بهمهم ، فقتلوا من العدو وجرحوا خلقا عظيما ، وقاتلهم قتلا شديدا ، حتى ضرسوا وآيسوا من أن ينالوا خيرا ، "ووقفوا كالسد فى موضع القطعة الواقعة" ، وجمعوا جميع من فى البلد من البنائين والصناع ، ووضعهم فى ذلك المكان ، وحوم بالشباب والبرجوخ والمناجيق ، فامرت إلا ليال يسيرة حتى انقضت ، وعاد بناؤها أحسن ما كان وأقوام وأخته ، والحمد لله .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

(٣) م : « وقطعا على الباشورة » ؛ والباشورة - ج : يواسم - الحائط الخارجى من الحصن يفتح وراءه الجند عند القتال ، ويتألف من القريب - Bastion . انظر : (Dozy. Supp. Diet. Arab) .

(٤) م : « فوقتوا على سد موقع القطعة الواقعة » .

ذكر الطفر بجراكب المدو

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا ، وقالوا السلطان : (١٢٢ ب) « نحن نخوض البحر في براكيس ^(١) ، ونكسب من المدو ، ويكون [السكب] بيننا وبين المسلمين . » فأذن لهم في ذلك ، وأعطاهم بركوسا ^(٢) ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه ، وظهروا بجراكب للتجار من المدو ، وهي قاصدة إلى عسكرهم ، وبضائعهم معظمها فضة مصاغة وغير مصاغة ، فوقع عليها ، وقاتلهم حتى أخذهم ، وكسبوا منهم مالا عظيما ، وأسروهم وأحضرهم بين يدي السلطان - رحمه الله عليه - ، وذلك في ثالث عشر ذي الحجة من السنة للذكورة ، وهي سنة ست . وقد كنت حاضرا ذلك المجلس ، وكان من جملة ما أحضره مائة فضة ، وعليها مكبة غمره من فضة ، فأعطاهم السلطان - رحمه الله - الجميع ، ولم يأخذ منهم شيئا ، وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .

ذكر موت ابن ملك الألمان

لله

وذلك أن المدولما دخل الشتاء عليهم ، وتوارت الأبداء ، واختفت الأهواء ، ونعيم المرج وخفا عظيما ، ووقع فيهم بسبب ذلك موتان عظيم ، وانضم إلى ذلك التلا الشديدا ، واندم عليهم البحر الذي كان يجيهم منه المير من كل جانب ، فكان يموت منهم في كل يوم لائة والمائتان على ما قيل ، وقيل أكثر من ذلك ، ومرض ابن ملك الألمان مرضا عظيما ، وعرض له مرض الجوف ، فمك به في ثاني عشرين ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسة ، وحزن الفرنج عليه حزنا عظيما ، وأشمل له (١٢٣) نيران هائلة ، بحيث لم يبق لهم خيمة إلا وأشمل فيها النيران والثلاثة ، بحيث بقى عسكرهم كله نارا قد ، وفرح المسلمون بموته بمثل ما حزن الكفار بفقد ، وهلك منهم كبير يقال له الكند ينهاط ^(٣) ، ومرض الكندهرى وأشفى على الهلاك . وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيها نيف وخسون نفرا . وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضا بركوس كبير ، وأخذ جميع ما كان فيه ، وكان من جلته كان فيه ملوطة مكبة بالفلو ، هي من تفاصيل الملك ، وقيل كان في البركوس ابن أخته ^(٤) ، وأخذ أيضا ، وفيه الحمد .

(١) انظر ما نقله حنا ١٤٣ ، حاشي ٦ .

(٢) م : « بالباط » .

(٣) م : « ابن أخيه » .

ذكر غارة أسد الدين

وهذا أسد الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، وهو صاحب حمص ، وكان من حديثه أن السلطان - رحمه الله عليه - كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرج بطرابلس ، ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية ، وأنه قيل له : إن أهل طرابلس ^(١) قد أخرجوا دشارم ^(٢) وخيلهم إلى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم ، وأنه قرّر مع عسكره قصدهم ، ففرج على غرة منهم ، وهجم على دشارم ^(٣) فأخذ منهم أربعائة رأس من النليل ، ومائة رأس من البقر ، فهلك من النليل أربعون ، وسلم الباقي ، وعاد إلى البلد ، ولم يبق من أصحابه أحداً ، وفه الحمد ، ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر سنة سبع وثمانين وخمائة ^(٤) . وفي (١٢٣) ليلة هذا اليوم أقت الرمح مركباً للدو على القيب فكسرت ، وكان فيه خلق عظيم ، فبصر بهم أصحابنا ، فوثبوا عليهم ، وأخذوهم عن آخرهم ، ولقد حضرت وقد عرض منهم على السلطان - رحمه الله عليه - خمسة عشر نفراً ، وليلة هلال ربيع الأول من هذه السنة خرج أصحابنا من البلد ، وهجموا على الدو وقتلوا منهم بمقتلة عظيمة ، وأخذوا منهم من خيمهم جمعا عظيما ، منهم اثنتا عشرة امرأة على ما قيل ^(٥) .

ذكر وقائع عدة "في سنة سبع"

وفي ثالث ربيع الأول كان اليرك للحلقة السلطانية ، وخرج من الدو إليهم خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، قُتل فيها من الدو جماعة ، وقُتل منهم رجل كبير على ما قيل ، ولم يبق من المسلمين إلا خادم كان للسلطان - رحمه الله عليه - يسمى قراقوش ، وكان شجاعا عظيما ، له وقعات عظيمة كثيرة ، استشهد في ذلك اليوم - رحمه الله - ولما كان يوم السبت تاسع ربيع الأول سنة سبع بلغ السلطان - رحمه الله - أن الدو يخرج منه طائفة وينفسون لبيدنا عنهم ، فاقضى رأيهم - رحمه الله - أن أخذ أخاه الملك المادل ، وفي خدمته خلق عظيم من الماسكر الإسلامية ، وأمره أن يكن للدو وراء التل الذي كانت فيه الوقعة للمروقة به ، وسار هو وجمع من كبار أهله وأصحابه ، فأمكن وراء تل البياضية ، فكان بمن كان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين ، وابنه (١٢٤) ناصر الدين محمد ، والملك الأفضل ولده ، وسمه من صغار أولاده الملك الأشرف محمد ، والملك المعظم تورانشاه ، والملك الصالح إسماعيل ، وكان من للمسلمين القاضى الفاضل ، والديوان ، وكنت في الصعبة في ذلك

(١) م : « الفرج طرابلس » .

(٢) م : « دشارم » .

(٣) هذه القصة النبوية كلها ساقطة من (م) .

(٤) م : « هذه السنة » .

اليوم . وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد ، وتلوشوا العدو وبأسطوه فلم يخرج في ذلك اليوم ، وكأنه قد وُشى إليهم بحيلة الأمر^(١) ، إلا أن ذلك اليوم لم يفك إلا بنوع نمر ، فإنه وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون فرساً من أسرى الفرنج ، كان قد أخذوا في بيروت ، وسُيروا إليه - رحمه الله - فوصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان . وقد شأخدت منه رقة قلب ورحمة في ذلك اليوم لم ير أعظم منها - رحمه الله - وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن ، لم يبق في فيه عرس ، ولم يبق له قوة إلا مقدار ما يتحرك بها لا غير ، فقال للفرسان : « سل : ما الذي حملك على الحجة وأنت في هذا السن ؟ وكمن ههنا إلى بلاده ؟ » قال : « أما بلادى فينى وينها سيرة عدة أشهر ، وأما عجبتى فلأنما كان للحج إلى القِيامة^(٢) » ، فرق له السلطان - قدس الله روحه - ومن عليه وأعطاه وأعاد ركباً على فرس إلى عسكر العدو ، ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير ، فلم يقل - فسأته - رحمه الله - عن سبب النع ، وكنتُ حاجبهم فيما طلبوه ، فقال : « ثلاثا يتحدوا من الصغر سفك الدماء ويهون (١٢٤ هـ) عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر »^(٣) ولا يخفى ما في ذلك من الرأفة والرحمة للسجين - رَأفَ اللهُ بِهِ وَرَحْمَةً - ولما أيس من خروج العدو عاد إلى الحميم في عشية ذلك اليوم ، وهو الأحد عاشر ربيع الأول سنة سبع ، فرحاً مسروراً^(٤) .

ذكر وصول العساكر الإسلامية

وملك الأفرنيس

ومن ذلك الوقت انتفع البحر^(٥) وطلب الزمان ، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين ، وكان أول من قدم من عساكر المسلمين علم الدين سليمان بن جندر من أمراء تلك الظاهر ولده صاحب حلب ، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ، ذا رأى حسن ، والسلطان يحترمه ويكرمه ، وله قديم محبة ، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه ، وهو صاحب نبالك ،^(٦) فلما في ربيع الأول من شهر سنة سبع وثمانين وخمسة^(٧) ، وتمايت بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل صوب . وأما عسكر العدو المخذول ، فلهم كانوا يتواعدون البرك ومن يقاتلهم من عساكر المسلمين بقدم ملك الأفرنيس ، وكان غليظاً عندهم ،

(١) م : « بحيلة الأسراء » .

(٢) م : « القِيامة » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) م : « الباب » .

مقدماً محترماً ، من كبار ملوكهم ، يتقاد إليه الموجودون في السكر بأسرهم ، بحيث إذا حضر حكم على الجميع ، ولم يزالوا يتواعدوننا بقدمه حتى قدم - لئله الله - في ست بطس تحمله وتعمل ميته ، وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه ، وكان قدومه يوم السبت (١٢٥) ثالث عشرين من ربيع الأول من شهر سنة سبع وثمانين وخمسة .

نادرة وبشارة

وكان قد صبه من بلاده باز عظيم عنده ، هائل الخلق ، أبيض اللون ، نادر الجنس وكان يميزه ويحييه حياً عظيماً ، فشد البازي من يده ، وطار وهو يستجيبه ولا يبيعه ، حتى سقط على سور عكا ، فاصطاده أصحابنا ، وأخذوه إلى السلطان - رحمه الله - وكان قدومه روعة عظيمة ، واستبشار عظيم بالظفر ، ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض ، مشرق اللون ، ما رأيته بازياً أحسن منه ، فضايل للسور بذلك ، وبذل الفرج فيه ألف دينار فلم يجابوا ، وقدم بعد ذلك كند فرند ، وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكوراً ، كان حاصر حمات وطرم في عام الرملة .

واقعة نادرة^(١)

ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر سنة سبع وثمانين وخمسة وصل كتيب من اللاذقية يخبر فيه أنه كان جماعة من المستأنفين قد أعطوا برا كيس ؛ ليكسبوا عليها في البحر من العدو فأخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيد لهم ، وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة في بيعة قريبة من البحر ، وأنهم صلوا معهم صلاة العيد ، وأنهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء ، وأخذوهم عن آخرهم حتى القس ، وحلوم وأقوم في مراكبهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية ، (١٢٥ ب) وكان من جهة من كان سبع وعشرون امرأة وأموال عظيمة اقتسموها ، فوصل إلى كل واحد على ما قيل أربعة ألف درهم من الفضة الفضة ، وقدم بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق في سابع عشر ربيع الآخر ، وهم أصحابنا على غم العدو فأخذوها ، وكان عددها مائة وعشرين رأساً ، فركب في طلبها الفارس والراجل ، فلم يفتروا منها بشئ . والله الحمد .

ذكر خير ملك الانكشار

لئله الله

وهذا ملك الانكشار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى المنة ، له وقتلت عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون القرنينيس عندهم في اللك والرتبة ، لكنه أكثر مالا منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة ،

(١) هذا العنوان غير موجود في (ع) .

وكان من خبره أنه لا وصل إلى جزيرة قبرص لم يَزَّ أن يتجاوزها إلا وأن تكون له ، وفي حكمة ، فإزلاها وقتلها ، فخرج إليه صاحبها ، وجمع له خلقاً عظيماً ، وقتله قتلاً شديداً ، فأخذ الانكسار إلى عسكرهم^(١) يستنجد منهم الجماعة ، ليمنوه على مقصوده ، فأخذ إليه الملك جنرى أخاه ومعه مائة وستون فارساً ، وبقى الفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم . ولما كان يوم الأحد سلخ ربيع الآخر من سنة سبع وصلت كتب من بيروت تخبر أنه قد أخذ من مراكب الانكسار القاصدة نحو عسكر (١١٣٦) المدو خمس مراكب ، وطرادة^(٢) فيها خلق عظيم ، رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك ، وفيها أربعون فارساً^(٣) . وكان ذلك فتحاً عظيماً ، استبشر به المسلمون . ولما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى سنة سبع زحف المدو إلى البلد ، ونصبوا عليهمناجيق صيمة ووصلت كتب من عكا بالاستغفار العظيم ، والتماس شغل المدو عنهم ، فأعلم السلطان - رحمه الله - الساكر بالزم على الرحيل لمضايقة المدو ومقارنته ،^(٤) وأصبح على السير إلى جهة المدو ، فسار حتى وقف على الخروبة ، ورتب الساكر ميمنة وميسرة وقلبا^(٥) ، ثم أخذ من كشف حال المدو وحال خنادقهم ، هل فيها كمين للعدو أم لا ، فسادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين ، فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم ، وصعد تلا كان يعرف بتل الفضول ، هو قرب المدو ، مشرف على خيمه ، وشاهد التنجنيقات وما يمدل منها ، وما هو بطلال . ثم عاد سائراً إلى خيمه . وأنا في خدمته - رحمه الله - وفي حبيبة هذه الليلة أنه الموصوف بربيع له ثلاثة أشهر^(٦) قد أخذوه من أمه وسرقوه^(٧) .

ذكر قصة الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لموص يدخلون إلى خيام المدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له (١٣٦) ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا به إلى خيمة السلطان - رحمه الله - وعرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ، فيضلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه ، ولما قدفته أمه باتت مستغيثة بالويل والتبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، فقالوا لها : « إنه رضيع القلب ، وقد أذن لك في الخروج إليه ، فأخرجي وإطليه منه ، فإنه يرد عليك » فخرجت تستغيث

(١) م : « إلى عكا » .

(٢) انظر ما ثبت من ٤٨ ، حاش ٣ .

(٣) م : « فارس » .

(٤) النص في م : « وأصبح على أمه السير إلى المدو ، ورتب الساكر ، ثم أخذ . . . إلخ » .

(٥) النص في م : « قد أخذ من أمه سرقة » .

إلى البرك الإسلامي، فأخبرتهم بواقعتها "بترجان كان يترجم عنها"، فألقطوها وأخذوها إلى السلطان، فأنته وهو راكب على تل الخروبة، وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاء شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها، فأخبروه، فرق لها، ودمعت عينه، وأمر بإحضار الرضيع، فوضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفعه عنه إلى المشتري، وأخذته منه، ولم يزلوا قاتلاً - رحمة الله عليه - حتى أحضر الطفل، وسلم إليها، فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته إلى صدرها، والناس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقف في جلستهم، فأرضته ساعة ثم أمر بها، فخلعت على فرس، وألحقت بمسكهم مع طفلها. فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر، اللهم إنك خلقت رجلاً فارحمه رحمة واسعة من عندك، فإذا الجلال والإكرام، فانظر إلى شهادة الأعداء له بالرفقة والكرم (١٢٧) بالرفقة والرحمة.

ومليحة شهدت لها خبرتها وأحسن ليس لحقه من ناكرو وفي ذلك اليوم وصل غدير الدين بن البينكري، وكان مقدماً علينا من أمراء اللول، وصل مفارقاً لهم طالباً خدمة السلطان - رحمة الله عليه - ولما عاد السلطان إلى غديره لم يمكث إلا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف على عكا، فنادى وركب من ساعته، وسار نحو البلد، فوصل وقد انقضى الحرب بدخول الليل بين الطائفتين.

ذكر انتقال السلطان - رحمة الله -

إلى تل المياضية

ولما كان صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الأولى بلغ السلطان - رحمة الله عليه - أن الفرنج قد ضائقوا البلد، وركبوا عليه المناجيق، فأمر الجلاوش أن صاح بالناس، وركب لركوبه المسكر: راجلهم وفارسهم، وسار حتى أتى الخروبة، وقوى البرك بفسيريه جماعة من المسكر المنصور إليه، فلم يخرج المدو، واشتد زحفهم على البلد، فضايقتهم - رحمة الله - مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالاً شديداً، وهجم عليهم في خنادقهم، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور، وعاد المدو إلى خيمه ليأسيه من أمر البلد، وعاد السلطان - رحمة الله عليه - إلى خيمه لطيفة ضربت له هناك، يستظل بها من الشمس، فقبل صلاة الظهر والاستراحة ساعة، وقوى البرك، وأمر الناس بالسود إلى الخيم لأخذ جزء من (١٢٧ ب) الراحة. وكنت في خدمته - رحمة الله - فيينا هو كذلك إذ وصل من البرك من أخيران القوم قد عادوا إلى الزحف لما أحسوا بانصرافه عنهم أشد

ما كانوا أولا ، " فأمر من تبع الناس وأمرهم بالود " ، فراجعت السأكر إلى جهة العدو المحذول أطالبا أحلابا ، وأمرهم بالبيت على أخذ لامة " الحرب ، وأقام هو هناك على عزم البيت ، وفارقت خلمته آخر نهار الثلاثاء ، وعدت إلى الخيمة ، وبات هو - رحمه الله - وجميع المسكر على تهيئة القتال طول الليل ، وأمر طائفة منهم بمضايقة العدو . ثم سار المبكر أواخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى الأولى من سنة سبع وعمانين وخمسة إلى تل العياضية ، قبلة العدو ، وشرب له عليه خيمة لطيفة " ، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على المائدة في منازلهم العام للامني ، لكن جراند ، مع بقاء التل على انطوية " ونزل العدو في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد ، والضرب للبرح المتواتر ، الذي لا يفتقر ، شغلا لم عن الزحف على البلد من جميع جوانبهم ، وهو بنسبه - رحمه الله - يدور بين الأطلاب ، ويمنهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، كل ذلك لشغل العدو عن مضايقة البلد . ولما رأى العدو تلك المنازلة العظيمة ، وللأزمة المائلة ، خاف من الهجوم على خيمهم ، فتراجعوا عن الزحف ، واشتغلوا بحفظ الخنادق ، وحراسة النظم . ولما (١٢٨) رأى فورهم عن الزحف ، عاد إلى خيمه في تل العياضية ، ورتب على خنادقهم من يخرجه بحلم ساعة فساعة ، إذا رجعوا إلى الزحف " كل ذلك والعدو على إصراره في مضايقة البلد والزحف عليه " .

ذكر الشروع في مضايقة البلد

وقد بلغ من مضايقتهم البلد ، وبما لقتهم في طم خندقه أنهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم بأسرها ، وآكل الأمر حتى كان يلقون موتاهم ، وقالوا : كان إذا جرح منهم واحد جراحة مؤثرة بشحنة ألقوه فيه ، بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد . وأما أهل البلد فليهم انقسموا أقساما : قسم ينزلون إلى الخندق ، ويقطعون اللوى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ، ليسهل قتلها ، وقسم يلقون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبحون عنهم ويدفنون حتى يتمكنون من ذلك ، وقسم في للنجنيقات وحراسة الأسوار ، وأخذ منهم النصب والنصب ، وتوارت شكائهم من ذلك ، وهذا ابتلاء لم يُبَيِّلَ بمثله أحد ، ولا يصبر عليه جليل ، وكانوا يصبرون ، والله مع الصابرين . هذا السلطان - رحمه الله عليه - لا يقطع الزحف عنهم ، والمضايقة على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلا ونهارا حتى " ينشلهم عن البلد ، وصوبوا منجنيقاتهم إلى برج عين البقر ، وتوارت عليه أحجار للنجنيقات ليلا ونهارا " حتى أرت فيه الأثر البين ، وكلا (١٢٨) ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان

(١) النص في م : « فأمر من تبع الناس وأمر بالود » .

(٢) ولجميع ما قال هنا ، ص ٨٨ ، ملش ١ .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) النص في م : « كل ذلك دفا العدو عن مضايقة البلد والزحف عليه » .

(٥) هذه الفقرة ساقطة من (م) .

في قتالهم ، وكبس خنادقهم ، والمجموع عليهم ، حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه ، فلما أخبر السلطان بذلك قال : « إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد يحدثنا ، فلما نحن فليس لنا إليكم شغل ، ودلم ذلك متصلا الليل مع النهار حتى وصل الانكسار » .

ذكر وصول ملك الانكسار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسمائة قدم ملك الانكسار للمعون بعد بمصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاحتلاء عليها ، وكان قدومه روعة عظيمة ، وصل في خمسة وعشرين شانيا معلومة بالرجال والسلاح والعدد ، وأظهر الفرنج سرورا عظيما بقدومه وفرحا شديدا ، حتى إنهم أودعوا تلك الليلة نيرانا عظيمة في خيامهم فرحاً به ، ولقد كانت تلك النيران مهولة عظيمة ، تدل على نجدة عظيمة كثيرة ، وكان ملوكهم يتواعدونها به ، وكان المستأمنون منهم يخبرون عنهم أنهم متوقعون بما يريدون يملأون من مضايقة البلد إلى حين قدومه ، فإنه ذو رأى في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة ، وهذا والسلطان - رحمة الله عليه - يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والانكسار على الله تعالى ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

ذكر غريق البطسة الإسلامية

وهي الملامة الثالثة على أخذ البلد . ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصلت بطسة من بيروت ، عظيمة هائلة ، مشحونة بالآلات والأسلحة والبر والرجال الأبطال المقاتلة . وكان السلطان - رحمه الله - قد أمر بتبقيتها في بيروت ، وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما ، حتى تدخل إلى البلد مراغمة العدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ، باعترضا الانكسار للمعون في عدة شوان ، قيل كان في أربعين قلما ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتدوا في قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء ، فقاتلوا قتالا عظيما ، وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا على العدو شانيا كبيرا فيه خلق ، فهاكوا عن آخرهم ، وتكاثروا على أهل البطسة ، وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا ، مجربا في الحرب ، فلما رأى إمارات النلبة عليهم ، ورأى أنهم لا بد وأن يقتلوا ، قال : « والله لا تقتل إلا من عز ، ولا نلهم إليهم من هذه البطسة شيئا » . فوقعوا في البطسة من جوانبها بالماول يهدمونها ، ولم يزالوا كذلك حتى فصحوها من كل جانب أبوابا ، فامتلات ماء ، وغرق جميع من فيها من الآلات والبر وغير ذلك ، ولم يبق من العدو منها شيء أصلا ، وكان اسم المقدم (١٢٩ ب) يعقوب ، من رجال حلب - رحمه الله - ، وتلقف العدو بعض من كان

فيها وأخذوه إلى الشوانى من البحر ، وخلصوه من النرق ،^(١) ومثلوا به^(٢) ، وأخذوه إلى البلد ليخبرهم بالوقعة ، وحزن الناس فقلت حزنا شديدا ، والسلطان - رحمة الله عليه - يخلق ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى ، والمصير على بلائه ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ذكر حريق الديابة

وذلك أن العدو المخذول كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة ، بأربع طبقات : الطبقة الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تملأ على السور ، وتركب فيها القناطة ، وخلف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدتهم تقوسهم بطلب الأمان من العدو ، وكانوا قد قروها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأى العين ، وأخذ أهل البلد في توارى بها ليلا ونهارا بالنفط ، حتى قدر الله حريقها واشتعل النار فيها ، وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء ، واشتدت الأصوات بالتكبير والتهايل ، ورأى الناس ذلك جبرا فقلت الرحمن ، وعجوا فقلت الأثر ، ونعمة بعد قسمة ، وإنسانا بعد بأس ، وكان ذلك في يوم غريق البطلة ، فوقع من المسلمين موقعا وكان سلبا لحزنهم وكآبتهم .

ذكر (١٣٠) وقعات عدة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى زحف العدو على البلد زحفا عظيما ، وضايقوه مضايقة شنيعة ، وكان قد استقر بيننا وبينهم أنه متى زحف العدو عليهم دقوا كوسهم فضر بوا كوسهم ، فأجابه كوس السلطان - رحمة الله - وركبت المراكب وضايقهم السلطان - رحمة الله - من خارج ، وزحف عليهم حتى هجم للمسلمون عليهم في خيامهم ، وتجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القنور من أنفها ، وحضر من الغنمة للأخوة من خيامهم شيء . عند السلطان - رحمة الله عليه - وأنا حاضر ، ولم يزل القتال يعمل حتى أيقن العدو أنه قد هجم عليه وأخذ ، فتراجموا عن قتال البلد ، وشرعوا في قتال المسكر ، وانشب الحرب بينهم ، ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة ، وغشى الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين ، فتراجت الطائفتان إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب والحر ، وانقض القتال في ذلك اليوم .

وقعة أخرى^(٣)

ولما كان يوم الاثنين ثالث عشر من جمادى الأولى سنة سبع وثمانين دق كوس البلد فجأوه به كوس السلطان - رحمة الله - وثار القتال بين الطائفتين ولجَّ العدو في مضايقة البلد حتى منه أن الناس لا يهجمون على خيامهم ،

(١) منان القنطار سلطان من (م) .

(٢) هذا الشوان غير موجود في (م) .

وأنتهم بها بونها ، فكذب المسكر ظنونهم وهجموا الخيم أيضاً ونهبوا منها ، (١٣٠ ب) فتراجع المدو إلى قالم ، ووقع الصامخ فيهم ، فلقوا جماعة من المسلمين عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرى بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة ، وقتل جماعة من المدو . وأعجب ما في هذه الوقعة أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير مذكور من أهل مازندران يريد النزاة فوصل والحرب قائمة ، فلقى السلطان ، واستأذنه في الجهاد ، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها — رحمه الله — في تلك الساعة ، ولما رأى المدو دخول المسلمين إلى خنادقهم وترغلمهم إلى داخل أسوارهم ، حركتهم الحية ، وبعثهم النخوة ، فركب فارسهم محمية راجلهم ، وخرجوا إلى ظاهر أسوارهم ، وحلوا على المسلمين حملة الرجل الواحد ، فثبت للمسلمون لم يوتوا غنيا لم يتحركوا عن أماكنهم ، والتحم القتال من الجانبين ، واشتد الضرب من الطائفتين فصر للمسلمون صير الكرام ، ودخلوا في الحرب باقتحام ، فلما رأى المدو ذلك الصبر المبرز ، والإقدام للزعج ، أخذ رسولا في غضون ذلك ، فاستوفى له في الوصول ، فأذن له فوصل الرسول أولا إلى الملك السادل — رحمه الله — فاستصحه ، ووصل به إلى الخدمة السلطانية ومعه أيضا للقاء الأفضل ، فأدى الرسالة ، وكان حاصلها : أن ملك الانكشتر يطلب الاجتماع بالسلطان ، فلما سمع السلطان — رحمه الله عليه — تلك الرسالة أجاب عنها في الحال من غير (١٣١) تفكر ولا تردد ، بأن قال : « للوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يجمن منهم الحرب بعد الاجتماع وللؤاكلة ، وإذا أراد ذلك فلا بد من ترقرق قاعدة قبل هذه الحاقة ، ولا بد من ترجمان تنق فيه في الوسط ، يُنم كل واحد منا ما يقول الآخر ، فليكن الرسول بيننا ذلك الترجمان ، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

وقعة أخرى^(١)

ولما كان يوم السبت ثامن عشرى جمادى الأولى خرج المدو راجلهم وفارسهم على المسلمين من جانب البحر شمالى البلد ، وعلم السلطان — رحمه الله — ذلك ، فركب وركب المسكر ، واقتشبت القتال بين الطائفتين ، وقتل من المسلمين بدوى وكردى ، وقتل من المدو جماعة ، وأسر واحد بليسه^(٢) وفرسه ، ومثل بين يدى السلطان — رحمه الله — ولم يزل القتال يعمل حتى حال الليل بين الطائفتين .

وقعة أخرى^(٣)

ولما كان الأحد تاسع عشرى جمادى الأولى خرج من المدو رجالة كثيرة على شاطئ النهر الحلو ، فلقبهم طائفة من البرك وجرى بينهم قتال عظيم ، ووصلت رجالة من المسلمين ، والتحم الحرب فأسروا مسلحا ، وقبضوه

(١) هنا التوازن غير موجود في (م) .

(٢) م : « بلاءه » .

وأحرقوه، وأسر السلون منهم واحداً قتلوه وأحرقوه ولقد رأيت النازين تشتغلان في زمان واحد، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد باستحصال أسر العدو، والشكوى من ملازمهم (١٣١ ب) قتلهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من حين^(١) قدوم الانكثير للسلون، ثم مرض مرضاً شديداً أشقى فيه على الملك، وخرج^(٢) الإفريسي ولا يزيدم ذلك إلا إصراراً وعتوا.

ذكر حرب خادمين للملك^(٣)

- وكان من حديثها أنها كانا لأخت ملك الانكثير، وكانا مسلمين في الباطن، لأن إقامتهما كانت في عقليّة في خدمة صاحبهما، وكانت هي زوجة صاحب عقليّة، فلما مات وصر أخوها بالبلد أخذها وصحبها معه إلى العسكر، ولما وصل الخلدان إلى العسكر، وقاربوا للسليين هربا إلى العسكر الإسلامي، وقبلها السلطان - رحمه الله - وأنعم عليهما إنملا عظما.

ذكر حرب المركيس إلى صور

ولما كان يوم الاثنين سلخ جمادى الأولى قوى استشار للمركيس من أنه إن أقام قبضوا عليه، وأعطوا صور الملك القديم، الذي كان قد أسره السلطان - رحمه الله - لما عاناه من الأسر في نصرة دين المسيح، فلما صبح ذلك عنده حرب إلى صور، وأخذوا خلفه قسوساً ليردوه، فلم يقبل، وسار في البحر حتى أتى صور، وشق ذلك عليهم وعظم لهم فيه، فإنه كان ذارأى وشجاعة وخيرة.

ذكر قدوم بقية عساكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين (١١٣٢) برقش، فقيه السلطان - رحمه الله - واحترمه وكان ديناً عاقلاً محباً للفرز. وأتزه السلطان - رحمه الله - في الليرة، بعد أن كرمه وأتزه في خيمته، وفرح بقدمه فرحاً شديداً في ذلك الوقت. ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر المحروسة كلم الدين كرجي، وسيف الدين سقر الدوادار، وجماعة كثيرة، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل في عسكره، فقيه السلطان - رحمه الله عليه - بالبروية، وتزلوا هنا إلى بكرة الغد من اليوم الثاني من شهر جمادى الآخر من شهر سنة سبع وثمانين وخمسةائة، وأصبح سائراً حتى أتى بحفظه قبالة العدو، فمرض عسكره هناك، وأتزه السلطان - رحمه الله - في خيمته، وحمل له من التحف،

(١) م : « من جريرة » .

(٢) م : « وخرج » .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه ، وأترله في الليلة . وفي يوم الجمعة ثالث جادى قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا ، واشتد مرض الانكبيتر بحيث شغل الفرج مرضه وشدته عن الزحف ، وكان ذلك ضربة عظيمة من الله تعالى ، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ، واشتد بهم الخناق شدة عظيمة ، وهدمت للنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، هذا والعصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ، ويسرقون أفئدتهم ونفوسهم ، يأخذون الرجال في عافية ، (١٣٢ ب) بأن يجيشوا إلى الواحد وهو نائم فيضعوا السكين على ساقه ويوقظوه ، ويقولون له بالإشارة : إن تكلمت ذبحتك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ، ويرى ذلك مرارا كثيرة ، وعسكر المسلمين يجتمع ويتوارر وصولها من كل جانب حتى تكامل وصولها .

ذكر "خروج رسولهم" إلى السلطان

رحمه الله

كنت قد ذكرت خروج رسول منهم يلتبس من جانب الانكبتار أنه يجتمع بالسلطان ، وذكرت هذر السلطان من ذلك ، واطلع الرسول وعاد مباركا في اللقى ، وكان حديثه مع الملك المادل - رحمه الله - ثم هو يبقيه إلى السلطان - رحمه الله - ، فاستقر بالآخرة أنه رأى أن يأذن له في الخروج ، ويكون الاجتماع في المرج ، والمساكر محيطة بهما ، ومعهما ترجمان ، فلما أذن في ذلك تأخر الرسول إلى ما عده (٣) ، يحمل تأخره على مرضه ، واستغاض أن ملوكهم اجتمعوا إليه ، وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا : « هذه خاطرة يدين النصرانية » ، ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول : « لانتقلن تأخرى بسبب ما قيل ، فإن زمام قيادي مفروض إلى وأنا أحكم ولا يحكم [على] غيري في هذه الأيام اعترى مزاجي التياث ، منعتني من الحركة ، فهذا كان المنز في التأخر لاخير ، وعادة للوك إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا ، (١٣٣) وعندى ما يصلح للسلطان ، وأنا استخرج الإذن في إيمانه إليه » : فقال له الملك المادل : « قد أذن لك في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية » : فرضى الرسول بذلك وقال : « الهدية شيء من الجوارح قد جلبت من وراء البحر ، وقد ضفت فيحسن أن تحمل إلينا طير ودجاج حتى نطعمها ففوى ونعملها ، فداعبه الملك المادل - رحمه الله - وكان قلبها فيا يحشهم به ، وقال : « الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منابذة الحجة » ثم اقص حديث الرسالة بالآخرة على أن قال الرسول : « ما الذي أردتم منا ؟ إن كان لكم حديث فتحد ثوابه

(١) التمس ل م : « وشاق بهم الخناق » .

(٢) م : « وصول رسولهم » .

(٣) م : « عده » .

حتى نسمع ، فقيل له : « عن ذلك نحن ما طلبناكم ، أتم غلبتونا ، فإين كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمعه . » واقطع حديث للرسالة إلى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسة ، فخرج رسول الانكسار للمسلمين إلى السلطان - رحمه الله عليه - ، ومعه إنسان مغربي قد أسروه من مدة طويلة ، وهو مسلم قد أهداه إلى السلطان - رحمه الله - ، قبله ، وأحسن إليه ، وأطلقه ، وأعاد الرسول مشركاً مكرماً إلى صاحبه ، وكان غرضهم بذكر الراسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الراسائل نعرف ما عندهم من ذلك أيضاً .

ذكر (١٣٣ ب) خبر قوة زحفهم على البلد ومضايقته

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات للتواصلة الضرب ، ويتقاولون^(١) أحجارها واختصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا صور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأهلك النصب والسمير أهل البلد لثقله وعدم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى إن جماعة منهم بقوا ليال عدة لا ينامون أصلاً ، لا ليلاً ولا نهاراً ، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم ، وم غر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن ، ولم يزل الضرب بالمنجنيقات حتى تخلخل السور وظهر للمدو تخلخله وضعفه وتقلقل بنيانه . ولما أحس المدو بذلك شرعوا في الزحف من كل جانب ، وأهسوا أقساماً ، وتناوبوا فرقاً ، كلما تب قسم استراح وقام غيره مقامه ، وشرعوا في ذلك شروعا عظيماً براجلهم وفارسهم ، وذلك في يوم الثلاثاء سابع جمادى الآخر ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجلة والقائقة ليلاً ونهاراً ، فلما علم السلطان ذلك بأخبار من شاهده وإظهار العلامة التي يبتغا وبين البلد وهي دق السكوس ، ركب وركب السكر بأسرهم^(٢) ، وجميع الراجل والقارس ، ورودهم ورجلهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها السكر عليهم^(٣) ، وجرى في ذلك اليوم (١١٣٤) قتال عظيم من الجانيين ، وهو - رحمه الله - كالولادة الشكلى ، يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب ، ويمتد الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا أن للآل العادل حمل بنفسه دفعتين في ذلك اليوم ، والسلطان - رحمه الله - يطوف بين الأطلاب ، وينادى بنفسه : « بالإسلام » وعندها تزدقان بالجمع ، وكما نظر إلى عكا ، وما حل بها من البلاد ، وما يجري على ساكنيها من اللذاب العظيم ، اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يعلم في ذلك اليوم طلعاً لليلة ، وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب ،

(١) م : « وتقاوا » .

(٢) م : « عليهم » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

وتأخرت عن حضور هذا الزحف لما عراني من مرض شوش مرامي ، فكذت في انجية في تل المياضية وأنا أشاهد الجميع ، ولما هم الليل عاد - رحمه الله - إلى انجية بعد عشاء الآخرة وقد أخذ منه التيب والكتابة والحزن ، فنام لآعن قنوي ، ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكوس أن ذق ، وركبت الساكر من كل جانب ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه . وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : « إننا قد بلغ منا المعجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الند - يعني يوم الأربعاء ثامن جادى الآخرة - إن لم تصلوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا » وكان هذا أعظم خير ورد على المسلمين وأنكاف في قلوبهم ، فإن عكا قد (١٣٤ ب) كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً وجميع البلاد الإسلامية ، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام ، كيف للدين للشطوب ، وبهاء الدين قرقوش ، وغيرهما ؛ وكان بهاء الدين قرقوش ملزماً بحراستها منذ نزل العدو المخول عليها ، وأصاب السلطان - رحمه الله - من ذلك ما لم يصيبه بشيء غيره ، وخيف على مزاجه التشوش ، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك ، صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، فرأى الدخول على القوم ومهاجرتهم فصاح في الساكر الإسلامية الصائح ، وركبت الأطلاب^(١) واجتمع الراسل والفارس ، واشتد الزحف في ذلك اليوم ، ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو ، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك^(٢) والنشاب من وراء أسوارهم ، وهم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم ، فنبتوا وذبروا غاية النقب . ولقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد فرنجي ، وأنه صد سور خندقهم ، واستدبر للمسلمين ، وإلى جانبه جماعة يتناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم ، وقال : « إنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وسجراً وهو يتلقاها ، (١٣٥) ولا يملكه ذلك عما هو بصدده من القبط والقتال ، حتى ضربه زراق مسلم بقارورة خط فأحرقه . » ولقد حكى لى شيخ عاقل جندى أنه كان من جملة من دخل قال : « وكان داخل سورهم امرأة عليها ملوطة خضراء ، فإزالت ترميناً بقوس من خشب حتى جرحت منا جماعة ، وتكاثرتنا عليها ، وقتلناها ، وأخذنا قوسها ، وحملناها إلى السلطان - رحمه الله - ، فغضب من ذلك عجباً عظيماً . » ولم يزل الحرب يمل بين الطائفتين إما قتلاً وإما جرحاً ، حتى فصل الليل بين الطائفتين .

(١) م : « الأطلال » .

(٢) انظر ما طبعه مناس ١٤٨ ملحق ١ .

ذكر ما آل أمر البلد إليه من الضعف

ووقوع للراية بين أهل البلد والفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد، وتكاثروا عليه من كل جانب، وتناوبوا عليه وقتل رجاله البلد ونحياته، بكثرة القتل منهم، وقتل البلد الذي يدخل إليهم، ضفت نفوس أهل البلد لما رأوه من عين الملاك، واستشعروا الضعف والمجزع من الدفع، وتمسك المدعو من الخنادق فلأوها، وتمسكوا من سور البلد بالباشورة، فقبضوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو القنب، ووقعت بدنة من الباشورة، ودخل العدو إلى الباشورة وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نسوا وصاعدا عن ذلك، وكان منهم ستة أنفس من (١٣٥ ب) كبارهم، فقال لهم واحد: « لا تفتلوني حتى أرسل الفرنج عنكم بالكافية ». فيلزم رجل من الأكراد وقطعه، وقتل الخسة الباقية. وفي الند ناداهم الفرنج: « اسفلو الستة فإننا نطلقكم كلكم بهم ». فقالوا: « قد قطعناهم ». فغن الفرنج للالك حزنا عظيما، وبطلوا عن الزحف بعد ذلك أياما ثلاثة. وبلغنا أن سيف الدين الشطوب خرج بنفسه إلى ملك الأفرنيس، وهو كان مقدم الجماعة في البرية، خرج إليه بأمان وقال: « إنا قد أخذنا منكم بلادا عدة، وكنا نهزم البلد وندخل فيه، ومع هذا إذا سألونا الأمان صليباهم، جلدناهم إلى ما منهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد، وتطينا الأمان على أنفسنا؟ فأجابهم بأن: « هؤلاء الهوك الذين أخذتمونا، وأنتم أيضا عيالكي وعبيدي، فأرى فيكم رأي ». وبلغنا بعد ذلك أن للشطوب أغلظ له في القول، وقال أقويل كثيرة في ذلك للقلم منها: « إنا ما نسلم البلد حتى تقتل بأجمتنا، ولا يقتل واحد منا حتى يقتل خمسين نسوا من كباركم ». وانصرف عنه. ولما دخل الشطوب بهذا الخبر خاف جماعة من كان في البلد، فأخذوا لم يركبوا، وهو مركب صغير، وركبوا فيه ليلا خارجين إلى السكر الإسلامي، « بذلك في ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين، وكان فيهم من اللعروفين (١١٣٦) أرسل، وابن الجاولي الكبير، وسفر الرشاق؛ فأما أرسل وسفر فلهما لا وصلوا السكر المنصور قنينا، ولم يعرف. لهما مكان خشية من قبة السلطان - رحمة الله عليه - وأما ابن الجاولي فإنه ظفر به، ورمى به في الزردخانه. وفي سكرة تلك الليلة ركب السلطان - رحمة الله - مشرا أنه يريد كبس القوم، ومعه المنجني وآلات طم الخنادق، فاصابه السكر على ذلك، وتخاذلوا عن ذلك وقالوا: « نخطل بالإسلام كله ولا مصلحة في ذلك ». وفي ذلك اليوم خرج من الانكثار رسل ثلاثة طلبوا فأكبة وطلبوا، وذكروا أن مقدم الاستبارة يخرج في الند - يعني الجملة - يحدث ويحدثون منه في معنى الصلح، غير أن السلطان - رحمة الله عليه - أكرمهم،

ودخلوا سوق السكر ، وتفرجوا فيه ، وعلدوا تلك الليلة إلى عسكرهم^(١) وفي ذلك خدم إلى صادم الدين قايماز النجى حتى يدخل هو عليهم ، وترسل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح إلى أسوارهم وأصحابه وهو أخو للشطوب ولقيهم رجفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج^(٢) ، ونصب قايماز النجى عليه بنفسه على سورهم وقاتل عن الملّم قلعة من التهار . وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جريدك النورى ، وصل وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجناحه ، وقاتل قتالا شديداً ، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهداً عظيماً . ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة أصبح (١٣٦ ب) القوم شاكئين من الزحف ، والساكر الإسلامية محدة بهم وقد باتوا لياليتهم شاكين في السلاح ، راكبين ظهور خيولهم ، منتظرين متى يمكنهم مساعدة إخوانهم المؤمنين بمكة ، يهجمون على طرف من الفرنج ، فيكسرونهم ، ويخرجون بحسب بعضهم بعضاً ، ويخرجون السكر ، وتجاربهم الساكر من الجانب ، فيسلم من يسلم ، ويؤخذ من يؤخذ ، فلم يقدروا على الخروج ، وكان قد ثبت ذلك معهم ، فلم يتنبأ لهم في تلك الليلة خروج ، بسبب أنه كان حرب منهم بعض النملان ، فأخير العدو بذلك فاحتلوا عليهم ، وحرسهم حراسة عظيمة . ولما كان يوم الجمعة خرج منهم رسل ثلاثة ، واجتمعوا بالملك العادل ، وتحدثوا معه ساعة زمانية وعلدوا إلى أصحابهم ، ولم يتفصل الحال في ذلك اليوم ، وانفضى التهار على مقام للسجين بالرج في قبلة العدو المحتول ، وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت الحادى عشر من جمادى الآخرة لبست الفرنجية بأسرها لباس الحرب ، وتحرّكوا حركة عظيمة ، بحيث اعتقد أنه ربما كان مصافاً ، واصطفوا ، وخرج من الباب الذى تحت القبة زهاء أربعين نفساً ، واستدعوا جماعة من المالك ، وطلبوا منهم المذلّ الربدانى ، وذكر أنه صاحب صيدا ، طليق السلطان - رحمه الله - فغضر المذل ، وسيرى مبادئ أحداث في معنى إطلاق السكر الذى يسكا ، واشتطوا فيها طلبوا (١٣٧) في مقابلة ذلك اشتطاماً عظيماً ، وتصرفت نهار السبت ولم يتفصل حال .

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثانى عشر جمادى الآخرة وصل من البلد كتب يقولون فيها : « إننا قد تبايننا على اللوت ، ونحن لا تزال نقاتل حتى قُتل ، ولا نسل هذا البلد ونحن أسياء »^(٣) فابصروا كيف تصفون^(٤)

(١) كذا في الأصل ، والجملة فيها اضطراب يجعلها غير مفهومة ، وما يتألفها لى (م) غير واضح كذلك فالتصحيح : « خدم إلى صادم الدين قايماز النجى حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم ، وترسل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو للشطوب ، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الفرنج » .
(٢) م : « فالتروا أنهم كيف تصفون » .

في شغل العدو عنا ، ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلبثوا له ، فاما نحن فقد فات أمرنا . وذكر المؤلف الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل [الصوت] ظن الفرنج أن عسكرا عظيما قد عبر إلى عكا وسلم ، وصار فيها ، قال : « وجاء إنسان فرنجي فوقب تحت السور ، وصاح إلى بعض من على السور ، وقال له : بحق دينك ألا أخبرتني كم عدد المسكر الذي دخل إليكم البارحة - يعني ليلة السبت - وكان قد وقع في الليل صوت ، وانزعج المقاتلان ، ولم يكن له حقيقة ، فقال : « ألف فارس » . فقال : لا ، لكنه دون ذلك أنا رأيتهم وهم لا يسون ثيابا خضرا . ثم تابعت المسكر الإسلامية وتواصلت ، وانزعج كيد العدو عن القوم في تلك الأيام ، بعد أن كان قد أشقى البلد على الأخذ ، "قادم يوم الثلاثاء رابع عشرة سابق" الدين صاحب شيز ، ويوم الأربعاء خامس عشرة بدر الدين داجوم ، ومعه تركان كثير ، كان قد أخذ إليه السلطان - رحمه الله - ذهباً (١٣٧ ب) أغنى فيهم " ، ويوم الخميس سادس عشرة أسد الدين شيركوه . واشتد ضعف البلد وكثرت فقر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبنوا عوض الثلاثة سوراً من داخلها ، حتى إذا تم إهدامها قاتلوا عليه ، واشتد ثبات الفرنج - لنهم الله - على أنهم لا يصلحون ولا يملكون الدين في البلد أمانا حتى يطلق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين ، وتماد البلاد الساحلية إليهم . وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون أن فيه فلم يفعلوا ، "وبذل لهم في مقابل كل واحد من الذين في البلد واحدا من أسرائهم مقابل فلم يفعلوا" ، وبذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصليبوت فلم يفعلوا ، واشتد عتوهم ، واستفحل أمرهم ، وضائق الحيل عنهم ومكروا ، ومكر الله ، والله خير الماكرين .

ذكر حديث مصالحة أهل البلد

ومصانفتهم عن قوسهم .

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج المؤلف من التنز ، ونظمت كتيبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمور وكثرت التنز ، ومجزوا عن الحفظ والفتح ، ورأوا عين الملاك ، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عتوة ضربت أعناقهم عن آخرهم ، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك ، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار ، وألف وخمسة أسير مجاهيل الأحوال ، (١٣٨ ا) ومائة أسير^(١) معينين من جانبهم ، يختارونهم ، وصليب الصليبوت ، على أن يخرجوا

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) رغم أهميتها .

(٣) م : « فارس » .

بأنفسهم سائرين ، وما معهم من الأموال والأثنية المخصصة بهم ، وفرارهم ونسأهم وخمنوا للرئيس
 للبلد - فإنه كان قد استرضى وعاد^(١) - عشرة آلاف دينار ، لأنه كان واسطة ، ولأصحابه أربعة آلاف دينار ،
 واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج .

ذكر استيلاء العدو على عكا

يُر الله ضمها

ولما وقف السلطان - رحمه الله عليه - على كتبهم ، وعلم مضمونها ، أنكر ذلك إنكاراً عظيماً وعظم
 عليه هذا الأمر ، وجمع أرباب لشورة من أرباب دولته وأكابرهما ، وعرفهم ذلك وشاورهم فيما يصنع ،
 واضطربت به آراؤه ، وتقسّم فكره ، وتشوّش حاله ، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع المومّ ، ويتكر عليهم
 للمصلحة على هذا الوجه ، وهو في مثل هذا الحال ، فأحسن المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه
 وشماره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهره نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة .
 وصاح الفرنج صيحة واحدة ، وعظمت للصية على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس
 في تلاوة : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . وغشى الناس بهجة عظيمة ، وسيرة شديدة ، ووقع في السكر (١٣٨ـ)
 الصياح والمويل والبكاء والتمنيح ، وكان لكل قلب حظ في ذلك ، على قدر إيمانه ، ولكل إنسان نصيب من
 هذا الحظ على قدر دابته ونحوته ، واقتضت الحال على أنه استقرت تلك القاعدة بين أهل البلد وبين الفرنج على ذلك
 الحال المتقدم ، وأن للرئيس للمسلمين دخل البلد ومعه " أربعة أعلام للولك " ، وأخذ عوضه رهنا
 عند بن يارليك - رحمه الله - وكان شجاعاً من شجعان الإسلام - رحمه الله^(٢) ، فنصب للرئيس علماً
 على القلعة ، وعلماً على مثذنة الجامع في يوم الجمعة ، " وعلماً على برج القداوية " ، وعلماً على برج القتال ،
 عوضاً عن علم الإسلام ، وسيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد ، ويرى على أهل الإسلام للمسلمين
 لتلك الحال ما كثر التمتع من الحياة معه . ومثلت بخدمة السلطان - رحمه الله عليه - وهو أشد حاله
 من الوالدة الشكلى والولة الحيرى ، فليته بما تيسر من التسلية ، وأذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر
 في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك ، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين

(١) هذه الجمعة سالفة من (م) ..

(٢) (م) : « وبه أعلام للولك » .

(٣) هذه الليلة سالفة من (م) .

(٤) هذه الكلمات سالفة من (م)

لأسودين في البلد ، وذلك في ليلة السبت الثامن عشر منه . وأفضل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المرة مصلحة فإنه لم يبقَ غرض في العناية ، فقدم بقتل الأتقال ليلا إلى المرة التي كان عليها أولا بشفرم ، (١٣٩) وأقام هو جريدة - رحمة الله عليه - في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وسأل أهل البلد ، " فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح " ، وأقام هو جريدة واجبا من الله تعالى أنه ربما حلهم غروزم وجهلهم بالخروج إليه ، والمجوع عليه ، فينال منهم غرضا ، ويلقى ضمه عليهم ، ويسعى الله النصر لمن يشاء ، فلم يفعل العدو شيئا من ذلك ، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد ، والتمسكن منه ، فأقام - رحمة الله - إلى بكرة التاسع عشر من الشهر ، وانتقل سحرة تلك الليلة إلى النقل . وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر ، ومعهما الحاجب قوشى ، صاحب بهاء الدين قرقوش ، فإنه كان رجلا عاقلا ، مستعجزين ماوقع عليه عقد الصلح من الليل والأسرى ، فأقاموا ليلة مكرمين ، وساروا إلى دمشق يصيرون الأسارى ، فكان مسيرهم يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من جمادى الآخرة وأنفذ السلطان - رحمة الله عليه - رسولا إلى الفرنج يسأل منهم كيف جرت الحال ، ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه للصالحه ، واستقرت عليه للمهادنة .

ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك

ولما كان يوم الخميس سابع جمادى الآخرة خرج الفرنج من جانب البحر شمالى البلد ، ومن جانب القبة ، وانقشروا انتشاراً عظيماً ، راجلهم وفارسهم ، وخرابوا (١٤٠ ب) أطلابا لقتال ، فأخبر اليرك بذلك السلطان - رحمة الله عليه - ، فذبح الكوس وركب ، وأخذ إلى اليرك ، وقواه رجال كثيرة ، وتوقف حتى ركب الساكر الإسلامية واجتمعوا ، فوقع بين اليرك وبين العدو وقعة عظيمة وقتل شديد قبل اتصال المسكر باليرك ، وكان اليرك قد قوى بمن أخذ إليه ، فحلبوا على العدو حملة عظيمة ، فانكسر العدو من بين أيديهم ، وانتهزمت الخيل ، وأسلبت الرجالة ، وظنوا أن وراء اليرك كيتا ، فاشتدوا نحو خيلهم ، فوقع اليرك في الرجالة ، فقتل منهم زهاء خمسين نفراً ، وجرح خلق عظيم ، ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم . وفي ذلك اليوم وصل رسل الفرنج الذين ينشؤا إلى دمشق لتنفذ حال أسرائهم ، ووصل معهم من يمدى أسرائهم أرمية نفر ، ووصل منهم في عشية أيضاً رسل إلى السلطان في تحرير أمر الأسارى والمسلمين الذين كانوا بسكا ، ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين ، حتى كان يوم الجمعة التاسع رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ذكر خروج ابن باريك

وفي ذلك اليوم خرج حسان الدين حسين بن باريك للمهراني ، ومعه اثنان من أصحاب الانكشار ، فأخبر أن ملك الفرنسيس سار إلى صور - يسر الله فتحها - (١١٤٠) وذكروا شيئا من تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصليوت ، وأنه هل هو في السكر أو هل إلى بنداد ؟ فأحضر صليب الصليوت ، وشاهدوه وعظموه ، ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم على التراب وخضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن للوك قد أجابوا السلطان - رحمه الله عليه - إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يدفع في تروم (أي نجوم) ثلاثة ، كل ترم شهر ثم أرسل السلطان - رحمه الله - إلى الفرنسيس رسولا سارا إليه إلى صور - يسر الله فتحها - بهدايا سنية وطيب كثير وثياب جميلة ، (١) وعاد ابن باريك ورفيقه إلى الانكشار . وفي صبيحة يوم السبت العاشر من رجب انتقل السلطان - رحمه الله عليه - بمحلقته وخوامسه إلى تل ملاصق لشفرم ، ونزل الساكر في منازلهم على حالم ، وهو قريب من منزله الأولى ، ليس بينهما إلا الوادي ، ولم تزل الرسل تتوارى في تجرير القاعدة وتنبذها حتى حصل لهم ما كانوا اتهموه من الأسارى والمال المنخفض بذلك الترم ، وهو الصليب ، ومائة ألف دينار ، (٢) وألف وستائة أسير ، وأخذوا قتلهم ، وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى الميتين من جانبهم ، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تبيينهم ، ولم يكلموهم حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يطالون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول (١١٤٠) فكان انقضاه في ثامن عشر رجب . ثم أخذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك قتال لم السلطان - رحمه الله - : « إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا ، وتسلوا القى عين لكم في هذا الترم ، ونعطيك رها من على الباقي ، يصل إليكم في ترومكم الباقية ، وإما أن تمطونا رها من على مانسله إليكم حتى نخرجوا إلينا أصحابنا » . فقالوا : « لا نفضل شيئا من ذلك ، بل تسلون ما يقتضيه هذا الترم ، وتقنون بأمانتنا حتى نسل إليكم أصحابكم » . فأبى السلطان - رحمه الله - ذلك ، لئله أنهم إن تسلوا للال والصليب والأسرى ، وأصحابنا عديم ، لا يؤمن غدرهم ، ويكون ومن الإسلام عند ذلك عظيما لا يكاد ينجير .

(١) هذه الجلة - ساقطة من (م) .

(٢) م : « وستة أسير » .

”ذكر إخراج الفرنج خيامهم

ولما رأوه - رحمة الله عليه - قد امتنع من ذلك ، أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين ، وذلك في نهار الأربعاء الحادي والعشرين من رجب من شهر سنة سبع وثمانين وخمسةائة ، وكان الذي برز ملك الانكشار ومعه خلق عظيم من الخيالة والرجالة والتركيل^(١) .

ذكر قتل المسلمين الذين بكاء

رحمة الله عليهم

ولما رأى الانكشار للمسلمين توقف السلطان - رحمة الله عليه - في بذل المال والأسارى والصليب غدر بأسارى للمسلمين ، وكان قد صال بهم ونسلم البلد منهم على أن يكونوا (١١٤١) آتئين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم وفزاريرهم ونسائهم ، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق ، وأخذهم أسارى ، فغدر بهم للمسلمين ، وأظهر ما كان أبطن ، وفضل ما أراد أن يفضله بعد أخذ المال والأسارى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد ، وركب هو وجميع عسكر الفرنجية راجلهم وقارسهم في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وثمانين وخمسةائة ، وساروا حتى أتوا الأبار تحت تل^(٢) العياضية ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسطوا للرج بين تل كيسان والعياضية ،^(٣) وكان اليزك الإسلامى قد تأخر إلى تل كيسان لما قدموا خيامهم إلى تحت تل العياضية^(٤) ، ثم أحضروا من الأسارى للمسلمين من كتب الله شهادته في ذلك ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الجبال ، وأوتقوهم في الجبال ، وحلوا عليهم حملة الرجل الواحد ، قتلهم صبرا أو ضربا بالسيف - رحمة الله عليهم - واليزك الإسلامى يشاهدهم ، ولا يعلم ماذا يصنعون ليدهم عنهم ، وكان اليزك قد أخذ إلى السلطان - رحمة الله عليه - وأعلمه بركوب اتقوم ووقوفهم ، فأخذ إلى اليزك من قواده ، وبعد أن فرغوا جل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب عظيمة ، جرى فيها قتل وجرح من الجانبين . ودام القتال إلى أن فصل الليل بين (١١٤١ ب) الطائفتين ، وأصبح المسلمون يكتشفون الحال ، فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوه منهم ، وغشى المسلمين بذلك حزن عظيم وكآبة عظيمة ، ولم يبقوا من المسلمين إلا رجلا معروفاً مقدماً أو قويا أيداً^(٥) ، لاصل في محاربتهم ، وذكر قتلهم أسباب منها :

(١) هذه الفقرة كلها غير موجودة في (م)

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م)

(٣) م : « أو قويا يد » .

أنهم قتلوه في مقابلة من قتل منهم ، وقيل : إن الانكسار كان عزم على السير إلى عقلان للاستيلاء عليها ، فإراى أن يخلف تلك المدينة في البلد ورواه ، والله أعلم .

ذكر انتقال المدو إلى طرف البحر

من جانب الغرب^(١)

ولما كان يوم الخميس التاسع والعشرون من رجب ركب القريجية بأسرها ، وقلعت خيلهم ، وحلوا على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربي ، وضربوا الخيل على طريق عقلان ، وأظهروا العزم على السير على شاطئ البحر ، وأمر الانكسار بيبقى الناس أن يدخلوا إلى البلد ، وكانوا قد سدوا نفقه وتله ، وأصلحوا ما استمر منه ، وكان مقدم المسكر الخارج السائر الانكسار - لئله الله - جمع عظيم من الخيالة والرجالة .

ذكر مسيرهم إلى جهة عقلان

ولما كان يوم الأحد مستهل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة اشتملت نيران المدو في حجرة ذلك اليوم وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، وأخبروا البرك بحركتهم ، (١١٤٢) فأمر السلطان النقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ، ففعل الناس ذلك ، وهلك من الناس قتل كثير ، وحوادث كثيرة من السوق ، لم يكن معهم ظهر يحمل جميع ما عندهم ، لأن كل إنسان كان يحصل ما يحتاج إليه في أشهر ، وكل واحد من السوق عنده ما ينقله من منزل إلى منزل في مرار متددة ، لكن هذا اللزول لم يمكن أن يتخلف فيه أحد لقربه من الفرنج الذين يسكنوا ، والخوف منهم . ولما أن علا النهار شرع المدو في السير على جانب البحر ، وتفرقوا قطعا ثلاثة كل قطعة تحمل نفسها ، وقوى السلطان - رحمه الله عليه - البرك ، وأخذ معظم الماسكر تسيير قبائلهم ، فضوا وقاتلهم قتالا شديدا ، وأخذ ولده الملك الأفضل ينجيه أنه اضطلع طائفة منهم عن الرقة^(٢) ، وقد لزمناهم^(٣) بالقتال حتى قد عادوا يطلبون خيلهم ، فلوقبنا لأخذناهم ، فغير السلطان - رحمه الله - خلقا عظيما من المسكر ، وسار هو بنفسه حتى أتى أوائل الرمل ، وأمر النقل أن يسير على الطريق إلى القيوم ، وسار هو - وأنا في خدمته - حتى أتينا أوائل الرمل ، فلقبنا الملك المملوك ، وأخير السلطان أن تلك الطائفة قد التحقت بالطائفة الأولى ، ومعظم

(١) نس النوان في (م) : « ذكر سير المدو إلى عقلان وانتقاله إلى طرف البحر من جانب الغرب » وهو قد أجمع النوان الأصل في النوان الذي يه هنا بين الأصل ، والمطلوبة التي اعتمدنا ففصلت بين النوانين .

(٢) م : « الواقعة » .

(٣) م : « لزمناهم » .

القوم قد عبروا نهر حيفا ، ونزلوا ، والباقيون قد لحقوهم ، وليس للسير خلفهم حاصل إلا إلتصاف الخليل وضياح النشاب لا غير ، فتراجع السلطان (١٤٢ ب) - رحمه الله - عن القوم لما تحقق ذلك ، وأمر طائفة من المسكر سير وراء القتل ، تلحق ضيقتهم بقويهم ، وتكسفت عنهم من يلتحق بهم من العدو من الطاعة ، وسار هو حتى وصل إلى القيمين - وأنا في خدمته - حتى أتى القيمين عصر ذلك النهار ، فنزل وقد ضرب له الخيل ، وشقة دائرة حوله لا غير ، واستحضر الجماعة ، وأكلوا شيئاً ، واستشارهم فيما فعل .

المزل الثاني :

فاتفق رأى الجماعة على أنهم يرسلون بكرة غد هذا ، وقد رتب حول الفرنج بزكا يبيتون حوله يرقبون أمره . ولما كان صباح الاثنين ثاني شعبان للمذكور رحل السلطان - رحمه الله عليه - القتل ، وأقام هو يترصد أخبار العدو ، فلم يصله منها شيء إلى أن علا النهار فسار في أثر القتل حتى أتى قرية يقال لها الصباغين ، فجلس ساعة يتربص أخبار العدو ، فلم يصله خبر وكان " قد نزل علم الدين سليمان بن جندر في منزله بالأمس " ، وسلف جورديك قريب العدو ، " وبث خلقاً عظيماً " باتوا غريب العدو ، فلم يصله خبر أصلاً ، فسار حتى أتى القتل ، وهو في ملة يقال لها عيون الأسود . ولما بلغنا المزل - رأى رحمه الله عليه - خيلاً فسأل عنها ، فقيل إنها خيل الملك الساحل ، ففعل لينزل عنده وسرنا نحن وزلنا في خيمنتنا ، فأقام عنده ساعة ، ثم أتى خيمنتنا ، وقعد الخيل في هذه الترتبة بالكليّة ، (١٤٣ ا) وغلا الشمر حتى بلغ الربع درهما ، وبلغ البقساط رطل بدرهمين . ثم أقام السلطان - رحمه الله - حتى عبر وقت الظهر ، ثم ركب وسار إلى موضع يسمى الملاحه ، يكون منزلاً للعدو إذا رسل من حيفا ، وكان قد سبق لفقد المكان ، وأنه هل يصلح للمصاف أم لا ، وتفقد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشمر ، وعاد إلى المزل بعد دخول وقت المشاء الآخرة ، وقد أخذ منه التعب ، وكفت في خدمته ، وسأله عما بلغه من خبر العدو فقال : « وصل إلينا من أخبارنا أنه مارحل العدو من حيفا إلى عصر يومنا هذا - يعني يوم الاثنين ثاني شعبان - ، وهما نحن مرتقبون أخبارهم ، ويكون العمل بمقتضاها » . وباتت تلك الليلة ، وأصبح مقبلاً بقل الزلزلة ينتظر العدو ، ونادى الجاوش بالسكر لليرض ، فركب الناس على ترتيب المصاف وأجهت ،^(١) وخرجوا عن أنفهم ، واصطفوا ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان بحمد الله على ما يؤثر أولياء الإسلام ، ثم عاد إلى خيمنتنا ، وعاد الناس " وقد علا النهار ، ونزل السلطان - رحمه الله عليه - في خيمنتنا ، وأخذ نصيباً من الراحة

(١) هذه العبارة ساقطة من (م)

(٢) م : « وتعب خلق عظيم » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م)

بعد الغذاء ومثول جماعة من الأمراء بخدمته ، وأخذ رأيهم فيما يصنعون ، ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشائ الأيوبيين من مائة دينار إلى مائة وخمسين وزائداً (١٤٣ ب) ونافضا ، فما رأيت أفسح صدرا منه ولا أبسط وجهها في العطاء . واتفق الرأي على رحيل النفل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل بابا .

المنزل الثالث

وكان نزول النفل بمجدل بابا بكرة ، وأقام هو بالمنزل جريدة إلى الصباح ، ورحلوا^(١) إلى جهة المدو ، فرحل النفل من وقت العشاء ، ولم يبق مع الناس للقيمين مع السلطان إلا خيف الأقبشة ، وبات في منزله إلى الصباح يوم الأربعاء رابع شعبان سنة سبع وخمسين^(٢) ، وركب وسار إلى رأس النهر الجاري إلى قيسارية ، ونزل جريدة هناك ، وبلغ القسماط إلى رطل بأريسة دراهم في تلك التربة ، والشهير الربع بدرهمين ونصف ، والتبزم يوجد أصلا ، ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر ، وأكل خبزاً وصلى الظهر ، وركب إلى طريق المدو لتجديد ارتياده^(٣) في ضرب المصاف ، ولم يعد إلى أن دخل وقت العصر ، فجلس ساعة ، وأخذ جزءاً من الراحة ، ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ، ورمى خيمته ، ورمى الناس خيامهم في أوامر نهار الأربعاء^(٤) رابع شعبان سنة سبع .

المنزل الرابع

وكان الرحيل إلى رابية متأخرة عن تلك الرابية لكنها في المنزل أيضاً ، فنزل هناك النفل ، وعاد هو من ركوبه - رحمه الله - بعيد للغرب ، وفي ذلك المنزل أوتي بانهين من (١١٤٤) الفرج قد تحفظهم اليزنك من المدو ، فأمر بضرب رقابهما ، فقتلوا وتكاثرت الناس عليهما بالسيوف تشفياً ، ثم بات هناك ، وأصبح مقبلاً بالترقة لأنه لم يصح عن المدو رحيل ، وأخذ إلى النفل حتى يمود إليه في تلك الليلة عما طرأ على الناس من الضيق في الماء كل والتضييق ، وركب - رحمه الله عليه - في وقت عادته ، وساروا إلى جهة المدو ، وأشرف على قيسارية ، وعاد إلى النفل قريب الظهر ، وقد وصله الخبر أن المدو لم يرحل بعد من اللأحة ، وأحضر عنده اثنان أيضاً قد أخذوا من أطراف المدو ، فقتلوا أيضاً شرقتة ، وكان في حدة النيفة^(٥) لما جرى على أسرى عكا ثم أخذ جزءاً من الراحة ، وجلس بعد صلاة الظهر ، وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من المدو فارس مذكور قد

(١) هذه العبارة مأخوذة من (م) .

(٢) م : « لإرشاده » .

(٣) م : « الضيقة » .

أخذ، وهيئة تخبر عن أنه متقدم فيهم، فأحضر ترجان، وبحث منه عن أحوال القوم، وسأله: « كيف يسوى الطعام عندكم؟ » قال: « أول يوم رحلنا من جبكا كان الإنسان يشبع بسة قراطيس، ثم لم يزل السمر يغلو حتى صار يشبع بتاني قراطيس ». وسئل عن سبب تأخرهم في المنازل فقال: « لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة ». فسئل عن القتل والحرق في يوم رحيلهم، قال: « كثير ». فسئل عن الخيل التي هلكت في ذلك اليوم فقال: « مقدار أربعمائة فرس » فأمر بضرب عنقه، (١٤٤ ب) ونهى عن التمثيل به فقال الترجان عما قال السلطان - رحمه الله - فأخبره بما قال، « فتغير تغيراً عظيماً ». وقال: « أنا أخلم لكم أسيراً من عكا ». فقال له - رحمه الله - « بل أميراً ». قال: « لا أقدر على خلاص أمير » فشق الطمع فيه وحسن خلقته، فإني ما رأيت أتم خلقاً معترف في الأطراف ورطحية، فأمر أن يترك الآن ويؤخر، ففسد، وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر بقتل الأسرى، فاعترف بأنه قبيح، وأنه لم يجر إلا برضا الملك وحده. ثم ركب السلطان - رحمه الله عليه - بعد صلاة العصر على عادته. هذا كله في يوم الخميس خامس شعبان. وبعد أن نزل السلطان - رحمه الله - أمر بقتل الفارس المذكور قتل، وأتى بعده بثنين فأمر بقتلها، وقتلا، وبات في ذلك الليل تلك الليلة، وذكر له في السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية، وقارب أوائلهم البلد، فرأى أن يتأخر من طريق المدو منزلاً آخر.

المنزل الخامس :

فرحل، ورحل الناس إلى تل قريب من التل الذي كنا عليه، فنزل الناس، وضربت الخيام، ومضى - رحمه الله - يرتاد الأراضي الكائنة في طريق العدو، لينظر أيها أصلح للمصاف، ونزل قريب الظهر، واستدعى أخاه للملك العادل، وعلم الاثنين سليمان بن جندر، وأخذ رأيهما فيما يصنع، وأخذ جزءاً من الراحة، وأذن الظهر، فصلى وركب للشوف (١٤٥ ا) على العدو، وتقسّم أخباره، وأتاه اثنان من الفرنج قد نهبا، فأمر بقتلها، وقتلا، ثم أتى بثنين آخرين، وقتلا أيضاً، وذلك في يوم الجمعة سادس شعبان المذكور، وحيه في أواخر النهار بثنين وقتلا أيضاً، وعاد من الركوب آخر النهار صلاة المغرب، فصلى وجلس على عادته، واستدعى أخاه للملك العادل - رحمه الله - وصرف الناس وخطا به إلى هوى^(١) من الليل، ثم بات، وأصبح ونادى الجلاوش لعرض الحلقة لا غير، وركب إلى جهة المدو، ووقف على تلوة مشرفة على قيسارية، وكان العدو قد وصل إليها نهار الجمعة ولم يزل يمرض هناك إلى أن علا النهار، ثم نزل وأكل الطعام، وركب إلى أخيه، وعاد بعد صلاة الظهر، وأخذ جزءاً من الراحة، وجلس « فحوضاً وصلى »، وأتى بأربعة عشر من الفرنج وامرأة فرنجية بينهم أسيرة، وهي بنت

(١) م : « هوى »

(٢) هذا الاثنان ساقطان من (م)

فارس مذكور ، ومعه أسيرة مسلمة قد أخذتها ، فأطلقت السلسلة ، ودفع الباقون إلى البحر دحاناه ، وهؤلاء أتى بهم من بيروت ، أخذوا في ركب من جلة عدد كثير ، قتلوا ، كل ذلك في نهار السبت سابع شبان وهو في المرة ينتظر رحيل العدو المخذول ، عجماً على لقائه إذا رحل .

المترى السادس :

ولما كان صبيحة يوم الأحد الثامن من شبان (١٤٥ ب) سنة سبع ركب السلطان - رحمه الله عليه - على عادته ، ثم نزل فوصل من أخير أن العدو على حركة ، وكانت الأطلاب قد قامت حول قيسارية في مواضعها ، فأمر بعد الطعام ، وأطعم الناس ، فوصل ثاني وأخير أن القوم قد صاروا ، فأمر بالكوس فذق ، وركب - رحمه الله - وركب الناس معه ، وسار وسرت في خدمته حتى أتى عسكر العدو ، فصف الأطلاب حوله وأمر بقتالهم ، وأخرج الجاليش ، فكان النشاب بينهم كالطمر ، وكان عسكر العدو المخذول قد ترتب ، فكانت الرجلة حوله كالصور وعليهم السكورة^(١) الضخمة ، والرديات السابتة المحكمة ، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون^(٢) ، وهم يرمون بالزنبورك ، فيجرح خيول المسلمين وخيالهم ورجاله ، ولقد شاهدتهم وينفوز في ظهر الواحد منهم النشابية والشرية ، وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، ونمّ قسم آخر من الرجلة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فإذا تمب هؤلاء القتالة أو انحنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح ، واستراح القسم القتال^(٣) هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجلة إلا في وقت الحاجة لا غير ، وقد انضموا أيضاً ثلاثة أقسام : الأول الملك المتيق جفرى وجماعة الساحلية معه في المقدمة ، والانكشار والفرنسية (١٤٦) معه في الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة . وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعليهم على ما وصفتهم قبل يسير أيضاً في وسطهم على عجلة كالخمار العظيمة .

هذا ترتيب القوم على مشاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأمرى والمستأين . وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين ، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويمركون عزائمهم حتى يخرجوا ، وهم يحفظون أنفسهم حفظاً عظيماً ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسيرون سيراً رفقاً ، ومراكبهم تدير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا للبلد ، ونزلوا ، وكانت منازلهم قريبة

(١) م : « السكورة » .

(٢) م : « ولا يتأثرون » .

(٣) م : « القتال » .

لأجل الرحمة ، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أهملهم وخيلهم ، قلة الظهر عندهم ، فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان^(١) ولا نزع ، وكان منزلهم قاطعا نهر قيسارية ، يسر الله فتحها .

المنزل السابع

ولما كانت صبيحة الاثنين التاسع من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل من أخيران المدوقد ركب سائرا ، فركب السلطان - رحمه الله عليه - أول الصبح ، وطلب الأطلاب ، وأخرج من كل طلب جالشا ، وسار يطلب القوم ، فأتيانهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، فطاف الجالشا حولهم من كل جانب ولزوم (١٤٦ ب) بالقتال وهم سائرون على المثال الذي حكيت ، وكلما ضعف قسم هاونه الذي يليه وهم يحفظ بعضهم بعضا ، واللسون محدقون بهم من ثلاث جوانب ، والقتال عليهم شديد ، والسلطان - رحمه الله - يقرب الأطلاب ، ويرأته يسير بنفسه بين الجالشا ونشاب القوم يتجاوزوه ، وليس معه إلا عييان مجتنبين لغيره ، وهو يسير من طلب إلى طلب ، يحتملهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم ، والكوسات تخفق ، والبهوات تهر ، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، هذا والقوم على أتم ثياب على ترتيبهم لا يتنهيون ولا ينجمون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجائهم بجرح للسلين وضيولهم بالزنبورك والقتاب ، ولم يزل الناس حولهم يقاتلونهم من كل جانب ، ويحملون عليهم وهم ينكروئون بين أيديهم ثم يكمرون عليهم ، إلى أن أوا إلى نهر يقال له نهر القصب ، فنزلوا عليه ، وقد قام قائم الظيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، فإنيهم كانوا إذا نزلوا إلى الناس من أمر يتم معهم ، ورجعوا عن قتالهم .

وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الإسلام^(٢) وشجعانهم إيلز الطويل^(٣) بمضى عماليك السلطان - رحمه الله عليه - وكان قد قتل فيهم ، وقتل خلقا عظيما من خيالتهم وشجعانهم ، وكانت قد استفاضت شجاعتهم بين المسكرين (١٤٧) بحيث إنه جرت له وفات كثيرة صدقت أخبار الأوتل ، وصار بحيث إذا عرفه الفرنج في موضع نجفوا عنه . فتنظر به فرسه ، فاستشهد في ذلك اليوم ،^(٤) ودفن على تلي مشرف على البركة^(٥) ، وحزن للسلون عليه حزنا عظيما ، وقتل عليه مملوك له ، ونزل السلطان بالقتل على البركة ، وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام - رحمه الله عليه - في تلك الليلة إلى بعد صلاة العصر ، أعلم الناس خبرا ، واستراحوا ساعة ، ثم رحل بعد صلاة العصر ، وأقى نهر القصب ، فنزل عليه أيضا فكنا نشرب من أعلاه ، والودو يشرب من أسفله ليس بيننا إلا مسافة يسيرة . وبلغ الشمر في هذه

(١) م : دين .

(٢) م : شجاع اسمه إيلز الطويل .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

الفرقة الرابع بأربعة دراهم ، واخذوا موجود كثيرا وسره وطل ينصف درهم ، وأقام ينظر رحيل الفرنج حتى رحل في مقابلتهم ، وباتوا تلك الليلة هناك وبقنا أيضا .

ذكر وقعة جرت

وذلك أن جماعة من السكر الإسلامي كانوا ينشرون^(١) على العدو فصادفوا جماعة منهم غير مسلحين أيضا هل السكر الإسلامي ، فظفروا بهم ، وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم ، قُتل من العدو جماعة ، وأحسن بهم عسكر العدو فتار إليهم منهم جماعة واتصل الحرب ، وقتل من المسلمين نفران ، وأسر من العدو ثلاثة ، ومثلوا بخدمة - رحمة الله عليه - (١٤٧ ب) فألهم عن الأسوار ، فأخبروا أن ملك الانكشار كان قد حضر عنده بمسكا إثنان بدويان ، وأنهما أخبراه بقله عدد السكر الإسلامي ، وتشذبه ، وأن ذلك هو الذي أطعمه حتى خرج ، وأنه لما كان بالأمس - يعني يوم الإثنين - رأى من المسلمين قتالا عظيما ، واستكثر الأطلاب ، وأنه جرح أس زهاء ألف نفس ، وقُتل جماعة ، وأن ذلك هو الذي أوجب إقامته اليوم حتى يستريح عسكره ، وأنه لما رأى ما أصابهم بالأمس من القتال العظيم ، ورأى كثرة المسلمين أحضر البدويين عنده ، وواقفهما ، وضرب أعناقهما وأقنا في ذلك اليوم في تلك الفرقة ، لإظامة العدو بها ، وهو يوم الثلاثاء العاشر من شعبان سنة سبع وعثمان وخمسة .

المزلة الثامن

ولما كان ليلة نهار الثلاثاء المذكور ، ورأى السلطان - رحمه الله - الرحيل والتقدم إلى قدام العدو ، ففقد السكوس ، ورحل ورحل الناس ، ودخل في شعرا أرسوف حتى توصلها إلى تل هذه قرية تدعى دير الراهب فنزل هناك ، ودم الناس الليل ، فقتلوا في الشعرا ، وأصبح مقيا ينظر بقية المسافر إلى صيلح الأربلاء ، الحادى عشر من شعبان المذكور ، وتلاشت المسافر الإسلامية ، وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال وقاته العدو ، وأقام ذلك اليوم أجمع هناك . ومن أخبار العدو في ذلك اليوم أنه أقام (١٤٨) على نهر القصب في ذلك اليوم أيضا ، وأنه لحقه نجدة من عكا في ثمانى بلس كبار ، وبزك الإسلام حوله يواصلون بالأخبار المتجددة لهم ، وجرى بين اليرك وبين حشاشة العدو قتال ، وبترج من المقاتلين .

ذكر مراملة جرت في ذلك اليوم

وذلك أن العدو الخنوزل طلب من اليزك مَنْ يتحدث معه ، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، فإنها كانت نوبته ، فلما مضى إليهم من يسع كلامهم - كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه ، فاستأذن ، ومضى ، وبات تلك الليلة في اليزك - أعنى ليلة الخميس - ، وتحدثوا معه ، وكان حاصل حديثهم : « إنا قد طال بيننا القتال ، وأنه قُتل من الجانبين الرجال الأبطال ، وإنا نحن جئنا في نصرة فرنج الساحل ، فاصطالحوا أتم وهم ، وكلُّ منا يرجع إلى مكانه » . وكتب السلطان - رحمه الله عليه - إلى أخيه الملك العادل - رحمه الله - في صبيحة يوم الخميس الثاني عشر من شعبان من سنة سبع رقعة يقول له فيها : « إني فُدت أن تطاول الفرنج في الحديث ، فقلهم يقومون اليوم ، حتى يلحقنا التركان ، فإنهم قد قروا منا » . « وفي ذلك اليوم اجتمع الملك العادل بالانكثار للملوك ، فكان الترجمان بينهما ابن المنقرى ^(١) .

ذكر اجتماع الملك العادل والانكثار

^(١) ولما طلبوا الملك العادل - رحمه الله - أذن له - رحمه الله عليه - في المضى إليهم ، فصار حتى (١٤٨ هـ) أتى اليزك ^(٢) ، ولما عرف الانكثار وصوله إلى اليزك طلب الاجتماع به ، فأجابه إلى ذلك ، واجتمعا بنجوة ^(٣) من أصحابها ، وكان يترجم بينهما ابن المنقرى ، وهو من فرنج الساحل من كبارهم ، ورأينته يوم الصلح ، وهو شاب حسن إلا أنه مخلوق اللحية - على ما هو شعارهم - وكان الحديث الجارى بينهما أن الانكثار شرع في ذكر الصلح ، وأن الملك العادل قال له : « أتم تطالبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان » . فقال الانكثار له : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفون إلى بلادكم » . فأخشن له الجواب ، وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهما . ولما أحسن السلطان - رحمه الله - برحايهم ، أمر النقل بالحيل ، ^(٤) وقدم عليهم أمير آخر أسلم ^(٥) ، ووقف هو . وعياً الناس بمبشة القتال ، ^(٦) ووقف يتنسم ما يرد إليه من أخبار العدو ، وسار النقل الصغير أيضاً حتى قارب النقل الكبير ، ثم ورد أمر السلطان - رحمه الله - بعودهم إليه ، فمادوا ، ووصلوا وقد دخل الليل ، وتعبط الناس في تلك الليلة تعبها عظيماً ، واستدعى

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) كذا في الأصل ، وو (م) : « بركة » .

(٣) هذه الجملة غير موجودة في (م) .

(٤) هذه الجملة غير موجودة في (م) .

أخاه الملك المادل لتصرفه ما جرى بينه وبين الملك ، وذلك في ليلة الجمعة ثالث عشر شعبان من سنة سبع وثمانين وخمسة . وأما المدوفاته صار ونزل على موضع يسمى البركة أيضا ، مشرف على البحر ، وأصبح السلطان - رحمه الله - في يوم الجمعة .^(١) فأمر النخل فصار إلى قرية تسمى بركة . فأقام السلطان - رحمه الله - فطلب (١٤٩) الأطلاب في مكانه .^(٢) فمطاعا إلى أخبار البدو . فأحضر عنده اثنان من القرنج قد تحفظهما البرك . فأمر بضرب أعناقهما قتلا ووصل من أخبر أن المدو لم يرسل اليوم من منزله تلك . فزول السلطان - رحمه الله عليه - في تلك الليلة أيضا . واجتمع بأخيه الملك المادل - رحمه الله يتحدثان في هذا الأمر . وما يصنع من العدو الخنول . وبات تلك الليلة في تلك الليلة .

ذكر وقعة أرسوف^(٣)

وهي التي أنكت في قلوب المسلمين

ولما كان يوم السبت رابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسة بلغ السلطان - رحمه الله عليه - أن العدو قد تحرك الرحيل نحو أرسوف . فركب ورتب الأطلاب للقتال . وعزم في ذلك اليوم على مصافة القوم ومصادمتهم وأخرج - رحمه الله عليه - الجاليس من كل طُلب وسار المدو حتى قارب شبرا أرسوف وبساتينها . أطلق عليهم الجاليس النشاب . ولزتهم الأطلاب من كل جانب . والسلطان - رحمه الله عليه - يقرب الأطلاب . ويوقف بعضها ليكون ردا . وضائق المدو مضايقة عظيمة . والتحم القتال ، واضطربت ناره من الجانبين . وقتل منهم وجرح . واشتدوا في السير صام يملنون للترقة فينزولون . واشتد بهم الأمر وضاق بهم الخندق والسلطان - رحمه الله عليه - (١٤٩ -) يطوف من البيعة إلى البيعة بحث الناس على الجهاد . فقيته مرارا وليس معه إلا صبيان ينجيين لاغير وقيت أخاه وهو على مثل الحال والنشاب يتجاوزها - رحمه الله عليها - ولم يزل الأمر يشتد بالمدو . وطمع المسلمون فيهم طمعا عظيما حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف . ثم اجتمعت الخيالة ، وتراضوا على الحلة خشية على القوم ، ورأى أنهم لا ينجيهم إلا الحلة ، ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجال ، وأخذوا رماحهم ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وخرج لم رجالتهم ، وحلوا حلة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفة على البيعة ، وطائفة على البيعة ، وطائفة على القلب ، فادفع الناس بين أيديهم ، واتفق أني كنت في القلب ، ففر القلب فرارا عظيما ، فنويت التجهيز إلى البيعة ، وكانت أقرب إلى ، فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة ، فنويت التجهيز إلى البيعة ، فرأيتها وقد فرت أشد

(١) هذه البيعة غير موجودة في (م) .

(٢) (م) : « أرسوف » وهو خطأ واضح .

فرار من السكل ، فتويت التحيز إلى طلب السلطان - رحمه الله - ، وكان رد الأطلاب كلها كما جرت العادة ، فأقبحته ولم يبق السلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلا لاغير ، وأخذ الباقين إلى القتال ، لكن الأعلام باقية ، والكوس يذق لايقتر . وأما السلطان - رحمه الله عليه - فإنه لما رأى ما نزل بالمسلمين من هذه النازلة سار (١٥٠) حتى أتى طلبه ، فوجد فيه هذا النفر القليل ، فوقف فيه والناس يفرون من الجوانب ، وهو يأمر أصحاب الكوس باللق ، بحيث لا يفترون ، وكلا رآه قارًا يأمر من يحضره عنده ، وفي الجملة ما قصر للمسلمون في فرارهم ، فإن المدو حل حلة ، ففروا ، ثم وقف خوفا من السكين ، فوقفوا ، وقاتلوا ، ثم حل حلة ثانية ، ففروا وهم مقاتلون في فرارهم ، ثم وقف فوقوا ، ثم حل حلة ثالثة ، حتى بلغ إلى رموس روابي هناك وأعلى تل ، ففروا إلى أن وقف المدو فوقوا . وكان كل من رأى طلب السلطان واقفا والكوس يذق يستحيان مجازوه ويتخاف غائلة ذلك ، فيسود إلى الطلب ، فاجتمع في الطلب خلق عظيم ، ووقف المدو قبالتهم على رموس التل والروابي ، والسلطان - رحمه الله - واقف في طلبه ، والناس يجمعون إليه ، حتى ثابت المسكر بأسرها ، وخاف المدو أن يكون في الشراكين ، فتراجعوا يطلبون للزفة ، وعاد السلطان - رحمه الله عليه - إلى تل في أوائل الشرا ، ونزل عليه لا في خيمته ^(١) . ولقد كنت في خدمته - رحمه الله عليه - أسليه وهو لا يقبل السوا ، وظل عليه بتدليل ، وسأناه أن يعلم شيئا من الطعام ، فأحضر له شيء لطيف ، فتناول منه شيئا يسيرا ، وبعث الناس خيولهم إلى السقي ، فإن لاء كان بعيدا منهم ، وجلس ينتظر الناس من العود (١٥٠ ب) من السقي ، والجرى يحضرون بين يديه ، وهو يصعد بمدواتهم وحلهم ، وقتل في ذلك اليوم رجلا كثيرة ، وجرح جماعة من الطائفتين : وكان ممن ثبت للملك المادل - رحمه الله عليه - والطواشي قايمز النجى ، والملك الأفضل وله . وصدم في ذلك اليوم واقتح دمل كان في وجهه ، وسار منه دم كثير على وجهه ، وهو صابر محتسب في ذلك كله - رحمه الله عليه - . وثبت ذلك اليوم طلب للوصول ومقدمه علاه الدين ، وشكره السلطان على ذلك . وتقدم الناس بعضهم بعضا فوجد وقد استشهد جماعة من المسكر عرف منهم " أمير شكار موتك " . وكان رجلا شجاعا مبروفا ، وقايمز العالي وكان مذكورا ، وأبروش ^(٢) . وكان شجاعا ، أسف السلطان - رحمه الله عليه - عليه ، وجرح خلق كثير وخيول كثيرة ، وقتل من المدو جماعة ، وأسر واحد ، وأحضر ، فأمر - رحمه الله - بضرب عنقه فقتل ، وأخذت منهم خيول أربعة . وكان قد تقدم - رحمه الله - إلى التل أن يسير إلى العونجا ،

(١) م : « في خيمته » .

(٢) م : « أمير كبير ملوك » .

(٣) م : « ليفوش » .

وذكر أن المنزل يكون على الموجاء فاستأذنته وتقدمته إلى المنزل ، وجلس هو - رحمه الله - ينتظر اجتماع الساکر وما يرد من أخبار العدو ، وكان العدو قد نزل على أرسوف قبلها .

المنزل التاسع :

وسرتُ بعد صلاة الظهر حتى أتيت النخل ، وقد نزل (١٥١) قاطع النهر للمروءة الموجاء في منزلة خضرة طيبة نضرة على جانب النهر ، ووصل السلطان - رحمه الله - إلى المنزة أولاً وأخير النهار ، وازدحم الناس على القنطرة ، فنزل على تل مشرف على النهر ، ولم يمض (^١) إلى انليمة ، وأمر الجاوش أن تلدى في المسكر بالمبور إليه ، وكان في قلبه من الوقمة أمر لا يملكه إلا الله تعالى ، والناس من جريح الجسد وجريح القلب ، وأقام السلطان - رحمه الله عليه - إلى صحرة ليلة الأحد الخامس عشر من شعبان ، سنة سبع وثمانين وخمسة ، ودق الكوس ، وركب الناس ، فسار راجعاً إلى جبة العدو حتى وصل إلى قريب من أرسوف ، وصف الأطلاب للقتال ، رجاء خروج العدو ومسيره حتى يصادمه ، فلم يرسل العدو في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح ، فأقام - رحمه الله عليه - قباتهم إلى آخر النهار ، وعاد إلى منزله التي بات بها ، فبات بها ليلة الاثنين السادس عشر .

ولما كانت صبيحة الاثنين دق الكوس ، وركب ، وركب الناس ، وسار نحوهم ، ووصل خبر العدو وقد رسل طالياً جهة قافا ، فقاربهم - رحمه الله عليه - مقاربة عظيمة ، ورتب الأطلاب ترتيب القتال ، وأخرج الجاليش ، وأحدث السكر الإسلامى بالقوم ، وألقوا عليهم من النشاب ما كاد أن يبدد الأفق ، وقاتلهم قتال الحنق ، وقصد - رحمه الله (١٥١) - تحريك عزائمهم على الحقة ، حتى إذا حملوا ألقى الناس عليهم ، ويطى الله النصر لمن يشاء ، فلم يحلوا ، وحفظوا نفوسهم ، وساروا مصطفين على عافيتهم حتى أتوا نهر الموجاء ، وهو النهر الذى منزلنا أعلاه ، فنزل في أسفله ، وعبر بعضهم النهر ، وأقام الباقون من الجانب الشرق . ولما علم نزولهم تراجع الناس عنهم ، وعاد السلطان إلى النخل ، فنزل - رحمه الله عليه - في خيمته ، وأطعم الطعام ، وأتى بأربعة من الفرنج قد أخذتهم العرب ومعهم امرأة فدفوا إلى الزردخانه ، وأقام بقية اليوم في تلك المنزة يكتب الكتب إلى الأنوار باستحضار بقية الساکر ، وحضر من أخبره أنه قتل من العدو يوم أرسوف خيل كثيرة ، وأنه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة ، وخرج أيضاً من المسلمين خيل كثيرة ، وأمر السلطان - رحمه الله عليه - أن رسلت الجبال ، وتقدمت إلى الرملة وباتت بها ، وبات هو - رحمه الله عليه - في تلك المنزة .

المزل الماشر :

ولما كان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة صلى الصبح - رحمة الله عليه - ورجل وزجل معه الثقل الصغير ، وسار يريد الرملة ، وأتى باثنين من الفرنج فأمر بضرب أعناقهما ، ووصل من البركة الإسلامي من أخير أن المدو رسل يريد يافا^(١) ، وسار السلطان - رحمة الله - إلى أن (١٥٢) أتى الرملة ، ونزل في الثقل الكبير ، وأتى باثنين من الفرنج أيضاً ، فسألهم عن أحوال القوم ، فذكروا أنه ربما أقاموا يافا أياماً وفي أنفسهم عمارتها وإشحاتها بالرجال والعدد ، وأحضر السلطان - رحمة الله عليه - أبواب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان ، وأنها هل تغرب أم تبق ، وافترق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من المسكر قريباً من المدو ليرف أخباره وإصلاحها ، وأن يسير هو - رحمة الله - بخرب عسقلان خشية من أن يستولى عليها الفرنج وهي عامرة فيطلبوا ما بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف - يسر الله فتحه - ويقطعوا بها طريق مصر المحروسة ، وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا ، وما جرى على من كان مقياً بها ، وجماع الناس عن الدخول في عسقلان ، ولادخرت القوة في عسكر الإسلام لحفظ القدس المحروس ، فعمى ذلك كله خراب عسقلان ، فسار الثقل الجلال من أول الليل ، وتقدم - رحمة الله - إلى ولده الملك الأفضل أن سار حبيب الثقل نصف الليل ، وسار هو - رحمة الله عليه - وأنا في خدمته سحرة ليلة الأربعاء .

المزل الحادى عشر :

وهو على عسقلان

ولما كان يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة (١٥٢ ب) وصل السلطان - رحمة الله - إلى بطنى ، فنزل بها ونحى ، وأخذ الناس راحة ، ثم رسل - رحمة الله عليه - وسار حتى أتى أرض عسقلان بعد صلاة العصر ، وقد ضربت خيمته بعيداً منها شمال البلد في أرض طيبة حسنة ، فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان ، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً ، ولقد دعانى إلى خدمته سحراً ، وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت ، وبدأ الحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في ذلك وأنا في خدمتهما ، وطال الحديث في المعنى ولقد قال لي رحمة الله عليه : « والله لأن أقصد أولادى كلهم أحب إلى من أهدم منها حيراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله بذلك وعيتم لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع ؟ » .

(١) م : « رسل من يافا » .

ذكر خراب عقلاق

ثم استخار الله تعالى ، فأوقع الله في نفسه أن للملحمة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها عن الفرنج ، فاستحضر الولى بها قصير^(١) وهو من كبار عماليكه وذوى الآراء منهم ، فأمره أن يضع فيها للمول ، وذلك في سحره ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسة ، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر^(٢) الناس للخراب ، وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير ومطابقة من المسكر (١٥٣) بدنة معلومة وبرجا معلوما يخربونه ، ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج واليكاء ، وكان يلهذا نضرا خفيفا على القلب ، محكم الأسوار ، عظيم البناء ، مرغوبا في سكناه ، فلقى الناس عليه حزن عظيم ، وعظم عويل أهله وبكائهم على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع ما لا يمكن حله ، وبيع ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد ، وروى الناس أقشمتهم بالثمن البض حتى بيع اثنا عشر طيرا من الحجاج بدرهم واحد^(٣) واخبطت البلد ، وخرج أهله إلى المسكر للنصور بذرايعهم ونسائهم ، خشية أن يهجم الفرنج البلد ، ويدلوا في الكرى أضفاف بما يساوى ، قوم إلى مصر ، وقوم إلى الشام ، وقوم يلبثون^(٤) إذا لم يقع لهم كرى ، وجرى أمور عظيمة ، وفتنة هائلة ، لعلها لم تحتصم بالدين ظلالها ، وكان هو بنفسه وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في الخراب والحل عليه ، خشية إن سمع العدو فيحضر ولا يمكن من خرابها ، وبات الناس في الخلم على أتم حال من التعب والنصب . وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل من أخير أن الفرنج تحذوا معه في الصلح ، وأنه خرج إليه ابن المنقري ، وتحدث معه في المعنى ، وأنه طلب جميع البلاد الساحلية ، فرأى السلطان - رحمه الله - أن ذلك مصلحة لما رأى في نفوس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصاهرة ، (١٥٣ ب) وكثرة ما علام من الهيون ، وكتب إليه يسمح له في الحديث في ذلك ، ففوض أمر ذلك إلى رأيته . وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الإصرار من الخراب ، واستعمال الناس فيه ، وحشهم عليه ، وأباحهم المهرى الذى كان ذخيرة في البلد للعجز عن هله ، وضيق الوقت ، وانطوف من هجوم الفرنج ، وأمر بحريق البلد ، فأضمرت النار في بيوته وآثره ، فأضمرت النار فيه ، ورفض أهله بواق أقشمتهم للعجز عن هله ، والأخبار تتوارى من جانب العدو بمهارة يافا . وكتب الملك العادل يخبر أن القوم لم يسالوا بخراب البلد ، وكتب إلى الملك العادل أن : « سوف القوم وطول

(١) كذا في الأصل ، و (م) : « قصر » .

(٢) م : « مستنفر » وهو خطأ واضح .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) م : « يلبثون » .

الحديث معهم لما تمكن من خراب البلد . وأمر بحشو أبراج البلد بالأحطاب . وأن تحرق . وأصبح يوم السبت الحادى والمسنون ركب - رحمة الله عليه - بحث الناس على الخراب والحريق ، ودام على ذلك يستعمل الناس فى التعريب ، ويطوف عليهم بنفسه بحثهم على ذلك حتى التفت مزابيه التياتا قريبا ، امتنع بسببه من الركوب والنفاد يومين ، وأخيار المدو تتواصل إليه فى كل وقت ، ويمر بينهم وبين اليرك والمسكر القريب وقعت وقليات ، والأخبار تتواصل إلينا وهو يرابط على الحث على الخراب ، ونقل النفل إلى قريب البلد ، ليماونوا النملان والحالين وغيرهم فى ذلك ، فخرّب من السور معظمه ، وكان (١٥٤) عظيم البناء بحيث إنه كان عرضه فى مواضع تسعة أذرع ، وفى مواضع عشرة أذرع ، وذكر بعض الحبارين للسلطان - رحمه الله - وأنا حاضر ، أن عرض البرج ^(١) الذى يتقنون فيه مقدار ربع ، ولم يزل الخراب والحريق يصل فى البلد وأسواره إلى سائح شعبان المذكور . وعند ذلك وصل من جريدك كتاب يذكر فيه أن القوم تسحوا وصاروا يخرجون من يافا ويهيمون على البلاد القريبة منها ، فلم تحرك السلطان قلعه يبلغ منهم غرضا فى عزتهم ، فعزم على الرحيل وعلى أن يغلب فى عسقلان حبارين ومعهم خيل تحميمهم منتقصون فى الخراب ، فرأى أن يتأخر بحيث يحرق البرج للعروف بالاستبر ، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كاقلة للنبية ، واقد دخلت ولفته ، فرأيت بناء أحكم بناء يفرض أن يكون ، لا تميل فيه الماويل ، وإنما أراد أن يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ، ويعمل المدم فيه وأصبح يوم الإثنين مستهل رمضان سنة سبع وثمانين وخمسة أمر ولده لالك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه ، ولقد رأيت يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ، ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه فى البرج حتى امتلأ ، ثم أطلقت فيه النار ، فاشتعل الخشب ، (١٥٤ ب) وبقى النار تشتعل فيه يومين بليتها ، ولم يركب السلطان - رحمه الله عليه - فى ذلك اليوم تسكين المزابيه ، وعرض لى أيضا نشوش مزاب اقتضى إقلاعى عنه فى ذلك اليوم ، وقد تردد إلى من يسأل عن مزابى عنه ثلاث مرات ، مع اشتغال قلبه - رحمه الله - بذلك اللهم ، فله تعالى برحه ، فقد مات محاسن الأخلاق بموته ، رحمه الله .

ذكر نزوله يثني^(١)

ورحل تلك الليلة وهي ليلة الثلاثاء ثاني رمضان من سنة سبع وثمانين وخمسة وكان رحيله نصف الليل خشية على مزاجه من الحر ، وصلىنا الصبح ، ورحلنا ، ووصل هو - رحمة الله عليه - يثني ضاحي نهار الثلاثاء ، وبدأ نزل في خيمة أخيه الملك العادل ، واستلم منه أخبارهم ساعة ، ثم ركب ونزل في خيمته ، وبات تلك الليلة في تلك الليلة .

ذكر رحيله إلى الرملة

وأصبح في يوم الأربعاء ثالث رمضان سنة سبع وثمانين وخمسة وأحلا إلى جهة الرملة ، فسار حتى أتاهها ضاحي نهار ، ونزل بالقل الكبير هناك نزول إقامة ، ورتب المسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وأطعم الناس الطعام ، ثم أخذ جزءا من الراحة ، وركب بين صلاتي الظهر والمصر ، فسار إلى لد ، فرأى ورأى ييمتها وعظم بناؤها ، فأمر بجربها وخراب قلعة الرملة أيضا ، ووقع الخراب في اللوزمين في ذلك اليوم (١٥٥) وفرق الناس فرقا لتضريب اللكائين ، وأباح ما فيهم من الدين والشهير في الأهرام السلطانية ، وأمر من كان فيهم من المؤمنين بهما إلى الانتقال إلى اللواضع المارة ، وما كان يقي في اللكائين إلا ضرير ، وظل الناس يغيرون إلى أن أمسى المساء . ثم عاد إلى خيمته . وأصبح يوم الخميس رابع رمضان ، وأقام الحجارين في اللكائين ورتب عليهم من يستخدمهم في ذلك ، وهو يتردد إليهم في الأسائل حتى جاء وقت المغرب ، فذ الطعام وأفطر الناس ، وانفصلوا إلى خيامهم ، ووقع له أن يسير خفية في نهر يسير يشاهد أحوال القدس الشريف - يسر الله خلاصه - فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة ، فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ، وسار حتى أتى القدس الشريف - خلعه الله تعالى - في يوم الجمعة خامس رمضان المذكور ، وخلف أخاه الملك العادل - رحمة الله - في المسكر يمشي الناس على الخراب ، فصلى الجمعة ، وأقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القدس في حمارته ويميرته وعدته ورجاله وغير ذلك . وظفر في ذلك اليوم غلمان الطواشي قائماز ينظر من انصاري ، ومعهم كتب قد كتبها الرولى إلى السلطان قربة التاريخ ، يذكر فيها إعراز البلد لفة والمدة والرجال ، وأرادوا حملها إلى المدو ، فوقف على الكتب ، وضربت (١٥٥ ب) رقاب من كانت معهم ، وما زال يتصفح أحوال المكان ، ويأمر بدخله إلى يوم الإثنين ثامن رمضان . ولما كان الاثنين خرج سائر المسكر بعد صلاة الظهر فبات في نوبة . وفي هذا اليوم وصل ممر الدين تيسر شاه

(١) هذا العنوان غير موجود (م) ، وإنما مكانه هناك العنوان التالي بالفتح هنا . وقال ياقوت : يثني بالغيم ثم السكون ونون وألف : يبد قرب الرملة . ١٠٠٧/٤ ط لينج .

.. صاحب ملطية - ابن قليج أرسلان ، وانذا عليه مستعزاً به على أخوته وأبيه ، فلتهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه فلقية الملك المادل - رحمه الله - قاطع لُد ، واحترمه وأكرمه ، ثم قيه بده ولد السلطان الملك الأفضل ، وضربت خيمته قريباً من لُد ، وفي ذلك اليوم خرج من المدو حشاشة فغل عليهم اليزك ، ووصل الخيل إلى عسكرهم ، ففرج في نصرتهم خيلة ، وجرى بينهم وبين اليزك قتال ، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم الانكسار ، وأن مسلماً قصد طعنه ، فزال بينه وبينه فرنجي ، فقتل الفرنجي وجرح هو ، هكذا ذكر والله أعلم .

ذكر عوده إلى المسكر^(١)

رحمه الله

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل - رحمه الله - إلى المسكر وقيه الناس مستبشرين بقدومه ، وقيه ابن قليج أرسلان ، قتل له واحترمه وأكرمه ، ونزل في خيمته - رحمه الله عليه - وأقام يحث على الغراب ، وتتواصل أخبار المدو إليه ، ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ، وتسرق (١١٥٦) العرب من خيولهم^(٢) وبغالهم ورجلهم^(٣) .

ذكر وصول رسول المركيس^(٤)

وفي غضون ذلك وصل رسول من المركيس يذكر أنه يصلح الإسلام بشرط أن يعطى صيدا ويبروت على أن يحامر الفرنج بالمدواة ، ويقصد عكا ويحاصوها ويأخذها منهم ، واشترط أن يبذل له السلطان - رحمه الله عليه - الخمين على ذلك ابتداء ، فسير إليه اللندل النقيب ، وحمل الإجابة إلى ملتبسه قصد فصله عن الفرنج ، فإنه كان خيفاً ملموناً ، وكان قد استشعر منهم أخذ بلده ، وهى صور ، منه ، فأعجاز عنهم ، واستمع بصور وهى متيمة ، فقبل ذلك القول منه بهذا السبب .

وسار النقيب المدل مع رسوله في يوم الجمعة ثاني عشر رمضان من السنة المذكورة ، واشترط عليه أن يبدأ بحاصرة^(٥) القوم وحصار عكا وأخذها ، وإطلاق من بها ومن بصور من الأسارى ، وعند ذلك يسلم إليه للوضمان . وفي عشية ذلك اليوم خرج رسول الانكسار إلى الملك المادل في تحريك سلسلة الحديث في الصلح .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « ويتألفهم رجلهم » .

(٣) الأصل : « ذكر رسول للمركيس » والصحيح عن (م) .

(٤) م : « بجامرة » .

ذكر رحيل السلطان من الرملة

رحمة الله^(١)

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة رأى السلطان - رحمة الله عليه - أن يتأخر بالسفر إلى الجبل ، ليتمكن الناس من إنقاذ دوابهم إلى الملوقة ، فإننا كنا على الرملة قريبين من العدو ، وما يمكن التفريط في (١٥٦ ب) للدواب خشية للمهاجرة ، فرحل - رحمة الله عليه - ونزل على تل متصل بجبل النطرون بالنقل الكبير وجميع المسكر ماعدا البزك على المائدة ، وذلك بعد خراب الرملة وأُذِّ ، ولما نزل هناك في ذلك اليوم دار حول النطرون ، وأمر بتفريدها ، وكانت قلعة متينة حصينة من القلاع المذكورة ، فشرع في خرابه ، وترددت الرسل بين الملك المادل والانكسار يذكرون عنه أنه قد سلم أمر الصلح إلى الملك المادل ، وأخذ إليه ، وخرج منه عشرة أخص إليه إلى البزك ، فأخبروه بأخبار طيبة ، كتب بها إلى السلطان - رحمة الله عليه - في عشية الأربعاء سابع عشر رمضان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ذكر موت الأفرنيس^(٢)

فكان مما أخبر به الملك المادل أن ملك الأفرنيس مات ، وكان موته في أنطاكية عن مرض عرض له ، وأن الانكسار عاد إلى عكا ، وكان سبب عوده إلى عكا أنه صبح عنده مراسلة الرئيس للسلطان - رحمة الله عليه - وبلغه أن الرئيس قد انتظم الحال بيننا وبينه ، وأنه قد استقرت القاعدة على عكا ، فماد هو إلى عكا لتسخ هذه المصالحة ، واسترجاع الرئيس إليه ، وأقام الملك المادل في البزك ، وركب السلطان - رحمة الله عليه - يوم الخميس الثامن عشر من الشهر ، وسار السلطان - رحمة الله عليه - إلى البزك ، واجتمع (١٥٧) بأخيه الملك المادل في له ، وسأل منه الأخبار ، وعاد إلى الحميم وقت العصر ، وأتى باثنين من الفرنج قد تخطفها البزك ، فأخبرا بمسحة موت الأفرنيس وعود الانكسار إلى عكا .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

ذكر مسير الملك العادل إلى القدس الشريف

بِسْمِ اللَّهِ خَلَّاهُ

«ووصول خبر وفاة قزل بن إلى ذكر»

ولما كان يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسة اتقى الحال تفقد أحوال القدس والنظر في عمارته ، وكان الملك العادل قد عاد من البرك ، وعلم بهذا مقدس الفرج عنا ، فرأى أن يكون هو الذى يسير إلى القدس ، ويقتد أحواله ، فسار في ذلك لهذا الغرض .

وفي تاريخ هذا اليوم - وصل كتاب من الملك المظفر تقي الدين - رحمه الله - يخبر فيه أن قزل صاحب ديار الجبل ابن إيلدكز قفز عليه أصحابه قتلوه ، وقيل : إن ذلك كان من تحت يد زوجته تمصباً للسلطان طغرل ، وجرى بسبب قتله في بلاد الجبل خبط عظيم ، وكان قتله - على ما قبلنا - في أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسة ، والله تعالى أعلم .

ذكر عود الملك العادل

رحمه الله

من القدس الشريف^(١)

ولما كان يوم الأحد حادى عشرى رمضان قدم الملك العادل من القدس قبيل العصر . وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب (١٥٧ ب) من الديوان المميز النبوى يذكر فيه قصد الملك المظفر تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببيكتدر ، ويشفع فيه في حسن بن فقيح ، ويتقدم بإطلاقه ، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بإربل المحروسة ، ويتقدم بمسير القاضى الفاضل إلى الديوان لبت حال وفصل أمر فسير الكتاب إلى القاضى الفاضل ليقت عليه ، وكتب إلى الملك المظفر بذلك .

ذكر أخبار يرك كان على عكا

وقضية لموص دخلوا في خيام العدو

ولما كان يوم الاثنين الثانى والعشرين من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسة أحضر الصوص فرسا وبنته قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوا منها ، وكان قد ذيون^(٢) - رحمه الله عليه - ثلاثمائة لص من شيوخ العرب

(١) هذا الجزء من العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٣) م : « وقب » .

يدخلون ويسرقون منهم أموالهم ونسبهم ، ويسرقون الرجال أحياء ، وفلك أنه يكون الواحد منهم نائماً ، فيوضع على حلقه الخنجر ، ثم يوقظ فيرى السلاح والخنجر في يده ، وقد وضعه في غمزه ، فيسكت ولا يتجاسر أن يتكلم ، فيحصل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيمة ، ويؤخذ أسيراً ، وتكلم منهم جماعة فصحروا ، فصار من أصابه ذلك سكت واختار الأسر على القتل ، ودلوا على ذلك مدة طويلة إلى اعتظام الصلح . وفي تاريخ ذلك اليوم وصل إلى البزك المرتب (١١٥٨) على عكا في موضع يقال له الزيب وخبر أسارى مع رسول من البزك أخبر أنهم خرجوا من عكا وتفرسحوا ، وأن البزك حمل عليهم فأسر منهم أحدًا وعشرين نساً وأن الأسارى أخبروهم بصحة عود الانكسار إلى عكا ، وأنه مريض بها ، وأخبروا عن ضعف أهل عكا وقرم وقلة الميرة عندهم . وفي هذا التاريخ وصلت لعدو مراكب عدة قبل إنها وصلت من عكا ، وإن فيها الانكسار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلان ويسرها ، وقيل ليقصد القدس ، والله أعلم .

ذكر خبر وصول الأسارى المذكورين^(١)

ولما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرون من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسة وصل الأسارى من الزيب ، وكان وصولهم مفرجاً للسليمان مبشراً بكل خير . وفيه وصل رسول قزل كان قد سيره قبل وفاته ، ورسول ابن أخيه اينالج . وفي عشية وصل رسول من الانكسار ومعه حصان إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنقذها إليه .

ذكر وفاة حسام الدين بن لاجين^(٢)

فيه وصل خبر وفاته بمحروسة دمشق لمرض كان اعتراه ، وصحب على السلطان - رحمه الله عليه - موته وشق عليه . وفيه وصل كتاب من سامه يذكر فيه أن البرنس - رحمه الله - أغار على جبة والأدقية ، وأنه كسر كسرة عظيمة ، (١١٥٨ ب) قتل منه جماعة ، وعاد إلى أنطاكية مخفولاً .

ذكر دخول رسول الملك العادل

إلى الإنكسار

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من رمضان سنة سبع وثمانين كان البزك للعادل ، فطلب الانكسار رسوله ، فأقذ إليه الصنيعة ، وهو كاتبه ، كان شاباً حسناً ، فوصل إليه وهو في جزور ، وصل إليه وقد خرج جمع كثير

(١) العنوان غير موجود في (م) .

من الرجاء ، وابتغوا في تلك الأرض ، فاجتمع به وسيرة معه زمانا طويلا ، وحده في معنى الصلح ، وقال : « لا أرجع عن كلامي تحدثت به مع أخى وصديقي - يعني للآل المادل - رحمه الله - » وذكر له كلاما عاد إلى الآل المادل وأخبره به ، وكتبه في رقعة ، وأغذها إلى السلطان - رحمه الله - ، فوصلت قبل العصر من اليوم المذكور وكان يتضمن : « إنك تسلم عليه ، وتقول له : إن للسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حق ، وليس هناك حديث بسوى القدس والصليب ، والبلاد ، والقدس فتبدينا ما نزل عنه ، ولم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيماد إلينا منها ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ، ونصلح ونستريح من هذا العناء الهائم » . ولما (١٥٩) وقف السلطان - رحمه الله عليه - على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة من دولته ، واستشارهم في جواب ذلك ، والذي رآه السلطان - رحمه الله - في جواب ذلك أن قال : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجمع اللائكة ، فلا يتصور أن نزل عنه ولا تقدر على التلطف بذلك بين السلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلائكم كان طارئا علينا ، لصف من كان بها من السلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عماره حجر منها مادام الحرب قائما ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله منه ونقتطع به ، وأما الصليب فهناك عندنا قرابة عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نقرط فيها إلا المصلحة واجبة إلى الإسلام هي أوفى منها » . وسار هذا الجواب إليه مع الواصل منه .

ذكر هرب شيركوه بن باخل من عكا

وكان فيها أسيرا

ولما كان أواخر نهار الجمعة السادس والعشرين من رمضان المذكور وصل شيركوه بن باخل الزوزاني ^(١) ، وهو من جملة الأمراء للأسوريين بمكة - يصر الله فضحا - ، وكان من قصته أنه هرب ليلة الأحد الحادي والعشرين من شهر رمضان ، وذلك أنه كان ادخله حبلا في غدته ، وكان الأمير حسين (١٥٩ ب) بن باريك - رحمه الله - ادخله حبلا في بيت الطهارة ، فاقفعا على الحرب ، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة ، واحمدا من السور الأول ، وعبر شيركوه من الباشورة أيضا ، وكان ابن باريك حاقا نزوله اضطلع به الليل ، ونزل شيركوه سليا ، فرآه وقد تنير من الرقعة ، فسلمه فلم يجبه ، فخرقه فلم يتحرك ، فزهده عساه ينشط ويسير معه فلم يقدر ، ففعل أنه إن أقام عنده أخذها جميعا ، فتركه وانصرف ، واشتد هربا في قيوده ، حتى أتى تل المياضية وقد طلع الصبح ، فأكن في الجبل .

(١) هذا التفظ غير موجود (م)

حتى علا النهار ، وكسر قيوده ، وسار ، وسر الله تعالى عليه ، حتى أتى للمسكر المتصور في ذلك الوقت ، ومثل بخدمة السلطان - قدس الله روحه - وكان من أخباره أن سيف الدين المشطوب ضيق عليه ، وأنه قطع عن نفسه قطعة عظيمة من خيل وبغال وأنواع أموال ، وأن ملك الانكشار - خذله الله تعالى - أتى عكا ، وأخذ كل من كان له بها من خدمه وعاليكم وأقشته ، ولم يبق له فيها شيئا ، وأن فلاحى الجبل يمدونه بالميرة مدا عظيما ، وأن طنزل السلاحدار أحد خواص عماليك السلطان - قدس الله روحه - دمر بوا قبل هروب شيكوه .

ذكر رسالة سيّرتي فيها الملك العادل

إلى السلطان - قدس الله روحه -

مع جماعة من الأمراء

(١١٦٠) وذلك أنه لما كان يوم الاثنين التاسع والمشرون من شهر رمضان استدعاني الملك العادل في صبيحته ، وأحضر جماعة من الأمراء : عمّ الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين بن المقدم ، وحسام الدين بشارة ، وشرح لنا ما عاده به رسول من الانكشار المخذول من الرسالة والكلام ، وذلك أنه ذكر أنه "قد استقرت القاعدة على أن" يتزوج الملك العادل بأخت الانكشار - وكان قد استصحبها معه من مقلية - فإنها كانت زوجة صاحبها وكان قد مات ، فأخذها أخوها لما اجتاز بمقلية ، فاستقرت القاعدة على أن يزوجه من الملك العادل ، وأن يستقر ملكهما يكون بالقدس الشريف وأن أخاها يطعها بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وحقلان وغير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ، وأن السلطان - قدس الله روحه - يعطى الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والإقطاع وأنه يسلم إليه صليب الصليوت ، وتكون القرايا للدواية والاستارية ، والحصون لها ، وأسرانا يملك أسرم ، وكذلك أسراهم ، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ويرحل ملك الانكشار طالبا بلاده في البحر وينفصل الأمر . (١٦٠ ب) هكذا ذكر رسول الملك العادل له عن ذلك ، ولما عرف ذلك الملك العادل بنى عليه أنه استحضرنه عنده ، وحلنا هذه الرسالة إلى السلطان - قدس الله روحه - ، وجلسنا التكميم فيها والجماعة يسمعون ، ويرض عليه هذا الحديث فلن استصوبه ورآه مصلحة له وللمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرضى به ، وإن أباه شهدنا عليه أن الجلال في الصلح قد انتهى إلى هذه الناية ، وأنه هو الذي رأى إبطاه ، فلما مثلنا بالخطمة السلطانية عرضت

عليه الحديث ، وتلوت عليه الرسالة بحضور من الجماعة المذكورين ، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة ، معتقدا أن الملك الانكشار لا يوافق على ذلك أصلا ، وأن هذا منه هزؤ ومكر ، فكررت عليه الرضى بذلك ثلاث مرات ، وهو يصرح ويشهد على نفسه بالرضا به ^(١) ، فلما تحققنا ذلك منه عدنا إلى الملك المادل فعرفناه ما قال ، وعرفه الجماعة أنى كررت عليه الحديث في تهديد الشهادة عليه ، وأنه أمر على الإذن في ذلك ، واستقرت القاعدة عليه .

ذكر حود الرسول إلى الانكشار

بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان يوم الأربعاء ثاني شوال سار ابن النحال رسولا من جانب السلطان - قدس الله روحه - ومن جانب الملك المادل ، فلما وصل إلى نعيم العدو ، وأخذ عرف الملك (١٦١) بقدميه أخذ إليه أن الملك عرض عليها أخوها حديث التكاثر فستغلت من ذلك ، وغضبت بسببه ، وانكرت ذلك إنكارا عظيما ، وحلفت بدينها المظلم من بينها أنها لا تفعل ذلك ، وكيف تمكن مسلما من غشيتها ، ثم قال أخوها : إن كان الملك المادل يتنصر . فأنأتم ذلك ، وإن رضى فأنأفضل ذلك . وترك باب السلام مفتوحا فكتب الملك المادل إلى السلطان - رحمه الله عليه - وعرفه ذلك .

ذكر أخذ مركب مشهور للفرنج

يسمى بالسطح وكان عظيما عندهم ^(٢)

ولما كان يوم السبت خامس شوال فيه وصل بالغير أن الأصطول الإسلامي استولى على مركب الفرج ، وفيها مركب يعرف بالسطح ، قيل : إنه كان فيه خمائة نفر أو زائد على ذلك ، وأنه قتل منهم خلق عظيم واستعبوا منهم أربعة نفر كبار مذكورين ، وشر للسلطان بذلك ، وضرب بشار النصر ، ونمق بوق الفخر ، وفي الحد واللثة .

ذكر اجتماع الرأى من الأمراء

بين يدى السلطان - قدس الله روحه - ^(٣)

ولما كان يوم الأحد سادس شوال جمع السلطان - قدس الله روحه - أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته ، وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو ، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد انتقوا على الخروج إلى السكرك

(١) م : « وهو يقول ثم ويحذ على نفسه به » .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

الإسلامي فافصل الرأي بين قوى الكرامة من المسلمين على أنهم يقيمون (١٦١ ب) في منزلتهم بعد تخفيف الأثقال ، فلما خرج الفرنج كانوا على لقاءهم . وفي عشية هذا اليوم استأمن من الفرنج اثنان على فرسين ، وأخبرا أن المدو على عزم الخروج في يوم الثلاثاء ، وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس ، وذكر أنهم لا يعرفون قصدهم ، وهرب أسير مسلم من جانبهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم فيها يتفقون على موضع يتصلدون به . ولما تحقق السلطان - قدس الله روحه - ذلك أمر الجالوش أن يتلدى بالسكر للنصور حتى يتجهز حريصة ، وشدت الرايات ، وحقق مرزبه على أنه يقف قبالة القوم إن خرجوا ، وسار في يوم الاثنين مؤيدا منصورا حتى أتى قبلى كنيسة الرملة ليلا ، فقيم هناك وبات ليلته .

ذكر خروج الفرنج من يافا

ولما كانت صبيحة يوم الثلاثاء من شوال ونقب الأطلاب للقتال ، وسلم اليزبك للملك العادل ، فتبعه من يريد النزاة ، وكان وصل جماعة من الروم يريدون النزاة ، فخرجوا في جملة من خرج ، فلما وصلوا إلى خيام الفرنج - خذلهم الله تعالى - هجم عليهم للمالك السلطانية ، بقوة جاشهم ، وأنسهم بتقالم ، وقتلهم بجرا كبيرهم وعددهم ، ورموا عليهم النشاب ، فراحم النزاة والواصلون من الروم ، فاعتقوا بأقداسهم وواقفهم في فعلهم ، وقاربوا عسكري المدو ، فلما رأى الفرنج تلك المضايقة والنزاة (١٦٢) تارت بهمهم ، وحركتهم نحواتهم ، فركبوا من داخل الخيام ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحلوا في جمع كثير فنجبا من سبق به جواده ، وقدرت في القدم نجاته ، وظهر بمجاعة قتلا منهم ثلاثة نفر على ما قيل وقتلوا خيلهم إلى يزور ، وأقام السلطان - قدس الله روحه - تلك الليلة منازلهم إلى الصباح .

ذكر وفاة الملك المنصور

رحمة الله عليه

ولما كان يوم الجمعة سادى عشر شوال ركب السلطان - قدس الله روحه - إلى جهة البدو ، فأشرف عليهم ثم عاد . وأمرني بالإشارة إلى أخيه الملك العادل بأن يحضره معه علم الدين سليمان بن جندر ، وسابق الدين بن الحاية ، وعز الدين بن لقدم ، فلما مثل الجماعة بمجدهم أمر خلاصا أن أخلى للكان عن سوى الحاضرين ، وكثت في جبلتهم وأمره بإبعاد الناس عن الخيمة ، ثم أخرج كتبها من قباه ، وقصه ووقف عليه ، وبدرت دعوته - رحمه الله - وغلبة البكاء .

والنجيب ، حتى واقتناه من غير أن نعلم السبب مانع ، وفي أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن وفاة الملك للظفر — رحمة الله عليه — فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته . ثم أذكرته بالله تعالى وإبضاء^(١) قضائه وقدره فقال : « استغفر الله وإنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم قال : « المصلحة كتم ذلك وإخفاؤه (١٦٢ ب) ثلثا يتصل بالمدو ونحن منازلوه » . ثم أحضر الطعام وأكل الجماعة وانضموا . وكان الكتاب الواصل المتضمن نفيه هو غير الكتاب الواصل إلى حما بنديه في طي كتاب وصل من النائب بها . وكانت وفاته في طريق خلاط عائد إلى ميفارقين ، فحمل ميتا حتى وصل إلى ميفارقين ، ثم عُلِّت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حما ، وحُلَّ إليها ودفن ، وورث ضريحه — رحمة الله عليه — وكانت وفاته يوم الجمعة تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، رحمة الله عليه .

ذكر كتاب وصل من بندا

ولما كان يوم السبت الثاني عشر من شوال من السنة للذكورة وصل من دمشق كتاب من النواب بها في طيه كتب من بندا من الديوان العزيز النبوي — بحمد الله تعالى — يتضمن فصولا ثلاثة : الأول : الإنكار على الملك للظفر في مسيره إلى بكتسر ، ويبلغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لا يُسَلِّمُهُ . والفصل الثاني : يتضمن الإنكار على مظفر الدين في منك حسن بن قنجاك ، والأمر بإعادته إلى الكرخاني ، ويبلغ فيه حتى قيل فيه : إن الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكنها ، وكان من قصة حسن بن قنجاك أنه قصد أرميه إلى السلطان مُنْزِل ، فإنه كان نزل به في بيوته^(٢) لما هرب من ديار السجم ، واستنصر به ، وتزوج أخته ، ووقع في ذمته أنه يكون أتابك ، ويملك به (١٦٣) البلاد قصد أرميه ، فقتل أهلها على ما قيل ، وسبي نساءهم وذرايعهم ، وتعرض للقوافل ، وكان معقله الكرخاني ، فلما وجد السلطان بلنزل قوته تركه وانصرف عنه ، وعاد هو إلى بلاده ، وأظهر الفساد في الأرض ، والتعرض للقوافل على ما قيل ، فاستطفه مظفر الدين — صاحب إربل — حتى عاد إليه وانخرط في سلك أصحابه ، وقبض عليه ، فأخذ الديوان العزيز ذلك في منته ، لاستيلاء مظفر الدين على بلاده ، ولعله يشفع إلى الديوان ، فاقضت عاطفته ذلك في حقه . وأما الفصل الثالث : فكان يتضمن التقدم بإحضار القاضي الفاضل إلى الديوان العزيز رسولا ليقرر معه قواعد ، وتكشف^(٣) إليه أسباب . هذا كان مضمون الكتاب . وأما الجواب عنه فإن السلطان — قدس الله روحه — أجاب : عن الفصل الأول : « بأننا لم تأمره بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع

(١) م : « وإبهاء » .

(٢) م : « في بيوته » .

(٣) م : « ويسر » .

المساكر ويعود إلى الجهاد ، فانفق أسباب اقتضت ذلك ، وقد أمرناه بالموء عنه « . وأما الفصل الثاني فأجاب عنه : بأن عرفهم حال ابن قنقاج وما تصدى له من الفساد في الأرض ، وأنه قد تقدم إلى مظفر الدين حتى يحضره معه إلى الشام ، فيقطعه فيه ، ويكون ملازما للجهاد . وأما الفصل الثالث : فإنه احتذر عن القاضى (١٦٣ ب) الفاضل بأنه كثير الأمراض ، وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق . فكان هذا سلسل الجواب .

ذكر وصول صاحب ميدنا

رسولان للرئيس

ولما كان يوم الثلاثاء خلس عشر شوال^(١) من السنة للذكورة وصل من أخير بوصول صاحب ميدنا من جانب للرئيس صاحب صور ، وكان قد جرى بيننا وبينهم أحداث متروكة ، حاصلها أنهم يقطعون عن الفرنج ونصرتهم ، ويصبرون معنا عليهم بناء على فته كانت جرت للرئيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخى للملك جبرى ، وفسخ نكاحها بأمر اقتضاه دينهم ، واضطربت أروؤم فيه ، غفاف للرئيس على نفسه ، فأخذ زوجته وحرب من تحت الليل إلى صور ، وأخذ إلى السلطان - قدس الله روحه - والاعتضاد به ، وكان في ذلك مصلحة للسلمين ، لاضطراع الرئيس عن الفرنج ، فإنه كان من أشدم بأسا وأعظمهم للحرب مراسا ، وأثبتهم في التدبير أساسا ، وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان - قدس الله روحه - أمر بإجلائه واحترامه ، ففُضرت خيمة ، وضُرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بمنزلاتهم وملوكهم ، وأمر بإزالة في القتل ليستريح ، ثم يجتمع به .

ذكر واقعة الكيين

التي استشهد فيها إياز للهراي

قدس الله روحه

(١٦٤ ا) . ولما كان سلس عشر شوال من السنة للذكورة أمر السلطان - قدس الله روحه - الحلقة أن كنت للمدوني بطون أواد هناك ، واستصحبوا أجما من العرب ، فلما استقر الكيين في موضعه ظهرت العرب

(١) م : « ولا كان ثالث عشر شوال » .

على جرى عادتها في تناولتها للدو ، فكان الدو يخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريبا من غيمه ،
 "فبصر العرب بهم فغضبوا عليهم" (١) ، ووقع الحرب بينهم ، وثار الصياح ، فسمع الفرنج فركب منه جمع
 من الخيالة ، وطلبوا جهة الصوت (٢) ، وانهمز العرب من أيديهم إلى جهة الكين والدو يقبضهم طمعا فيهم ،
 حتى قاربوا الكين ، وخرج الكين عليهم ، وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد ، فانهزموا بين أيديهم نحو
 خيامهم . واتصل الخيل بالدو ، فركب منهم خلق عظيم ، وقصلوا نحو الوقمة ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ،
 وقتل جمع من الطائفتين وجرح وأسر جمع من الدو واخذ منهم خيل كثيرة .

كان سبب انفصال الحرب أن السلطان - قدس الله روحه - "حسب مثل هذا الواقع" ، فأخذ أمير آخر
 أسلم ، وسيف الدين يازكج ، ومن يجري مجراهم ، ردما للكين (٣) ، وقال : « إذا رأيت الغلبة على الكين
 فأنظروا » . فلما رأوا الكثرة من جاذب الدو خرجوا على الدو بخيلهم ورجلهم ، ولما رأى الدو الأخطاب
 الإسلامية قد صويت نحوه أعتة خيولها ولوا (١٦٤ ب) الأدبار نحو خيامهم ، والسيوف يمل في قبضهم ، حتى
 دخلوا الخيام ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعاء سادس عشر شوال . وكان السلطان - قدس الله
 روحه - قد ركب منشوقا أخبار الكين ، وكنت في خدمته ، فكان أول من وصل الوقمة جماعة من العرب ،
 ومعهم خمسة أرؤس من الخيل ، قد أخذوها من الوقمة ، وانفصلوا قبل انفصال الحرب . ثم مازالت القلائع (٤)
 تتواتر ، والبشار تتواصل ، وقتل في الوقمة من الدو على ما قيل زهاء ستين نفرا ، وجرح من المسلمين جماعة ، وقتل
 من اللروفين من المسلمين جماعة منهم إياز للهراني - رحمه الله عليه - وكان شجاعا معروفا ، وجاؤلى غلام
 الفيدى ، وسار مصرع إياز المعطى ، وجرح عدة جرائع ، وحمل إلى المسلمين ، وأسر من الدو فارسان معروفان ،
 واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما : وعاد السلطان - رحمه الله - إلى خيمته فرحا مسرورا ، وموضا من قتل فرسه ،
 متعلقا بالجرم ، وقرعها على الشهيد . وفي بقية اليوم وصل رسول الانكشار المادل بمتبه على الكين ويطلب
 الاجتماع به ، "فاستأذن ، فأذن له ، فسار إليه" .

(١) م : « غضب العرب وغضب العرب عليهم فغضبوا عليهم » .

(٢) كذا في الأصل ، و (م) : « العرب » .

(٣) م : « أحس بهذه الوقمة » .

(٤) م : « المسلمين » .

(٥) كذا في الأصل ، و (م) : « الطلائع » .

(٦) هذه العبارة ساقطة من (م) .

ذكر ماجرى للملك المادل والانكثار

واجتماعهما

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة المذكورة سار الملك المادل (١٦٥ ب) إلى البزك ، وضربت له فيه قوتية^(١) عظيمة ، وسار معه من الأطعمة والتجملات ولتحتف ماجرت المادة أن يحمل من الملك إلى ملك ، وهو إذا تجمل في ذلك لا يُقلب . وسار الانكثار إلى خيمته ، وحضر عنده على ما قيل ، واحترمه احتراماً عظيماً ، وبوصل مع الانكثار شيء من طعامهم الذى يختصون به ، فأتحف به الملك المادل على وجه اللطافية ، فتناول منه الملك المادل ، وتناول هو وأصحابه الراضون منه من طعام الملك المادل ، وقدم إليه ما كان محل إليه ، وتعادتا معظم ذلك النهار ، وتفاصيلا عن تواد ومطايبة ، ومحبة أكيدة .

ذكر الرسالة التى ألقاها الانكثار

إلى السلطان - قدس الله روحه -

في معنى الاجتماع به وجوابها

وفي ذلك اليوم سأل من الملك المادل أن يلتص له من السلطان - قدس الله روحه - الاجتماع به ، والتول بين يديه ، ولما وصلت هذه الرسالة شاور السلطان - قدس الله روحه - الجماعة في الجواب ، فما منهم من وقع له ما وقع له - رحمة الله عليه - وذلك أنه قال له : « الملوك إذا اجتمعوا يفتح منهم المحاسبة بعد ذلك ، فإننا انتظم أمر حنين الاجتماع ، والاجتماع لا يكون إلا لمقارضة في شيء ، وأنا لا أفهم بلسانك ، وأنت لا تفهم بلساني ، ولا بد من ترجمان بيننا ، تتق به وأثق به ، فليكن ذلك (١٦٥ ب) الترجمان رسولا حتى يستقر أمر ، وتستتب قاعدة ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذى يعقبه الوداد والمحبة » . قال الرسول : « ولما سمع الانكثار ذلك استعظم هذا الجواب ، وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرضه إلا بالدخول تحت المراضى السلطانية .

ذكر حضور صاحب ميديا بين يدي السلطان

- قلبي لله روحه -

وأداء الرسالة والحديث الذي وصل إليه

ولما كان يوم السبت تلسع عشر شوال من السنة المذكورة جلس السلطان - قدس الله روحه - واستحضر صاحب ميديا لسباع رسالته وكلامه ، فحضر وحضر منه جماعة وصلوا معه ، وكنتُ حاضرا المجلس ، وأكرمه - رحمة الله عليه - إكراما عظيما ، وحادثهم وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة ، ولما رُفِعَ الطعام خَلَّيَ بهم ، وكان حديثه في أن السلطان يصلح المركيس صاحب صور ، وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الفرنجية ، منهم صاحب ميديا وغيره من المروفين ، وقد سبقت قصته . وكان من شرط الصلح معه إظهار عدائته للفرنج البحرية ، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم ، وواقعة وقتت له معهم بسبب الزوجة ، وبذل له السلطان - قدس الله روحه - للواقعة على شروط قصد بها - رحمة الله عليه - الإيقاع بينهم ، وأن ينفل بعضهم^(١) ؛ فلما سمع السلطان - قدس الله روحه - رسالته ، وعلمه (١٦٦) بأن يرد عليه الجواب فيما بعد ، وانصرف عنه في ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول الانكشار

ولما كانت عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكشار وهو ابن المنفري وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم ، وصل رسولا في صحبته شيخ كبير منهم ، ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السلطان - قدس الله روحه - عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته أن للآك يقول : « إني أحب صداقتك وسودتك ، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك ، فأريد أن تكون حكيمتي وبينه ، ولا بد وأن يكون لنا علة بالقدس الشريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولا على لوم من الافرنجية » . فأجابه في الحال بوعده جميل ، ثم أخذ لم في العود في الحال ، وتأثروا بذلك تأثرا عظيما ، وأخذ ورواهم من سالم عن حديث الأسارى ، وكان منفصلا عن حديث الصلح ، فقال^(٢) : « إن كان الصلح قضي الجميع وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء » . وكان غرضه - قدس الله روحه - أن يستغ قاعدا الصلح ،

(١) م : « وأن ينفل بعضهم بعضا » .

(٢) م : « فقال » .

فإنه التفت إلى في [آخر] ^(١) المجلس بعد اغضالم ، وقال لى : « متى صالحنا لم تؤمن غائتهم ، فإنى لو حدث لى حادث الموت ما تكاد تجزع هذه المساكر ، ويقوى الفرنج ، وللصلحة (١٦٦ ب) ألا تزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت » . هذا كان رأيه - قدس الله روحه - وإنما غلب على الصلح - قدس الله روحه .

ذكر مشورة ضرها فى التنخير بين المسلمين

١٧ صلح الملك وصلح للمركيس صاحب صور

ولما كان يوم الاثنين حادى عشر من شوال ^(٢) جمع السلطان الأمراء الأكابر وأرباب المشورة ، وذكر لهم القاعدة التى اتسمها المركيس ، واستقر الأمر من جانبها عليها ، وهى أخذ صيدا ، وأن يكون معنا على الفرنج ، ويقاثلهم ويحاربهم بالمداوة ، وذكر لهم ما اتسمه الملك من تقرير قاعدة الصلح ، وهى أن يكون له من الترايا ^(٣) الساحلية مواضع معينة ، ويكون لنا الجليليات بأسرها ، أو تكون الترايا ^(٤) كلها مناصفة ؛ وعلى هذين القسمين يكون لهم أفساء ^(٥) فى بيع القدس الشريف وكفانه وكان الاكتثار قد شخّنا بين هذين القسمين ، فشرح - قدس الله روحه - الحال فى القاعدتين للأمراء ، واستنطب آراءهم فى ترجيح إحدى الجانبين ^(٦) : الاكتثار والمركيس ، وترجّح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك ، فرأى أرباب الرأى أنه إن كان صلح فليكن مع الملك ، فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطون ببعدة ، صحتة غير مأمونة النائلة . واضض الناس وبقي الحديث مرددا فى الصلح والرسل تتواصل (١٦٧) فى تقرير قواعد الصلح ، وأصل القاعدة : أن الملك قد بذل أخته للملك المادل بطريق التزويج وأن تكون البلاد الساحلية الإسلامية والفرنجية لها . فأما الفرنجية فلها من جانب أخيها والإسلامية للملك المادل من جانب السلطان . وكان آخر الرسائل من الملك فى المنى أن قال : « إن معاشرين النصرانية أنكروا على وضع أختي تحت مسلم بدون مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه ، وها أنا أسير إليه رسولا يمود فى ثلاثة ^(٧) أشهر ، فإن أخذ فيها ونمت ، وإلا زوجك

(١) ما بين المصارعين زيادة من (م) .

(٢) م : « بين الاكتثار والمركيس » .

(٣) م : « ولا تكلف حادى عشر شوال » .

(٤) م : « التري » .

(٥) م : « لوس » .

(٦) م : « أحد الجانبين » .

(٧) م : « فى ستة أشهر » .

ابنة أختي،^(١) وما أحتاج في إنعاق ذلك . هذا كله وسوق الحرب قائم ، والقتال عليهم ضربة لازب ، ومصاب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ، ويشرف على الفرنج^(٢) وقتال المسلمين لهم^(٣) ، وم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفاً من أن ينضاف للركيس إلى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتهم ، ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة خامس عشر شوال من السنة للذكورة .

ذكر رحيله إلى تل الجزر

قدس الله روحه

ولما كان يوم الجمعة أصبح السلطان - قدس الله روحه - على عزم الرحيل ، وأحضر أرباب الرأي ، وشارروهم في جواب رسالة القوم ، وعرض عليهم حديثهم ، وذكر ما عندهم في ذلك ، وأحضر الرسل ، وكان ابن (١٦٧) ب) المفزى يترجم بينه - قدس الله روحه - وبين البحرين ، واستقرت القاعدة على أن يُنفذ معهم رسولان من جانبه واحد ، ومن جانب الملك العادل الآخر ، لأن الحديث كان يتعلق به ، وكان من جملة رسالتهم أن البابا إن أذن في هذا المقدّم ، وإن لم يأذن فيه زوجنا الملك العادل بابنة أخت^(٤) الملك ، وهي بكر ، وذكروا أن من دينهم أن البابا إنما يحتاج إلى استئذانه في تزويج النبي من بنات الملوك ، وأما الأبقار فيزوجها أهلها^(٥) وكان الجواب عن ذلك أنه إن كان عقد فيكون على هذه ، لأنه سبق الحديث فيها ، ونحن لا نرجع عما قلناه ، وإن لم يتهيأ فلا حاجة بنا إلى غير ذلك^(٦) ، وافضل الحال على ذلك ، وسار الرسل إلى خيم الملك العادل ليتجهز رسول السلطان - قدس الله روحه - ويلحقهم ، ثم وصل بعد ذلك من البيزك من أخير أن الفرنج قد انقشروا منهم راجل كثير ، وخروجوا عن الأسوار التي لهم ، ولم يظهر غلروهم غائلة وسار - قدس الله روحه - إلى تل الجزر لارتداد المنزل^(٧) . وتبعه الناس في الرحيل ، فما كان الظهر إلا ووصل^(٨) الناس إلى السلطان - قدس الله روحه - فنزلنا بتل الجزر ، ولما عرف الفرنج - خذلهم الله - بهود السلطان رحلوا عائدين ، وأقام السلطان بتل الجزر ، ثم رحل إلى جهة القدس الشريف ورحل (١٦٨) الفرنج إلى جهة بلادهم ، واشتد الشتاء ومطرت^(٩) الأمطار ، وسار السلطان

(١) م : « ابنة أخي » .

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٣) م : « ابنة أخي الملك » .

(٤) هذه العبارة كلها ساقطة من (م) .

(٥) م « البيزك » .

(٦) م : « ورحل » .

(٧) م : « وعطلت » .

إلى القدس الشريف ، وأعطى المسافر دستوراً . وأقنا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع ، وعاد المدو إلى بلاده ، وأرصد
 « الانكشار في يافا عساكر^(١) » ثم عاد إلى عكا ينظر في أسوأها . وأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول : « إن الملك
 يقول : إنى أوتر الاحتياج بالملك المادل أخى فيه مصلحة تمود على الطائفتين ، فقد بلنى أن السلطان فرض أمر الصلح
 إلى أخى الملك المادل » . فقد السلطان - قدس الله روحه - مشورة في مضى الملك المادل ، واتفق رأى على
 أنه يحضى بحيث يجمع بساكرنا التى في النور وكوكب تلك النواصى ، ويحدثه ويقول له : « إن الحديث ،
 قد جرى بيننا مراراً ، وما أسفر عن مصلحة ، فإن كانت هذه الدفعة كثلك المصفت ، فلا حاجة إلى الحديث
 وإن كان الفرض يث حال تخارب الأمر ، وأنا لا أجمع بك إلا أن أرى مايقارب فصل الحال » . وقرر مع الملك
 المادل أنه إن رأى مايمكن فصل الحال عليه قصته ، وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل المسافر من الأطراف ، فالتمس
 الملك المادل تذكرة تتضمن نهى مايفصل الحال عليه ، فكتب معه تذكرة ذكر فيها المناصفت ، وذكر فيها
 من أمر بيروت أنه إن أضر على طلبها^(٢) اشترط خرابها (١٦٨ ب) ولا تضر ، وكذلك القابون ، وإن التمسوا
 حمارة وفر أجيب^(٣) ، ويعطى صليب الصليوت ، ويكون للتملة قس ، ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا
 السلاح ، وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الفزاة ، وكثرة الديون . والبلد عن الأوطان
 فإن من الناس من كان لا يفرق السلطان ، ولا يمكنه طلب دستور منه .

ذكر مسير الملك المادل

رحمه الله

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسة ، ثم وصل كتابه
 من ييسان يخبر أنه لقيه المنفرد مع الحاجب أبى بكر رسولاً من الانكشار يقول : « إنا قد وافقنا على مقاسمة
 البلاد ، وأن كل من في يده شيء فهو له ، فإن كان ماقى أيدينا زائداً أخذتم في مقابلته مايقابل الزيادة بما يخصنا ،
 وإن كان ماقى أيديكم أكثر فلنا كذلك ، ويكون القدس لنا ، ولكم فيه الصخرة » .
 هذا كان مضمون الكتاب فأوقف السلطان عليه الأمراء ، فاستصوب ذلك الأمير أبو الميجاء : ورأوا أن من
 قال هذا القتال^(٤) يوافق على ما مضى عليه الملك المادل ، وهو مصلحة . وسار الجواب إلى الملك المادل بذلك . ولا

(١) م : ووصل « الانكشار وعساكر » إلى يافا

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م)

(٣) م : « ورأوا » من حال هذا القتال أن يوافق عليه الملك المادل .

كان يوم الثلاثاء الخامس عشر من ربيع الأول^(١) وصل الحاجب أبو بكر صاحب الملك العادل يخبر أن الانتكاز للسلطان سار إلى ياقا من عكا ، وأن الملك السائل ما رأى أن يجتمع (١١٦٩) به إلا عن قاعدة منفصلة ، وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الانتكاز مفاوضات كثيرة ، حاصلها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا . والقلمة لنا ، والباقي مناصفة ، وأن لا يكون في البلد منهم مقدم مذكور ، وأن يكون قرايا القدس وباطنه مناصفة .

ذكر عود الملك للعادل من النور^(٢)

ثم قدم الملك العادل في سادس عشر ربيع الأول ، ولقيه السلطان - قدس الله روحه - واجتمعا ، وحكى ماسبق من الخبر .

ذكر غارة الفرنج خلفهم الله تعالى^(٣)

وفي بقية ذلك اليوم وصل من أخير أن الفرنج أغاروا على حلة عرب قريب الحاروم ، وأنهم أخذوا منهم جماعة ، وأخذوا منهم زهاء ألف رأس غنم ومواشي^(٤) ، فنظم ذلك على السلطان . وثنى عليه ، وسير جماعة فلم يلحقوهم .

ذكر انفصال رسول الرئيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب الرئيس ، ياتمس الصلح مع المسلمين ، فاشتراط - رحمة الله عليه - شروطا منها : أن يقاتل جنسه ويأبىهم . ومنها : أن كل ما أخذه من البلاد الفرنجية يعد الصلح بانفراده تكون له ، وما تأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا ، وما تنفق نحن وهو على أخذه يكون له نفس البلد ، ويكون لنا ما فيه من أسارى المسلمين وغير ذلك من الأموال . ومنها : أن يطلق لنا كل (١١٦٩ ب) أسير في مملكته . ومنها أنه إن فُرض إليه الانتكاز أمر البلاد لأمر يجري بينهم ، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر^(٥) بيننا وبين الانتكاز ، ماعدا عسقلان وما بعدها ، فإنه لا يدخل في الصلح ، فتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا ، وما في الوسط يكون مناصفة ، وسار رسوله على هذه القاعدة .

(١) م : « ولا كان حاضرا عشر ربيع الأول » .

(٢) هنا العنوان غير موجود في (م) .

(٣) هنا العنوان غير موجود في (م) .

(٤) هنا القلمة غير موجود في (م) .

ذكر وصول المسافر الإسلامية

في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة^(١)

فأول من وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، وكان وصوله يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة ، وصل جريدة مقدمة على عسكره .

ذكر خروج سيف الدين بن للشطوب من الأمر

وكان وصوله إلى القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة ، ودخل على السلطان - قدس الله روحه - بنته ، وعنده أخوه الملك العادل - رحمه الله - فنهض إليه واعتقه ، وسر به سروراً عظيماً ، وأخلى للسكان ، وتحدث بطرف من أحاديث المدو ، وسئل عن حديث الصلح فذكر أن الانكسار سكت عنه .

وفي هذا اليوم كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل حتى يسير إلى قاطع الترات يسلم البلاد من الملك للنصور ابن الملك الظفر ، وكان قد أظهر الصياني بسبب الخوف من السلطان على نفسه ، وأظهر ذلك ، ودخل في أمره الملك العادل ، وسير إلى الملك العادل حتى يتحدث في أمره ، وكان هو المتحدث (١١٧٠) له ، وكان ذلك قد شق على السلطان - رحمه الله عليه - ، وأثار عليه مفيضة عظيمة ، كيف^(٢) فتح هذا الباب من أهله ، ولم يكن أحد من أهله خاف منه ولا طلب يمينه ، وهذا كان السبب في توقف الانكسار في الصلح ، وأنه ظن أن هذا خلاف يكدر على السلطان شرب الفزاة ، ويخرج به إلى الواقعة على ما يرضى ، فنفذ إلى الملك الأفضل أن يسير إلى البلاد ، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب المحروسة « إن أخاه إن احتاج إلى معونة حالته » وجهزه بمحلة كبيرة ، وسار باحترام عظيم حتى وصل حلب المحروسة : ، وأكرمه أخوه الملك الظاهر إكراماً عظيماً ، وحمل له ضيافة تامة ، وقدم بين يديه تقدمة سنية . وعدنا إلى حديث المدو .

ذكر عود رسول صور

ولما كان سلاسل ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصل يوسف من جانب الركيك يمدد حديث الصلح ، ويقول : قد اضمحل الحال على شيء بينه وبين الفرنجية ، فإن نجز في هذه الأيام حارت الفرنجية

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « كيف يكون هذا الأمر من أهله » .

في البحر ، وإن تأخر بطل الحديث في الصلح مع المركيس بالكلية ، فرأى السلطان - قدس الله روحه - الصلح مع المركيس مصلحة ، لاشتغال قلبه من جانب الشرق ، وخاف أن يتصل ابن تقي الدين بيكتر ، فيحدث من ذلك ما يشغل الخاطر عن الجهاد ، فأجلب إلى ما (١٧٠ ب) يطمس المركيس ، وكتب مع صاحبه مواصفة على نمت ما تقدم ، وسار^(١) المدلل في جواب يوسف الرسول ، وذلك بعد صلاة الجمعة تاسع ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين^(٢) .

ذكر قتل المركيس للملوك

ولما كان سادس عشر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وصل من المدلل الرسول المنفذ إلى المركيس كتاب يذكر فيه أنه قُتل ، وعجل الله بروحه إلى النار ، وكان صورة قتله أنه تنفذ^(٣) يوم الثلاثاء ثالث عشرة عند الأسقف ، ثم خرج قفزز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين ، وكان خفيفاً من الرجال ، فما زالوا يضربان فيه حتى عجل الله بروحه إلى النار ، وُسك الشخصان ، فستلا عن هذا الأمر ، ومن وضعهما عليه ، فقالا : « إن الانكثار وضمننا^(٤) عليه » وقام بالأمر اثنان حفظا القلعة ، إلى أن اتصل الخبر بالملوك واعتمدوا الأمر وتدير السكان .

ذكر تمة خبر الملك المنصور

وما جرى له

وذلك أنه لما بلغه موقعة السلطان - قدس الله روحه - عليه أخذ إلى الملك العادل رسولا يستشع به ليطيب قلب السلطان عليه ، ويقترح أحد قسمين : إما حرّان والرّها وحميصات ، وإما حماة ومنبج وعلبة والمرة ، مع كفالة إخوانه ، وزاجع الملك العادل السلطان - رحمة الله عليه - مراراً فلم يفعل ذلك ، ولم (١١٧١) يجب إلى شيء منه ، فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، وهزت شجرة كرمه^(٥) ، فزجج إلى خلقه النبوي رضى الله عنه ، وحلف له على حرّان والرّها وحميصات ، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع التي اقترحها ، ويكفل إخوانه ، ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده ، ودخل تحت ضمان ذلك ، وكفله الملك العادل ، ثم اتّمس الملك العادل خط السلطان رضى الله عنه فأبى ، وألح عليه ، فخرق نسخة الميمن في التاسع والعشرين من ربيع الآخر ، وافضل الحال ، واقطع الحديث ، وقد كنت أتردد بينهما في ذلك ، وأخذ من السلطان النيطز كيف يتخاطب مثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده .

(١) م : « وسار يوسف الرسول بالجواب طيسم ربيع الآخر » .

(٢) م : « تقدم » .

(٣) م : « حلتا » .

(٤) م : « وهزت خبير رافة منه » .

ذكر تقدم رسول الروم

ولما كان مستهل جمادى الأولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى ، والتقى بالإكرام والاحترام ، ومثل بالخدمة السلطانية في الثالث من جمادى الأولى . وكانت رسالته تشتمل على مطالب ، منها : صليب الصليبوت . ومنها : تكون القلمة بيد أقسام من جانبته وسائر كنائس القدس . ومنها : أن يقع الاتفاق معه على أن يكون عدو من عاداه ، وصديق من صادقه . ومنها : أن يوافق على قصد جزيرة قبرص فأقام إلى يومين ، ثم سيّر معه رسول يقال له : ابن البرار من القبط للصربية ، وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته ، وقيل (١٧١ ب) له إن الصليب قد بذل فيه ملك الكرواج مائتي ألف دينار ، فلم يجب إلى ذلك .

ذكر ماجرى الملك المادل في البلاد

التي هي قاطع الترات

وذلك أنه لما سار الملك الأفضل رفق الملك المادل فلب السلطان على ابن تقي الدين ، وكثر الحديث في معناه ، وأخذنى السلطان لمشاورة الأمرء في خدمة الملك المادل في أمره ، فجمعتهم في خدمته ، وذكرت لهم ما أرسلني فيه إليهم ، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الميجاه للجواب ، وقال : « نحن صبيده وعمايكه ، وذلك صبي » ، وربما حله خوفاً أن انضاف إلى جانب آخر ، ونحن فسا نهدو على الجمع بين قتال المسلمين والكفار ، فإن أردنا قتال المسلمين صالح الكفار وسرنا إلى ذلك الجانب ، وقا تلناه بين يديه ، وإن أراد منا ملازمة الفزاة صالح المسلمين وسامعهم . وهذا كان جواب الجميع ، فرق السلطان - قدس الله روحه - وجددت نسخة يمين لابن تقي الدين - رحمه الله - وحلف له بها ، وأعطاه خطه بما استقر من القاعدة . ثم إن الملك المادل - رحمه الله - اتمس من السلطان - رحمه الله عليه - البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله ، وجرت مراجعات كثيرة في الموضع عنها ، وكنت الرسول بينهما ، وكان آخر ما استقر أنه يتسلم تلك البلاد ، وينزل (١٧٢) عن كل ما هو شامى الترات ، وما قطعها ماعدا السكرك والشوبك والصلت والبققاء ، وخاصة بمصر بعد النزول عن خبزه (١) وعليه في كل سنة ستة ألف غرارة غلة تحمل إلى السلطان من الصلت والبققاء إلى القدس ، وللنفل في السنة المذكورة في مواضعه له ، ومثل قاطع الترات للسلطان في هذه السنة أيضاً ، وأخذ خط السلطان - رحمه الله عليه - بذلك ، وسار بنفسه ليصلح ابن تقي الدين ويطيّب قلبه . وكان مسيره في ثلثين جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ذكر استيلاء الفرنج على الحاروم

وكان الفرنج - خذلهم الله تعالى - لما رأوا أن السلطان - رحمه الله عليه - قد أعطى المساكر دستوراً ، وتفرقت المساكر عنه ، فزحفوا على الحاروم ، وطعموا فيه ، وكان يمدحهم الدين قيصر ، وفيه نوايه .

ولما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين اشتد زحف العدو على السكان راجلاً وقارساً ، وكان الانكسار للمسلمين قد استغمد من توبة عكا قنايين حلييين ، فمكثوا من نهب السكان ، وأخروا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان - رحمه الله عليه - فلم يملأهم ، واشتدوا بالقتال عليه فأخذوه عنوة ، فاستشهد منه من قدر الله له بذلك ، وأسر من قدر (١٧٢ ب) له ذلك ، وكان ذلك قدراً مقدوراً .

ذكر قصدم لمجلد بابا

ولما استولى الفرنج على الحاروم ، وساروا بعد أن قرروا أمره ، ووضعوا فيه من اختباره له ، حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسى ، وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام ، وذلك في رابع عشر جمادى الأولى ، فأقاموا عليه ، ثم تاهبوا لقصده حصن يقال له لمجلد بابا ، فأثرو جريئة ، وخطفوا خيامهم في منزلتهم ، وكان بها عسكر ، إسلامي فلقبهم وجري بينهم قتال عظيم ، وقتل من العدو كند مذكور فيما بينهم ، واستشهد من المسلمين فارس واحد ، وكان سبب قتله أنه وقع رجمه ، فنزل ليأخذه فتمه فرسه الركوب ، فبادروه وقتلوه ، وعادوا إلى خيامهم في بقية اليوم خائبين وفيه الحمد .

ذكر وقعة جرت في صور

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين يذكر فيه أنه تخلف * (١١٠٨) في صور مائة راكب ، وانضم إليهم من عكا مقدار خمسين وطرحوا^(١) نفرجوا لشن الفارة على البلاد الإسلامية ، فوقع عليهم السكر الرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف ، وجري بينهم قتال شديد ، قتل من العدو خمسة عشر نفراً ، ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين خاسرين ، وفيه الحمد .

ذكر قدوم الماساكر الإسلامية إلى الجهاد

ولما رأى السلطان - قدس الله روحه - ما جرى من العدو من التبسط سيور إلى الماساكر من سائر الأطراف أن تسابق إلى الحضور ، فكان أول قادم بدر الدين وأكرم مع خلق كثير من التركان ، وقيه السلطان - قدس الله روحه - واحترمه .

ذكر قدوم ابن للقدم^(١)

(١٠٨ ب) ووصل بيده عز الدين بن للقدم في سابع عشر جمادى الأولى بمسك حسن وأطلاب جيدة^(٢) وزحبه به السلطان - رحمة الله عليه - واحترمه .

ذكر حركة العدو من الحصن^(٣)

وأما العدو فإنه رحل من الحسى ، ونزل على مفرق طرق ، منها طريق عقلان ، وطريق إلى بيت جبريل ، وإلى غير ذلك من الحصون الإسلامية ؛ ولما بلغ السلطان - قدس الله روحه - ذلك أمر الماساكر أن سارت نحوه ، فخرج أبو الميجاه . وبدر الدين ولهروم ، وابن للقدم وتناوبت الماساكر وتختلف* هو - رحمة الله عليه - في القدس لنوع التيات كان عرض له ، فلما أحس العدو المخدول بظهور الماساكر الإسلامية إليه عاد خائباً خاسراً ناكصاً على أعقابها ، ووصلت الكتب من الأمراء يخبرون برحيل العدو إلى عقلان^(٤) خائباً خاسراً ، والله الحمد والمنة .

ذكر تبعية العدو لقصد القدس الشريف

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من جمادى الأولى (١٧٣) وصل قاصد من العسكر يخبر أن العدو قد خرج في راجله وفارسه وسوارٍ عظيم ، وخيم على تل الصافية ، فغير السلطان - قدس الله روحه - إلى الماساكر الإسلامية

(١) هذا العنوان غير موجود في (م)

(٢) م : «وآلات جيدة»

• الفترات المذكورة بين التيجين سبق أن ذكرت خطأ في المصاحف وورقة ملصقة بين ص ١٠٨ و ١٠٩ ب ، وقد حذفت من هناك وأبليت هنا ليقس التمس .

(٣) هذه الجملة ساقطة عن (م) .

ينفروا ويخفونها ، ويستدعى الأمراء جريدة إلى عنده ، ليقعدوا رأياً فيما يقع العمل بمقتضاه ، فوصل ورحل العدو من تل الصافية إلى جانب النطرون ، فقتل شماليه ، وذلك في السادس والعشرين من جمادى الأولى . وكان قد سار من عرب الإسلام جماعة للنصرة على يافا ، فوصلوا عاتدين من غير علم بحركة العدو ، فقتلوا في بعض الطريق يقتسمون ، فوقعت عليهم هساكر العدو ، وأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر ، فوصلوا إلى السلطان ، وأخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس وأحلب الأخبار من جانب العدو ، يخبرون أنه يقيم بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب ، فإذا حصل هتدم ما يحتاجون إليه قصدوا القدس الشريف . وفي يوم الأربعاء وصل منهم رسول محبة غلام كان للشطوب عندهم ، تحدث في معنى قراقوش ، ويتحدثون في معنى الصلح .

ذكر نزولهم في بيت نوبة

وهو موضع وطلة بين جبال ، بينه وبين القدس مرحلة .

فرحلوا من النطرون يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول^(١) ونزلوا ببيت (١٧٣) نوبة ، ولما عرف السلطان - رحمه الله عليه - ذلك استحضر الأمراء وضرب مشوراً فيما يفعل ، وكان خلاصة الرأي أن تقسم الأسوار على الأمراء ، ويخرج بقية المساكر جريدة إلى جهة العدو ، فإذا عرف كل قوم موضعهم من السور واستمدوا له ، فإن دعت الحاجة إليهم خرجوا ، وإن دعت الحاجة إلى ملازمة مواضعهم لازموها ، فكتبت الرقاع وشيئت إلى الأمراء .

ذكر وقعة بجرث^(٢)

وكان طريق يافا ساجية بمن ينقل للميرة إلى العدو الخنحول ، فأمر السلطان - قدس الله روحه - من في البرك أن يعمل مهم ما يمكنه ، وكان في البرك بلو الدين دهلوم ، فكان حول الطريق كميناً فيه جماعة جيدة ، فربهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة ، فاستضعفهم ، غلبوا عليهم ، وجري قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل ثلاثون نفراً ، وأسير جماعة . ووصل الأسارى يوم السبت التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى القدس

(١) م : « جمادى الأولى » .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

الشريف ، وكان لمخولم وقع عظيم ، وجرى على الدومين ذلك وجه عظيم ، وقويت قلوب البيزكية ، وانبثت منهم حتى حلوا على السكر ، وتزوا إلى أطراف الخيم ، وفيه الحد .

ذكر وقعة أخرى^(١)

ولما علم المسلمون كون القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا (١١٧٤) كثيرة ، وكنوا كيتا ، واجتازت القافلة ومعا جم كثير ، خرجت العرب على القافلة ، فبتمهم الخيل ، فاندرجوا بين أيديهم منزمين نحو المسلمين ، فخرجت الأتراك عليهم فأخذوا منهم وقتلوا ، وجرح من الأتراك جماعة ، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسة .

ذكر أخذ قافلة مصر

حرسها الله تعالى

وكان قد تقدم السلطان - قدس الله روحه - إلى عسكر مصر بالمسير وأوصام بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو ، وأقاموا بيليس أيا ، حتى اجتمعت القوافل إليهم واتصل خبرهم بالمدو المخدول ، ثم ساروا طالبيين البلاد ، والمدو يترقب أخبارهم ، ويتوصل إليهم بالعرب للفسودين . ولما تحقق المدو خبر القفل^(٢) أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مراقبين ألف راجل^(٣) ، وأمر المسكر بالاحتياط والتحفظ ، وسار حتى أتى تل الصافية فيل ، ثم سار حتى أتى تل الصافية ثم علف على خيله فيه ، وسار حتى أتى ما يقال له^(٤) الحسى ، واتصل خبر نهضة المدو فأنفذ وأخير القافلة ، وكان للندوب قلك أمير آخر أسلم ، والطنبا الماطل وجماعة من الفرسان المذكورين ، وأمرهم أن ييسلوا بالقتل في البرية ، ويملدوم (١١٧٤ ب) عن المدوم ما يمكن ، فاتفق أن المسكر وصل الحسى قبل وصول المدو إليه فلم يقيوا عليها ، وساروا حتى اتصلوا بالقفل والمسكر المصري ، فأثروا بالقفل على ذلك الطريق ، فها منهم بأنهم لم يجدوا في الطريق ذاعرا ، ولا أسوا فيه بخوف ، فرغبوا في قرب الطريق ، وسلوكوا بالناس على هذا الطريق ، فوصل الناس إلى ما يقال له الخوليفة ، وتفرق الناس لأجل

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : د يتأهل .

الماء ، فأخبرت العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحسى ، فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح ، وكان مقدّم العسكر المصرى فبك الدين أخو الملك المادل لأمه ، فأشار أسلم بالمسير ليلا ، قطعا للطريق واستظهرا بالصعود إلى الجبل ، فخاف ذلك الدين أنه إن رحل في الليل جرى في الليل أمر على القافلة لتبدها ، فنادى في الناس ألا يرحلوا إلى الصباح .

وأما الانكسار للهنود ، فإنه بلغنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدق به ، فركب مع العرب بجميع سير ، وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربى ، وورآهم ساكنين قد غشيهم النمل ، فعاد واستركب عسكره وكانت السكبة قريبة الصباح ، فبغت الناس ، ودفع بخيله ورجله ، فكان الشجاع الأيدى القوى الذى ركب فرسه ونجا بنفسه ، وانتهزم الناس إلى جهة القفل ، والعدو يتلهم ، فلما رأوا القفل أعرضوا (١٧٥) عن قتال العسكر ، وطلبوا القفل ، فاهضم القفل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا العسكر مع جماعة من العرب وعسكر الملك المادل ، وقسم أوغلا في البرية مع جماعة من العرب ، وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بهم إلى جميع مامهم ، وكانت وقعة شماء لم يصب الإسلام بمثلها من مدة مديدة . وكان في العسكر للمصرى جماعة من اللذكورين ، كحمين الجراسى ، وذلك الدين ، وبنى الجاولى وغيرهم من اللذكورين ، وقُتل من العدو مائة فارس على رواية ، وعشرة أنس على رواية ، ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف ، وابن الجاولى الصغير فإنهما استشهدا إلى رحمة الله تعالى ، ^(١) وكان للسلطان - قدس الله روحه - يجل مع أليك المزبى قاتل دونه وسلم ، وتقدم عند السلطان بسبب ذلك ^(٢) وتبذد الناس في البرية ، ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكنه جمعه من الخليل والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال وكلف الجالين خدمة الجبال ، والخربندية خدمة البقال ، والساسة خدمة الخليل ، وسار في جحفل من غنية يطلب عسكره ، فزل على الخويلة ، وسقى منها ، ثم سار حتى أتى الحسى . ولقد كان حكي من كان أسيراً معهم أن في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطانى قد قصدهم ، فتركوا التنية (١٧٥ ب) وانهمزوا وبدوا عنها زمانا ، فلما انكشف لم أن العسكر لم يلحقهم ، عادوا إلى الرحل ، وهرب في تلك التنية جمع من الأسارى للمسلمين ، وكان الحاكم منهم فسأله : « بكم جزوتم الجبال والليل ؟ » . فأخبر أن الجبال كانت تناهى ثلاثة آلاف رجل ، والأسارى خمسمائة ، وازنها ^(٣) عدة الخليل ، أخير بذلك جماعة ، وكانت هذه القوقعة صبيحة الثلاثاء سادى عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين . ووصل الخبر إلى السلطان - قدس الله روحه - في عشية تلك اليوم بعد عشاء الآخرة

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « وخرّب من ذلك » .

وكنّت جالسا في خدمته ، ووصل بالخبر شاب من الاصطيلية ، فامر بالسلطان خبر أنسكى منه في قلبه ولا أكثر تشويشاً منه لباطنه ، وأخذت في تسكينه وتسلية وهو لا يكاد يقبل التسلية . وكان أصل القضية أن أمير آخر أسلم أشار عليهم أنهم يصلدون الجبل وينزلون ، فلم يفلخوا ، فصد هو الجبل وأصحابه ، فلما وقفت الكعبة كان هو على الجبل لم يصل إليه أحد من العدو ، ولم يشعروا به ، ولما انهزم للعدون تبهم خيالة الفرنج ، وأقام الرجال منهم يستولون على ما تخلف من المسلمين من الأقتة ، فلما تحقق أمير آخر أن الخيالة قد بددت عن الرجال نزل إليهم بمن معه من الخيالة ، وكبسوم من حيث لم يشعروا ، وقتلوا منهم جماعة ، وغنموا منهم دواباً من جملتها بئيل كان تحت هذا القاصد ، ثم سار (١٧٦١) العدو يطلب خيامهم ، وكان وصولهم إلى خيمهم في سادس عشر جمادى الآخر . وكان يوماً عندهم أظهر فيه من السرور وأسيابهم لا يمكن وصفه ، وأعادوا خيمهم إلى الموطة على بيت نوبة ، وصح عزيمهم على القدس ، وقويت قوتهم بما حصلوا عليهم الأموال والجبال التي تقل لليرة والأزواد الواصلة من مصر مع عسكرها ، ورتبوا جماعة من ^(١) لده يحفظون الطريق على من ينقل لليرة ، وأقعدوا الكندي على صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من اللقطة ليصلدوا إلى القدس . ولما عرف السلطان - قدس الله روحه - ذلك منهم ، عمد إلى الأسوار قسمها على الأمراء ، وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القدس ، فأغرب الصهاريج والجلباب ، بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلاً ، وأطلب في ذلك إطناباً عظيماً ، وأرض القدس لا يطعم في حفر يثر فيها ماء معين ، لأنها جبل عظيم وحجر صلب وسير إلى الساكر يطلبها من الجوانب والبلاد .

ذكر قدوم الملك الأفضل

وكان لما استقرت القاعدة مع الملك المادلي في عبوره إلى البلاد الفراتية سير إلى الملك الأفضل بأمره بالموءد من قصد تلك البلاد ، وكان قد وصل إلى حلب المحروسة ، فلما وصله أمر السلطان (١٧٦١ -) بالموءد ، عاود مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه ، فوصل إلى دمشق متعباً ، ولم يحضر إلى خدمة السلطان ، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليه وطلبه ، فأرسله التناحر ، فسار مع من كان قد وصل من الساكر الشرقية إلى دمشق . وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جمادى الآخر ، فلقبه السلطان قريب المازرية ، وترجل له جبوا قلبه وتمطيا لأمره ، وساروا في خدمته أخوانه الملك الظافر وقلب الدين في ظاهر القدس من جهة العدو .

ذكر عود العدو إلى بلادهم

وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تسع عشر جمادى الآخر أحضر السلطان - قدس الله روحه - الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبو الميجاء بن شقة عظيمة ، وجلس على كرسى في خيمة^(١) السلطان وحضر للشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت ما يسر الله من ذلك ، وكان مما قلته : « إن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايحه الصحابة - رضى الله عنهم - على اللوث في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسي به - صلى الله عليه وسلم - ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو » فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه ، ثم شرع السلطان - قدس الله روحه - بعد أن سكنت زماناً في صورة مفكر ، والناس (١١٧٧) سكوت ، كان على رؤوسهم الطير ، ثم شرع وقال : « الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذمكم ، فإن هذا العدو آمن له من المسلمين من تلقاه إلا أتم ، فإن لويتهم أعتكم^(٢) - والياذ بالله - طوى البلاد كل السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أتم الذين تصديتكم لهذا ، وأكتم مال بيت اللال ، فالسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

فانتدب لجوابه سيف الدين للشطوب ، وقال : « يمولانا : نحن بمالكك وعبيدك ، وأنت الذي نعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعليتنا ، وأغنتنا ، وليس لنا إلا رقاينا وهي بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت » . فقال الجماعة مثل ما يقول . فانبسطت نفسه بذلك المجلس ، وطالب قلبه ، وأطمعهم ثم انصرفوا . ثم انفضى يوم الخميس على أخذ حال من التأهب والاهتمام ، حتى كان المشاء الآخرة ، واجتمعوا في خدمة السلطان على العادة ، وسمعنا حتى مضى مزيج من الليل ، وهو غير منبسط على عادته ، ثم صلينا المشاء ، وكانت الصلاة هي المستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فاستدعاني - رحمة الله عليه - فلما جلست في خدمته قال لي : « علبت ما ألقى نجد ؟ » قلت : « وما ألقى (١١٧٧) نجد ؟ » قال : « إن أبا الميجاء أخذ إلى اليوم وقال : إنه أجمع عنده جماعة المالك والامراء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالو : لا مصلحة في ذلك ، فإننا نخاف أن نمصر ويمجرى علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك يتوخذ بلاد الإسلام أجمع ، والرأى أن تلقى مصافاً ، فإن قدر الله

(١) م : « خدمة » .

(٢) م : « نهن ولينم بأفهم » .

تمالى أن يهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم المسكر ، ومضى القدس ، وقد انخفضت بلاد الإسلام بساكرها بمدة بغير القدس » وكان - رحمة الله عليه - عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال ، فشق عليه هذه الرسالة ، وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصبح ، وهى من الليالى التى أحياءها^(١) فى سبيل الله - رحمة الله - وكان مما قاله فى الرسالة : « إلك إن أردتنا فتكون معنا أو بعض أهلك ، حتى نجمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك ، والأتراك لا يدينون للأكراد » . وأفضل الحال على أن يقيم من أهل مجد الدين بن فروخشا - صاحب بيليك - ، وكان - رحمة الله - تحدثه نفسه بالقلم ، ثم منه رآه عنه ، لما فيه من خطر الإسلام . فلما قارب الصبح أشفت عليه وخطبته فى أن يستريح ساعة^(٢) لمل العين تأخذ حظها من النوم^(٣) وانصرف عنه إلى دارى ، فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن ، فأخذت فى أسبل الرضوء ، فما فرغت إلا والصبح قد طلع ، وكنت أصلى (١١٧٨) المصبح معه - رحمة الله عليه - فى غالب الأحوال ، وقصدت إلى خدمته وهو يحدد الرضوء ، فصلينا ، ثم قلت له - رحمة الله عليه - : « قد وقع لى واقع أعرضه » فأذن فيه ، قلت : « للولى فى اهتمامه وما قد حل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه ، وقد هجرت أسبابه الأرضية ، فينبى أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم جمعة ، وهو أبرك أيام الأسبوع ، وفيه دعوة مستجابة - فى صحيح الأحاديث - ونحن فى أبرك موضع قلدر أن نكون فيه فى يومنا هذا ، فالسلطان يقتل للجمعة ، ويتصدق بشيء خفية ، بحيث لا يشر أنه منك ، وتصل بين الأذان والإقامة ركعتين تناجى فيها ربك ، وتفوض مقاليد أمرك إليه ، وتترف بعجزك عما تصدقت له ، فليل الله برحلك ، ويستجيب دعاءك » .

وكان - رحمة الله عليه - حسن العقيدة ، تام الإيمان ، يخلق الأمور الشرعية بأكل اقتياد وقبول ، ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه فى الأقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيت ساجداً وهو يذكر كلمات ، ودموعه تتفاطر على مصلاه - رحمة الله - ثم انخفضت الجمعة بنجر ، فلما كان عشيئها ونحن فى خدمته على العادة وصلت رقعة جور ديك ، وكان فى البرك يقول فيها : « إن القوم ركبوا بأسرهم ، ووقفوا فى البر على ظهر^(٤) » ، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرانا جواميس تكشف أخبارهم » (١١٧٨ ب) ولما كان صبيحة يوم السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواميس رجسوا وأخبروا أن القوم اختلقوا فى الصمود إلى القدس ، والرحيل إلى بلادهم ، فذهب الترنيسية إلى الصمود إلى القدس ، وقالوا : « نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه » وقال الانكثار : « إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلاً فمن أين نشرب ؟ قالوا له : « نشرب من ماء قوع » ويته وبين القدس مقدار فرسخ » . فقال : « كيف

(١) م : « أحييت » .

(٢) هذه الجملة سابقة من (م)

(٣) م : « وقترنا إلى التل وقت الظهيرة » .

ذهب إلى السقي ؟ » فقالوا : « تنقسم قسمين : قسم يركب إلى السقي مع العوالب ، وقسم يبقى على البلد في المنزلة ، ويكون الشرب في اليوم مرة . » فقال الانكسار : « إننا يأخذ السكر اليوناني الذي يذهب مع العوالب ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية . » فافضل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكموا الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فبا يأمرهم به يفعل . فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يملكهم المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخر راحلين إلى نحو الرملة ، وعلى أعقابهم - والله الحمد - ناكسين ، ووقف عسكرهم شاكا في السلاح إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتوارى الخبر بذلك ، فركب السلطان - قدس الله روحه - وركب الناس ، وكان يوم سرور وفرح^(١) ولكن السلطان - قدس الله (١٧٩) روحه - خاف على مصر المحروسة لما حصلوا عليه من الجبال والظهر ، وكان قد ذكر الانكسار مثل هذا الحديث مرارا^(٢) .

ذكر رسالة الكنديرى

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو استحضر رسول الكنديرى لسماع رسالته ، فحضر بين يديه - رحمة الله عليه - وأذن له في أداء الرسالة ، قال : « إن الكنديرى يقول : إن الانكسار قد أعطاني البلاد الساحلية ، وهى الآن لى ، فأعد على بلادى حتى أصلحك ، وأكون أحد أولادك » . فنضب السلطان لذلك غضبا عظيما ، بحيث إنه كاد يبطل به ، فأقيم بين يديه ، فسأل أن يمثل^(٣) حتى يقول كلمة أخرى ، فأذن له في ذلك ، فقال : « يقول : إن البلاد في يديك ، فما الذى تعطينى منها ؟ » فآثره وأقامه . ولما كان يوم الثالث والعشرين من جمادى الآخرة استحضر الرسول وكان جوابه : « يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع الرئيس » ثم وصل بيد ذلك الحاجى^(٤) يوسف صاحب المشطوب من الفرنج ، وذكر أن الإنكسار أحضره وأحضر الكنديرى ، وأخطى المجلس ، وقال له : « تقول لصاحبك بأنا قد هلكنا نحن وأهمل ، والأصلح حقن الدماء ، ولا ينبغي أن تمتدأ ذلك عن ضعف منى ، بل الصلحة ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان ، ولا تنفرد بأخرى عن منزلى ، فالكبش يتأخر لينطع » وأحضر مع الحاجى^(٥) شخصين يسمعان الكلام من (١٧٩ ب) للمشطوب ، وكان ظاهر الحال الكلام في معنى إطلاق بهاء الدين قراقوش ، وإبطنه في معنى الصلح ، وأخبر الحاجى^(٦) أنهم رجلوا عن الرملة فأصدين يافا ، وأنهم على غاية من الضعف والمعجز عن قصد مكان ،

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) م : « عمل » .

(٣) كذا في الأصل ، وفى (م) : « الملاجى » .

فاستحضر للشطوب من نابلس لسباع الرسالة ، فحضر وكان الجواب : « إن الكندي قد أعطى عكا ، ونحن نصلحه على ماله ، ويتركنا والآنكثار في بقية البلاد » .

وقعة جرت على عكا^(١)

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من جمادى الآخر عاد رسولهم محبة الحاجي يوسف ، وقد حمل الحاجي يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم ، وهي : « إن الملك - يعني الانكثار - يقول : إنه راغب في مودتك وصدقتك ، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض ولا يظن ذلك فيك ، ولا يجوز لك أن تهلك للسليين كلمهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلمهم ، وهذا ابن أخى الكندي قد ملكته هذه الحمار ، (١٨٠) وسلته إليك يكون هو وعسكره بمحكك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق^(٢) سموا وأطاعوا » . ويقول : « إن جماعة من الرهبان والقسطنطين قد طلبوا منك كنائس فاجتلب عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان يجري للرسالة مع الملك العادل قد قلت بتركها ، وأعرضت عنها ولو أعطيتي مفرقة أو قرية^(٣) قبلها وقبلها » . فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع أرباب الرأي وأصحاب مشورته ، وسأله عما يكون جواب هذه الرسالة ، فامتنع إلا من أشار بالحامنة وعقد الصلح لما كان قد أخذ للسليين من الضبر والتعب ، وعلام من الديون ، واستمر الحال على هذا الجواب : إنك إذا دخلت معنا هذا المخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، إن اختك يكون عنده بعض أولاده . وسيلنك ما أفضل فخر من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة ، وبقية البلاد قسمها ، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا ، وما بين السليين تكون مناصفة » .

ذكر عود رسولهم في معنى الصلح

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من جمادى الآخر عاد رسولهم محبة الحاجي يوسف ، وقد حمل الحاجي يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم ، وهي : « إن الملك - يعني الانكثار - يقول : إنه راغب في مودتك وصدقتك ، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض ولا يظن ذلك فيك ، ولا يجوز لك أن تهلك للسليين كلمهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلمهم ، وهذا ابن أخى الكندي قد ملكته هذه الحمار ، (١٨٠) وسلته إليك يكون هو وعسكره بمحكك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق^(٢) سموا وأطاعوا » . ويقول : « إن جماعة من الرهبان والقسطنطين قد طلبوا منك كنائس فاجتلب عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان يجري للرسالة مع الملك العادل قد قلت بتركها ، وأعرضت عنها ولو أعطيتي مفرقة أو قرية^(٣) قبلها وقبلها » . فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع أرباب الرأي وأصحاب مشورته ، وسأله عما يكون جواب هذه الرسالة ، فامتنع إلا من أشار بالحامنة وعقد الصلح لما كان قد أخذ للسليين من الضبر والتعب ، وعلام من الديون ، واستمر الحال على هذا الجواب : إنك إذا دخلت معنا هذا المخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، إن اختك يكون عنده بعض أولاده . وسيلنك ما أفضل فخر من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة ، وبقية البلاد قسمها ، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا ، وما بين السليين تكون مناصفة » .

(١) هنا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « الشرق » .

(٣) م : « قرية » .

وعسقلان وما وراءها تكون خراباً ، لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها تكون لكم ، والذى كنت أكرهه حديث عسقلان . وافضل الرسول طيب النفس وذلك فى ثانى يوم قدومه وهو الثانى (١٨٠ ب) والمشرون من جمادى الآخر من سنة ثمان ، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسل إليهم راحلون إلى جهة عسقلان ، طالبين جهة مصر ، ووصل يوم الجمعة السابع والمشرون من جمادى الآخر رسولاً من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول : « إن البابا قد وصل إلى قسطنطينية فى خات لا يسل عددهم إلا الله تعالى » . وقال الرسول : « إتنى قتلت فى الطريق إتنى عشر فرساً » . ويقول : « تقدم إلى من يتسلم بلادى فإنى قد عجزت عن حفظها » فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكثرث به .

ذكر عود رسول الفرنج ثالثاً

ولما كانت عشية الأحد التاسع والمشرون من جمادى وصل الحاجى صاحب للشطوب ، ومعه خبرى رسول لللك ، وقال : « إن لللك شكر أنام السلطان » . وقال : « الذى أطلبه منك أن يكون لنا فى قلعة القدس عشرون نفراً ، وأن من سكن من النصارى والفرنج فى البلد لا يتعرض إليهم ، وأما بقية البلاد قلنا منها الساحليات والوحدات ، والبلاد الجبلية لكم » . وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة : « قد تزولوا عن حديث القدس ما عدا الزيارة ، وإنما يقولون ذلك تصنما ، وأنهم راغبون فى الصلح وأن الانكسار لا بد له من الرواح إلى بلده » . وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر ، وكان معه فى هذه الوقفة بإزان هدية (١٨١) للسلطان ، فاستحضر الأمراء بأسرهم ، وشاورهم فيما يكون جواباً على هذه الرسالة ، وافضل الحال على هذا الجواب وهو : « إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة » . فقال الرسول : « وليس على الزوار شئ يؤخذ منهم ؟ » فلم من هذا القول للواقعة . « وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه » . فقال الرسول : « قد خسر لللك على سورها ما لا يجزيلا . فسال للشطوب السلطان - رحمه الله عليه - أن يحمل مزارعها وقراها له فى مقابلة خسارته ، فأجاب . وأن الداروم وغيره يخرّب ، ويكون بلدها مناصفة . وأما باقى البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا فى قرية كانت مناصفة . فهذا كان جواب رسالته . وسار فى يوم الثلاثاء مستهلاً رجب سنة ثمان وثمانين ، ومعه الحاجى يوسف ، وكان قد طلب رسولاً مذكوراً بحلقه إن استقرت القاعدة ، فأخّر السلطان - رحمه الله عليه - تسيير الرسول إلى حين استقرار القاعدة ، وأخذ لم هدية سنة فى جواب هديتهم ، وما كان - رحمه الله - ينبل فى الهدايا .

ذكر عود الرسول

وكان عوده وقد مضى من الليل هزيع من ليلة الثالث من شهر الله رجب ، فحضر الحاج ليلا ، وأخبر السلطان (١٨١ هـ) بالخبر ، وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب ، وأدى الرسالة وهي : « إن للآلئ يسألك ، ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عمرة ، وأي قدر لها عند مُلكك وعظمتك ؟ وسأحب إصراره عليها إلا أن الفرج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية ، لا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس إلا في القيامة وحدها ، فتترك له أنت هذه البلاد ، ويكون الملع علما ، فيكون لم كل ما في أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ويسلم ما في أيديكم ، ويتظلم الحال ويروج ، وإن لم ينظم الصلح فإن الفرج ما يمكنونه من الرواح ، ولا يمكنه مخالفتهم » . فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص النرض بالدين تارة ، والنخشونة أخرى وكان - لسته الله - مضطرا إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطرابه ، والله للسؤال في أن يكنى للسلمين شره ، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد إقداما منه . ولما سمع السلطان - رحمة الله عليه - هذه الرسالة - أحضر الأمراء وأرباب الرأي من دولته ، وسألم عن الجواب ما يكون ، فكان خلاصة الرأي هذا الجواب ، وهو : « إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ، وورسلنا عندهم فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح ، وإلا فلا ، وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه ، وإلا فلا قدر لها (١٨٢ هـ) وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسر عليه لدا في الوطاة » . وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب سنة ثمان وثمانين .

ذكر قدوم ولده الملك الظاهر^(١)

صاحب حلب

ولما كان السبت الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر ، وكان كثير الحجة له والإيثار لجانبه ، لما يراه فيه من إمارات السعادة ، وصفات الكفاية ، وتوسم الملك ، ففرج السلطان - قدس الله روحه - إلى لقائه ، فلقاه في قاطع المازرية ، فإنه وصل على النور ، ونزل له عند لقائه واحترمه ، وأكرمه ، وضمه إليه وقيل بين عينيه ، ونزل في دار الاستبار .

ذكر عود الرسول رابعا^(٢)

ولما كان يوم الأحد السابع من رجب وصل الحاج يوسف وحده ، وذكر أن الملك قال له : « لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ، ولا نسمع هنا في البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فخدودها مرموقة لا بنا كرتة

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

فيها » وعند ذلك تأهب السلطان - رحمة الله عليه - للخروج إلى جهة العدو ، وإنهيار القوة ، وشدة المزم على القلاء .

ذكر تبرزه رحمة الله عليه

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان - رحمة الله عليه - أن الفرنج - خذلهم الله تعالى - قد رحلوا طالبيين نحو بيروت ، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها (١٨٢ ب) الجيب ، وكان قدوم الملك المادل من البلاد القراتية في بكرة الجمعة الحادى عشر من رجب ، فدخل العصرة ، وصلى عندها ، ثم توجه يتبع السلطان . ثم إن السلطان رحل من الجيب إلى بيت نوبة ، وبث إلى السكر في القدس ليحثهم على الخروج والحقوق به ، ولحق السلطان في بيت نوبة فإني كنت قد تحققت منه ليلة الاضداد ، ثم رحل في الأحد ثالث عشر إلى الرملة ، فنزل بها ضاحى نهاره على تلأل بين الرملة ولد ، وأقام بها بقية الأحد . ولما كان صبيحة الاثنين رابع عشر ركب جريدة حتى أتى يازور وبيت ذجن^(١) ، وأشرف على يافا ، ثم عاد إلى منزلته ، وأقام بها بقية يومه ، وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا ، وافتح رأى على ذلك .

ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشر رحل طالبا جهة يافا ، نفيم عليها ضاحى نهاره ورتب المسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان على البحر وطرف الميسرة أيضا على البحر والسلطان في الوسط ، وكان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر ، وصاحب الميسرة أخوه الملك المادل ، والساكر فيا بينهما . ولما كان سادس عشر من الشهر زحف الناس إليها واستحروا أمرها استحضاراً عظيماً ، ثم رتب السلطان - رحمة الله عليه - الناس للقتال ، وأحضر (١٨٣) للمنجقيات ، وركبها على أضف موضع في السور مما يلي الباب الشرقى ، وكان^(٢) في ذلك اليوم على جلم من سائط قبيلة المنجقيات^(٣) ، وأطلق النقاين في السور ، وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج ، واشتد الزحف ، وأخذ النقاين النقب من شمالي الباب الشرقى إلى الزاوية طول البدة ، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الأول ، وبناء الفرنج ، وتمكن النقاين من النقب ، ودخلوا فيه ، ولم يشك الناس في أخذ البلد في ذلك اليوم ، وهذا أمر العدو في زيادة ، وكان الملك في عكا قد توجه إلى نحو بيروت ، وهذا الذي حل

(١) م : بيت جبرين .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

السلطان على نزوله على يافا . ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد خسر المدو منه ، وظهر من المدو من الشدة والحماية والقبح والمنمة ما أضعف قلوب الناس ، هذا والتقاويون قد تمكنوا من القبح ، فلما قارب الفراغ أخذ المدو في خسف القبح عليهم ، فحسوه في مواضع عدة ، فخاف التقايون ، وخرج منهم جماعة وتقاتل الناس عن القتال ، وعلموا أن أمر البلد مشكل ، وأنه يحتاج إلى زيادة عمل في أخذه ، فزم السلطان - قدس الله روحه - عزمة مثله ، وأمر التقايين أن يأخذوا القبح في بقية البدنة من البرج إلى الباب ، وأمر المنجنيقات أن تضرب (١٨٣ ب) قبالة البدنة المنقوبة ، ففعلوا ذلك ، وأقام السلطان تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل مقدار ثلثه ، وعاد إلى القتل ، وكان القتل ميذاً عن البلد على تل قبالة ، وأصبحت المنجنيقات وقد أقم منها اثنان ، وأقيم الثالث في بقية النهار وأصبح السلطان على القتال والزحف ، فلم يجد من الناس غير النصارى بسبب نصب المنجنيقات خلفاً منهم أن المنجنيقات لا تصل إلا بعد أيام . فلما علم السلطان - قدس الله روحه - من الناس التفاتوا والتوا كل حلهم على الزحف ، والتهم القتال ، واشتد الأمر ، وأخافوا المدوم الأمر ، وأشرف البلد على الأخذ ، وأيقنت^(١) النفوس به وطعمت في ذلك طعماً شديداً ، وضف المدو إلا أنه جرح من المسلمين جماعة بالشباب والزنبورك من البلد^(٢) ، فمنهم الحاجب أبو بكر وخطخ - والى بلبك ، وأصيب يمينه ، وطفرت التاجى ، وسراستقر في وجهه ، ومما من مقربى المالك ، وإليز جركس في يده ، وهو من كبارهم^(٣) ولما رأى المدو المخنول ما قد حل بهم أرسلوا رسولين نصرانياً وفرنجياً يطلبان الصلح ، ويحدثان فيه ، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك ، واشتروا أن ينظروا إلى يوم السبت الذى هو تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم نجدة وإلا تمت القاعدة على ما (١٨٤) استقر ، فأبى السلطان الانتظار ، فماد الرسول ، ثم رجسوا نياقوته في الانتظار ، فأبى ذلك ، وتقاتل الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل . سكنوا إلى الجمعة على جارى المادة ، فأمر السلطان التقايين بمحسب القنوب بعد انتهائها ، ففعل ذلك ، ووُضعت النار فيه ، وقوق بعض البدنة ، وكان المدو قد عرف وقوق النار في القبح ، وعلم أن ذلك المكان يقع ، فمعد إلى أخشاب عظيمة ، وهياها خلف ذلك المكان ، فلما وقع ذلك المكان ألهب النيران ، فتمت من الدخول في التلة ، فأمر السلطان الناس فزحفوا وضابقوا القوم مضايقة عظيمة ، والله درهم من رجال قتال^(٤) ، ما أشدهم وأعظم بأسهم ، فزهم مع هذا كله لم ينلقوا لها باباً ، وما زالوا يقاتلون خارج الأبواب ، ولم يزل الناس في أعظم قتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين ، ولم يقدر على البلد في ذلك بعد حرق القنوب في باقى البدنة ، وضاق صدر السلطان لهذا الأمر ، وتقسف فكره ، وتندم كيف لم يجهز إلى الصلح ، وبات تلك الليلة

(١) م : « تألفت » .

(٢) م : هذه العبارة - ماسة من (م) .

(٣) م : « أقبال » .

في الحميم ، وقد عزم على أن يقيم تلم خمسة مناجيح ، يضرب بها البدة الضعيفة بسبب النقوب والديران والخلف من جانبهم .

ذكر فتح يافا وهي أول الفتح الثاني

وما جرى عليها من الوقائع

(١٨٤ ب) ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب سنة ثمان . وثمانين أصبحت المنجنيقات وقد نُصبت ، وحجارتها قد جمعت من الأودية والأماكن البعيدة لمدم الحجر في ذلك المكان ، وظلت ترى البدة الثقوبة ، وزحف السلطان - قدس الله روحه - ، وزحف والده الملك الظاهر زحفا شديدا ، وزحف عسكر الملك العادل من اللبسة ، فإنه كان مريضا ، وارتفعت الأصوات ، وضربت الكوسات ، وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات^(١) ، وأجابه المولى من كل جانب ، واشتد عزم القائين في إيقاد النار ، فارتفع من النهار ساعتان إلا ووقعت البدة ، وكان وقعها كوقع الواقعة ، ونادى الناس : « ألا وإن البدة قد وقعت ، فلم يبق من له أدنى إيمان إلا وزحف ، ولا قلب من المدو إلا رعد ورجف » . هذا وهم على القتل أشد وأحزم ، وعلى الموت أعز وأكرم ، وذلك أن البدة لما وقعت علا غبار مع دخان وأظلم الأفق ، وحميت عين النهار ، وما تجاسر أحد على اللوح خوفا من اقتحام النار فلما انكشفت الظلة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار ورماح قد مدت التلة حتى عن نفوذ الأبصار ، ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم ، ولقد رأيتُ رجلين على عشي السور يمتنان للتسلق فيه (١٨٥ ا) من جهة التلة ، وقد أتى أحدهما حبل المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، وقام رفيقه مقامه متصديا لئلا ما لحقه أسرع من لح البصر ، بحيث لم يفرق بينهما إلا ناقد بصير . ولما رأى المدوما قد آل الأمر إليه سُرَّ رسولين إلى السلطان - قدس الله روحه - يلتمسان الأمان ، فقال - رحمه الله - : « الفارس بغارس ، والتركيلى بئله ، والراجل بالراجل ، وإلماجر فلى قطيعة القدس » . فظفر الرسول ، ورأى القتال على التلة أشد من إضرام النار ، فسأل السلطان أن يعطل القتال إلى أن يعود . فقال : « ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، لكن ادخل إلى أحمالك قل لهم يتحاذون إلى القلعة ويتركون الناس يشتملون بالبلد ، فما بقى دونه مانع » . فساد الرسول بهذه الرسالة ، فأعجاز عدو الله إلى قلعة يافا ، بعد أن قتل منهم جماعة غلطا^(٢) ، ودخل الناس البلد عتوة ، ونهبوا منه أقشة عظيمة وغللا كثيرة ، وأثامًا وقايا قماش مما نهب من

(١) م : الأصل : « وخفقت المنجنيقات » والتصحيح من (ب) .

(٢) م : « جماعة عظيمة » .

القافلة المصرية . واستقرت القاعدة على الوجه الذى قرره السلطان . ولما كان عصر يوم الجمعة المبارك وصل السلطان - رحمه الله عليه - كتاب من تايماز النجنى ، وكان فى طريق النور^(١) لحايته من عسكر المدو الذى فى عكا ، يخبر فيه : أن الانكسار لما سمع خبر يافا أعرض عن (١٨٥ ت) قصد بيروت ، وعاد إلى قصد يافا ، فاشتد عزم السلطان على تسعة الأمر وتسليم القلعة ، وكنت ممن^(٢) لم ير الأمان ، لأنه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من المدو بمنهم يؤمنهم عليه ، فكان أخذهم حنة مما يبيت هم المسكر ، غير أن الأمان وقع وافق الصلح ، فكنت بعد ذلك ممن بحث على إخراج المدو من القلعة وتسليمها خوفاً من لحوق النجدة ، وكان السلطان - قدس الله روحه - يشتد حرصه^(٣) ، غير أن الناس قد أقدموا التصب عن لمتثال الأمر ، وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار ، بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة ، وأقام السلطان بمنهم إلى هوى من الليل ، فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ركب وسار إلى خيمته إلى النقل ، وسرنا فى خدمته ، ثم نزل فى خيمته ، وعدت إلى خيمتى وعندى من القلق ما أفقنى عن النوم . ولما كان سحرة تلك الليلة سمعنا بوق الفرج وقد نفع فعلنا بوصول النجدة ، فاستدعانى السلطان - رحمه الله عليه - من وقته وقال : « لاشك أن النجدة قد وصلت فى البحر وعلى الساحل من عساكر الإسلام من يمنهم النزول ، وللصلحة أن تسير إلى الملك الظاهر وتقول له : يقف ظاهر الباب القبلى ، وتدخل أنت ومن تراه إلى (١٨٦) القلعة ، وتخرجوا القوم ، وتستولوا على القلعة ما فيها من الأموال والأسلحة ، وتكتبها بحظك إلى الملك الظاهر وهو خارج البلد ، وهو يسيرها إلى^(٤) عندنا . » وسير مى لتقوية اليد على ذلك^(٥) عز الدين جورديك ، وعلم الدين قيسر ، ودريلس الميراني ، فسرت من ساعتى ومضى شمس الدين عدل الخزانة ، حتى أتيت منزلة والده الملك الظاهر ، وهو نائم فى شقته^(٦) على تل قريب البحر فى البرك ، وعليه كراغندة ، وهو بلائمة حربه ، فلا ضيع الله لهم صنيعهم فى نصرته الإسلام ، فأيقظته ، وقام والنوم فى عينيه ، وسرت فى خدمته وهو يستفهم منى رسالة السلطان - رحمه الله - حتى وقف حيث أمر ، ودخلنا نحن إلى يافا وأتينا القلعة وأمرنا الفرج بالخروج منها ، فأجابوا إلى ذلك ، ونهباوا بالخروج .

(١) م : « فى طرف المدو » وهو خطأ واضح .

(٢) م : « وتسليم القلعة ممن لم ير الأمان » .

(٣) م : « وكان السلطان يشتد حرصه » .

(٤) م : « وسير مى لتقوية اليد على ذلك عز الدين .. الخ » .

(٥) م : « حليته » .

ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو

وكان ذلك في بكرة السبت تاسع عشر رجب سنة ثمان وثمانين ، ولما أجابوا إلى الخروج قال عز الدين جريدك : « لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج العاص من البلد خشية أن يتخطفونهم » . وكان الناس قد أدخلهم الطمع في البلد . وأخذ عز الدين يشتد في ضرب الناس وإخراجهم ، ولم يبق مضبوطين بدة ، ولا محصورين في مكان ، فكيف يمكن إخراجهم ا (١٨٦ ب) وطال الأمر إلى أن علا النهار وأنا ألوم وهو لا يرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له : « إن النجدة قد وصلت والصلحة للساعة في إخراجهم ، والسلطان قد أوصاني بذلك » . فلما عرف السبب في حرص أجداب على إخراجهم ، ومضي إلى باب القلعة القريب من الباب الذي وادّه للآل الظاهر قائم عنده ، فأخرجنا سبعة^(١) وأربعين نفرا بخيولهم ، وكتبناهم ، وسيرناهم ، ولما خرج هذا النفر اشتد نفس الباقين ، وحدتهم أنفسهم بالمعصيان ، وكان سبب خروج هؤلاء أنهم استقلوا بالراكب التي جاتهم ، وظنوا ألا نجدة لهم فيها ، ولم يملوا أن الانسكار مع القوم ، ورأوم وقد تأخروا عن النزول إلى علو النهار يخافوا أن يمتسوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم إشارات المعصيان ودلائله ، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزهم وأخذوا الطارقيات والجنويات ، وعلا على الأسوار وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد ، فلما رأيت الأمر قد آل إلى ذلك نزلت من التل الذي كبت واقفا عليه وهو ملاصق لباب (١٨٧) القلعة ، وقلت لعز الدين وهو واقف مع عسكره في أسفل التل مع جمع من الأجداد : « خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم » . فما كانت إلا ساعة بحيث ضرت خارج البلد في خدمة وادّه للآل الظاهر وقد ركب القوم خيولهم ، وحلوا من القلعة حلة الرجل الواحد ، وأخرجوا من كان في البلد من الأجداد ، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد أن يتاف منهم جماعة ، ويق منهم جماعة في بعض الكنائس من رعا^(٢) المسكر ، مشتغلين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم وقتلوا منهم ، وأسروا . وسيرى السلطان للآل الظاهر إلى والده السلطان - قدس الله روحه - ففرته بالحل فأمر الجاوش ونادى في المسكر وضرب الكوس وقتل ونفر الناس من كل جانب للفرار ، وهجموا البلد ، وحسروا المدوق القلعة وأيقن بالبورار ، واستبطأوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفا عظيما ، فأرسلوا بطر كهم والقسطلان ،^(٣) وكان خلفه هائلة^(٤) ، رسولين

(١) م : خمسة .

(٢) م : « من أتباع المسكر » .

(٣) هذه الجملة مضافة من (م) .

إلى السلطان - رحمة الله عليه - يمتدنان إليه بما جرى ، ويسألان القاعدة الأولى ، تفرج الرسل إلى السلطان - رحمة الله عليه - والقتال يشتد عليهم . وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا بيارق المسلمين ورجالهم ، خافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يجمع من سماع الصوت من كل جانب ، وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير ، فلما رأى من في القلعة شدة (١٨٧ ب) الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها ، فإنها بلغت نيفا وخمسين مركبا ، منها خمسة عشر شائبا منها شاني للآل ، علوا أن النجدة قد غلوا أن البلد قد أخذ ، فوهب رجل منهم نفسه للسيح وقفز من القلعة إلى اللينة وكان رملا فلم يصبه شيء ، واشتد عدوا حتى أتى البحر . تفرج له شاني فأخذه إلى شاني للآل فحدثه الحديث ، فلما تيقن الانكسار ذلك أن القلعة بدمع أصحابه اندفع يطلب الساحل ، فكان أول شاني أتى من فيه في البرشانيه ، وكان أحر وقبته حمراء ، ويبرقه أحر ، وكان رنكه ، فما كان إلا ساعة وقد نزل كل من في الشواني إلى اللينة ، هذا كله وأنا أشاهد ذلك ، ثم حلوا على المسلمين فأندحروا بين أيديهم وأخرجوهم من اللينة ، وكان حتى فرس ، فسقت حتى أتيت السلطان ، وأخبرته بالخبر ، وبين يديه الرسولان ، وقد أخذ القلم بيده حتى يكتب لهما الأمان ، فرفضه في أذنه ما جرى ، فامتنع من الكتابة وأشغلهم بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى فر للمسلمون نحو السلطان ، فصاح في الناس ، فركبوا ، وقبض على الرسل ، وأمر بتأخر النقل والأسواق إلى يلزور ، فرحل الناس ، وتختلف لم نقل عظيم مما كان قد نهوا من يافا ، لم يقدروا على نقله ووصل النمل وبقي السلطان جريدة في الليل ، ويات من ليلته هناك وخرج الانكسار إلى (١٨٨) موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد ، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه ، ففطم سواده ، واجتمع به جماعة من المالك وجري بينهم أحاديث وبجاعة^(١) كثيرة .

ذكر تجديد حديث الصلح

ثم طلب الخاجب أبا بكر المادلي فحضر عنده ، وأبيك الرزني ، وسفر المشطوب وغير هؤلاء ، وكان قد صادق جماعة من خراس المالك^(٢) ، وفرس منهم جماعة^(٣) ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا يحتمون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبار الدين ولهم وغيره ، فلما حضر هذا الغفر عنده جدّ وهزل ، ومن جملة ما قال : « هذا السلطان عظيم ، وما في الأرض للإسلام ملك أكبر ولا أعظم منه ، وكيف رحل عن المسكان بمجرد وصولي ، ووالله ما لبست لأمة حربى ، ولا تأهبت لأمر ، وليس في رجل إلا زبول

(١) م : « وبجاوليت » :

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

البحر ، فكيف تأخر ؟ » ثم قال : « والله إنه لعظيم ، والله ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخفها . في يمين ؟ » . ثم قال لأبي بكر : « تسلم على السلطان وتقول له : بالله عليك أجب سؤال في الصلح ، فهذا أمر لابد له من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء البحر ، وما دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم » . ثم انفضوا عنه ، وحضر أبو بكر عند السلطان (١٨٨ ب) وعرفته ما قال . وكان ذلك في أواخر يوم السبت التاسع عشر رجب ، فلما سمع السلطان - رحمه الله عليه - ذلك أحضر أرباب للشورة ، وافصل الحال على أن الجواب : « إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن قد خربت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية إلى صور » . فضى إليه وعرفه بما قال فردّه إليه وبه رسول فرنجى وقال : « يقول الملك : إن قاعدة القرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بها صار تيمه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ويكون عاكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا اجتبت إلى وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تسلم خمتى » . فكان جواب السلطان - رحمه الله عليه - : « حيث دخلت هذا للدخل فأنا أجيبك إلى أن نجعل هذين البلدين قسمين ، أحدهما لك وهو يافا وما وراءها والثاني لى وهو عسقلان وما وراءها » . ثم سار الرسولان ، ورحل السلطان إلى النخل ، وكان الخيم بيلزور ، ورتب البرك بها ، وأمر بخربابها وخرباب بيت دجن ، ورتب النقاين قلبك ، والبرك عديم ، وسار حتى أتى الرملة ، فقيم بها يوم الأحد العشرين من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي (١٨٩ ا) بكر ، فأمر بإكرامه والإحسان إليه ، وكانت رسالته الشكر من الملك على إعطائه يافا وتجديد السؤال في عسقلان ويقول : « إنه إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده ، وإلا احتاج أن يشى ههنا » فأجاب السلطان في الحال ، وقال : « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما تشيته في هذه البلاد فلا بد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غلب عنها أخذت بالضرورة ، وإذا أقام أيضاً إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشى ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عتقوان شبابه ، ووقت اقتناص قناته ، ما يسهل على أن أشقى أصيب وأشقى وأصيف وأنا في وسط بلادى ، وعندى أولادى وأهل ، ويأتى إلى ما أريده ومن أريده ، وأنا رجل شيخ قد كرهت قلت الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني ، والسكر الذى يكون عدى في الشتاء غير السكر الذى عدى في الصيف ، وأنا أعتقد أنى في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء » . فلما سمع الرسول ذلك طلب أن يجتمع بالملك العادل ، فأذن له في ذلك ، فسار إلى خيمته وحضر وكان قد تأخر بسبب مرض اختاره إلى موضع يقال له مارسموال^(١) ، فسار الرسول إليه مع جماعة (١٨٩ ب) ، ثم بلغ السلطان

أن عسكر المدو قد رحل من عكا قاصدا يافا للإنجليد ، فجمع أرباب الرأي ، وعقد مشورا في مقدمهم ، فانفق الرأي على أنهم يقصدونهم ، ويرسل الثقل إلى الجبل ويقصدونهم جريئة ، فإن لاحت فرصة انتهزوها ، وإلا رجسوا عنهم وهذا أولى من أن تصبروا حتى تجتمع عساكر المدو ، وترسل إلى الجبل في صورة منهزمين وأما الآن فإذا رحلنا ففي صورة طالبين » . فأمر السلطان الثقل يسير إلى الجبل في عشية الاثنين حادى عشرى رجب ، وسار هو - قدس الله روحه - جريئة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على التوجا ، ووصل من أخبره أن عسكر المدو قد وصل قيسارية ودخل إليها ، ولم يبق فيه طمع ، وبلغه أن الانسكار قد نزل خارج يافا بنفر يسير ، وخيم قليلة ، فوقع له أنه ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه ، وينال منهم غرضا ، وعزم على ذلك ، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تتقدمه ، ويقطع الناس في البرية إلى أن أتى الصباح إلى خيم المدو ، فوجدها بسيرة ، ومقدش عشر خيم ، فتدأخه الطمع ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوا ، ولم يصركوا من أمانتهم ^(١) ، وكشروا عن أنياب الحرب ،^(٢) وكانوا على الموت أصبر قارتاع السكر منهم^(٣) ، ووجهوا من ثباتهم ، ودار السكر حولهم حلقة واحدة . ولقد حكى لى بعض الحاضرين - فإنى كنت (١١٩٠) تأخرت مع الثقل ، ولم أحضر هذه الرقعة - والله الحمد لالتياك مزاجى - أن عدة الخليل كان يحجزها للكثير بسبعة عشر والمقل بقسمة ، والرجال دون الألف ، فن قائل : ثلاثمائة ، ومن قائل : أكثر من ذلك . فوجد السلطان - رحمه الله - من ذلك موجهة ^(٤) عظيمة ، ودار^(٥) على الأطلاب بنفسه يمنهم على الحملة ، ويمدح بالحق على ذلك^(٦) ، فلم يحب دعه أحد سوى ولده الملك الظاهر - رحمه الله -^(٧) فإنه تأهب للحملة ، فتمه^(٨) ، وبلغنى أنه قال له الجناح أخو المشطوب : « قل لنفائك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا ، وأخذوا منهم الفدية ، يحملون^(٩) » . وكان في قلوب الناس المسكر من صلح السلطان على يافا حيث قوتهم التنمية ، وجرى ما جرى ما أثر هذا الأثر . فلما رأى السلطان ذلك رأى أن وقوفه في مقابلة هذه الشرفمة البسيرة من غير عمل خسارة بحة^(١٠) . ولقد بلغنى أن الانسكار أخذ ربحه ذلك اليوم ، وحل من طرف الليمنة إلى طرف اللبيرة ، فلم يعرض له أحد ، فنضب السلطان - قدس الله روحه - ثم أعرض عن القتال ، وسار حتى أتى يازور كالمنضب ، فنزل بها ، وذلك في يوم الأربعاء

(١) م : « قتلوا في أمانتهم » .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٣) م : « مضطه » .

(٤) م : « ودار على الأطلاب يمنها فلم يجب . . . الخ » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٦) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٧) م : « خسة في حقه » .

ثالث عشرى رجب ، وبات المسكر كالبزك . ثم أصبح يوم الخميس ، وسار إلى النطرون ، فنزل بها وأخذ إلى المسكر فأحضره عنده ، فوصلنا إليه آخر نهار الخميس رابع عشرى رجب ، (١٩٠) فبات به . ثم أصبح يوم الجمعة وسار إلى أخيه الملك المادل يفتقده ، ودخل القدس وصلى الجمعة ، ونظر العائر ورتبها ، ثم عاد من يومه إلى النقل وبات فيه على النطرون .

ذكر قدوم المسافر

فأول من وصل علاء الدين بن أتابك - صاحب اللوصل - وكان وصوله نحاسى نهار السبت سادس عشرى رجب ، فلقبه السلطان - قدس الله روحه - عن بُد ، وأكرمه واحترمه وأنزله عنده فى الخيمة ، وعمل همه حسنة ، وقدم له مقدمة جميلة ، ثم سار إلى خيمه . وأما رسول الملك فإنه عاد فى هذا اليوم من الملك ، فإن الملك المادل كان قد حمله مشاقبة إلى الملك ، وعاد مع الحاجب أبى بكر إلى يافا ، فعاد أبو بكر وحضر عند السلطان فى ذلك اليوم وأخبره : « إن الملك لم يتركنى أدخل إلى يافا ، وخرج إلى وكفى فى ظاهرها وكان كلامه : إني كم أطرح غشى على السلطان وهو لا يقبلنى ، وأنا كنتُ أحرم حتى أعود إلى بلادى ، والآن قد هجم الشتاء وتغيرت الأنواء ، وعزمت على الإقامة وما بقى بيننا حديث » . هذا كان جوابه ، خذله الله .

ذكر قدوم عسكر مصر المحروسة^(١)

وأقام السلطان - قدس الله روحه - بالنطرون . ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر نخرج السلطان - رحمه الله عليه - إلى قناهم ، وكان فيهم مجد الدين (١٩١) هُندرى ، وسيف الدين يازكج ، وجماعة الأسدية . وكان فى خدمته ولده الملك اللزيد مسمود ، وأظهر الزيتة ونشروا الأعلام والبيارق ، فكان يوما مشهودا ثم أنزلهم عنده ومد الخوان ، ثم ساروا إلى منازلهم .

ذكر قدوم الملك المنصور بن تقي الدين

رحمه الله

وكان قد تسلم البلاد التى وعد بها ، وتجهز . وكان وصل إلى خدمة الملك المادل فى يوم السبت حادى عشر شعبان فنزل عنده بمار صويل ، وافقده ، وكتب لملك المادل إلى السلطان - قدس الله روحه - يخبره بوصوله ،

(١) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

وسأله في احتراجه وإكرامه وإطلاق الوجه^(١) له . ولما تحقق ولده الملك الظاهر وصول الملك المنصور استأذن والده في لقائه واقتاد الملك الماحل ، فأذن له في ذلك ، فسار فوجد الملك المنصور نجيا بيت نوبة ، فنزل عنده وفرح بقاته ، وأقام عنده إلى العصر ، وذلك في يوم الأحد ، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خنية السلطان ، ونحن في خدمته ، فدخل عليه واستمره ، ونهض واحتقه وضبه إلى صدره ، ثم غشيه البكاء ، فصبر نفسه حتى غلبه الأمر وغشيه من البكاء ما لم ير مثله ، فبكى الناس ليكائه ساعة زمانية ، ثم باسطه وسأله عن الطريق ، ثم انفضل (١٩١ ب) وابت في خيمته ولده الملك الظاهر^(٢) . رحمه الله - إلى صبيحة الاثنين ، ثم ركب وعاد إلى حكره ، ونشروا الأعلام والبيارق ، وكان معه عسكر جميل ، فمرت عين السلطان وذلك في صبيحة الاثنين ثالث عشر شعبان ، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة .

ذكر رحيله - قدس الله روحه - إلى الرملة

وذلك أنه لما رأى العساكر قد اجتمعت جمع أبواب الرأى وقال : « إن الانكسار قد مرض . مصا شديدا والإنفرنسية قد ساروا راجعين ليمروا البحر من غير شك ، وثقاتهم قد نالت ، وهذا عدو قد مكّن الله منه ، وأرى أن نسير إلى باقا ؛ فإن وجدنا فيها طمعا بلغنا ، وإلا عدنا تحت الليل إلى عسقلان ، فما يلحقها^(٣) النجدة إلا وقد بلغنا منها غرضا » فأروا ذلك رأيا ، وتقدم إلى جماعة من الأمراء ، كز الدين جورديك ، وجمال الدين فرج وغيرهما للمسير في ليلة الخميس سادس عشر شعبان حتى يكون قريبا من باقا في صورة يزك يسترقون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ، ثم يعرفونه ذلك ، فساروا . هذا ورسل الانكسار لا تنقطع في طلب القناكية والتلج ، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة للكثرى والخطوخ ، وكان السلطان يمد بذلك ، ويقصد كشف الأخبار بثوار الرسل ، والذي انكشف من الأخبار أن فيها ثلاثمائة فارس على (١٩٢) قول المكبر ومائتي فارس على قول المقل ، وأن الكندهرى يتردد بينه وبين الفرنسية في مقامهم ، وهم هازمون على عبور البحر قولاً واحداً ، وأنه لا عناية لهم بسور البلد ، وإنما عنايتهم بملارة سور القلعة . وكان قد طلب الانكسار الحاجب أبا بكر المادى وكان له معه انبساط عظيم ، فلما تحقق السلطان - رحمه الله - هذه الأخبار أصبح يوم الخميس راحلا إلى جهة الرملة

(١) م : « الرمة » .

(٢) م : « وبات في خيمة الملك الظاهر » .

(٣) م : « فما يلحقها » .

فترل بها ضاحى نهاره ، ووصل الخبر من العبارة^(١) يقولون : « إنا أغرنا على يافا فلم يخرج إلا ثلاثمائة فارس بعضهم^(٢) على قتال » . فأمرهم السلطان بمقلمهم هناك ، ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك ، يشكر السلطان على إسماعله^(٣) بالفاكهة والتنج . وذكر أبو بكر أنه انرد به وقال له : « قل لأخي - يعني الملك العادل - يصير كيف يتوصل إلى السلطان في مضى الصلح ، ويستوهب لي منه عسقلان ، وأمضى . وبقى هو ههنا مع هذه الشرخمة البسيرة ، يأخذ البلاد منهم . فليس لي غرض إلا إقامة جلمى بين الفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان ، فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتى على عمارة سورها » . فلما سمع السلطان ذلك سهرم إلى الملك العادل^(٤) وكان معهم صاحب بدر الدين دهرم اليازوقى ، متوسلا أيضا ، فلما ساروا^(٥) أسر السلطان (١٩٢ ب) إلى قنة عنده بأن يمضى إلى الملك العادل ويقول له : « إن تزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن المسكر قد ضجر من ملازمته البيشكار والتفتات قد قذت وساورا ضاحى نهار الجمعة سابع عشر شعبان .

ذكر الإجابة إلى النزول عن عسقلان

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور أخذ بدر الدين دهرم من البرك يقول : إنه خرج إلينا خمسة أنفس ، منهم شخص مقدم عند الملك يسمى هوات ، وذكروا أن لم يمي حديثنا ، فهل أسمع حديثهم أم لا ؟ . فأذن له السلطان في ذلك . فلما كان عشاء الآخرة خضر بدر الدين بنفسه ، وأخبر أن حديثهم كان : « إن الملك نزل عن عسقلان ، وعن طلب العوض عنها ، وقد صبح مقصوده في الصلح » . فأجابه السلطان بأنه ينبغي إليه قنة يأخذ يده على ذلك ، ويقول : « إن السلطان قد جمع الساکر ولا يمكننى أن أحدثه هذا الحديث إلا أن أئن بك أنك لا ترجع فيه وبعد ذلك أحدثه » . وسار بدر الدين على هذه القاعدة ، وكتب إلى الملك العادل يخبره بما جرى . ولما كان السبت ثامن عشر شعبان أخذ بدر الدين وذكر أنه أخذ يده على هذه القاعدة من يثق به ، وأخذ حدود البلاد على ما استقر في اللغة الأولى مع الملك العادل ، فأخضر السلطان الديوان ، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرملة (١٩٣) منها ، ولما^(٦) وبنى ، وبجلد يافا ، ثم ذكر قيسارية وعملها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها وأخرج منها الناصرة وصفورية ، وأثبت الجميع في ورقة ، وكتب جواب الكتاب وأنفذه

(١) م : ٢ من التبريد .

(٢) م : « مثلهم » .

(٣) م : « إسماعله » .

(٤) منه العبارة ساقطة من (م) .

(٥) مفاد اللذان ساقطان من (م) .

على يد الطرطاي مع الرسول ، وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت ، وقال الرسول : « هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإن صالحتكم على ذلك فبارك قد أعطيتكم يدى ، فينفذ الملك من خلف ، ويكون ذلك في بكرة غدو لا فيعلم أن هذا دفع وعاطلة ، ويكون الأمر قد انفصل بيننا . وساروا في بكرة الأحد على هذه القاعدة .

ولما كان عشاء الآخرة من يوم الأحد العشرين من شعبان وصل من أخير بوصول طرطاي ومعه الرسل ، واستأذن في حضورهم فأذن - رحمه الله - في حضور طرطاي وحده وذكر : « أن الملك قد وقف على تلك الرقة وأنكر أنه نزل عن الموضع » فأذكره الجماعة الذين خرجوا إلى بدر الدين فسلمهم ^(١) أنه نزل عن ذلك فقال : « إننا أنا قلته فلا أرجع عنه ، قولوا للسلطان : « مبارك » ، وضيت بهذه القاعدة ، ورجعت إلى مروءتك ، فإن زدني شيئا فنفضك وإنساك » وساروا وأحضر الرسل ليلا ، وأقاموا إلى بكرة ، وأحضروا الرسل عند السلطان بكرة (١٩٣٠) الاثنين العشرين من شعبان ، وذكروا ما استقر عن صاحبهم ، ثم انفصلوا إلى خيمهم ، وحضرا عند السلطان أصحاب الرأى وأرباب المشورة ، واستقر الأمر وانفصل القاعدة ، وسار الأمير بدر الدين فسلمهم إلى الملك المادل ، وأخذ الرسل معه في صورة من يبال في زيادة الرملة ، وعاد عشاء الآخرة ليلة الثلاثاء ^(٢) الثاني والعشرين من شعبان ، وكتبت المواصفة ^(٣) وذكر فيها : الشروط ، والصلح ثلاث سنين من تاريخها ، وهو الثلاثاء ^(٤) الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسة ، وزيد فيها : « الرملة لم ولدت أيضا » . وسير المدل وقيل له : « إن قدرت أن ترضيه بأحد الموضعين أو بمناصقتها فافعل ، ولا يكون لم حديث في الجلبليات » . ورأى السلطان - قدس الله روحه - ذلك مصلحة لما غشى الناس من الضعف وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان ، ولما شاهد من تقاعدهم على يالايوم أمرهم بالحيلة ، فلم يحلوا ، تخاف أن يحتاج إليهم فلا يجدهم ، فرأى أن يجمعهم ^(٥) مدة حتى يستريحوا وينسوا هذه الحيلة التي صاروا إليها ، ويسمر البلاد ، ويشحن القدس بما يقدر عليه من الأسلحة ^(٦) ويتفرغ لمارته ، وكان من القاعدة : « أن تكون عسقلان خرابا . وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية أن يأخذها عامرة فلا يخرجها ^(٧) » . فضى المدل على (١١٩٤) هذه القاعدة واشترط : « دخول بلاد الإسماعيلية ^(٨) » .

(١) م : « يتبعى فسلمهم » :

(٢) م : « ليلة الاثنين » ولم يذكر التاريخ

(٣) م : « المواصفة » .

(٤) م : « الأربعاء » .

(٥) م : « يجمعهم » .

(٦) م : « الآلة » .

(٧) م : « تأخذها طيرة فلا يخرجها » وهو خطأ واضح .

(٨) م : « الاسلالية » .

واشترطوا م ، « دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح على قاعدة آخر صلح صالح خانم عليه » . واستقر الحال على ذلك . وسارت الرسل يوم « الثلاثاء حادى عشرى شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسة »^(١) ، وحكم عليهم أنه لابد من فصل الحال اليوم إما بصلح أو بخصومة ، خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ومدافعاته للمرونة .

ذكر قدوم رسل من جهات متعددة^(٢)

وفى ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتر - صاحب خلاط - يبدى الطاعة والموافقة وتسيير المسكر ، وحضر رسول السكرج ، وذكر فصلا في معنى الديارات^(٣) التي لم في القدس وعماراتها ، وشكوا من أنها أخذت من أيديهم ، ويسأل عواطف السلطان - رحمة الله عليه - بردها إلى أيدي نوابهم ، ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية .

ذكر عام للصلح

ولما وصل المدل إلى هناك أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به ، فلما علم استحضره عنده مع بقية الجماعة ، وعرض عليه المدل النسخة ، وهو مريض الجسم فقال : « لا طاعة لي بالوقوف عليها ، وأنا قد صالحت ، وهذه يدى » . فاجتمعوا بالسكندهرى والجماعة ، ووافقهم على النسخة ، ورضوا ببلد الرملة (١٩٤٠) بمناصفة ، وبجميع ما في النسخة ، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون بسكرة يوم الأربعاء ؛ لأنهم كانوا قد أكلوا شيئا يوم الثلاثاء ، وليس عادتهم الحلف بعد الأكل ، وأخذ المدل إلى السلطان - رحمة الله عليه - من عرفه ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء الثانى والعشرون من شعبان است حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن اللوك لا يحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك^(٤) ، ثم حلف الجماعة : خلف السكندهرى ابن أخته المستخلف عنه في الساسل ، وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية^(٥) ، ورضى الاستبصار والداوية وسائر مقدمى الافرنجية بذلك ، وساروا في بقية اليوم عائدِينَ إلى الخيم السلطاني ، فوصلوا عشاء الآخرة ، وكان الواصلون من جانبهم ابن المنفرى ، وابن بارزان ، وجماعة من مقدميهم ، فاحرقوا وأكرموا ؛ وضرب لهم خيمة تليق بهم ، وحضر المدل وحكى ما جرى .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٣) م : « الزادات » .

(٤) م : « وقع السلطان بذلك » .

(٥) م : « صاحب طبرية » .

بالخروج فخرجوا ، ووقع الخراب فيها ضاحى نهار الاثنين سابع عشر شعبان سنة ثمان وثمانين ، واستمر تحريقها ، وكُتب على الجماعة رفاق في المأواة على الخراب ، وأعطى كل واحد قطعة مأواة من السور ، وقيل له : « دستورك خرابها » .

ذكر رحيل السلطان - قدس الله روحه -

من الرملة^(١)

ولما كان يوم الأربعاء التاسع والعشرون من شعبان رحل السلطان إلى النطرون ، (١١٩٦) واختلط المسكرات ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من المدعو إلى القدس الحج ، وفتح لهم السلطان - رحمه الله - الباب في ذلك ، ونفذ معهم انفقاء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا ، وكثر ذلك من الفرنج ، وكان غرض السلطان - رحمه الله - بذلك أن يقضوا وطرم^(٢) من الزيارة ، ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون شرهم . ولما علم للراك كثرة من يزور منهم صلب عليه ذلك ، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح ألا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابة ، وعلت الفرنجية ذلك ، فعمظ عليها ، واهتموا في الحج ، فكان رد كل يوم منهم جموع كثيرة مقدمون ، وأواسط^(٣) ، وملوك متسكرون ، وشرع السلطان - رحمه الله عليه - في إكرام من يرد ، ومد الطعام ومباصلتهم ومخادتهم ، وعرفهم إنكار للراك ذلك ، وأذن لهم السلطان في الحج ، وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك من ذلك ، واعتذر إلى الملك بأن قوماً قد وصلوا من ذلك البلد^(٤) ، ويسر الله لهم زيارة هذا المكان الشريف لا أستحل منعهم . ثم اشتد المرض بالملك ، فرحل ليلة الأربعاء تاسع عشر شعبان ، وقيل : إنه مات ، وسار هو والكندهرى ، وسائر القديمين إلى جانب عكا ، ولم يبق من يافا إلا مريض أو عاجز (١١٩٦ ب) وفتر يسير .

ذكر عود المساكين الإسلامية إلى أوطانهم

ولما انقضى هذا الأمر واستقرت هذه القواعد ، أحلى السلطان الناس دستوراً ، فكان أول من سار عسكر إربيل ، فإنه سار مستهل شهر رمضان المبارك ، ثم سار بعده في ثمانية عسكر الموصل وسنجار والحصن . وأشاع [السلطان] أمر

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) الأصل : « أت ينظر وطرم » والتصحيح عن (م) .

(٣) م : « واسبط » .

(٤) م : « من هذا ذلك » .

الحج وقوى عزيمته على براعة القصة منه ، وكان هذا مما وقع في ، وبدأتُ بالإشارة به في يوم تمة الصلح ، ووقع منه - رحمة الله عليه - موقعا عظيما ، وأمر الديوان : « إن كل من عزم على الحج من العسكر ثبتت اسمه حتى يحمي عدة من يدخل مصاف الطريق » . وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغير ذلك ، وسيرها إلى البلاد ليصلوها .

ذكر رحيله ، رحمة الله عليه .^(١)

ولما أعطى الناس دستوروا ، وعلم عَزَد المدومدسورا إلى وراثته رأى الدخول إلى بيت المقدس الشريف تهيئة أسباب عمارته ، والنظر في مصالحه ، والتأهب للسير إلى الحج ، فرحل من النطرون في يوم الأحد رابع شهر رمضان ، وسار حتى أتى مار سمويل يعتقد لللك العادل بها ، فوجدته قد سار إلى القدس ، وكفتُ عنده رسولا من جانب السلطان ، أنا والأمير بدر الدين طهرم والمذل ، وكان قد قطع عن أخيه مدة بسبب المرض ، وكان قد تماثل ضعفه نجى السلطان (١١٩٧) إلى مار سمويل لبيادته ، فحل على نفسه ، وسار معنا حتى لقيه بذلك المكان ، وهو أول وصوله ، ولم ينزل بعد ، فلقينه ونزل وقبل الأرض ، وعاد فركب ، فاستدناه ، وسأله عن مزاجه ، وساراجيما حتى أتيا القدس الشريف في بقية ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول من بندا

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلى الملك العادل - قدس الله روحه - الجمعة ، وانصرف عائدا إلى الكرك عن دستور من السلطان ، لينظر في أحواله ، ويسود إلى البلاد الشرقية يذبرها ، فإنه كان قد أخذها من السلطان - قدس الله روحه - وكان قد ودع السلطان - رحمة الله عليه - فلما وصل إلى المازرية نزل بها غنيا ، فوصله من أخيره أن رسولا من بندا واصل إليك ، فأخذ إلى السلطان وعرفه وذكر أنه مجتمع به ، ويطلع بما وصل فيه . ولما كان يوم السبت الرابع والعشرون دخل الملك العادل إلى الخدمة السلطانية ، وذكر أن الرسول وصل إليه من جانب ابن النافذ ببدان ولي نيابة وزارة بندا ، ومقصود الكتاب أنه يئتمه على استمطاط قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة ، والدخول بينه وبين الديوان العزيز ، والإنكار عليه في تأخر رسله عن التوبة الشريفة ، واقترح تسير (١١٩٧ ب) القاضي الفاضل ليحضر الديوان في تقرير قواعد لا تنحصر بينه وبين السلطان - رحمة الله عليه - إلا به ، وقد وعد لللك العادل من الديوان بوعود عظيمة

(١) هنا العنوان غير موجود في (م)

إذا قرّر ذلك، ويكون له يدّ عند الديوان يستمرها فيها بعد، وما يشبه هذا المعنى، غدت عند السلطان فكرة في إفاذ رسول يسمع كلام الديوان، ويستلم أثر^(١) دخول الملك المائل في البين، وزاد الحديث وقص، وطال وقصر، وقوى عزم السلطان على إفاذ الضياء الشهير زورى. وعاد الملك المائل إلى غيمه بالمآزرة بعد تقرير هذه القاعدة، وعرفه إجابة السلطان إلى إفاذ رسول إلى خدمة الديوان المزير، وسار يوم الإثنين طالبا جهة السكر. وسار الضياء متوجها إلى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من^(٢) شهر رمضان.

ذكر توجه ولده الملك الظاهر إلى بلاده

ووصية^(٣) السلطان له

ولما كان بكرة يوم الأربعاء السابع^(٤) والعشرين من شهر رمضان المبارك توجه ولده الملك الظاهر بعد أن ودّعه، ونزل إلى الصخرة فعلى عندها، وسأل الله تعالى ما شاء. ثم ركب^(٥) في خدمته — فقال لي: « قد تذكرت ما احتاج فيه إلى مراجعة السلطان مشاقفة ». فأخذ من استأذن له (١٢٩٨) في المود إلى خدمته، فأذن له في ذلك غفر واستحضرني وأخل للكان ثم قال: « أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها رأس كل خير. وأمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاحك. وأحذرك من الدماء، والدخول فيها والتفاد لها، فإن الدم لا ينال، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أمين وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة وأكابرها، فابلت ما بملت إلا بمداواة الناس. ولا تتخذ على أحد، فإن الموت لا يبقى أحدا، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يتفر إلا برضام، وما بينك وبين الله يتفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم ». وكان ذلك بعد أن أفطرنا في خدمته^(٦)، ومضى من الليل ما شاء الله أن يمضي، وأكثر من ذلك، ولكن هذا ما أمكن حكايته وضبطه، ولم ينزل بين يديه إلى قريب السر، ثم أذن له في الانصراف، ونهض له وودّعه، وقبل وجهه ومسح يده على رأسه، وانصرف في دعة الله، ونال في برج الخشب الذي السلطان يجلس عنده في الأحيان إلى بكرة، وسرت في خدمته إلى بعض الطريق وودّعه، وسار في حفظ الله إن شاء الله.

(١) م: « سب ».

(٢) الأصل: « سادس شهر رمضان »، والتصحيح عن (م).

(٣) م: « ووجهة » وهو خطأ واضح.

(٤) م: « التاسع ».

(٥) م: « وركبت ».

(٦) م: « انصرفنا من خدمته ».

ذكر مسير الملك الأفضل^(١)

رحمه الله

نم سير الملك الأفضل رحمه الله ، وأقام (١٩٨ ب) يراجع السلطان على لسانه في أشغال كانت له ، حتى دخل في شوال أربعة أيام وسار في ليلة الخميس منه نصف الليل عن تمتع عليه جريدة على طريق النور .

ذكر مسيره - قدس الله روحه -

من القدس

وأقام السلطان - قدس الله روحه - يُقطع الناس ، ويعطيهم دستوراً ، ويتأهب للسير إلى الديار المصرية ، واضطلع شوقه إلى الحج ، وكان من أكبر الصالح التي فاته ، ولم يزل كذلك حتى صبح عنده إقلاع مركب الانسكتار المخدول ، متوجهاً إلى بلاده مستهل شوال ، فبعد ذلك حرّر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريدة ، ويتفقد القلاع البحرية إلى نابلس ، ويدخل محروسة دمشق ، ويقيم بها أياماً قلائل ، ويعود إلى القدس الشريف ، سائراً إلى الديار المصرية ، لتفقد أحوالها ، وتقرر قواعدها ، والنظر في مصالحها ، وأمرني بالمقام بالقدس الشريف^(٢) إلى حين عودته^(٣) لمارة بمارستان أنشأه فيه ، وإدارة للدرسة التي أنشأها فيه - رحمه الله عليه - إلى حين عودته ، وسار من القدس ضاحي نهار الخميس سادس شوال سنة ثمان وثمانين ، وودعته إلى البيزة ، ونزل بها ، وأكل فيها الطعام ، ثم رحل حتى أتى بعض طريق نابلس ، فبات ، ثم أتى نابلس ضاحي نهار الجمعة سابع شوال ، فلقى خلق عظيم يستقبلونه (١١٩٩) على للشطوب ، ويتضورون إليه سوء رعايته لهم ، فأقام - رحمه الله - يكشف عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت ثمانية ، ثم رحل ونزل ببغليطة يتفقد أحوالها ، ثم أتى في طريقه إلى كوكب ، ونظر في أحوالها ، وأمر بسدّ خلفها ، وذلك في يوم الاثنين عاشره .

ذكر خروج بهاء الدين قراقوش^(٤)

من الأسر

وكان انشكاكه من ربة الأسر يوم الثلاثاء سادس عشر شوال وتُتل بالعلمة الشريفة السلطانية ، فخرج به

(١) هذا العنوان غير موجود ل (م) .

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٣) هذا العنوان ساقط من (م) .

فرحا شديدا ، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والإسلام ، واستأنف السلطان - رحمة الله عليه - في السير إلى دمشق لتحصيل القطيعة ، فأذن له في ذلك ، وكانت القطيعة على - بما بلنى - ثمانين ألفا .

ذكر وصول البرنس

إلى الخدمة السلطانية مسترفدا^(١)

ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس - صاحب أنطاكية - مسترفدا ، فبالغ في إكرامه واسترامه ومباسطه ، وأنعم عليه بالمتى وازرعان ومزارع تفل^(٢) خمسة عشر ألف دينار .

ذكر موت المشطوب بالقدس^(٣)

وكان قد تخلف المشطوب بالقدس من جملة السكر للمين له ، ولم يكن واليه ، وإنما كان عز الدين جورديك ، كان ولأه بعد الصلح حالة عوده إلى القدس بعد أن شاور فيه (١٩٩ ب) الملك العادل وللك الأفضل والملك الظاهر على لسانه ، وأشاروا به ، وأشار به أهل الدين والصلاح ، لأنه كان كثير الجدة والخبرة لأهل الخير ، وأمرنى السلطان - رحمة الله عليه - أن أوليه ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ، فوليته إياه بعد صلاة الجمعة ، واشترطت عليه الأمانة ، وعرفته موضع حسن اعتقاد السلطان فيه ، فاعتقد الأمر وقام به القيام المرضي . وأما للمشطوب فإنه كان مقبلا بالقدس من جملة من كان فيه ، وتوفى - رحمة الله عليه - في يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ، ودُفن في داره بعد أن صلى عليه في المسجد الأقصى ، رحمة الله .

ذكر عود السلطان - قدس الله روحه -

إلى محروسة دمشق

وكان عوده إليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بدخولها وإصلاح أمور أجنادها ، وإشاحتها بالرجال والأجناد ، فدخل إلى دمشق بكرة الأرباء سادس عشرى شوال ، وفيها أولاده :

(١) هذا العنوان ساقط من (م) .

(٢) الأمل - « تفل » والصحيح من (م) .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

الملك الأفضل والملك الظاهر، والملك الظاهر، وأولاده الصغار، وكان يحب البلد، ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد، وجلس للناس في بكرة الخميس سابع عشرين منه، وحضر الناس عنده، ولبوا شوقهم من رؤيته - رحمة الله عليه - وأشدّه الشراء، وهمّ ذلك المجلس الخالص والمأم، (١٢٠٠) وأقام ينشر جناح عدله، ويهطل سبحانه إنعامه وفضله، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، حتى كان يوم الاثنين مستهل ذى القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر، فإنه لما وصل إلى دمشق بلغه حركة السلطان إليها، فأقام بها حتى يشمل بالنظر إليه. ثانياً، وكان نفسه الشريفة كانت أحست بدنو أجل السلطان، فودّعه في تلك الليلة مراراً متتحدة، وهو يعود إليه ولما اتخذ الملك الأفضل له دعوة أظهر فيها من بديع التجليل وغريبه ما يليق بهيمته، وكأنه أراد مجازاته عما خلعه به حين وصوله إلى حلب المحروسة، وحضرها أرباب الدنيا والآخرة، وسأل السلطان - قدس الله روحه - الحضور، فحضر جبراً لقلبه، "وكان يوماً مشهوداً، على ما بانق".^(١)

ذكر قدوم الملك العادل أخيه

ولما تصفّح الملك العادل أحوال الكرك، وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه فيه، عاد طالباً البلاد القرائية، فوصل أرض دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذى القعدة، وكان السلطان قد خرج إلى لقائه، وأقام يتصيد حول غياغب إلى الكسوة، حتى لقيه، وساروا جميعاً يتصيدان، وكان دخولها إلى دمشق آخر نهار الأسد حادى عشرى ذى القعدة سنة ثمان، وأقام السلطان - رحمة (٢٠٠) الله عليه - بدمشق يتصيد هو وأخوه، وأولاده يتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبا، وكأنه يوجد راحة مما كان فيه من ملازمة التنب والنصب، وسهر الليل ونصب النهار، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومراتب تنزهه، وهو لا يشتر - رحمة الله عليه - ونسى عزمه لمصر، وعرض له أمور أخرى، وعزومات غير ذلك. ووصلنى كتابه - قدس الله روحه - إلى القدس يستدعنى إلى خدمته، وكان شتاء شديداً، ووحلاً عظيماً، فخرجت من القدس الشريف - حرسه الله تعالى - في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين، وكان الوصول إلى عروسية دمشق يوم الثلاثاء ثمانى عشر صفر سنة تسع. وكان وصل أوائل الحاج على طريق دمشق، "وكان دخول السلطان إليها عصر الاثنين حادى عشر، فلم يبق الثول في خدمة السلطان إلى ضامى نهار يوم الوصول" فإنه اتفق حضورى، وكان الملك الأفضل حاضراً في الإبران الشمالى، وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب الناصب ينتظرون جلوس السلطان بخدمته،

(١) هذه الجملة ساقطة من (م).

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م).

فلما شعر بحضورى استحضرنى وهو وحده ، قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه - رحمة الله عليه - فقام ولقيني ملقاً ما رأيتُ أشدَّ مِنْ شره فيه - رحمه (١٢٠١) الله - ولقد ضمىنى إليه ، ودعت عينه . رحمة الله عليه .

ذكر لقاء الحاج

رحمة الله عليه

ولما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طليق ، فحضرت عنده ، فسألنى عن فى الإبران فأخبرته أن للآلئ الأفضل جالس فى الخلعة ، والأمراء والناس فى خدمته فاحضرو إليهم على لسان جمال الدولة إقبال . ولما كانت بكرة الخميس استحضرنى بكرة ، فحضرت عنده ، وهو فى صفة البستان ، وعندنا ولادُه الصغار . فسأل عن الحاضرين فقيل : « رسل الفرنج ، وجماعة الأمراء والأكابر » . فاستحضر رسل الفرنج إلى ذلك المكان ، فحضروا ، وكان له ولد صغير ، وكان كثير الليل إليه ، يسى الأمير أبا بكر ^(١) ، وكان حاضرا وهو - رحمه الله - يداعبه فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم ، وحلق ذقونهم ، وقص شعورهم ، وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكى ، فاحضرو إليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم ، وقال لى : « أكلت اليوم شيئا ^(٢) ؟ » وكانت عادته - رحمه الله عليه - هذه البساطة . ثم قال : « أحضروا لنا ما تيسر » . فاحضروا أرزاً بلبن وما يشبه ذلك من الأطعمة الخفيفة ، فأكل - رحمه الله عليه - وكنتُ أعلن أن ما عنده شهوة وكان فى هذه الأيام يعتذر للناس لنقل الحركة عليه ، وكان بذنه كان محتثا (٢٠١ ب) وعنده تكسل فلما فرغنا من الطعام قال : « ما الذى عندك من خبر الحاج ؟ » قلت : « قد اجتمعتُ جماعة منهم فى الطريق ؛ ولولا كثرة الوصل لدخلوا اليوم ، ولكمهم فى غيد يدخلون » . فقال : « نخرج إن شاء الله إلى لقائهم » . وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فلينها كانت سنة كثيرة الأنداء ، وقد سالت المياه فى الطرق كالأنهار . وانفصلت عن خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما أعرفه منه . ثم بكر فى يوم الجمعة فركب وتأخرتُ عنه تأخراً قريباً ، ثم لحقته وقد لقي الحاج ، وكان فيهم سابق الدين ، وقرالا الباروق ، وكان كثير الاستمرار للشايخ - قدس الله روحه - فلقبهم ، ثم لحقه للآلئ الأفضل ولده ، ولقى الجماعة ، وأخذنى للآلئ الأفضل يحدثنى ، فنظرت إلى السلطان - رحمه الله عليه - فلم أجد عليه كزأفئته ، وما كان له عادة يركب بدونه . وكان يرما عظيماً قد اجتمع فيه لقاء الحاج ، والفرنج على السلطان ،

(١) الاسم ساقط من (م) .

(٢) م : « وهال إن لى اليوم غنلا » ولا سنى لما ولا تنقى وسباق الكلام .

معظم من في البلد ، فلم أجد الصبر دون أن سرت إلى جانبه وحدته في إهمال هذا ، فكأنه استيقظ ، فطلب السكرانغند ، فلم يوجد الزركش ^(١) ؛ فوجدت تلك أمراً عظيماً وقلت في نفسي : « سلطان يطلب مالا بدمه في عادته ولا يحمده . وأوقع الله في قلبي نظيراً بذلك ، قلت له - رحمه الله - : « ما ثم طريق إليك ليس فيه خلق كثير ؟ » قال : « (١٢٠٢) » بل « ثم سار - رحمه الله - بين البساتين يطلب جهة المتبوع ، وصرنا في خدمته ، وقلبي يردد لما قد أوقع فيه من الخوف عليه ، فسار حتى أتى القلعة ، فصر على الجسر إلى القلعة وهو ، طريقه المعتاد ، وكانت آخر ركبانه - رحمه الله عليه وقديس روحه .

ذكر مرضه ، رحمه الله عليه .

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلًا عظيماً ، فأتى نصف الليل حتى غشيت حى مغراوية ، كانت في بطنه أكثر منها في ظاهره . وأصبح في يوم السبت حادس عشر صفر سنة تسع وعشرين مئتي مئتي ، عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس ، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلته بالليل ، وطالب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقولوب عنده ، فقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل ، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ، فأنصرف . ودخلت إلى الإيوان القبلي ، وقد مد الطعام وولده الملك الأفضل قد جلس في موضعه ، فأنصرفت ولم يكن لي قوة للجلوس ، استحيشاً . وبكى في ذلك اليوم جماعة تغاولوا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار ، وتدخل إليه أنا والقاضي (٢٠٢) الفاضل في النهار مراراً ، ويُعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة . وكان مرضه في رأسه - رحمه الله عليه - وكان بين إمارات انتهاء المعسر "غنية طيبة" التي كانت قد آتت مزاجه سفراً وحضراً ، ورأى الأطباء قصده فقصده في الرابع فاشتد مرضه ، وقلت رطلوبات بدنه ، وكان يقبله اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في الساس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب ملين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكى من شدة حره ، فغير عرض عليه ثانياً ، فشكى من برده ، ولم ينضب ولم يعضب - رحمه الله عليه - ولم يقل سوى هذه الكلمات : « سبحان الله ، لا يمكن أحد تعديل الماد » . فخرجنا أنا والقاضي الفاضل يقول لي : « أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف للسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا

(١) م : « الزرد كاش » .

(٢) هذا الفاضل سلطان من (م) .

بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره . واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ، ولم يزل متزايداً ، وتنبّذ فحنه - رحمة الله عليه - . ولما كان التاسع حدثت به رعشة^(١) ، وامتنع من تناول للشروب ، واشتد الجف في البلد ، وخاف الناس ، وظلوا الأقدسة من (١٢٠٣) الأسواق ، وغشى الناس من السكابة والحزن ما لا يمكن حكايته . ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نهد في كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر في باب البحار ، فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلا ترفنا أحواله وانصرفنا . وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى ميوتنا حتى نقرأ أحواله من صفحات وجوهنا . ولما كان العاشر من مرضه جُفِنَ دُفُتَيْن ، وحصل من الحفنة راحة ، وحصل بعض الخلف ، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً ، وفرح الناس فرحاً شديداً ، فأقننا على المدة إلى أن يمضي من الليل هزيع ، ثم أتينا باب البحار فوجدنا جمال الدولة إقبالا ، فالتفتنا منه تعريف الحال المتجددة ، فدخل ثم أخذ إلينا مع اللك المظلم تورانشاه - جيره الله تعالى - يقول : « إن العرق قد أخذ في ساقيه » . فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتفتنا منه أن يس بقية بدته^(٢) ، ونجبرنا بحاله في العرق ، فالتفتد ثم خرج إلينا ، وذكر أن العرق ساينج ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، وانصرفنا طيبة قلوبنا . ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا بالباب ، وسألنا عن الأحوال ، فأخبرنا أن العرق أفرط حتى هذ في القرش ، ثم في الحضر ، (٧٠٣) وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً ، وسارت القوة واستشر الأطباء^(٣) .

ذكر تحليف الملك الأفضل للناس

ولما رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده ، وتحقق اليأس منه^(١) ، شرع^(٢) في تحليف الناس ، وجلس في دار رضوان للرفة بسكنه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة مختصة للقائد ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بد وعاقبه ، واعتذر للناس بأن للرض قد اشتد ، وما نعلم ما يكون وما فعل هذا إلا احتياطاً على جاری عادة الملوك . فأول من استحضر للحلف سمد الدين مسعود^(٣) أخو بدر الدين مودود

(١) م : « حدث عليه غصية » .

(٢) م : « نفسه » .

(٣) م : « وسارت في القوة الأطباء » وموحطاً وانبع .

(٤) م : « وتحقق الناس موته » .

(٥) م : « تسرع » .

(٦) م : « هذا الملك سافط من (م) » .

— الشحنة — فبادر إلى التمين من غير تشريط . ثم استحضر ناصر الدين — صاحب ميهون — خلف^(١) ، وزاد أن الحصن الذي في يده له . وحضر سابق الدين — صاحب شيزر — خلف ، ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ما حلف به . ثم حضر خشتين^(٢) الهكاري ، وحلف . وحضر فوشروان الزوزاري وحلف ، واشترط أن يكون له خبز رضى . عككان ومنكلان وحلفا . ثم مُدَّ الخوان ، وحضر الجماعة (١٢٠٤) وأكلوا . ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف ، وأحضر ميمون القصرى وشمس الدين منقر الكبير وقال : « نحن نحلف بشرط أن لانسل في وجه أحد من أخوتك صيفا ، لكن رأسى دون بلادك » . — هذا قول ميمون — وأما سُفَر ، فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : « كنت خلتنى على النطرون يميناً ، وأنا عليها » . وحضر سلمة ، وقال : ليس لى « خبز ، فلى أى شئ » : أحلف^(٣) . فزوج خلف ، وعلق يمينه بشرط أن يُعطى خبزاً رضى . وحضر سقر المشطوب ، وحلف ، واشترط أن يُرضى .^(٤) وحضر اليكى الفارسى ، وحلف^(٥) . وحضر أيبك الأفلس وحلف واشترط رضاه ،^(٦) ولم يحلف بالطلاق^(٧) .^(٨) وحضر أخو سياروخ وحلف واشترط رضاه^(٩) . وحضر حسام الدين بشار وحلف — وكان مقدما على هؤلاء — ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم ، بل حلف هؤلاء نفر^(١٠) ،^(١١) وربما شذَّ منهم غير معروف^(١٢) : ونسخة التمين المحلوف بها ونصوها^(١٣) : الفصل الأول : إتنى من وثقى هذا قد أصفيت نيتى ، وأخلصت طويقتى للملك الناصر مدة حياته ، وإتنى لا أزال بأذلا يهذى فى القُبَّ عن دولته بنفسى ومالى وسيتى ورجالى ، بمنزلة أمره ، واقفا عند مَرَاضيه ، ثم (٢٠٤ ب) من بعده لولده الملك الأفضل على : ووالله إتنى فى طاعته ، وأذبُ عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيتى [ورجالى]^(١٤) وأمتثلُ أمره ونهيهِ ، وباطنى وظاهرى فى ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل^(١٥) . ثم^(١٦) فصل التبريج . هذه نسخة التمين المحلوف بها ، أعنى مقاصدها^(١٧) .

(١) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٢) م : « خشتين حسين الكارى » ، وهو خطأ واضح .

(٣) م : « قل لى على شئ » : أحلف .

(٤) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٥) م : « التقرير » .

(٦) م : « مشوئها » .

(٧) ما بين الماصرين زيادة من (م) .

(٨) هذه العبارة ساقطة من (م) .

ذكر وفاته - رحمة الله عليه .

وقدس الله روحه وأحسن خلقه للمسلمين

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه - رحمة الله عليه - اشتد مرضه ، وضعت قوته ، ووقع في أوائل الأمر من أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكي ، ولم يكن عادة الحضور في ذلك الوقت ، وعرض علينا^(١) الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم يرَ القاضي الفاضل ذلك رأياً ، فإِن الناس كانوا في كل ليلة يعظرون نزولنا من القلعة ، يخاف أن لا ينزل فيقع الصوت في البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى للصلحة في نزولنا ، واستحضر الشيخ أبي جعفر إمام السكلاسة ، وهو رجل صالح يبيت في القلعة ، حتى إن احضر - رحمة (١٢٠٥) الله عليه - بالليل حضر عنده ، وحال بينه وبين النساء ، وذكره بالشهادة وذكر الله تعالى ، ففعل ، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة - رحمة الله عليه - على حال التقليل إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره بالله تعالى ، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع ، لا يكاد يفتيق إلا في الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة » ، سَمِعَهُ وهو يقول - رحمة الله عليه - : « صحيح » ؛ وهذه يقظة في وقت الحاجة ، وعناية من الله تعالى به ، فله الحد على ذلك . وكانت وفاته - رحمة الله عليه - بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح بخضر وفاته - رحمة الله عليه - ووصلت وقدمات ، وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته . ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : « لا إله إلا هو عليه توكلت » . تبسم وتَهَلَّلَ وجهه وسَلَّمَها إلى ربه ، وكان يوما لم يصب المسلمون والإسلام بمثل ما منذ قَدَّ الخلفاء الراشدون ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلا (٢٠٥) الله تعالى . والله لقد كدتُ أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يَزُرُ عليهم بنفوسهم^(٢) ، وما سمعتُ هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قيل « الفداء » لعدى بالنفس . ثم جلس ولده الملك الأفضل للزراء في الإيوان الشمال ، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والعميين ، وكان يوما عظيما قد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغناء عن أن ينظر إلى غيره ، وسقط المجلس عن أن يُنشد فيه شاعر أو يتكلم فيه قاض أو واعظ . وكان

(١) م : « وحضر بيننا » .

(٢) م : « فداء بنفوسهم » .

أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس ، فحكاد النفوس ترهق لمول منظم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتفسيه وتكفينه ، فما بُكنا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن الثياب الذي يُلْبَسُ به العطين وغسله الله زلي الفقيه ، وتحدث إلى الوقوف على غسلة ، فلم يكن لى قوة تحمل ذلك المنظر . وأخرج بعد صلاة الظهر - رحمة الله عليه - في تابوت مسجى بثوب فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي القاضى من وَجِهٍ جِلِّ عَرَفَه (١٢٠٦) . وارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج ، حتى إن العاقل يستحيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا ، وغشى الناس من البكاء والمويل ما شغلهم عن الصلاة (١) ، وصلى عليه الناس أرسالا ، وكان أول من أَمَّ الناس للقاضى محيى الدين ابن الزكي ثم أعيد - رحمة الله عليه - إلى القادر التي في البستان ، وكان متمرضا بها - رحمة الله عليه - ودُفن في الصفة الغربية منها ، وكان تزوله في حفرة - قدس الله روحه ونور ضريحه - قريبا من صلاة العصر ، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظاهر ، وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس ، وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد ، فابوجد قلب إلا حزين ، ولا عين إلا باكية ، إلا من شاء الله ، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أفصح رجوع ، ولم يمد منهم أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرننا ، وقرأنا ، وجددنا حالنا من الحزن ، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى حمة وأخوته يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم التالى جلس لعزاء جلوسا علما . وأطلق باب القلعة للقضاء والعلماء ، وتكلم المتكلمون ، ولم يُشدد شاعر ، ثم انفض المجلس (١٢٠٦) في ظهيرة ذلك اليوم ، واستمر الحال في حضور الناس بكثرة وعشية قراءة القرآن ، والدعاء له - رحمة الله عليه - واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ، ومراسلة أخوته وعه .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكانها وكأنهم أحلام (٢) .

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله . هذه أخبار الملك الناصر أبى المظفر يوسف بن أيوب - رحمة الله عليه - فرغت من جمعها يوم وفاته (٣) - رحمة الله عليه - ، وقصدت بذلك وجه الله تعالى في حب الناس على الترحم عليه ، وذكر محاسنه ، والله يحسن خلافته من بعده ، ويميزه لمعرو أهله ، بمحمد وآله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) الناس في (م) : « وعظم من الضجيج والمويل ما شغلهم عن الصلاة » .

(٢) عند هذا البيت من الشعر يشي الناس في لسة (م) ثم ذكرت هناك كلمات الاختطاف ونصها كائى : « ثم يكون الله ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » . أما ما يلي ذلك من النص هنا فنتردد بذكر لسة الأصل ، وله أهمية الكبرى وخاتمة الفصل التالى الذى أحسى فيه للوقوف

أسماء اللد والفتاح التي نصفا سلاح الدين . في للة من ٨٣٠ إلى ٨٦٠ هـ .

(٣) هذا نص عام ينتهى إلى التاريخ الذى انتهى فيه المؤلف من تصنيف كتابه هنا .

قال مولانا صاحب المصنف، أحاد الله علوه:

ذكر المدن والحصون التي يسّر الله فتحها على يديه

- رحمة الله عليه - من ديار الفرنج - خذلهم الله تعالى -

من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين

طبرية على بحر الأردن بالسيف. عكا على البحر الكبير بالأمان. حيفا على البحر بالأمان. الناصرة التي تنسب إليها النصارى. الرملة. قيسارية بالسيف. (١٢٠٧) أرسوف بالأمان. يافا بالسيف «مدينتها». عسقلان بالأمان. غزة بالأمان. القاروم. صيدا على البحر. بيروت بالأمان. جبيل. هونين. جبيلية. تبين. أنطربوس «دون أخذ برجها» بالسيف. جبلة «مدينتها بالسيف» وقلعتها بالأمان «اللاذقية» مدينتها بالسيف. وقلعتها بالأمان. السرفند. مدينة القدس الشريف، خلعها الله تعالى. نابلس. البيرة بأرض القدس. صفورية. الطور. حصن دُبرية. النُفلة. حصن عقريل. حصن جبين. سفطية. كوكب. حصن عنرى «شمال القدس». بيت لحم. حصن المازرية بأرض القدس. البرج الأحمر «قربها منه». حصن الخليل «عليه السلام» بيت جبرين. تل الصافية. حصن مجدل يافا. قلعة الجيب النوقاني. «الجيب». الصحافي. النطرون. الحصن الأحمر. قلعة بأرض الرملة. قلنوسة «قربها منها». يَبْنَى. القاقون والقيمون. قلعة السكرك «بعد حصار سنة ونصف». قلعة الشوبك «بعد حصار سنتين». قلعة السَلَم. الوعيرة. قلعة الجمل. قلعة الطفيلة. قلعة المرزم. جميع ذلك في وادي موسى والسرّة. (٢٠٧ ب). قلعة صفد. حصن يازور. شقيف أرنوف. حصن اسكندرونة «بين صوز وعكا». قلعة أبي الحسن «بأرض صيدا». صيدا أيضا حصن. بلدة الساحل الأعلى. للرقية «على البحر». حصن يحمور بأرض عكا. بانياس بين جبلة والرقب. صهيون. بلاطس. حصن الجاهرية. قلعة السند. بكاس. الشفر. بكسراثيل. السُرمانية. قلعة بُرْزُية. دَرَبْساك. بُغْراس «قربا من أنطاكية» الدانور بأرض بيروت. السوفند قربا من صيدا.

آخره والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه. ووافق الفراغ منه ثاني عشر رجب المبارك سنة ست وعشرين وسبعمائة^(١)، على يد العبد الفقير إلى رحمة ربه. وحسين الله ونعم الوكيل.

(١) هذا أيضا من هامش تاريخ نسخ نسخة الأصل وهو سنة ٦٢٦ هـ أي أن النسخة كتبت في مصر للولف وقبل وفاته، فإنه قول سنة ٦٢٧ هـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِه نستعين

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

طالع فيه التقدير إلى الله تعالى . .

١٢٧٦

.

طلعت من أوله إلى آخره أقر العباد

داعيا للملك بطول البقاء وطول الارتقاء

. وملكته سنة . .

.

قوبلت بالأصل من أولها إلى آخرها . . .

.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها محاسنهم فيها بوال دوائر
خلت دودم منهم وأقوت عراسها ومماقتهم نحو للنايا للقادر
وخلوا عن الدنيا وما جموا لها وضميتهم تحت التراب الخفاير

للك داود :

وإني إنا ما المـز أبدي مودتي خداعاً وأخفى التل بين الأضالع
لأنظر جهلا بالذي أنا عالم بمكنونه قل القريب الخادع
وأغدو إنا ما أمكنتنى فرصة عليه بماضى الخد أبيض فاطم
بغربة مقدم ثبوت مجرب ينشيه بين الها والأخادع
هكذا الدنيا تقل و.....

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
٣	مقدمة	٤٥	ذكر أول غزوة غزاها من الديار المصرية .	
		٤٦	وفاة والده نجم الدين .	
		٤٦	فتح اليمن .	
٣٤:٦	في ذكر مولده وخصائصه وأوصائه وشمائله وخلافه	٤٧	وفاة نور الدين محمود بن زنكي .	
٦	ذكر مولده .	٤٧	مناقاة الكنز بأسوان .	
٧	ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية .	٤٨	قصد الإفرنج قعر الإنكسورية .	
١٣	ذكر عدله .	٥٠	خروج السلطان إلى الشام وأخذه فدمشق .	
١٧	طوف من كرمه .	٥٠	تسير سيف الدين أخاه عز الدين إلى قناته .	
١٩	شجاعته .	٥١	مسير سيف الدين بنفسه .	
٢١	اختاره بأمر الجهاد .	٥٣	كسرة الرملة .	
٢٤	طوف من صبره وإحسانه .	٥٤	عود السلطان إلى الشام .	
٢٨	نبذ من حله وعفوه .	٥٥	وفاة الملك الصالح .	
٣١	مخاطبته على أسباب الرومة .	٥٥	وصول عز الدين إلى حلب .	
		٥٥	مقايضة عز الدين أخاه حماد الدين زنكي بالبلاد .	
			الجزء الثاني	
٣٥	في بيان تقلبات أحواله ووفائمه وفروحاته	٥٦	عود السلطان من مصر .	
	في توارخها .	٥٧	نزوله على الموصل .	
٣٦	ذكر حركته إلى مصر في النخبة الأولى .	٥٧	أخذه سجنطو .	
٣٧	عوده إلى مصر في النخبة الثانية وسبب ذلك	٥٨	قصة شاه أرمن .	
٣٨	عوده إلى مصر في النخبة الثالثة وهي التي	٥٩	عود السلطان إلى الشام .	
	ملكوها فيها .	٥٩	أخذه حلب .	
٤٠	وفاة أسد الدين ومسير الأمر إلى السلطان	٦٠	أخذه حلرم .	
٤١	قصد الإفرنج حصيدا .	٦١	غزاة عين جالوت .	
٤٤	طلبه والده .	٦٣	غزاة أُنشأها إلى النكرت .	
٤٥	موت الماشد .	٦٤	إعطائه أخاه الملك الناصر حلب .	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٥	ذكر وصولنا إلى خدمته رسلا .	٨٧	ذكر دخوله إلى الساحل .
٦٦	غزاة أخرى إلى السركك .	٨٧	فتح أنطوطوس .
٦٧	خروج السلطان إلى جبة الموصل	٨٩	فتح جبلة .
	« الصفحة الثانية »	٨٩	فتح اللاذقية .
٦٨	قبض مظفر الدين وإطلاقه .	٩٠	فتح صهيون .
٦٩	موت شاه أرمين صاحب خلاط .	٩١	فتح بكاس .
٦٩	أخذ ميا فارقين .	٩٢	فتح برزیه .
٧٠	عود السلطان إلى الموصل .	٩٣	فتح دريساك .
٧٠	صلح للواقعة معه .	٩٣	فتح بفراس .
٧١	عود السلطان إلى الشام .	٩٥	فتح صفد .
٧٢	سير الملك العادل إلى مصر .	٩٦	فتح كوكب .
٧٢	عود الملك الظاهر إلى محروسة حلب .	٩٧	توجه إلى شقيف أرتون ؛ وهي السفرة
٧٤	غزاة أنشأها إلى السركك .		للتصلة بواقعة عكا .
٧٥	وقعة حطين على المؤمنين .	٩٨	اجتماع الإفرنج لقمص عكا .
٧٩	أخذ قلعة طبرية .	٩٨	الواقعة التي استشهد فيها أيبك الأخرش .
٧٩	أخذ عكا .	٩٩	وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجالة
٨٠	أخذ تبيين .		المسلمين .
٨٠	أخذ بيروت .	١٠٠	مسيرة جريطة إلى عكا وسبب ذلك .
٨٠	أخذ عسقلان .	١٠٠	وقعة أخرى .
٨١	فتح القدس .	١٠٢	أخذ صاحب الشقيف وسبب ذلك .
٨٣	ذكر قصده صور .	١٠٣	وقعة عكا وسبب ذلك .
٨٣	وصول والده الظاهر إليه .	١٠٦	فتح الطريق إلى عكا .
٨٣	نزوله على صور .	١٠٧	تأخر الناس إلى تل المياضية .
٨٤	كسرة الأسطول .	١٠٨	وقعة جرت العرب مع الطو .
٨٤	نزوله على كوكب .	١٠٨	حادثة في هذه الواقعة .
٨٦	دخوله الساحل الأعلى وأخذ اللاذقية	١٠٩	للممات الأعظم على عكا .
	وجبلة وغيرها .	١١٥	وصول خير ملك الألمان .

الصفحة	اللموضوع	الصفحة	اللموضوع
١١٦	ذكر وفاة الرمل .	١٣٦	ذكر الحيلة التي عملها المركيس في جمع التفرنج من وراء البحر .
١١٦	وفاة الفقيه عيسى .	١٣٨	وصول البطس من محروسة مصر .
١١٧	ناذرة .	١٣٨	محاصرة برج القبان .
١١٧	تسليم الشقيف .	١٣٩	وصول الألمان إلى عسكرهم المخذول .
١١٨	طريقة .	١٤١	حريق للكيش وغيره من الآلات .
١١٨	وصول رسول الخليفة .	١٤١	قدوم الملك الظاهر .
١١٩	وصول الملك الظاهر ولده .	١٤٣	حريق البطسة المدة لأخذ برج القبان .
١٢٠	لعيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر .	١٤٣	خروج البرنس إلى القسارة على البلاد الشامية التي تليه .
١٢١	وصول عماد الدين زنكي .	١٤٣	أخذ البطستين من العدو .
١٢١	وصول من الدين سنجر شاه .	١٤٤	انتقال السكر إلى شرم .
١٢٢	وصول علاء الدين .	١٤٤	وقاته « رحمه الله » .
١٢٢	وصول الأسطول ودخوله إلى عكا .	١٤٥	قصة من الدين .
١٢٣	وصول زين الدين .	١٤٦	طلب عماد الدين المستور .
١٢٣	خبر ملك الألمان .	١٤٧	خروجهم إلى رأس الماء .
١٢٤	صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني .	١٥٠	وفاة السكين .
١٢٦	مسير الساکر لأطراف البلاد التي في طريق ملك الألمان .	١٥١	عرد الساکر من الجهاد .
١٢٧	تمام خبر ملك الألمان .	١٥٢	وفود زلفندار عليه .
١٢٩	الواقعة المادلية .	١٥٢	اشتغال السلطان بإدخال البذل إلى البلد .
١٣١	وصول الكندهرى .	١٥٣	وقوع قطعة من السور .
١٣٢	كتاب وصل من قسطنطينية .	١٥٤	الظفر بمراكب العدو .
١٣٤	حريق للنجنيقات التي للعدو المخذول .	١٥٤	موت ابن ملك الألمان .
١٣٥	الحيلة في إدخال بطسة بيروت إلى البلد .	١٥٥	غارة أسد الدين .
١٣٥	قصة العوام عيسى .	١٥٥	وقائع علة في سنة سبع .
١٣٦	حريق للنجنيقات .	١٥٦	وصول الساکر الإسلامية وملك الأفر نسيب .
١٣٦	تمام حديث الألمانى .		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٧	ناحية وبشارة .	١٧٤	ذكر إخراج القرمح خيلهم .
١٥٧	واقعة نادرة .	١٧٤	قتل المسلمين الذين بكاء .
١٥٧	ذكر خبر ملك الإنكتار .	١٧٥	انتقال العدو إلى طرف البحر من جانب الغرب .
١٥٨	قصة الرضيع .	١٧٥	سيرهم إلى جهة عقلا .
١٥٩	انتقال السلطان إلى تل البياضية .	١٧٦	المنزل الثاني .
١٦٠	الشروع في مضايقة البلد .	١٧٧	المنزل الثالث .
١٦١	وصول ملك الإنكتار .	١٧٧	المنزل الرابع .
١٦١	غريق البسطة الإسلامية .	١٧٨	المنزل الخامس .
١٦٢	حريق النجاة .	١٧٩	المنزل السادس .
١٦٢	وقعات عدة .	١٨٠	المنزل السابع .
١٦٢	وقعة أخرى .	١٨١	ذكر وقعة جرت .
١٦٣	وقعة أخرى .	١٨١	المنزل الثامن .
١٦٤	وقعة أخرى .	١٨٢	ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم .
١٦٤	هرب خاضعين للملك .	١٨٢	اجتماع الملك العادل والإنكتار .
١٦٤	هرب المركيس إلى صور .	١٨٣	وقعة أرسوف .
١٦٤	قدوم بقية عساكر المسلمين .	١٨٥	المنزل التاسع .
١٦٥	خروج رسلهم إلى السلطان .	١٨٦	المنزل العاشر .
١٦٦	خير قوة زحفهم على البلد ومضايقته .	١٨٦	المنزل الحادي عشر ، وهو على عقلا .
١٦٨	ما آكل أمر البلد إليه من الضعف .	١٨٧	ذكر خراب عقلا .
١٦٩	ووقوف للمراسلة بين أهل البلد والقرمح .	١٨٩	نزوه بيبي .
١٦٩	كتب وصلت من البلد .	١٨٩	رحيله إلى الرملة .
١٧٠	حديث مصالحة أهل البلد ومسانحتهم عن نفوسهم .	١٩٠	عوده إلى السكر .
١٧١	استيلاء العدو على عكا .	١٩٠	وصول رسول المركيس .
١٧٢	وقعة جرت في أثناء ذلك .	١٩١	رحيل السلطان من الرملة .
١٧٣	خروج ابن أريك ،	١٩١	موت الإفرنجي .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٩٢	ذكر سير الملك المادل إلى القدس الشريف ووصول خبر وفاة قزل بن إلى كرك.	٢٠٢	ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان وأداء الرسالة والحديث الذي وصل إليه .
١٩٢	» عود الملك المادل من القدس الشريف .	٢٠٢	» وصول رسول الإنكشار .
١٩٢	» أخبار يزك كان على عكا وقضية لصومس دخلوا في خيام المدو .	٢٠٣	» مشورة ضريها في التضيير بين المملحين : صلح الملك و صلح المركيس صاحب صور .
١٩٣	» خبر وصول الأسارى للذكورين .	٢٠٤	» رحله إلى تل الجزر .
١٩٣	» وفاة حسام الدين بن لاجين .	٢٠٥	» سير الملك المادل .
١٩٣	» دخول رسول الملك المادل إلى الإنكشار .	٢٠٦	» عود الملك المادل من القنور .
١٩٤	» حرب شيركوه بن باخل من عكا وكان فيها أسيرا .	٢٠٦	» غارة القرنج .
١٩٥	» رسالة سئتي فيها الملك المادل إلى السلطان مع جماعة من الأمراء .	٢٠٦	» اتصال رسول المركيس .
١٩٦	» عود الرسول إلى الإنكشار بالجواب عن هذه الرسالة .	٢٠٧	» وصول الساسكر الإسلامية .
١٩٦	» أخذ مركب مشهور للقرنج يسمى للسلط وكان عظيما عندهم .	٢٠٧	» خروج سيف الدين بن للشطوب من الأسر .
١٩٦	» اجتياح الرأي من الأمراء بين يدي السلطان .	٢٠٨	» عود رسول صور .
١٩٧	» خروج القرنج عن يافا .	٢٠٨	» قتل للمركيس .
١٩٧	» وفاة الملك المنظر .	٢٠٩	» تمة خبر الملك المنصور وما جرى له .
١٩٨	» كتاب وصل من بتداد .	٢٠٩	» تقديم رسول الروم .
١٩٩	» وصول صاحب صيدا رسولا من المركيز .	٢١٠	» ما جرى للملك المادل في البلاد التي هي قاطع الثريات .
١٩٩	» واقعة الكين التي استشهد فيها إيلز للمراتي .	٢١٠	» استيلاء القرنج على القاروم .
٢٠١	» ما جرى للملك المادل والإنكشار واجتماعها .	٢١٠	» قصد لجند يافا .
٢٠١	» الرسالة التي أعتضا الإنكشار إلى السلطان في معنى الاجتياح به وجوابها .	٢١١	» وقعة جرت في صور .
		٢١١	» قدوم الساسكر الإسلامية إلى الجهاد .
		٢١١	» قدوم ابن القدم .
		٢١١	» حركة المدو من الحسى .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢١١	ذكر تهيئة المدو لقصص القديس الشريف .	٢٣٤	ذكر قدوم رسل من جهات متعددة .
٢١٢	» تزولم في بيت قوية .	٢٣٤	» تعلم الصلح .
٢١٢	» وقعة جرت .	٢٣٥	» خراب عسقلان .
٢١٣	» وقعة أخرى .	٢٣٦	» رحيل السلطان من الرملة .
٢١٣	» أخذ قافلة مصر .	٢٣٦	» عود المسافر الإسلامية إلى أوطانهم .
٢١٥	» قدوم الملك الأفضل .	٢٣٧	» رحيله .
٢١٦	» عود المدو إلى بلادهم وسبب ذلك .	٢٣٧	» وصول رسول من بندا .
٢١٨	» رسالة الكندي .	٢٣٨	» توجيه واه الملك الظاهر إلى بلاده .
٢١٩	» وقعة جرت على عكا .		» ووصية السلطان له .
٢١٩	» عود رسولم في معنى الصلح .	٢٣٩	» مسير الملك الأفضل .
٢٢٠	» عود رسول الفرنج ثالثا .	٢٣٩	» مسيره من القدس .
٢٢١	» عود الرسول .	٢٣٩	» خروج بهاء الدين قرقوش من الأمر .
٢٢١	» قدوم وقعة الملك الظاهر صاحب حلب .	٢٤٠	» وصول البرنس إلى الخدمة السلطانية .
٢٢١	» عود الرسول رابعا .		» مستغفدا .
٢٢٢	» تبريزه .	٢٤٠	» موت للشطوب بالقدس .
٢٢٢	» حصار يافا .	٢٤٠	» عود السلطان إلى محروسة دمشق .
٢٢٤	» فتح يافا وهي أول الفتح الثاني وما جرى عليها من الوقائع .	٢٤١	» قدوم الملك العادل «أخيه» .
٢٢٦	» كيفية بقاء القلعة في يد المدو .	٢٤٢	» لقاءه للحجاج .
٢٢٧	» ذكر تجديد حديث الصلح .	٢٤٣	» مرضه .
٢٣٠	» قدوم المسافر .	٢٤٤	» تخليف الملك الأفضل الناس .
٢٣٠	» قدوم عسكر مصر المحروسة .	٢٤٦	» وفاته .
٢٣٠	» قدوم الملك المنصور بن تقي الدين .	٢٤٨	» المدن والحصون التي يسر الله فتحها على يديه من ديار الفرنج من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين .
٢٣١	» رحيله إلى الرملة .		» زحفاته .
٢٣٢	» الإجابة إلى النزول عن عسقلان .	٢٤٩	

تصويبات

الصفحة	السطر	خطأ	مصاب	المنحة	السطر	خطأ	مصاب
٣	١	بسم	(١ ب) بسم	١٢	١	شطننا	اشتطنا
٣	٣	محمد	[محمد]	١٢	١٣	محبك	محبك
٣	٣	أفضل الصلاة و	[أفضل الصلاة و]	١٢	١٧	ثم	و
٣	٦	سيدنا	[سيدنا]	١٢	٢٢	قأى	قأى
٣	٦	يلج	يلج فيها	١٣	١	للشعر	الشعر
٣	٩	وقلعه	قلعه	١٣	٤	تعال	عليه
٣	١٢	ما كذب	ما (٢) كذب	١٣	٦	الولى	الوالى
٣	١٤	ورأت	وأرت	١٣	٦	أرسته	أرسته ورعه
٣	١٦	لا	مالا	١٣	٦	نصمه	نصمه في نصه
٤	٤	جل	عل	١٣	٦	عباده	عباد الله
٤	٩	الأحوال	الأحوال (٢ ب)	١٣	١٣	لجميع ما	لما
٤	١١	مزة القلم	مزة القدم	١٣	١٤	وكان مجلس	ثم مجلس
٦	٨	فقل	وقل	١٣	١٥	أوفى	أو
٦	٩	بها	[بها]	١٣	١٥	(١) بما	بما
٦	٢٠	تغليس	تغليس	١٤	١	بقصته	قصته
٧	١٣	ترسخ	ترسخ	١٤	٣	إلا	لكن
٧	١٤	في الصخر	من الصخر	١٤	١١	يسأل	سأل
٧	١٧	إن	إذا	١٤	١٥	قلت	قلت
٨	٦	عليه به	به عليه	١٤	١٨	لم	ولم
٨	١٢	تلك الفوائت بالقدس	فوائت ذلك بالقدس	١٤	٢٣	بالتأخير	بالتأخير
٨	١٥	وكان الطبيب	والطبيب	١٥	٢	اليوم	في اليوم
٩	١٤	المتحصن	والمتحصن	١٥	٣	وتم	وتم
١٠	٢	وغيروها	وغيرا	١٥	١٥	سمى	- رضى الله عنه -
١٠	٦	نشأ	نشأ كان	١٥	١٦	أن	وأن
١٠	١١	بينهما	يكون بينهما	١٥	١٨	الرجل	الرجل عنده
١١	١	دم	دم (١٦)	١٥	١٨	يديه	يدي
١١	١٠	مقتضاه	مقتضاه	١٥	١٨	للى جانبه	جانبه
١١	١١	(٥٦)	(٦ ب)	١٥	١٨	نزل	انزل
١١	١٤	الأوقات	الوقت	١٦	٤	خلف	خلفه

الصفحة	السطر	خطأ	ملاحظات	الصفحة	السطر	خطأ	ملاحظات
١٦	٧	شرحه	شرحه	٢١	١٦	عز ضربه	تشطب
١٦	٨	سفر هذا	هذا سفر	٢٢	٣	عز ضربه	رحمه الله
١٦	١٠	والمجاهدين	والمجاهدين	٢٢	١٠	آنى	أنى
١٦	١٠	وذكر القصة	وحكوا القضية	٢٢	١٤	مايسر	يسر
١٦	١٠	والتاريخ	وذ (روا التاريخ	٢٢	١٧	خطرى ، وقت	يخطر لى ، قلت
١٦	١٢	لولى	مولانا	٢٣	١	منه نية	نية منه
١٦	١٣	ولا	وما	٢٣	١	الله تعالى .	الله .
١٦	١٣	غائباً بقصد	غائب القصد	٢٣	٢	فكيف	وكيف
١٦	١٦	والتواضع	من التواضع	٢٣	٤	الأرض	الأرض (١٥)
١٧	١١	معظم	معظم	٢٣	٥	خطر	يخطر
١٧	١٣	التيق	الضاقة	٢٣	٦	فلا	لا
١٧	١٤	بأنه	أنه	٢٣	١١	وجاهد	تشطب
١٨	١	ومسته	ومست منه يوما	٢٤	٧	إن	إذا
١٨	٢	كما (١٠ ب)	كن (١٠ ب)	٢٤	٧	بلحمة	في الحجة
١٨	٤	فما	وما	٢٤	١٢	الإفرج	الفرج
١٨	٥	يسلم لمن	يسلم من	٢٤	١٣	شيئا من المسلمين	من المسلمين شيئا -
١٨	٩	كثرة	كثير			وهى	يسبب مرضه ، رحمه الله - وهى
١٨	١١	فلا تطعم فيها حقيقة	فلا يطعم فيه أصلا				فأمر هو
		أصلا ، وقد سمعت من	حقيقة ، ولقد سمعت	٢٤	١٤	فأمر	يجهز
		صاحب ديوانه يقول	من صاحب ديوانه	٢٤	١٤	يجهز	يجهز
		لى .	يقول لى وقد تجاريا	٢٥	١	أن	حتى
		- « قد تجارينا	عطايه - قال :	٢٥	٣	ولديه الملك الظاهر	ولده الملك الظاهر
		عطايه ، فصرنا	- « صرنا			والملك الأفضل - عز	في القلب ، والملك
		ولا	لا			صرها - القلب	الأفضل
١٩	١٣	غزرم	غزروه	٢٥	٣	يطلبهم	يطلبه
١٩	١٤	قلت	قلت	٢٥	٥	مستدبر	يستدبر
٢٠	٤	فأحضر جزءا	فأحضر جزء (١)	٢٥	٧	الشمس	الشمس عليه
٢٠	٦	تذكر	يذكر	٢٥	٩	مجال	مجال
٢٠	٧	يغفنته	مغفنته	٢٥	٩	تحت	تحت السلاح
٢٠	١٣	الأضياء الإلهية	الأضياء	٢٥	١٢	وضايقهم	وضايقه
٢١	٩	ولا كان له	ولا	٢٥	١٩	نزلوا	ما نزلوا
٢١	١٥	في فضله	فيه				

الصفحة	السطر	خطاً	مَواب	الصفحة	السطر	خطاً	مَواب
٢٦	١	عليه (١٧)	(١٧) عليه	٢٩	١٤	منا	منا
٢٦	٢	ما مضى	مضى	٢٩	١٧	قيصرية	إلى قيسارية
٢٦	٤	وللى	إلى	٢٩	١٧	لا	ما
٢٦	٦	خير	خير وفاة	٢٩	١٩	وتلاعات	وتقدير تلاعات
٢٦	٩	خس	خسة	٣٠	١	انتهاز الفرصة	انتهاز الفرصة
٢٦	١٠	منا كمة	فكاهة	٣٠	٢	حاصه ^(٢)	حاصه
٢٦	١١	عيش	عيشة	٣٠	٣	اليوم ^(١١) (١١)	اليوم ^(١١) (١١)
٢٦	١١	غيره	تغيره	٣٠	٦	رحمه الله	أعز الله أضراره
٢٦	٢١	الأعلى	على	٣٠	٧	عينه	عينه
٢٧	٢	ورايته	وقد رايته	٣٠	٧	ولم زل السلطان	ولم زل السلطان
٢٧	٣	ويتنا ويثمنهم	والعدو ياتزور ، ويتنا ويثمنها	٣٠	٧	— رحمه الله —	— رحمه الله —
٢٧				٣٠	٧	ياتزور ^(٢)	ياتزور
٢٧	٥	الحجة	من الحجة	٣٠	٨	صوانات	صاوانات
٢٧	١٣	قد بد الشفوق والشفقة	شد بد الشوق والشفقة	٣٠	١٤	يحكى	يحكى
٢٧	١٥	كله ابتناء مرسانك	إبتناء لمرسانك	٣١	٤	الرجل هو التارك	الرجل هو التارك
٢٨	٦	خاصة	خاص	٣١	٥	اليد	الوجه
٢٨	٨	لسلمان	لسليم	٣١	٦	ولا مخاطبه بشيء	وما مخاطبه في شيء
٢٨	٩	وزل	قول	٣١	١٤	نحضرهم	نحضرهم
٢٨	١٤	له لولى له هذه	له لولى هاهي	٣١	١٦	بالعلم	هو
٢٨	٢١	(٧) كذا في الأصل ، وفي (٢) : « تصنيف الرازي »	(٢) في (٢) « تصنيف الرازي »	٣٢	١٨	فا	وما
				٣٢	٢	ثم انصرفنا	وانصرفنا ، وانصرف
						منا	منا
				٣٢	٣	قد قضيت	قضيت
				٣٢	٥	القتب	القتب
				٣٢	٧	أخبره	وأخبرته
				٣٢	١٠	مركبها	مركبها
٢٩	١	في حق	في	٣٢	١٢	بحيث أنه	بحيث
٢٩	٦	لا يأتى	لا يأتى عنده	٣٢	١٦	الأفرج فمات	الأفرج ، وسألت
٢٩	٩	أثقت	أعطيت	٣٢	١٧	الصوص للسلطان	ان الصوص للسلطان
٢٩	١٠	للسنين	للسنين إليه	٣٢	٣	إبتناكته فأخرجوني	إبتناك ، فأخرجوني
٢٩	١٢	أحر	أحد			إليك	إليك
٢٩	١٢	إلى يافا	ينافا			بلى	بلى
٢٩	١٣	لوجع	وجرد				

الصفحة	الحر	خطاً	مواهب	الصفحة	الحر	خطاً	مواهب
٣٣	٥	عليه	عليها	٣٥	النون	القسم الثاني	القسم الثاني
٣٣	٥	تغفر	تغفر			في بيان	من الكتاب
٣٣	٦	وهي ترفع	وترفع				في
٣٣	١٠	واقعة	واقعة	٣٥	٤	ونور ضريحه	ونور بنور رحمته
٣٣	١١	والواقعة	والواقعة			صريحه	صريحه
٣٣	١٢	أرنط — هذا	هذا أرنط العين	٣٦	١٢	إلى	على
		العين — كافرأ	كافرأ لدينا	٣٦	١٣	فأهب	وتأهب
		عقليا	وكان	٣٦	١٨	وعرف	وعلم
٣٣	١٢	وكانت	وكان	٣٧	٩	معروقة	للمروقة
٣٣	١٤	وذكروا له	وأذكروه	٣٧	١١	فداخه	وداخله
٣٣	١٥	أسكنه	سكن	٣٨	٤	بذلك	ذلك
٣٤	١	كل واحد منهم ثقة	كلأ منهم ثقة تومعه	٣٨	٧	الطمع	الطمع (١٢٥)
		يسل بها	فأني	٣٨	٧	من الأفرنج ، لعله	عليها من الأفرنج
٣٤	٢	لأني	فأني			أنهم	لعله بأنهم قد
٣٤	٣	الضككة	الثاكة	٣٨	١٧	ماجرى في	ماجرى وذلك في
٣٤	٤	عاصرة	الحاضرة	٣٨	٢١	اليه	البلاد
٣٤	٩	وحير	وجير	٣٨	٢٢	نظره	نظر
٣٤	١٠	سله	وسله	٣٩	٢	فأنيها كلها	فأنيها
٣٤	١١	من يحنى بقرينها	من يكفه ويحنى بقرينته	٣٩	٨	الأول	الأول من
		ويكفلها		٣٩	١٥	كانوا	قد كانوا
٣٤	١٢	لا يرى	ما يرى	٣٩	١٧	إن	إذا
٣٤	١٢	مقر	مقار	٤٠	٤	جاءه	جاء
٣٤	١٣	ومكان	ومحال	٤٠	٤	خاص	خاص يقول
٣٤	١٤	نيد	نيد	٤٠	٤	يقول : على	جريا على
٣٤	١٨	فتشرح الآن في القسم	فتشرح الآن في القسم	٤٠	٦	ورتب	ورتب
		الثاني من الكتاب ، الثاني ، وهو قسم تعليلات		٤٠	١٣	وذلك	وذلك (١٢٧)
		في بيان تعليلات الأحوال (١٢٣)		٤٠	١٣	تأول	أكل
		أحواله (١٢٣)		٤٠	١٣	وتوافر	توافر
		ووقاته وقرحاته ، نفس		٤١	٢	وبلادها	وبلادها
		توافرها وقرحاته في الله روحه .		٤١	٤	ولكنه	لكنه
		توافرها — نفس الله		٤١	٦	وسنائة	وسنائة
		روحه ، ونور بنور					
		رحمته ضريحه .					

الصفحة	السطر	خطأ	صواب	الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٤١	١١	من السليين	على السليين	٤٥	٢٠	(٤) م : د الكرك	يشطب هذا الهامش
٤١	١٤	لها	لهم			والشويك	
٤٢	٢	بذلك	ذلك		٢١	(٥)	(٤)
٤٢	٢	- وكان	- (٢٨) وكان		٢٢	(٦)	(٥)
٤٢	٢٣	الرياد	الرياد		٢٣	(٧)	(٦)
٤٢	٢٣	النقاد	النقاد		٢	فشق	وشق
٤٣	٢	في	في شهر		٣	عن	من
٤٣	٤	فيلنه	فيلنه خبر		٧	رأى السلطان	رأى
٤٣	٥	الثاني والعشرين	ثاني وعشرين		٩	أن ينتشر ملكه	أن ينتشر ملكه إلى
٤٣	٨	وآلات	والآلات و			في الأرض كلها	الأرض كلها، واستتب
٤٤	١٣	ومنه	تعالى			ويستبب الأمره	أمره
٤٤	٤	إليه في	- رحمة الله عليه -	٤٧	٣	اعتزته أيضاً	اعتزته
			في		٤	شوال	شوال من
٤٤	٦	ولا ينبغي أن ينير	فلا ينبغي أن ينير		١٩	لحكم	لحكم
٤٤	٧	ولم	ولا	٤٨	١	تصنفر	تصنفر
٤٤	١١	مخاضية بكر	مخاضة بك		٢	(٣١ ب)	(٣١ ب)
٤٤	١٤	سنيجار	سنيجار		٥	واستوت	واستمت
			في جمادى الآخرة		١٣	الشينى	الشينى
٤٤	٢١	ابن عماد الدين	أن عماد الدين	٤٩	٣	ما يمكنهم	مالا يمكنهم
٤٥	١	موت المامند (٢٩)	ذكر (٢٩ ب) موت		٨	ابن الدية	ابن الداية
			المامند		١١	ذكروا	ذكروا
٤٥	٢	المحرم	المحرم من شهر		١١	ذلك	ذلك
٤٥	٣	ابتداؤها	في ابتدائها		٣٠	هذه الجملة غير	تشطب هذه الجملة من
٤٥	٤	ملك	ملك			موجود في الأصل	هذا السطر وتوضع
٤٥	٥	وشرع السلطان	وشرع			وقد أضيفت عن	بدهاش (٥) كهامش
٤٥	١٠	الكرز (١)	الكرز والشويك			(٢)	لزم (٦)
٤٥	١٢	لهاء	لهاء		٢	الثام	الثام (٣٢ ب)
٤٥	١٣	وخسائة (٢)	وخسائة (٢)	٥٠	٣	(٣٢ ب) ولا	ولا
٤٥	١٤	الفضة (٣)	الفضة (٣)	٥٠	٣	وكان	وكان
٤٥	١٥	هستاء (٣)	هستاء (٣)	٥٠	٣	وكان	وكان

الصفحة	السطر	خطأ	صواب	الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٥٠	٧	وقبض	وقبض البض	٥٤	٦	بقره حصار	بقرا حصار
٥٠	٧	لتنير	لتنير	٥٤	٨	وأخذ	فأخذ
٥٠	٩	فيقوم	ويقوم	٥٤	٢	رجب	رجب
٥٠	١١	(١٣٣)	(١٣٣)				سنة سبع وسبعين
٥٠	١٣	منازل خمس ، فأخذ	فنازل حمصا ، وأخذ	٥٥	٥	الخامس والعشرين	خمس وعشرين
٥٠	١٤	الشهر للذكور	جمادى الأولى من	٥٥	١٩	مستقلا	مستقلا
			السنة للذكورة	٥٦	١	وخلف	وخلفه
٥٠	١٤	الوقفة	الوقفة	٥٦	٤	الحادى والعشرين	حادى عشرين
٥١	١	يسير	يسير			من	من
٥١	٨	يحاصر	يحاصر بها	٥٥	٩	فرخسه	فروخشاه
٥١	٨	يقصد	ويقصد	٥٦	٩	بلغه	بلغ السلطان - قدس
٥١	٩	(١٣٤) سيف الدين	(١٣٤) سيف الدين				الله روحه
٥١	١٢	البيرة	باليرة	٥٦	١٣	ونزلها	ونزلها
٥١	١٤	وعزم	عزم	٥٦	١٧	يشره	يشعرم
٥١	١٥	وضمه	واعتقه وضمه	٥٦	١٨	من هذه السنة	سنة ثمان وسبعين
٥٢	١	يكشف	كشف	٥٧	٥	في يوم	ثم يوم
٥٢	٢	نصرته	نصرتهم	٥٧	٦	في الموصل	بالموصل
٥٢	٤	وسبعين	وسبعين وخمسة	٥٧	٨	ويتلطف	ويلطف
٥٢	٥	زين الدين	باين زين الدين	٥٧	٨	ويسير	وسير
٥٢	٩	خيام	خيم	٥٧	٩	من جانبه	منه
٥٢	١١	منج وتسلمها في	محرسة منج فسلمها	٥٩	٩	شرط	تشرط
٥٢	١٢	في راج	راج	٥٧	٩	حولها	حولها
٥٢	١٨	لتنقذ	لتنقذ	٥٧	١٢	رمضان سنة ثمان	رمضان سنة ثمان
٥٢	١٨	ويقرر	وتقرر	٥٧	١٦	وسبعين	وسبعين
٥٣	٥	معروف	يعرف	٥٧	١٦	محرسة الموصل	محرسة الموصل
٥٣	١٣	الأواخر	الأخير	٥٨	٩	بلد آده	بلد آده
٥٣	١٨	تنتل خالك (٣٦)	تيل (٣٦) خالك	٥٨	١٠	قره أرسلان	قرا أرسلان
٥٤	١	من هذه السنة	نتنة ست وسبعين	٥٨	١٦	حلب	حلب المحروسة
٥٤	٤	تتخط	تخط	٥٩	٢	وسبعين	وسبعين وخمسة
٥٤	٥	وعزم	عزم				

المنفعة	الحل	خطأ	صواب	المنفعة	الحل	خطأ	صواب
٥٩	٣	المهرم (٣)	عزم (٣) مئة تسع	٦٣	٦	قرى عديدة	قرايا عدة
			وسبعين وخمسة	٣	٣	القواد	القوار
٤	٣	ياتنوسا	ياتنوسا	٧	٧	الرايح والشرين	رايح وعشرين من
١٢	٣	وأمنوا	فأمنوا			من هذا الشهر	جمادى الآخرة سنة
١٢	٣	التورى	[التورى]			تسع وسبعين وخمسة	تسع وسبعين وخمسة
١٣	٣	السابع عشر من	سابع عشر من صفر	١٤	٣	هذه السنة	السنة للذكورة
			سنة تسع وسبعين	١٥	٣	وكان قد بلغ الفرج	فما اجتمعا على
١٥	٣	وخزائنه	وخزائنه				الكره - وكان قد
١٦	٣	الثالث والشرين	ثالث عشرين				بلغ الفرج ، خلفهم
		من					الله -
٤	٦٠	قره حصار	قرا حصار	٦٤	٣	الرايح والشرين	رايح عشرين
٥	٣	سابع عشر	سابع عشرين			من	
٥	٣	السلطان	[السلطان]			شهر	إلى ثانی شهر
٩	٣	يستلها	يستلها	٥	٣	وعشرين	عشرين
٩	٣	للوالى	الوالى	٥	٣	والله	ولد السلطان
١٠	٣	التاسع والشرين	تاسع عشرين	١٠	٣	أيه	والله
		من		١٢	٣	وكننا	وكان
١١	٣	شروه	شروه	٦٥	٣	بينهم	بينهما
٦	٦١	السابع والشرين	سابع وعشرين	٥	٣	من هذه السنة	سنة تسع وسبعين
٨	٣	القصيد	الصير	٦	٣	الوقفة	الوقفة
١٠	٣	وحرقوا	وأحرقوا	٧	٣	القصر ، واجتهد	القصر ، واجتهدوا
٣	٣	التولة	التولة	١٠	٣	ققال	(١٤٥) قال
٤	٦٢	الأطلب (٣) ينة	الأطلاب (٣) مينة	١١	٣	سابع ذى الحجة	يوم الخميس سابع
		ويسرة	ويسيرة				ذى الحجة سنة تسع
٨	٣	للمصاف	إلى للمصاف				وسبعين
٢١	٣	طلب	طلب	١١	٣	موضع	مواضع
٢٢	٣	استعمل	استعمل	١٢	٣	وقوف	توقف
١	٦٣	الثامن عشر	ثامن عشر	٢	٦٦	ابن قزوه أرسلان	ابن قزوه أرسلان
٥	٣	عقبر بلا	عقربلا	٣	٣	مير	من صفر
٥	٣	وخربت	وخرب				

المنفعة	الحل	خطأ	صواب	المنفعة	الحل	خطأ	صواب
٦٦	٤	في السادس (٤٥)	وذلك فيمادس (٤٥)	٦٩	١٠	أبنة	بيت
٦٦	١٥	ابن قره أرسلان	ابن قره أرسلان	١٤	١٤	عديداً	عظيماً
٧	٢	السابع والعشرين	سادس وعشرين	١٥	١٥	التاسع والعشرين	تاسع وعشرين
٣	٣	الساكر	العسكر	١٦	١٦	ذكر (١٤٩)	ذكر (١٤٩)
٥	٥	الساكر ان دخلوا	العسكر ان دخل	١٧	١٧	سرعة اتياده ورقة	سرعة اتياده ورقة
٦	٦	جانين	جينين	١٨	١٨	قله	قله
٧	٧	وأخروا وخروا	وأخروا وأخروا	١٩	١٩	فأعطاهما	أعطاهما
٨	٨	ابن قره أرسلان	ابن قره أرسلان	٢٠	٢٠	معه	عنه
٩	٩	الراج عشر من هذا	راج عشر	٢١	٢١	مع الأكراد	والأكراد
١٠	١٠	ابن قره أرسلان	ابن قره أرسلان	٢٢	٢٢	عوده - رحمة الله عليه	عوده - رحمة الله عليه
١١	١١	ابن قره أرسلان	ابن قره أرسلان	٢٣	٢٣	الحرم	الحرم
١٢	١٢	والتقى مع	والتقى مع	٢٤	٢٤	وعمانين وخمسة	وعمانين وخمسة
١٣	١٣	الثاني عشر من محرم	ثاني عشر محرم	٢٥	٢٥	قبل السلطان	قبل السلطان
١٤	١٤	وعمانين	وعمانين وخمسة	٢٦	٢٦	جمادى الأولى	جمادى الأولى
١٥	١٥	سنة	من سنة	٢٧	٢٧	اثنين وثمانين	اثنين وثمانين
١٦	١٦	السلطان (٤٧ب)	السلطان (٤٧ب)	٢٨	٢٨	وقد حصل	وقد حصل
١٧	١٧	زيد الدين	زيد الدين	٢٩	٢٩	كان يجب	كان يجب
١٨	١٨	قلم	قلم	٣٠	٣٠	الراج والعشرين	الراج والعشرين
١٩	١٩	إليه بن قره أرسلان	بن قره أرسلان	٣١	٣١	من ربيع الأول	من ربيع الأول
٢٠	٢٠	فالتقام	فالتقام السلطان	٣٢	٣٢	وخمسة	وخمسة
٢١	٢١	رحل	رحل السلطان	٣٣	٣٣	فسير	فسير
٢٢	٢٢	جديدة	جديدة	٣٤	٣٤	في حلب	في حلب
٢٣	٢٣	بن قره أرسلان	بن قره أرسلان	٣٥	٣٥	وسله	وسله
٢٤	٢٤	متصوفاً	متصوفاً	٣٦	٣٦	ويسلم	ويسلم
٢٥	٢٥			٣٧	٣٧	عليه هذه	عليه هذه
				٣٨	٣٨	واجتمعت	واجتمعت
				٣٩	٣٩	يسمع	يسمع
				٤٠	٤٠	عداها	سواها
				٤١	٤١	حائهما	حائهما
				٤٢	٤٢	بأرض نيطرة	بأرض نيطرة
				٤٣	٤٣	من بلاد	من بلاد
				٤٤	٤٤	كلان	كلان
				٤٥	٤٥	حارم	حروسة حارم

صواب	خطأ	الصلصة السطر	صواب	خطأ	الصلصة السطر
والتجائر	(والتجائر)	١٣ ٧٩	[بن زين الدين]	بن زين الدين	٤ ٧٥
خلو الرجال بالقتل	خلوها من الرجال	١٥ ٥	الآخر	الأواخر	٦ ٥
وأمرها	وأمرها	١٧ ٧٩	وعنانين وخمسة	وعنانين	٥ ٥
والخناق	الخناق	١ ٨٠	متصف ربيع الآخر من	متصف هذا الشهر	١٠ ٥
وهو يوم الأربعاء العشرين	وأقام عليها بحث	٥ ٥	سنة ثلاث وعنانين	الراج والعشرين من	١٤ ٧٥
من جمادى للذكور	قرر قاعدتها	٧ ٨٠	قوانين	قانون	١٦ ٥
ثم أقام عليها بحث	ثم سار [السلطان]	٧ ٨٠	الآخر من السنة للذكورة	الآخر	١٨ ٥
قرر قاعدتها ، ومار	حتى	٧ ٨٠	المنقول لما بلغهم أن	لا بلغهم أنه	٢٠ ٥
[السلطان حتى]	الأولى ١	٧ ٨٠	السلطان	منزلهم	٢ ٧٦
من سنة ثلاث	وعنانين	٧ ٨٠	منزلهم	والعشرين	١٠ ٥
وإمراسها في هذا الوقت	وإمراسها	١٠ ٨٠	والعشرين من ربيع	والعشرين	١٠ ٥
الآخر سنة ثلاث وعنانين	الآخر	١٥ ٥	الآخر للذكور	في الثالث والعشرين	١١ ٧٦
ويبنى	ويبنى	١٥ ٨٠	ثالث وعشرين	والأمور	١٦ ٥
إليه	عليه	٥ ٨١	والوفايع	لعبة أفيق	٢٣ ٥
قضاء	انقضاء	٦ ٥	لعبه أفيق	ويسره	١ ٧٧
إلى الله	إليه	٦ ٥	قيسه	واتهزمت	٧ ٧٧
التجنيات	المجانيق	١٣ ٥	قانهزمت	عليه الصلاة والسلام	٩٥٨ ٥
عما	الربع عا	١٦ ٥	عليه وعلى سائر الأنبياء	وعلى سائر الأنبياء	٩٥٨ ٥
وكان تسلمه القدس - وكان تسلمه - قدس الله	وكان تسلمه القدس - وكان تسلمه - قدس الله	١ ٨٢	الصلاة والسلام	حوالهم	٩ ٧٧
قدس الله روحه - في روحه - له في	قدس الله روحه - في روحه - له في	١ ٨٢	حوالهم	قسموا	١٣ ٥
للراج	ليقة للراج	١ ٨٢	انقسموا	وأصابه	١٧ ٥
والخرق	والطرق	٤ ٥	فأصابه	مقدم	١٨ ٥
ومن الشام	والشام	٥ ٥	مقدم	إذا	١ ٧٨
أسرى	أسيرا	١٠ ٥	إن	ومن	٦ ٧٨
وأقام عليه	وأقام	١١ ٥	وجن	مثلج	٨ ٧٨
[أنه]	أنه	١٣ ٥	يطلع	ماء لمن	١١ ٥
عنه	عن القدس	١٣ ٥	مال من	ها أنا	١٥ ٥
سه	ه	١٣ ٥	ها أنا	أنه	٣ ٥
بعموسة حلب	حلب	٧ ٨٣	في أنه	جمادى الأولى	١٢ ٧٩
ثاني وعشرين	الثاني والعشرين من	١١ ٥	مستهل جمادى الأولى	جمادى الأولى	١٢ ٧٩
في القدس	بالقدس	١٤ ٥	سنة ثلاث وعنانين		

الصفحة	المطر	خطأ	صواب	الصفحة	المطر	خطأ	صواب
٨٣	١٥	الثالث والعشرين	ثالث وعشرين	٨٧	٦	رحل السلطان على	رحل - رحمة الله عليه
٨٤	٥	خمة	خمس	٨٧	٧	الآخر	- إلى الأخير
٥	٥	السابع والعشرين من	سابع وعشرين	٨	٨	الساكن	السكر
٩	٩	ورحل	فرحل	٩	٩	يتعرض	يعرض
١٢	١٢	خواصه	خواصه (١٠٦١)	١١	١١	أنطرسوس	أنطرسوس
١٤	١٤	الباقية	الباقية التي	١٢	١٢	ووصل في السادس	وكان وصوله - رحمة
١٦	١٦	بدايته	بدايته			إلى أنطرسوس	عليه - إلى أنطرسوس
١٧	١٧	بقر بلا	بقر بلا			ضاحي نهار الأحد سادس	جمادى الأولى سنة
١٨	١٨	بمن بقى معه من	بمن كان قد بقى معه من			أربع وعشرين	وركب - رحمة الله عليه
٤	٤	وعناين ^(١)	وعناين وخيالة ^(١)	٨٧	١٦	وركب هو	وركب - رحمة الله عليه
٥	٥	طشتكين	كشتكين	٨٨	٢	وأخذوها بالسيف	وأخذها سيماً
٦	٦	المج	الحاج	٣	٣	وأموالهم بأيديهم	بأيديهم وأموالهم
٦	٦	كثير الفزاة	كثير الخير كثير الفزاة	٤	٤	الله تعالى	الله تعالى
٧	٧	بكرة يوم عرفة	يوم عرفة بكرة	٧	٧	إخراجه	خراجه
١١	١١	- عليه الصلاة	- عليها السلام -	١٤	١٤	ص ٦٠	ص ٤٢
		والسلام -		٨٩	٢	الساكن	السكر
١٣	١٣	لى	إلى	٨٩	٥	الثالث والعشرين	ثالث وعشرين الشهر
١٤	١٤	للول	للول			للكور	للكور
١٨	١٨	إليها	إلى محروسة دمشق	٨	٨	زوله	زولنا
١٨	١٨	القدس ^(٢)	القدس الشريف ^(٢)	٨	٨	الربع والعشرين	ربع عشرين جمادى
١٨	١٨	وأقام	فأقام			الربع سنة أربع وعشرين	الأولى سنة أربع وعشرين
١	١	عرفت الافرنج	عرف الفرنج	٨٩	٩	مشرف	يشرف
٣	٣	عماد الدين	عماد الدين زنكي	١٢	١٢	ففرق	وفرق
٧	٧	الظاهر	الظاهر ولفه	١٦	١٦	ب	ب
٨	٨	أن	بأن	١٦	١٦	الحامس والعشرين من	خمس عشر
٩	٩	بجدة	بجدة	١٧	١٧	بفخل	بفخل
١٤	١٤	تاه على	تاه [على] (١٦٣)	٢١	٢١	على	على أن
٢	٢	وجه الجهاد ، فأجبت	وجه الجهاد ، فأجبت	٩٠	٥	السابع والعشرين	سابع عشرين جمادى
		إلى ذلك	إلى ذلك			الأولى	الأولى
٨٧	٥	ذكر	(٦٣ ب) ذكر	٩٠	٧	وكان نزوله	فكان النزول
٨٧	٦	(٦٣ ب) ولما	ولما	٩	٩	في	وهي في

صواب	خطأ	الصفحة	السطر	صواب	خطأ	الصفحة	السطر
رجب (٧) سنة أربع	رجب (٧)	٨	٩٣	عميقة	عظيمة	٩	٩٠
وعنانين				صبر	حبر	١٠	٩
عن	عن	١٠	٩٣	بن الترق	الترق	١٥	٩
ثالث عشرين	الثالث والعشرين	١٣	٩	و [حاولوا]	وحاولوا	٥	٩١
فتح	فوح	١٤	٩	محمداوه	محمداوا	٥	٩
احتجافك تلك للزفة إلى زك	احتجافك إلى زك تلك	١٦	٩	واستدار	واستدارت	٥	٩
محفط من جانب	للزفة محفط جانب			أن	على أن	٧	٩
سنة أربع	أرج	١	٩٤	خسة دنانير	خسة	٧	٩
المسكر	المساكر	٤	٩	وغيرها	وغيرها	٩	٩
آي بليك	أناها	١٣	٩	فتح	فوح	١٠	٩
منها	فها	١٣	٩	الجمعة أيضاً ناسع جمادى	الجمعة ناسع الشهر	١٤	٩
صعد :	كصعد	١٥	٩	الآخرة			
في هذا الشهر	فيه	٣	٩٥	الثالث والعشرين	الثالث والعشرين	٢	٩٢
بحر فوته وجرهم	بحر فوته	١١	٩	من الشهر	من الشهر		
ولم	ثم لم	١٥	٩	لنا الله	لنا الله	٣	٩٢
فتح	فوح	١	٩٦	تضاعف	تضاعف	٤	٩
أن يكون	ان كان	٤	٩	تاريخ	التاريخ	٥	٩
[عظيمة]	عظيمة	٤	٩	فتح	فوح	٦	٩
متسلطاً	متسلطاً	٦	٩	فكان	كان	٩	٩
وجرح وقتل	وقتل وجرح	٦	٩	تحت جيلها يوم السبت	تحت جيلها يوم السبت	١٠	٩
إلى القور	على القور	٨	٩	الرابع والعشرين من جمادى الآخرة . وزل	الرابع والعشرين من جمادى الآخرة . وزل		
زل القل	أزله	٨	٩	الثقل تحت جيلها	الثقل تحت جيلها		
نحسه	شخصية	٩	٩	الحامس والعشرين	الحامس والعشرين	١١	٩٢
ريد زيارته	زيارته	١٠	٩	من	من	١٢	٩
وصلياً	وصلياً	١١	٩	السابع والعشرين	السابع والعشرين	١٣	٩
خيمه	خيامه	١٢	٩	قسم المسكر	قسم المسكر		
أحوالها	حلالها	١٣	٩	ويسلم القتال القسم	ويسلم القتال القسم	١٤	٩٢
أخاه للثال العادل	أخاه	١٣	٩	واستم	واستم	١٧	٩
عمر	وعمر	١٤	٩	حتى	حتى	١٨	٩
يتقد	يتقد	١٤	٩	القلمة عنوة	القلمة عنوة	١٩	٩
وخيمه يصلح أحواله	وخيمه	١٥	٩	فاستأثروا الأمان	فاستأثروا الأمان		
بحموسة دمشق	بمشق	٣	٩٧	فتح	فوح	٦	٩٣
وحرر	وجدد	٥	٩				

الصفة السطر	خطا	صواب	الصفة السطر	خطا	صواب
٩٧	٥	موضع حصين	٩٩	١٧	الألانية
٦	٦	مرج	١٠٠	٣	جريمة إلى عكا
٨	٨	مرج عيون في	٥	٥	وقدر
٩	٩	السابع عشر	٦	٦	ويقاتلهم
٩٧	٩	وأوب	٧	٧	أصبح في
			٨	٨	سابع عشر
			١٠	١٠	وذلك أنهم
٩٧	١٢	فاخرمه	١٣	١٣	إلى مرج عيون
١٢	١٢	الافرنجية			منتظرا
١٤	١٤	ثان	١٦	١٦	يسطون
١٤	١٤	له أنه ملوك	١٧	١٧	وكنيا
٩٨	٢	ومتأديا	١٠١	٢	حتى إذا
٦	٦	للك	٢	٢	شاكن في السلاح
٧	٧	الأكراد من	٣	٣	تبنين
٨	٨	ويكون غلامه	٦	٦	وتحبوا
٩٨	٨	وجمع جموعا	١٣	١٣	بيت
٩	٩	ذلك الوقت	١٤	١٤	أغار
١٠	١٠	للملوك	١٦	١٦	أيضا
١٤	١٤	الأخرى	٢٠	٢٠	مثل
١٧	١٧	الجلادوش	١٠٢	٤	وظهرت
٩٩	١	السلطان	٧	٧	لثاني عشر من الشهر
١	١	الأخرى	٨	٨	السكر
٢	٢	في الحرب	٨	٨	بقى
٤٣	٤٣	السلطان إلى خيم	١٠	١٠	ولطائفه
		كانت قد	١٤	١٤	قرب جد
٩٩	١٢	عنهم	١٥	١٥	بالدبر
١٦	١٦	وكان عدد	١٦	١٦	تسكر
			٢٠	٢٠	وجهة
			١٠٣	١	بخلط

الصفة	الحر	خطأ	صواب	الصفة	الحر	خطأ	صواب
١٠٣	٤	الثامن عشر	ثامن عشر	١٠٩	٤	وما زال	ولا زال
١٠٣	٥٥	باتهاء للندة (أركب)	باتهاء للندة (أركب)	١٠٩	٨	الحادى والشرين	الحادى عشرين
		بنقة وسار	بنقة وسار	١٠٩	٩٠٨	لم تكن لهم مثلها	لم يكن لهم مثلها
		(أ) فإنه كان عنده	(أ) فإنه كان عنده	١٠٩	٩	واصفوا	واصفوا
		مجاهدة فيها مضى ،	مجاهدة فيها مضى ،	١٠٩	١٠	بمسك أربعة أنس	بمسك أربعة أنس
		قال (أ) : أنا أمضى	قال (أ) : أنا أمضى	١١٠	١١	أربعة أطرافه	أربعة أطرافه
		وأسلم للكان	وأسلم للكان	١١٠	٣	ابن البندى	ابن البنكرى
١٠٣	٩	قلعتها ، فأحرق	قلعتها ، فأحرق	١١٠	٦	مطل	مطل
١٠٣	١٠	على صاحب الشقيف	على صاحب الشقيف	١١٠	١٠	الأسدية الدين	الأسدية والدين
١٠٣	١٢	مشرف	أشرف	١١١	٤	لهم	لهم
١٠٣	١٣	من	عن	١١١	٤	ومحروكا	مضروكا
١٠٣	١٧	وذلك أنه لما	ولما	١١١	٨	لأن	لأن
١٠٤	٤	الثالث	ثالث	١١١	٩	يطوف على	يطوف [على]
١٠٤	٧	الثالث عشر	ثالث عشر	١١١	١٢	قوم إلى	قوم إلى
١٠٤	١٣	تل كيسان	تلا يقال له تل كيسان	١١١	١٣	إلى النائية	[إلى] النائية
١٠٤	١٤	تلك	هذه	١١١	١٣	صعدوا إلى	صعدوا
١٠٤	١٨	(١٨١)	(١٨٠)	١١١	١٤	ثم جاءوا ، قتلوا	ثم جاءوا ، قتلوا
١٠٥	٣	الساكر الإسلامية	ساكر المسلمين	١١١	١٥	منهم جماعة	جماعة وقتلهم جماعة
١٠٥	٩	وذلك	وذلك في	١١١	١٦	صعدوا إلى الحيام	صعدوا [إلى] الحيام
١٠٥	١١	(٨١ ب)	(٨٠ ب)	١١١	١٦	ذكرناه	ذكرناه
١٠٦	١٤	الوقت	الوقت في ذلك اليوم	١١٢	٣	مقول عليهم ، فطرحوا	مقول عليهم ، فطرحوا
١٠٧	٩	ذكر (١٨٢)	(١٨٢)	١١٢	٧	وتجست	وتجست
١٠٧	١١	أنفسهم	نفسهم	١١٢	٩	عسكرهم	عسكر العدو
١٠٧	١٦	فارسهم واجلهم	راجلهم فارسهم	١١٢	٩	مثل	[مثل]
١٠٧	١٨	الحيام	خيالهم	١١٢	١٢	من القنان	منهم
١٠٨	٨	الرب	للرب	١١٢	١٤	ينكر عليهم وقول	يقول
١٠٨	١١	عدية	عدة	١١٣	٢	الحيام	الحيام
١٠٨	١٤	من قتل (١٨٣)	عن جرح وقتل	١١٣	٥	تتابع	تتابع
		وجرح وسي	(١٨٣) وسي	١١٣	٧	جميع	جميع
١٠٩	١	الصبيان	الصبيين	١١٣	٩	منبسط	مبسوط
١٠٩	٢	فاختطفه	فاختطفته	١١٣	١١	خيمه	خيمه
١٠٩	٢	فاقتراه	فاقتراه منه	١١٣	١١	قتل	قتل

الصفحة	السطر	خطأ	صواب	الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١١٣	١٢	يسعون عليه	يسعون [عليه]	١٢٦	٢	وحد	وجد
١١٤	٢	منه شيء	منه [شيء]	٣	٢	إلا أن	إلا أنه
١١٥	١٥	وعساكره	وعسكره	٤	٤	فلم	فلم (١٩٧)
١١٧	١٤	في الشقيف	بالشقيف	٦	٦	وحرروها باحل	وحرروها على أنفسهم
١١٨	٢	الوصول	الوحد	١٨	١٨	وسار بعده	وسار بعده
١١٩	٢	زحفوا	قد زحفوا	١٨	١٨	لايالة	لايالة
١٢	١٤	سهرة	سحرة	١٥	١٢٧	ولكنهم	لكنهم
١٢٠	١٨	بقدر عظيم	بقدر	٣	١٢٩	طريق	طرق
١٢١	٣	الثالث	الثالثة	١١	١١	المساكر، حتى وصلوا	المساكر، حتى وصلوا
٤	٤	الرعناء	الشباب الرعناء	١٥	١٥	الحميم	الحميم
٢٢	٢٢	ابن مودود	ابن مودود بن زنسكي	٢	١٣٠	عنه	قلبه
١٢٣	٥	ذكر (٩٤ ب)	ذكر (٩٤ ب) ذكر	١١	١١	الحميمين	الحميمين
١٢٥	٢	وجمعا جميعاً	وجموا	١٦	١٦	في	[في]
٧	٧	وعشرين	: عشرين	١٦	١٦	السائقين	السائقين
١١	١١	الأموال	الأحوال	٢١	٢١	الوقوات	الوقوات
١٤	١٤	في الحال	بالحال	٨	١٣١	هذا	ذلك
٣	٣	حرب	بعض	٤	١٣٢	ذكر (١١٠٢)	ذكر (١١٠٢)
١٦	١٦	واستقر القاعدة	وتوطدت قواعد	٩	١٣٢	للراكب	للراكب
١٧	١٧	حرب	هرب	٣	١٣٤	في رجب أثناء	في أثناء رجب
٣	٣	وما قصد	وإنما قصد	٩	٩	وداس	ورأس
١٨	١٨	إلا لأجل	لأجل	١٣	١٣	واحد	[واحد]
١٩	١٩	قصدت	بدأت قصد	١٣	١٣٦	ذكر (١١٠٦)	ذكر (١١٠٦)
٢٠	٢٠	الاجتماع	الاجتماع به	٩	١٣٩	شاء	يشاء
٣	٣	وبالجملة فهو	وفي الجملة هم	١٥	١٣٩	الألمان	الألمان
١٢٦	١	١) اثنين وأربعين	١) في اثنين وأربعين	٨	١٤٠	أمرهم	بأمرهم
١	١	جميعاً ^(١)	ألف مجلف ^(١)	١٥	١٤١	والله	والله بمقدمه
١	١	فلا	فلا	٣	١٤٢	وحيروا	وسحبوا
١	١	متفاوتة	متساوية ، وخلق	٤	١٤٤	خفرهم	خفرهم
١	١	غريبة ، وم	غريبة ، وم	١٢	١٤٤	ثامن عشر	ثامن عشر

الصفحة	السطر	خطأ	ملاحظات	السطر	خطأ	ملاحظات
١٤٦	٤	يخلق	يخلق	٤	١٨١	٤ مسلمين يتصرفون
١٤٧	١٢	وساروا حتى وقفوا	وساروا حتى وقف	١	١٨٣	للك ، وخلايه ذلك
١٤٨	١٥	حزم شاه	حزم شاه	١٩	١٨٤	ورأوا
١٤٩	١٦	ولدم	ولدم	٢٠	١٨٥	وفرع
١٥٠	١٣	قرب	أقرب	٥	١٨٦	وكل من
١٥١	١٥	يخرجون	يخرجون	٥	١٨٧	أقصر
١٥٢	٨	الماندين ^(١)	الماندين	١٦	١٨٨	صدم
١٥٣	١٣	على التمددين	للتمددين	١٧	١٨٩	وسال
١٥٤	٣٦	(٤) : «الماندين»	يشطب هذا الخامس	٢٠	١٩٠	المال
١٥٥	٤	للا	للا	٩	١٩١	من بها
١٥٦	٤	يتعرضها	يتعرضها	١٠	١٩٢	غرتهم
١٥٧	٥	مقدار ما	مقداراً	٥	١٩٣	من
١٥٨	٣	عشرين من	عشرين	٥	١٩٤	خبر
١٥٩	١٥	يقعون	يقعون فيه	١٣	١٩٥	إنتاج
١٦٠	٢٣	فيها	فيها وما فيها	٢٢	١٩٦	سادس عشرى
١٦١	١١	الاثنتين	الثلاثاء	١	١٩٧	وسير
١٦٢	٧	ذكر (١٣٣ ب)	ذكر (١٣٣ ب)	٣	١٩٨	قبل
١٦٣	٣	رجفوا	وزحفوا	١٦	١٩٩	بن لخل الكردى
١٦٤	٧	قوشى	قوش	١٨	٢٠٠	سادس عشرى
١٦٥	٨	قراقوش	قراقوش ، فكان لسانه	١٨	٢٠١	الزردلى
١٦٦	١٢	وأغذوا	وأغذوا	٢٣	٢٠٢	وحركة
١٦٧	٤	والتركيلى	والتركيلى	١١	٢٠٣	رسوله
١٦٨	١٢	السابع والعشرين	سابع عشرين	٩	٢٠٤	ثامن
١٦٩	٥	من رجب	رجب من	١٥	٢٠٥	قصصوا
١٧٠	١	التاسع والعشرين	تاسع عشرين	٦	٢٠٦	من جانب
١٧١	١	رأيه	رأيه	١	٢٠٧	المنو
١٧٢	٦	خف	خف من	١٨	٢٠٨	إلى لك المال
١٧٣	٤	والجرى	والجرى	٣	٢٠٩	(١٦٥ ب)
١٧٤	٢	كثير ، قتلوا	كثير قتلوا	٣	٢١٠	فيه

الصفحة	المطر	خطأ	ملاحظات	الصفحة	المطر	خطأ	ملاحظات
٢٠٢	١٦	ويته	ويته ، وتضم البلاد	٢١٦	٢٠	عنده	عندى
٢٠٢	١٧	وتضم البلاد بين ويته	يقع ويته	١١٩	٩	السادس والعشرون من	سادس عشرى
٢٠٢	٢٠	أن	[أن]	١١	١١	ذلك	[ذلك]
٢٠٣	٧	الأكابر	والأكابر	٢٢٠	١	قراها	قراياها
٢٠٣	٦٧	زوجك	زوجك	١٨	٤	السابع والعشرون	سابع وعشرين
٢٠٤	١٢	زوج	زوج	٢٢١	٧	وروج	وروج
٢٠٤	١٩	ومطرت (٧)	وعظمت	٢٢٣	١٧	سكنوا	سكونا
٢٠٤	٢٧	م (٧) وعظمت	يشطب هذا المادش	٢٢٤	٦	الأودية	الأوادي
٢٠٧	٣	الثامن والعشرين من	ثامن عشرى	١٨	١٨	التركيلى	التركيلى
٢٠٧	٤	مقدمة	مقدما	٢٢٥	١٣	على القلعة	على
٢٠٨	٢٠	التاسع والعشرين من	تاسع عشرى	٢٢٦	٧	حرس	حرمى
٢٠٩	١	تقدم	تقوم	٢٢٧	١٠	فاندروا	فاندروا
٢٠٩	٣	ومنها :	ومنها : أن	٢٠	٢٠	ولقدم	ولقدم
٣١٠	١٧	وطرحوا (١)	وطمروا	٢١	٢١	وكيف	كيف
٢١٠	٢١	م (١) : وطمروا	يشطب هذا المادش	٢٣٢	١٧	القاعدة	[القاعدة]
٢١١	٣	ولقدم	ولقدم	٢٣٤	١٥	وليس	وما
٢١١	١١	ولقدم	ولقدم	٢٣٧	١٠	السلطان (١١٩٧)	السلطان (١١٩٧)
٢١٢	١٥	الثالث والعشرين من	ثالث عشرى	٢٣٨	١٤	وأكابرها	والأكابر
٢١٢	٢	السادس والعشرين من	سادس عشرى	٢٣٩	١٣	سادس	[سادس]
٢١٢	١٠	السابع والعشرين	سابع وعشرين	٢٤٣	٣	نظيرا	نظيرا
٢١٢	١٩	التاسع والعشرين من	تاسع عشرى	٢٤٣	٢٢	القاضل	[القاضل]
٢١٤	١٠	السدو	[السدو]	٢٤٤	١٧	للعرفة	للعرفة
٢١٤	١٤	حمل	حمل	٢٤٥	٣	المسكوى	المسكوى
٢١٥	٦	الحجارة	[الحجر] الحيل	٢٤٦	٢٠	إلا ذلك	إلى ذلك
٢١٥	١٤	ماء معين	ما يمين في جميعها	٢٤٨	٢٣	فأصل	فصل
٢١٥	٢١	وساروا في	وساروا في	٢٤٨	١٠	عقربلا	عقربلا
٢٢٢	٢٢٢			٢٤٨	١٦	ثقيف أرنونف	ثقيف أرنون

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٤٧٧٣

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)

عزى القارئ. الكتاب الذى تقدمه لك فى هذه الحلقة من الدخائر وهو كتاب (التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)، أو (سيرة صلاح الدين) لابن شداد. يتناول فترة من التاريخ العربى الإسلامى عزيزة علينا جميعا، هى فترة حكم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، إذ تمثلت فيها حلقة من حلقات الكفاح المشرف المكمل بالنصر، ضد إحدى موجات المد الاستعماري الذى دأبت أوربا على توجيهها إلى العالم الإسلامى، وكانت فى تلك المرة موجهة باسم الدين والدين منها براء. من هذا السبب أعنى الفترة التاريخية التى يغطها الكتاب - تسبغ أهميته، كما تتبع من سسبين آخرين، أحدهما مكمل للسبب الأول، وهو انحصار الكتاب غالبا فى سيرة صلاح الدين نفسه، أما السبب الآخر فيرجع إلى عصر مؤلفه وعلاقته بموضوع الكتاب وهو سيرة صلاح الدين، إذ كان المؤلف معاصرا لصلاح الدين، ليس هذا فحسب وإنما كان من رجاله الملازمين له فى حله وترحاله، ومعاركه، وهذه أمور لها وزنها فى حساب علماء التاريخ، لما لها من دور فى ترجيح صدق الخبر والثقة بصحته.

